الحياة الاجتماعية

في ضوء السنة

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

دار المثل

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحياة الاجتماعية في ضوء السنة

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

دار المثل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ⓒ دار المثل، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصباغ، محمد بن لطفي
الحياة الاجتماعية في ضوء السنة./ محمد بن لطفي الصباغ.- الرياض ، ١٤٢٥هـ
٤٥٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٣ - ٠ - ٩٥٩٥ - ٩٩٦٠
١- الحديث جوامع الفنون - مقالات ومحاضرات ٢- الإسلام والمجتمع أ- العنوان
ديوي ٢٣٧,٣٠٨ ١٤٢٥/٦٠٢٢

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٦٠٢٢
ردمك: ٣ - ٠ - ٩٥٩٥ - ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة ©

دار المثل

الرياض – الطبعة الأولى

1425هـ - 2004م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده اللهُ فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا آله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا . أما بعد

فهذه فصولٌ كتبتها عن الحياةِ الاجتماعيةِ التي كانت في العهد النبوي الزاهر كما دلَّت عليها كتب السنة المطهرة . وكنت في عدد من هذه الفصول أوازن بين تلك الحياة الكريمة ، وبين حياة المعاصرين من المسلمين المقصّرين ومن غيرهم .

إنَّ هذه الفصول تضمَّنت صورًا مشرقة لحياة قوم كرام آمنوا بالإسلام وعملوا به ودعَوا إليه . . وقد تبيَّن منها أن المجتمع الذي أقامه الإسلام العظيم هو المجتمع المثالي الذي تتحقق فيه العدالة بين الناس ، والسعادة للفرد والأسرة ، والتعاون بين أعضاء المجتمع . . إنه المجتمع الذي لا يعتدي فيه أحد على حقّ أحد ، ولا يطغى فيه القويُّ على الضعيف ، ولا ينسى فيه الغنيُّ الفقير . . إنه المجتمع الذي يصوّره الحديث النبوي الجميل الآتي:

عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) قال قال رسول الله ﷺ :

شبكة الألوكة - قسم الكتب

«مثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

[رواه البخاري برقم ٦٠١١ ومسلم برقم ٢٥٨٦].

إنه المجتمع المتعاون المتضامن الذي يكون فيه المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص كما جاء في الحديث النبوي الجميل:

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه.

[رواه البخاري برقم ٤٨١ وبرقم ٢٤٤٦، ومسلم برقم ٢٥٨٥].

ومهمة الحاكم في هذا المجتمع المثالي توضحها خطبة أبي بكر ﷺ الآتية:

قال سيدنا أبو بكر ﷺ يوم بويع بالخلافة بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد . أيها الناس ! فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإن أساتُ فقوّموني . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أُريح عليه حقَّه إن شاء الله. والقويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ قط إلّا عمّهم الله بالبلاء .

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

[تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٦٩، وأقوال مأثورة للمؤلف ٢/ ١٦٨].

وتمثلها أيضًا كلمة سيدنا عمر ﷺ عندما وفد إليه الربيع بن زياد الحارثي ، فشكا عمر طعامًا غليظًا يأكله . فقال الربيع : يا أمير المؤمنين! إن أحقَّ الناس بطعام طيب ، وملبس ليّن ، ومركب وطيء لأنت.

فضرب عمر رأسه بجريدة وقال : «والله ما أردت بهذا إلا مقاربتي ، وإنني كنت أحسب أنَّ فيك خيرًا ، ألا أُخبرك بمثلي ومثل هؤلاء ؟ إنما مثلنا كمثل قوم سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم، وقالوا: أنفقها علينا. فهل له أن يستأثر دونهم بشيء؟ » قال الربيع : لا.

[عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٥٢، والسياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٩، وأقوال مأثورة للمؤلف ١/ ٧٩ ط ٢].

إنه مجتمع الرحمة للضعيف والصغير، والتوقير والرعاية للكبير.

إنه مجتمع العلم والتعليم. يقول الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ ﴾ [الجمعة].

* * * * *

وقد ذكرت في فصل من فصول هذا الكتاب أن هذه الدراسة يقصد منها مقصدان:

أما أولهما فعلميّ **تاريخيّ** ، نريد أن ننقل إلى القراء صورة الحياة الاجتماعية للعهد النبوي بأوثق دليل ؛ ذلكم لأن الأحاديث التي تنقل

هذه الصورة صحيحة ثابتة، يطمئن لها القلب، ويصدقها العقل.

وهذا ما لا يجده المرء في الروايات التاريخية ، التي قد يكون في رواتها ضعفاء وكذّابون ، والتي صيغت وَفق أهواء بعض الحكام الذين كانوا معاصرين للمؤلّف ؛ فخفيت الحقيقة . ونحن نرى في عصرنا كيف سُمِّيت الهزيمة نصرًا ، والظلم عدالة ، والعبودية حرية . إنْ يقولون إلا كذبًا .

إن طريقة التّثبت التي اعتمدها المحدّثون هي الطريقة المُثلى في نقل الأخبار ؛ فهم لا يصححون حديثًا إلا بعد النظر في الرواة ومعرفة أحوالهم الأخلاقية ومعرفة قوة ذاكرتهم أو ضعفها ، ومعرفة درجة التزامهم وقيامهم بالواجبات الدينية ، وبعدهم عن المحرمات التي حرّمها الله تبارك وتعالى . وإلا بعد النظر العميق في معنى الحديث وموازنته بالأحاديث الصحيحة الأخرى التي في موضوعه ، فقد قرروا أن مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه تجعل الحديث ضعيفًا . . . إلى غير ذلك من القواعد .

وأما **المقصد الثاني** فمقصد توجيهي تربوي دعوي ينادي المسلمين المعاصرين: أولئك آباؤكم . . هكذا كانت حياتهم . . فسادوا الدنيا وقادوها إلى الخير والسعادة، فهلا اقتديتم بهم . . إن ذلكم لو فعلتموه لخلّصكم مما أنتم فيه من الوهن والتعرّض للعدوان، وهو يحميكم من نار الله الموقدة يوم القيامة.

* * * * *

وفي هذه الفصول بيان لعظمة هذا الدين الحنيف، ودعوة للناس جميعًا إليه ، ولا سيما للمظلومين المسحوقين المضطهدين الذين يتطلعون إلى طريق الخلاص ويبحثون عنه ولا يجدونه . . يُقال لهم : إنه الإسلام العظيم إذا آمنتم به وعملتم بأحكامه فستكون حياتكم الاجتماعية على هذا المستوى السامي الرفيع . أما إذا أعرضتم فستبقون فيما أنتم فيه من الشقاء والضنك والشقاق والمهانة . ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى .

قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤].

وقال: ﴿ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [طه].

* * * * *

كتبت هذه الفصول في أوقات على مدى سنوات، وقد أذيع كثير منها من إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية.

وأقدمها للطبع في هذه الأيام التي يتعرض فيها المسلمون في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان وغيرها إلى ألوان من القتل والذبح والتنكيل وتخريب البيوت، وتجريف الأراضي الزراعية ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [البروج]. يفعل ذلك اليهود في فلسطين، والنصارى الأمريكان في العراق، وعُبَّاد البقر في الهند وكشمير، وليس للمسلمين عمل في مستوى الأحداث، ولا يرتفع

صوت إنكار ولا احتجاج لا في الدول الإسلامية، ولا في الهيئات الدولية ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف].

وأسأل الله العلي القدير أن يرد كيد هؤلاء الأعداء في نحورهم ، وأن يكتب الفوز والنصر لإخواننا المسلمين وما ذلك على الله بعزيز .

* * * * *

وأحب أخيرًا أن أذكر بالثناء والشكر الأستاذين عمر الحفيان وزياد تكله اللذين كان لهما الفضل في أن يرى هذا الكتاب النور ؛ فقد كانا يحضَّان على إخراجه ، ويلحَّان في ذلك حتى استجبت لطلبهما ، وحمل الأستاذ عمر - مشكورًا - أصول الكتاب إلى مصر، وصُفَّ هناك ، وساعد هو في التصحيح جزاه الله خيرًا ، وأحب أن أسجل أيضًا جهود ولدي المهندس لطفي وزوجته وجهود بنتي سلمى في التصحيح. جزاهم الله جميعًا الخير وأحسن إليهم.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه محمد بن لطفي الصبَّاغ
الرياض الأربعاء في ٢٢ شعبان سنة ١٤٢٥هـ
الموافق ٦ تشرين أول (أكتوبر) ٢٠٠٤م

الحياة الاجتماعية في ضوء السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة الاجتماعية في ضوء السنة

١- السُّنةُ المطهرةُ هي المصدرُ الثاني في شريعتِنا الإِسْلاميةِ العظيمة، وعليها يقومُ جزءٌ ضخم من كيانِ الشَّريعةِ.

فمكانتُها رفيعةٌ عظيمةٌ، ولها قوةٌ تشريعية مُلزمة، يقولُ الله تعالىٰ:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النُّور] ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ٨٠]

وفي الكتابِ والسُّنة نظامٌ رائع للحياةِ الاجتماعيةِ، ما أجدرَ الإنسَانية بأنْ تهتديَ إليه وتسيرَ علىٰ نهجه، وهو ما سنحاولُ أن نكشفَ عن جوانبَ منه في هٰذا البحث.

٢- يُعنَىٰ المشتغلونَ في تاريخِ الحضارةِ برسمِ معالم الحياةِ الاجتماعيةِ لأمَّةٍ ما في عصرٍ مِنَ العصورِ، ويُعْنَوْنَ بتحليلِ الظواهرِ الاجتماعية التي تقومُ في حياةِ تلك الأمةِ ودراستها، ويَشْكُون مِنَ الفقرِ المُدْقع في الأخبارِ التي تدلُّ علىٰ جوانبِ الحياةِ الاجتماعيةِ والفِكرية في كتبِ التاريخ؛ ذلكَ لأنَّ المؤرِّخينَ اسْتَهوتهم أخبارُ الملوكِ والقُوَّادِ والمعاركِ، وأهملوا ذِكْرَ الجوانبِ الأخرىٰ التي أشرْنَا إليهَا.

مِنْ أجلِ ذلك؛ كان الباحثونَ يَعمدونَ إلىٰ استنطاقِ الآثارِ من مبانٍ وما عليها مِنْ: كتابات، ورسومٍ، وأدوات، وآنيةٍ يعثرونَ عليها في حفرياتهم، وبقايا ملابس، وأخبارٍ موضوعة مكذوبة يجدونها في

كتب الأدبِ، ومِنْ أسَاطير متناقلة، يحاولون بالاعتمادِ علىٰ ذلك كلِّه رسم معالم الحياة الٱجتماعيةِ والفِكرية للعصرِ الذي يريدون دراسته. وليس مِنْ شكٍّ في أنَّ كثيرًا من النتائج التي يتوصَّل إليها أولئك الباحثون هي محلٌّ نظر كبير.

٣- أمَّا نحنُ في دراستنا هٰذه للحياةِ الٱجتماعيةِ في عصر النبوَّةِ فإننا نختلف عن أولئكَ الباحثينَ ٱختلافًا بيِّنًا؛ ذلك لأنَّ كتب السُّنةِ والسيرةِ قدَّمتْ لنا المادةَ الوفيرةَ الغزيرة الموثوقة الثابتة، التي تضعُ بين أيدِينا صورةً متكاملةً، واضحة المعالمِ، علىٰ وجهٍ لا نجدُ له نظيرًا في الدراساتِ الأُخْرىٰ المماثلةِ.

٤- لقدْ ذكرتْ كُتُبُ السُّنةِ والسيرةِ التفاصيلَ الدقيقةَ لحياةِ النبيِّ ﷺ قدوتِنا وأسوتِنا الذي هو أعظمُ رجلٍ عَرَفته الإنسانيةُ منذُ أنْ بَرَأَ الله الوجودَ إلىٰ يومنا هٰذا، ولن تعرفَ في المستقبلِ مثلَه أبدًا إلىٰ أنْ يرثَ الله الأرضَ وما عليها؛ لأنه ﷺ خاتمُ النَّبيين، والمَثَل الكامل للإنسان.

كما قال الشَّاعرُ:

لم يَخْلُقِ الرحمنُ مِثْلَ محمدٍ أبدًا وعِلْمي أنَّه لَا يَخْلُقُ

«بلَّغ الرسالةَ، وجاهدَ في الله حقَّ جهاده، ونصحَ الأمةَ، وعبدَ ربَّه حتىٰ أتاه اليقينُ، فهو أفضلُ الخلقِ، وأشرفُ الرُّسل، نبيُّ الرحمةِ، وإمامُ المتقين، وحاملُ لواءِ الحمدِ، وصاحبُ الشَّفاعةِ والمقام المحمود، والحوضِ المورود، آدمُ فمنْ دونه -يومَ القيامةِ- تحتَ لوائِه، فهو خيرُ الأنبياء، وأمتهُ خيرُ الأمم، وأصحابُه أفضلُ الناسِ بعدَ الأنبياءِ، ومِلَّته أشرفُ المِللِ، لهُ المعجزاتُ الباهرةُ،

والخُلُقُ العظيمُ، والعقل الكاملُ الجسيم، والنسبُ الأشرف، والجمالُ المطلق، والكرم الأوفرُ، والشجاعةُ التَّامَّةُ، والحلم الزائدُ، والعلمُ النافع، والعمل الأرفعُ، والخوفُ الأكمل، والتقوىٰ الباهرةُ، فهو أفصحُ الخَلْقِ، وأكملُهم في كلِّ صفاتِ الكمالِ، وأبعد الخلقِ عنِ الدناءاتِ والنقائص»[(١)].

أورَدَتْ هاتيكَ الكتبُ الأحاديثَ التي تصفُ نومَهُ ويقظته، وأكلَه وشربه، وضحكَه وبكاءَه، وحزنَه وفرحَهَ، ولباسَه، وأخلاقَه وشمائلَه، وخَلْقَهُ وخُلُقَهُ، ومعاشرته زوجاته وأولاده، ومعاملته أصحابه وأعداءه، وأحوالَه في السلمِ والحرب، والصحةِ والمرضِ، والعبادة والقضاء، وإدارة شؤون الدولةِ وما إلىٰ ذلك.

وذكرتْ كُتُبُ السُّنةِ الأحاديثَ التي تتضمنُ الأحكامَ التفصيلية لشؤونِ الحياةِ الأجتماعيةِ كلِّها منْ: طَهارةٍ، وصَلاةٍ، وزَكاةٍ، وصِيامٍ، وحَجٍّ، وبَيعٍ، وشِراءٍ، وحَوالةٍ، ووَكالةٍ، وشَركةٍ، ومُزارعةٍ... ونحو ذلك.

إنَّ في كتب السُّنَّةِ المطهرة بيانًا شافيًا للحياةِ الأجتماعية المُثْلىٰ التي يُقيمُها الإسلامُ، وهي معروضةٌ بأسلوبٍ جذَّاب رائع واقعيٍّ حيٍّ، وفيها لوحاتٌ فنِّيَّة جميلة تُبرزُ المعاني المجرَّدة التي تقومُ عليها الحياةُ الكريمة بصورةٍ حسية معبرةٍ مبينة.

٥- إنَّ المرحلة التي تمرُّ بها أمتُنا الإسلامية في هٰذا القرنِ الخامس عشر مرحلةُ تحوُّلٍ خطيرة جدًّا؛ إذْ تتعرضُ إلىٰ التأثرِ بأوضاعٍ أجتماعيةٍ غريبة عن بيئتنا ومُثُلِنا، وإلىٰ غزوٍ فِكري مزوَّدٍ

---

(١) مقتبس من كلام الدميري في «حياة الحيوان» ١/ ٤٧.

بوسائلَ حضارية ضخمة، وطاقات هائلة معنوية ومادية، وهنا تتجلّىٰ مسؤوليةُ قادةِ الفكرِ، ورجال الإعلامِ، وأُولي الأمرِ، وأهلِ العلمِ، إنَّ عَليهم أنْ يُعرِّفوا الناس بحقيقةِ النظامِ الٱجتماعي العظيمِ الذي يقيمُه دينهُمْ، وإذا وفِّقوا في هٰذا التعريف ٱستجاب الناسُ لهم.

إنَّ أيَّ عاقلٍ يعلمُ ما يدعو إليه الإسلامُ في نطاقِ الحياةِ الٱجتماعية؛ لا يمكنُ أنْ يتردَّدَ في قبولهِ والاستِمسَاكِ به مهما كان رأْيه، فكيفَ إنْ كان مُسْلمًا؟!

إنَّ هٰذا النظامَ الٱجتماعي يقومُ علىٰ الطهارةِ، وإحقاق الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ، وتحقيقِ العدالة، ومحو البؤسِ والحرمانِ، ونشرِ العِلمِ والمعرفة والصحة، واستئصالِ شأفةِ المرضِ والفقر والجهلِ والظلمِ.

٦- ولذا كانت مهمةُ هٰذا البحثِ تسليطَ الضوءِ علىٰ معالمِ الحياةِ الٱجتماعية في الإسلامِ كما تُصورها كُتُب السُّنةِ، وإنَّا لنرجو أنْ يسهمَ تحقيقُ هٰذه المهمةِ في تعريفِ الناسِ بالنظامِ الٱجتماعي الإسلامي، فمعرفةُ الشيء والاقتناعُ بجدواه يقودانِ إلىٰ تطبيقهِ والعملِ بمقتضاه.

٧- إنَّ رصيدًا ضخمًا منَ المعاني والعاداتِ الٱجتماعيةِ الإسلاميةِ ما تزال تقومُ في بلادنا، ونحنُ بحاجةٍ إلىٰ المحافظة عليها والاستمساك بها، واستكمال ما فات من تلك المعاني، إننا -علىٰ الرُّغم من نواحي الضعفِ الكثيرةِ التي نشكو منها- نفوقُ الغربَ في عاداتنا الٱجتماعية، وعلاقاتنا الأُسْريَّة.

إنَّ كثيرًا من القيم السَّامية التي غرسَها الإسلامُ في نفوسنا ما

تزالُ قائمةً من: الحياءِ، والتعاون، والرحمةِ، والبرِّ، وإغاثةِ الملهوفِ، والكرمِ، والإيثارِ، وما إلىٰ ذلك، وقد ٱخْتَفَتْ هٰذه المعاني من حياةِ القومِ هناك في الغربِ.

٨- إنَّ هٰذا الرصيدَ من المعاني والعاداتِ هو الذي يمنحنا الأصالةَ والتَّمَيُّزَ، وبهما نشعرُ بِهُوِيَّتِنَا، إنَّ الله أرادَ لنا التميز عنِ الكفارِ، إنَّ لنا نظرةً خاصةً عنِ الكونِ، والخالقِ، والحياةِ، والإنسانِ، إن دينَنَا يحكمُ سلوكَنا، إننا أُمَّةٌ ذات رسالةٍ وحضارة.

٩- إنَّ عَرْضَ الحياةِ الٱجتماعيةِ في الإسلامِ كما جاءتْ في كُتُبِ السُّنةِ دعوةٌ إلىٰ المسلمينَ، ليحافظوا علىٰ ما يلمسُونَه منها في مجتمعاتهم، وإغراءٌ لهم بإقامتها، ودعوةِ الناسِ إليها؛ لأنهم يَدْعونهم إلىٰ السعادة، والطهارةِ، والسموِّ، والخير، والحقِّ، والعدالةِ.

وسيكونُ تأثيرُ هٰذه الدعوة كبيرًا عندما يربطونها بشخص نبيِّنَا وحبيب قلوبنا سيدنا رسول الله ﷺ.

إنَّ حبَّ النبيِّ ﷺ مغروسٌ في أعماقِ نفوسِ السَّوَادِ الأعظمِ من هٰذه الأمةِ علىٰ تقصيرها وبُعدها أحيانًا عن دائرةِ التدينِ.

ليس هناك كلامٌ أقوىٰ تأثيرًا من الكلامِ الذي يعتمدُ فيه قائله علىٰ ما جَاء في كتابِ الله وسنَّة رسوله ﷺ لا سِيَّما إنْ كان هٰذا القائلُ عاملًا بما يقولُ، متلطفًا بإلقاءِ كلامه، محسنًا لاقتناصِ الفُرَصِ، إنَّ لأقوالِ النبيِّ ﷺ، وحكاية أمورِهِ، وأحوالِ أصحابه مكانةً في نفوسِ المسلمين تبعًا للمكانةِ العُظمىٰ التي لهٰذا الرسولِ الكريم عند المسلمين.

١٠- إنَّ دراسةَ الحياةِ الٱجتماعيةِ من خلالِ كتبِ السُّنة تُوقِفنَا علىٰ واقعِ الناس في العصرِ الإسلامي الأوَّلِ، وتعطينا صورةً معبرة ناطقة عن أخلاقِ الناس، وتعاملهم، وطرقِ كسبهم، وعن مآكلهم وملابسهم، وعن الحياةِ الٱقتصادية لمجتمعهم، والحياةِ الفكرية، وعن الحياةِ (العائلية)، وعن المُثلِ العليا التي يؤمنونَ بها كيفَ تتجلَّىٰ في حياتِهم وتظهرُ، وعن موقفهم من أعدائهم، وكيف كانوا يعاملونَ مَنْ يُخالفهم في الدِّينِ.

١١- إنَّ هٰذه الدراسةَ تحقق غرضًا جليلا، وهو محاولةُ التأسِّي بتلك الصُّورةِ المشرقةِ منْ قِبل الذينَ تأثروا بها وأُعْجبُوا بها، نعم، لو ٱستطعنا أن نحصُل مِنْ خلال هٰذه الدراسة علىٰ صورةٍ متكاملةٍ للحياة من خلالِ كُتُبِ السُّنةِ، لكان ذلك نموذجًا رائعًا ندعو الناس إلىٰ تطبيقه بعد أن نعمل به ونحييه.

إن مكانة الرسول ﷺ والصحابة في نفوس المسلمين -كما قلنا- مكانة كبيرة جدًّا، وحبهم للرسول ﷺ ولأصحابه حُبٌّ عميق متأجِّج، ومن هنا فإنهم متطلعون إلىٰ معرفةِ الكثيرِ عن حياتهم، وإنهم عندئذٍ سيتأثرون وسيعملُون.

ومِنْ فَضْلِ الله علينا أنَّ حياة الرسولِ ﷺ قد نُقلت بدقائقها وخصوصياتها، فما من رجلٍ في الدُّنيا نُقلتْ أخبارُه وأقوالُه وأفعالُه بتصويرٍ دقيقٍ كما كان ذلك بالنسبةِ إلىٰ رسولِ الله ﷺ، وكذلك فإنَّ كلَّ ما يتعلقُ بعصره قد نُقل نقلا دقيقًا حيًا.

وإننا بحاجةٍ إلىٰ أن نبرز هٰذه الصورة؛ لأنَّها صورةٌ مشرقةٌ فيها الحقُّ كلُّه، وفيها العدالةُ والخيرُ، والخُلقُ الكريمُ، والرحمةُ، والعطفُ، وعلاجُ أمراض الإنسانيةِ.

١٢- إن كُتب التاريخِ أغْفَلت هٰذا الجانبَ من حياةِ القومِ الذين تتحدثُ عنهم، وعُنيت بأخبارِ الحكامِ والحروبِ والحركات السياسيةِ.

أما كُتُب السُّنة فقد بيَّنت في الرواياتِ المتعددة التي أوردتها أوضاعَ الناسِ المعاشيةِ والاجتماعيةِ في عصرِ صدرِ الإسلام، وأيام الخلفاءِ الراشدين، والصحابة، ثم التابعين.

إن التطورَ الشديدَ الذي واجهناه في القرنِ الماضي -القرن الرابع عشر- لم تشهد أمتنا نظيرَهُ فيما سبقَ من الأيام، وينطوي علىٰ جوانبَ إيجابيةٍ، وأخرىٰ سلبيةٍ، ونحن -إزاءَ هٰذا الواقعِ- بحاجةٍ إلىٰ أن نتذكَّر هُويتنا، ومقومات أمتنا وخصائصها، ومما يساعدُ علىٰ ذلك إبراز صورةِ الحياةِ الاجتماعيةِ التي كان عليها رسولُ الله ﷺ والسلفُ الصالح من هٰذه الأمةِ.

إن كُتُبَ السُّنةِ التي نَجِدُ فيها هٰذه الصُّورة لهي أصدقُ المصادر؛ بسبب التوثيق الذي نَجَمَ عن تطبيق عِلْمِ المصطلحِ، فما حكم عليه علماءُ هٰذا الفن بالصحةِ من الروايات كان صحيحًا حقًّا، تطمئنُّ النفسُ إليه، ويستطيعُ الباحثُ أن يستنبطَ منه ويبني عليه بحثَه.

وهناك مصادر أخرىٰ لكنَّها لا تصلُ إلىٰ مستوىٰ كُتُبِ السُّنةِ من حيثُ تحرِّي الصحة والتَّوَثُّقِ، ومن حيثُ تعرُّضُها إلىٰ عصرِ النبوةِ والخلافةِ الراشدةِ، فكُتُب السنة متفردةٌ في هٰذا المجالِ لا يشاركُها فيه غيرُها.

إنَّ من المصادرِ التي يمكن أن تمدَّنا بمعلوماتٍ وحقائقَ عن الحياة الاجتماعيةِ لأمتنا في العصور التي تلت: كُتُبَ تراجم الرِّجالِ، وهٰذه الكتب ذات صلةٍ وثيقة بعلوم السُّنةِ، بل هي من كُتُبِ علوم الحديثِ كما هو مقررٌ، ولٰكن العلماءَ الآخرين في تخصصاتٍ أخرىٰ

نَهجوا نَهج المحدِّثين، فكتبوا كُتبًا في تراجمِ علمائهم، فوجدنا: طبقات الأطباء، وطبقات الشعراء، وطبقاتَ النحويين، وطبقات المفسرين، وطبقات القُرَّاء، وطبقات الشافعيةِ، وطبقات الحنابلةِ... ونحو ذلك.

إن في هٰذه الكتب أخبارًا تدلُّ علىٰ طبيعة الحياة الاْجتماعية للناسِ في تلك العصور.

ومن المصادر: كُتُبُ الفقه المطولة؛ ولا سيما كُتُب الفتاوىٰ التي تعرضُ لحالاتٍ واقعةٍ، ثم تَذكُرُ حُكم الدِّين فيها (كما تَبيَّنَ للعَالِمِ صاحب الفتوىٰ).

ونودُّ أن نقرر أن هٰذا اللون من المؤلفات لم يتوقَّف في عصر من العصور؛ لأنَّه متصلٌ بحياةِ الناس، وكذلك الشروح والحواشي التي أُلِّفتْ حول هٰذه الكتب.

ومِن المصادرِ التي تعطينا صورةً حيَّةً عن الحياة الاْجتماعيةِ في العصورِ السابقة: كتبُ الحِسْبَةِ التي تصور الأوضاع الاْقتصادية والمعاشية المختلفة.

ومن المصادرِ التي يمكنُ أن تكونَ ذاتَ قيمةٍ كبيرةٍ في الحياة الاْجتماعية: الكُتُبُ التي تشبه ما عُرف بالمذكرات، ومن ذلك: كتاب «الاعتبارُ» للأمير العالم: أسامة بن منقذ، وكتابُ «المنقذ من الضلال» للإمام أبي حامد الغزالي، وكتاب «صيد الخاطر» للإمام ابن الجوزي.

ومِن ذلك: الكُتبُ التي تعرَّضت لتراجم رجال قَرْنٍ من القرون: ككتابِ «الدُّرر الكامنة في أعيان المِئة الثامنة» لابن حجر، وكتابِ «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسَّخاوي، وكتابِ «الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة» للغزي، وكتابِ «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمجبي، وكتابِ «سَلْك الدُّرر في

أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي، وكتاب «حِلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر»[1] للشيخ عبد الرزاق البيطار.

وهناكَ كُتُبٌ أخرىٰ ربما لا تندرجُ تحت عنوانٍ واحد تفيد في تقديم معلوماتٍ عن الحياة الاْجتماعية أَذكُرُ منها مثلا : كتاب «معيد النعم» للسُّبكي، وأذكر منها كُتبًا في الأدب: كالمقامات وغيرها، مع الحذر من المبالغات التي قد تجدها فيها.

ومن المصادِرِ المهمة: كتب الرحلات: كرحلة ابن جُبير، ورحلة ابن بطوطة وغيرهما.

إنَّ هٰذه المصادر تُعينُ علىٰ إعطاء الدارس صورةً حية عن واقع الناس وعاداتهم وملابسهم وأفراحهم وأحزانهم، وعن المذاهب الفكرية التي كانت في عصورهم.

إنها جميعًا مصادر ذات قيمة كبيرة في بيان الحياة الاْجتماعية، ولكنها لا تبلغ ما بلغته كُتُبُ السُّنة من التحقيق والتوثيقِ.

إن الغزوَ الفكري الذي يتعرضُ له المسلمون يمكن أن نَحدَّ مِن غُلَوَائِه بأن نعرضَ علىٰ أبنائنا الصورةَ المشرقة الحقيقية التي لا نبتدعها، ولكننا نكشفُ عنها وهي صورة المجتمع النبوي.

إن معرفة الحياة الاْجتماعية للناس في العصورِ المختلفة علىٰ حقيقتها لَيدل علىٰ أن هٰذا الإسلام دين لا يُقهر، قد يتغلَّبُ علىٰ الحكم في حينٍ من الدهر عناصر أجنبية سيئة، ولكن ذلك لم يستطعْ

(١) ذكر عمر كحالة في «معجم المؤلفين» ٩/ ١٦١ أن الشيخ محمد جميل الشطي ألف كتابًا بعنوان: «روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر» وأنه ألَّف كتابًا عنوانه: «تراجم أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر» وكتب لهٰذا الكتاب الأخير مقدِّمةً نافعةً أستاذُنا الشيخ: محمد بهجت البيطار.

أن يحملَ الناسَ علىٰ أن يغيروا عاداتهم وقِيمهم.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ٢١].

الحياةُ الاجتماعية التي قامتْ في عهد النبوة وصدرِ الإسلام هي الحياةُ التي يتطلعُ إليها كلُّ إنسانٍ منصف في هٰذا الوجودِ.

وسنرىٰ -إن شاء الله- معالمَ هٰذه الحياةِ فيما نستقبلُ من هٰذه البحوث، ويحسنُ بنا أن نذكرَ أهم المعالم التي ستتبعها في هٰذه البحوث:

١- سنختارُ النصوصَ الصحيحة الثابتة من السُّنة المطهَّرةِ، وندعُها تعرِضُ هي تلك الحياة السامية الطاهرة، وسنحللها تحليلا يقربها إلىٰ الأذهان والتصورات المعاصرة.

وما أعظم النتائج التي تقود إليها الوثائق الصحيحة؛ ذلك لأنَّ عملية التصفية والغربلة التي قام بها علماء الحديث أبعدت من دائرة الصحيح كلَّ سقيمٍ وشائبة، ولقد عملتُ خلال أربعين سنة في كتب الحديث والأدب والتاريخ، فتبيَّن لي الفرقُ الواضح الجليُّ بين الحقائقِ التي ينتهي إليها المحدِّثون والدارسون الذين يعتمدون ما صحَّ من الحديث، وبين ما يزعمه بعضهم أنه من الحقائقِ التي يستندونَ في تقريرها إلىٰ رواياتٍ ضعيفة متهافتة، وجدوها في كتب الأدب والتاريخ، وكثير منها موضوعٌ مكذوبٌ.

٢- وسَنَدْعَمُ هٰذه الحقائق بأوثقِ نصٍّ في الوجودِ، وهو كتاب الله ﷻ، هٰذا الكتاب الذي تولَّىٰ الله حفظه، فنُقل إلينا كما أُنزل دون زيادة ولا نقصانٍ، وذلك من فضل الله علينا وعلىٰ الناس جميعًا.

٣- وآياتُ الكتاب الكريم وأحاديث النبيِّ العظيم ﷺ حظيت باهتمامٍ يفوق كل تصور، وأجزمُ أنه ليسَ هناكَ كتابٌ لقي من العناية والاهتمام والخدمة والحفظ والدراسة والشرح، ونحو ذلك، ما لقيه القرآن الكريم.

والسُّنة المطهَّرة حظيتْ بعلماء أعلامٍ وقفوا حياتَهم علىٰ خدمة هٰذه السنة، وتنقيتها من الشوائبِ الدخيلة، ووَضْع القواعد الموضوعيةِ التي تحقق الطمأنينةَ بوثوق النص وثبوتهِ.

٤- وسنستعينُ بفهم علماء الإسلام وأئمته المتقدمين لهٰذه النصوص؛ ذلك أن فهم هٰؤلاء العلماء الذين جمعوا إلىٰ تمكنهم من العلم وتبحُّرهم فيه كونهم يعيشون في ظلِّ دولة الإسلامِ التي كانت الدولة العُظمىٰ في الأرض، فلم يكونوا مغزوِّين بحضارةٍ كافرة غريبة، ولم يكونوا مستضعفين أمام القوىٰ العالمية الأخرىٰ، وهٰذا أمرٌ مهم له قيمته في البحث العلمي.

هناك فرق كبير بين من يكتبُ في الأمور الاجتماعية وهو يحسُّ أنَّه من أمَّةٍ مهزومة متخلِّفة، تَضَعْضَعَت ثقتُها بنفسها، وكادتْ تضيِّعُ هويتها، وبين من يكتبُ وهو من أمةٍ تحكمُ العالم المعمورَ المتمدن، وقد بلغتْ من التقدم العلمي أعلىٰ درجاته في عصرها الذي تعيشه، وهي محتفظةٌ بهويتها التي تميزها عن كل أُممِ الأرضِ.

ومن هنا كانتْ استعانتنا بفهم العلماء لنصوص الكتاب والسُّنةِ التي تُصوِّر الحياةَ الاجتماعية الإسلاميةَ المطلوبة والقائمة شيئًا مهمًّا يجعلنا نطمئنُّ إلىٰ صحة النتائجِ التي تبدو لنا من دراستنا.

٥- وممَّا سنحرصُ عليه في بحثنا للحياة الاجتماعية في ضوء

السنةِ إدراك المتحولات في مجتمعاتنا، والأوضاعِ الجديدة الطارئة؛ ذلك لأنَّ القرنَ الماضي من أكثر القرون تعرضًا لتطورٍ ضخم في حياة أبنائِهِ الاْجتماعية.

إن الحياة الاْجتماعية في بلادنا في القرن الثاني عشر مثلا لا تختلفُ إلا قليلا عن حياة أسلافنا فيما مضىٰ من القرونِ.

وهٰذا التحولُ الذي حدث في القرن الماضي عملَتْ علىٰ إيجاده عواملُ متعددةٌ من فِكرية وسياسيةٍ وتقنية. فتسربُ النزعاتِ الفكرية المنحرفة الهدامة إلىٰ ديارِ المسلمين، والقضاء علىٰ دولة الخلافة الإسلامية، وظهور المخترعات الحديثة التي تعتمد غالبًا علىٰ الكهرباء والبترول: كالسيارات، والطيارات، والمسجلات، والغسالات، والثلاجات، والمكيفات، والهاتف، والبرق، والكمبيوتر، والفاكس، والتلكس، والمذياع، والتلفاز، وما إلىٰ ذلك، كان له أثره الفعال في الحياة الاْجتماعية.

وهٰذه المخترعاتُ التي ذكرناها تُحقق للإنسانِ رفاهية تامة، وقدرة عالية علىٰ إنجاز أمور كثيرة في وقت يسير دون عناء، وهناك إلىٰ جانب هٰذه المخترعات آلاتُ الحرب المدمرة من أسلحة متطورة، وقنابل نووية، وهيدروجينةٍ، وجرثوميةٍ، ومن طائراتٍ حربية متقدمة، وغواصاتٍ، ومدافعَ ذات خصائص فعالة.

إنَّ هٰذا التحولَ الاْجتماعي سيكونُ في تصورنا ونحن نعرض الحياة الاْجتماعية الإسلامية، فهناك للأوضاعِ الطارئة سلبياتٌ ومخاطر لابدَّ من التنبه لها، والتحذيرِ من تفاقم خطرِها.

٦- وسنحرصُ -إن شاء الله- علىٰ الوضوح في التعبير وسهولته

شبكة الألوكة

ما ٱستطعنا إلىٰ ذلك سبيلا، والوضوحُ صفةٌ يجبُ أن تتحقق في أيِّ كلامٍ ينشر علىٰ الناس عامَّة، فكلما كان الكلام واضحًا مفهومًا كان النجاح في الإبلاغ كبيرًا، وكان أداؤه لمهمته تامًّا.

ومنْ هنا سنحاول تبسيط المسائل الٱجتماعية المعقدة المركبة، فليست هناك قضيةٌ ٱجتماعية تعودُ إلىٰ سببٍ واحد؛ إذ العلاقاتُ الإنسانية متشابكة تبدأ من داخل النفسِ، وقد تضربُ في الأعماقِ متأثرة بعواملَ وراثيةٍ بعيدة، وتتأثر بالعواملِ الٱقتصادية والفكريةِ والسياسية والعسكرية، ومما يساعدُ علىٰ الوضوح ضربُ الأمثلة الواقعية التي تقومُ في حياة الناس الحاضرة.

٧- ونحسبُ أن في عرضِ الحياة الٱجتماعية في ضوءِ السُّنَّةِ ومقارنتها بالأوضاعِ الحاضرة خدمةً للمشكلات القائمة، إذ سيكون ذلك بمثابة تقديم العلاج للمريضِ الذي يعاني من داءٍ وَبيلٍ، وبمثابة تقديم الحل للمشكلة التي ٱستعصتْ علىٰ الحلِّ.

لا سيَّما وأن كثيرًا من الناس قد جرَّبوا ألوانًا من الحلول، فلم يصلوا إلىٰ نتيجةٍ، بل زادت المشكلة تعقدًا وتأزمًا، لقد جربوا القوميةَ، والنزعةَ الوطنية، والاشتراكيةَ فلم يجدوا في كل هٰذه التجاربِ المريرة علاجًا ولا حلا، وها نحن أُولاءِ نشهدُ بأمِّ أعيننا أن النظريةَ الشيوعية بعد أكثر من سبعين عامًا من الحكم قد سقطتْ وهُدمت بأيدي رجالها الذين ٱكتشفوا إخفاقها، فذهبوا يُعلنون فسادَها وعجزَها عن القيام بما كانوا يأملون منها. و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣].

لقد كان الغرضُ من هٰذه الدراسة مزدوجًا:

فأمّا الغرض الأول: فقد كان علميًّا وذلك بتقديمِ صورةٍ حيَّةٍ موثَّقةٍ ناطقةٍ عن الحياة الاجتماعيةِ بكثيرٍ من جوانبها المختلفةِ عن العصر الذي يقولُ فيه رسول الله ﷺ:

«خيرُ الناسِ: القَرْنُ الذي أنا فيه -أو قرني- ثمَّ الذين يلونهم، ثمَّ الذين يلونهم»[١].

وأما الغرضُ الثاني: فقد كان توجيهيًّا؛ ذلك لأنَّ عَرْضَنا للحياةِ الاجتماعية من خلال السُّنَّة عرضٌ للمنهج النبوي الذي اختطَّه الرسول للمسلمين فعملوا به، فرسولُ الله هو الأُسوةُ الحسنة للمؤمنين. قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

إنَّ وضوح الصورةِ عن العملِ المطلوبِ القيامُ به وهو الخطوةُ الأُولىٰ لأدائهِ علىٰ وجه سليم.

وسيجدُ القارئُ -إن شاء الله- من الحقائقِ عن ذاك المجتمع ما لا يجده في كتبِ التاريخ.

إنَّنا سنقفُ علىٰ هٰذه الأخبارِ التي تشعرنا أننا نحيا مع الصحابةِ رضوان الله عليهم، نبصر حركاتِهم، ونسمع نأماتِ[٢] أصواتهم، ونتبيَّن حقيقة حياتهم الطاهرة، وأرجو أن يغرينا ذلك بالعملِ علىٰ الاقترابِ من تلك الحياة الفاضلةِ.

---

(١) رواه البخاري(٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥)، ومسلم (٢٥٣٣، ٢٥٣٥)، وأحمد ١/ ٣٧٨، ٤١٧، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤/ ٤٢٦، وغيرهم كثير من حديث عبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين ﭬ.

(٢) النأمة: صوت خفيٌّ، أو ضعيف. «القاموس».

لقدْ نقلَ الإسلام العظيمُ الأمَّةَ الأمِّيَّةَ من ظلام الجهلِ، والشرك، والتخلُّفِ إلىٰ أن تكون أمة العلمِ، والتوحيدِ، والتقدمِ، والحضارة، وجعلَ كلمتها هي العليا وجعل لها السيادةَ وقيادةَ الدنيا ما كانت مستمسكةً بهٰذا الدين العظيمِ.

مجتمع العقيدة

إن المجتمع الإسلاميَّ كما تعرضه كُتُبُ السُّنة هو مجتمع العقيدةِ. . إنَّ الإسلام العظيم انتقل بالعرب من حال إلىٰ حال.

يُصوِّر لنا هٰذا الأنتقالَ عددٌ من الأحاديثِ النبوية، منها: حديثُ جعفر ابن أبي طالبٍ ﵁ عندما عرض علىٰ ملكِ الحبشة مبادئَ هٰذا الدين ولَخَّصها أفضل تلخيصٍ.

قال جعفرُ: «أيُّها الملك، كُنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبدُ الأصنامَ، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحشَ، ونقطع الأرحامَ، ونسيءُ الجوار، يأكل القويُّ منا الضعيفَ، فكنَّا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولا منَّا، نعرفُ نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلىٰ الله؛ لنوحِّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونهِ، من الحجارة والأوثانِ، وأمرنا بصدق الحديثِ، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماءِ، ونهانا عن الفواحشِ، وقول الزورِ، وأكلِ مال اليتيم، وقذفِ المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدَّد عليه أمورَ الإسلام) فصدَّقناه، وآمنَّا به، واتبعناهُ علىٰ ما جاء به، فعبدنا الله وحده ولم نشركْ به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردُّونا إلىٰ عبادة الأوثان من عبادة الله ﷻ، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث،

فلما قهرونا وظلمونا وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلىٰ بلدِك، واخترناك علىٰ مَن سواك، ورغبنا في جوارِك ورجونا ألا نُظلَمَ عندك أيها الملكُ»[1].

إنَّ حديثَ جعفر هٰذا تصويرٌ دقيق لهٰذا المجتمع الإسلاميِّ الجديد، ولانتقالهِ من الشرك، والانحراف، والظلم، إلىٰ التوحيدِ، والفضيلةِ، والعدلِ، وتصويرٌ لموقف الكافرين من هٰذا الدينِ، فلقد كفروا به وحاربوا المؤمنين بكل طريقةٍ، حتَّىٰ اضطروهم إلىٰ ترك ديارهم، وتصويرٌ لموقف الذين آمنوا وعملوا بمقتضىٰ هٰذا الإيمان، فلقد صبروا علىٰ ما أصابهم وهاجروا في سبيل الله.

ومن النصوص الجميلة المعبرة التي تقصُّ علينا بدء مواجهة مجتمع الشرك بمبادئ التوحيدِ ما تذكرهُ كتبُ السيرة[2]:

ثم نزل عليه في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

فجمعهم ﷺ وقال لهم: «**إنَّ الرائدَ لا يكْذِبُ أهلَه، والله لَو كذبتُ الناسَ جميعًا، ما كذبتكم، ولو غررتُ الناسَ جميعًا ما غررتُكم. والله الذي لا إلٰه إلا هو إني لرسولُ الله إليكم خاصةً، وإلىٰ**

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٠٢، ٥/ ٢٩١، وابن خزيمة في «صحيحه» ٤/ ١٣ برقم (٢٢٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ١١٥، وانظر: دراستنا لهٰذا الحديث وتخريجه في كتابنا: «من هدي النبوة» ص ٣٦٨-٣٨٤. والحديث صحيحٌ.

(٢) انظر «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري ص ٣٦.

الناس كافةً، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنَّ بما تعملون، وَلَتُجْزَوُنَّ بالإحسانِ إحسانًا وبالسوءِ سوءًا، وإنها لجنةٌ أبدًا، أو لنارٌ أبدًا»[(١)].

فتكلَّم القوم كلامًا ليِّنًا، غير عمِّهِ أبي لهبٍ الذي كان خصمًا لدودًا، فإنَّه قال: خذوا علىٰ يديهِ قبل أن تجتمع عليه العربُ، فإن سلَّمتموه إذن ذللتم، وإنْ منعتموه قُتلتم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنَّه ما بقينا.

وعن ابن عباس قال: لما نزلتْ هٰذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝﴾ [الشُّعَرَاء] خرجَ رسولُ الله ﷺ حتىٰ صعد الصَّفا، فهتف: «**يا صباحاه!**» فقالوا: منْ هٰذا الذي يهتفُ؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فجعلَ الرجلُ إذا لم يستطعْ أن يخرجَ أرسل رسولا لينظرَ ما هو فقال: «**يا بني فلان، يا بنىٰ فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب**» فاجتمعوا إليهِ، فقال: «**أَرَأَيْتَكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلا تخرجُ بسفحِ هٰذا الجبلِ، أكنتم مُصدِّقِيَّ؟**» وفي

(١) ذكره ابن الأثير في «الكامل» ٢/ ٦١ عن جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم.
وقال الشيخُ الألبانىٰ -رحمه الله- في «تخريج أحاديث فقه السيرة» ص١٠٢: «لم أجد في الرواة هٰذا الراوي، وإنما فيهم: جعفرُ بن عبد الله بن الحكم، أنصاري دوسي -كذا قال- تابعي صغير يروي عن أنس والتابعين، فإذا كان هو هٰذا فالإسناد مرسلٌ ضعيفٌ، ولم أقف علىٰ إسناده إليه، وإن كان غيره فلم أعرفه».
قلت: وهو خبر منقطع علىٰ أي حال، فبين راويه جعفر هٰذا وابن الأثير مفاوز ومدة طويلة، هٰذا غير الإرسالِ الذي أشار إليه الألبانيُّ. وهو حديثٌ جميلٌ صحيحُ المعنىٰ.

رواية البخاري: «**أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مُصَبِّحُكم أو مُمَسِّيكُم أكنتم تصدقوني؟**» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «**فإنيِّ نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديد**».

فقال أبو لهب: تبًّا لك[1].

وعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء] قال: «**يا معشر قريشٍ** - أو كلمة نحوها- **ٱشترُوا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباسُ بن عبد المطلبِ، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفيةُ عمة رسولِ الله، لا أغني عنكِ من الله شيئًا، ويا فاطمةُ بنت محمدٍ، سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنكِ من الله شيئًا**»[2].

في هٰذه الأحاديثِ وغيرها بيانٌ للأساسِ الذي يقوم عليه المجتمعُ الإسلاميُّ، وهو نبذُ الأوثان، وعبادةُ الله وحده، ونفيُ الوسطاء.

وهٰذا هو الذي دعا إليه رُسُلُ الله جميعًا، فما من نبيٍّ جاء قومه إلَّا دعاهم إلىٰ هٰذه العقيدة قائلا: ٱعبدُوا الله وحده، وذروا مَنْ دونه، قال تعالىٰ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعرَاف: الآية ٥٩]. وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعرَاف]

(١) رواه البخاري (٤٩٧٢)، ومسلم (٢٠٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٦٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣] وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ٨٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النّحل].

إنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ يقومُ علىٰ عقيدةِ التوحيدِ، وهٰذه العقيدةُ هي الأصلُ في حياة الإنسان منذ وُجِدَ علىٰ هٰذه الأرضِ، في عهد أبينا آدم عليه السلام، ثم طرأ الانحرافُ علىٰ الناسِ فاتَّخذوا شركاءَ مع الله.

وهٰذه الحقيقةُ هي التي يُقرِّرُها القرآنُ والحديثُ، لا ما تزعمه حضارةُ الكُفَّارِ من أنَّ الإنسان ما زال يتطور في مجال العقيدةِ حتىٰ بَلَغَ فكرة التوحيد.

إنَّ شعار المجتمع الإسلاميِّ هو كلمة التوحيد: لا إلٰه إلا الله، محمدٌ رسول الله، ولا يكون المرءُ مسلمًا إلا إذا نطقها واعتقدها من أعماقِ قلبه.

وتتضمَّنُ هٰذه الكلمةُ العظيمةُ الخالدة أمرين هما: العبوديةُ لله وحده، والانقيادُ لما جاء به رسولُ الله ﷺ انقيادًا عن طواعيةٍ واختيارٍ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّساء].

إذن فشهادةُ «أنْ لا إلٰه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله» هي القاعدة الأساسية لمنهج كاملٍ تقومُ عليه حياة الأمة المسلمةِ بحذافيرها، فلا تقومُ هٰذه الحياةُ قبل أن تقومَ هٰذه القاعدةُ، كما أنها لا تكونُ الحياة حياةً إسلاميةً إذا قامت علىٰ غيرِ هٰذه القاعدة، أو قامت علىٰ قاعدةٍ أخرىٰ معها، أو عدة قواعدَ أجنبيةٍ عنها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يُوسُف: الآية ٤٠] و ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النِّساء: الآية ٨٠].

إنَّ السِّمةَ الأُولىٰ المميزة لطبيعة المجتمعِ المسلم هي أنَّ هٰذا المجتمع يقوم علىٰ قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله؛ هٰذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة «أنْ لا إلٰه إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله».

وتتمثَّل هٰذه العبودية في التصور الاعتقادي، وتتمثَّل في الشعائر التعبدية، وتتمثل في الشرائع القانونية سواء، فليس عبدًا لله وحده مَن لا يعتقد بوحدانية الله تعالى ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾[النحل].

ليس عبدًا لله وحده من يتقدَّم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله- معه أو من دونه- ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأنعام].

وليس عبدًا لله وحده من يتلقَّىٰ الشرائع القانونية من أحد سوىٰ الله، عن الطريقِ الذي بلغنا الله به، وهو رسولُ الله ﷺ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشّورى: الآية ٢١]

و ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧] هٰذا هو المجتمع المسلم. المجتمع الذي تتمثَّل العبودية لله وحدَه في معتقدات أفراده وتصوراتهم، وتتمثَّل في شعائرهم وعبادتهم، وتتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم.

إنَّ المجتمع الإسلامي كما تصوره كُتُب السُّنة مجتمعٌ يقوم علىٰ العقيدة، فلم تكن الٱعتبارات القَبَلية أساسه، ولا الٱعتبارات الطبقية أساسه، سواء كانت لمصلحة الأشراف أو الصعاليك، ولا الٱعتباراتُ الٱقتصادية، ولا الٱعتباراتُ القومية، ولا الٱعتباراتُ الوطنية المحلية أساسه.

إنَّ الٱعتبارات التي لا تعتمد عقيدة التوحيد منتنة، كما دعاها سيدُنا رسولُ الله ﷺ. روىٰ البخاريُّ[1] عن جابر بن عبد الله قال: كنَّا في غَزاةٍ، فكَسَع[2] رجلٌ مِن المهاجرين رجلا مِن الأنصار. فقال الأنصاريُّ: يا لَلْأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فسمع ذاك رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوىٰ الجاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله، كَسَعَ رجلٌ مِن المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال ﷺ: «**دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ**».

إنَّ الإسلام سوَّىٰ بين الناس؛ وجعل التفاضل بالتقوىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرات: الآية ١٣] ويقول ﷺ: «**أيها الناس،**

---

(١) ٱنظر «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤).

(٢) كسع: كسعه: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه.

إنَّ ربَّكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدمُ مِن تراب، لا فضلَ لعربيٍّ علىٰ عجميٍّ، ولا لأبيضَ علىٰ أسودَ إلا بالتقوىٰ»[(١)].

ولذا كنتَ ترىٰ في المجتمع الإسلاميِّ: العربيَّ والفارسيَّ والرُّوميَّ والحبشيَّ، لقد ضمَّ هٰذا المجتمع المثالي المئاتِ من الأجناس المتعددة، وجمعهم علىٰ أساس العقيدة والعبوديةِ لله والانقيادِ لشرعه، وكان من هٰذا المجتمع حضارةٌ إنسانية زاهرةٌ قدمت للإنسانية روائع الفِكر السَّليم، وأنظمة العدالة، وأسهمت في تقدُّمِها، وصانت كرامتها، وأنصفتها ورفعت عنها المظالم، وحطَّمت القيود التي كانت تغلُّها.

ولقد أفرزت هٰذه القاعدةُ الأساسية -قاعدةُ التوحيدِ التِّي قامَ عليها المجتمع الفاضل- عواطفَ الأخوَّة الصادقة، والألفة الودودة، والتناصر علىٰ الحق، والتعاون علىٰ البرِّ، والإيثار بين أفراد هٰذا المجتمع.

أما المجتمعاتُ التي تقوم علىٰ أساسٍ جاهليٍّ بعيدٍ عن هَدْي الإسلام؛ فإنها تفرز عواطف الحقد الأسودِ، والبغضاء القاتلة، والحسد، والعدوان والإيذاء، والاستكبارِ، كما هو واضح في المجتمعات الكافرة؛ سواءٌ كانت شيوعيةً أم رأسمالية.

ونحمد الله أنِ ٱنكشفت حقائق هٰذه المجتمعات المنحرفة

---

(١) رواه عبد الله بن المبارك في «مسنده» (٢٣٩)، وأحمد ٥/ ٤١١، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث» (٥١) عن أبي نضرة قال: حدثني من شهد خطبة النبي ﷺ، به.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إسناده صحيح «الاقتضاء» ١/ ٤١٢ . وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح «مجمع الزوائد» ٣/ ٢٦٦.

المعاصرةِ وبانت مخازيها، وانكشفت من قبلها التجمعات التي قامت في التاريخ علىٰ أُسس طبقية وقَبَلية وقومية كما في الإمبراطورية الرومانية والبريطانية والرُّوسية وغيرها.

فالمجتمع الإسلامي -كما تصوِّره الأحاديث الصحيحة- مجتمعٌ يقوم علىٰ العقيدة الإسلامية، وتعتمدُ المؤسسات المختلفة في هٰذا المجتمع علىٰ قواعدها، بدءًا من الأسرةِ إلىٰ الدولة.

وهٰذه العقيدة موصولةٌ بالحياة الواقعية والسُّلوك اليوميِّ، وليست نظرياتٍ فِكريةً مجرَّدةً، أو شعاراتٍ تُطلق ويُنادىٰ بها بعيدًا عن التطبيق.

فما أكثر الشعارات التي حَفَلَ بها عصرُنا ينادي بها الهتَّافون للمزايدة ولكسب التأييد!

ولو ألقينا نظرةً سريعةً علىٰ عناوين كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» مثلا لوجدنا هٰذا المعنىٰ وهو: «صلة العقيدة بالسُّلوك والحياة» متجليًا بوضوح.

وكنت أودُّ أن أَسرد بعض هٰذه العناوين في هٰذا الموضع، ولكني أرجأتُ ذلك، ورأيتُ أن أقتصر علىٰ إيراد عنوان باب جاء في مَطْلع كتابِ الإيمان من «صحيح البخاريِّ»، ثم نُوردُ الحديث الوحيد الذي أورده في ذلك الباب ونشرحه.

قال الإمامُ البخاريُّ[(١)]: باب: أمور الإيمان، وقَول الله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى

(١) أنظر ترجمة حديث (٩) من «صحيح البخاري».

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون] الآية.

ويريد بقوله: الآية: تتمة هٰذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم أورد البخاريُّ رحمه الله في هٰذا الباب حديثًا واحدًا وهو حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«الإيمان بِضْعٌ وستون شُعبةً، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»**

وهٰذا الحديث رواه أيضًا مسلم وأحمد والنسائيُّ والترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حبَّان[1].

ورواية مسلم والجماعة تخالف رواية البخاري في أن العدد بضعٌ وسبعون شعبة، ولهذا الحديث روايات متقاربةٌ ومعناها واحدٌ.

ورواية مسلم: **«الإيمانُ بضعٌ وسبعون -أو بضعٌ وستون شُعبةً-**

(١) أنظر: «صحيح مسلم» (٣٥)، و«مسند أحمد» ٢/ ٣٧٩، و«سنن أبي داود» (٤٦٧٦)، و«سنن النسائي» ٨/ ١١٠، و«جامع الترمذي» (٢٦١٤)، و«سنن ابن ماجه» (٥٧)، و«صحيح ابن حبان» (١٦٦، ١٦٧، ١٩٠).

فأفضلها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذىٰ عن الطريقِ، والحياءُ شُعبةٌ مِن الإيمانِ».

وقبل أن نتأمَّل هٰذا الحديثَ الجامع الرائع أحبُّ أن ننظر في صنيع البخاري الذي أورد هٰذه الآيات في عنوانِ الباب. والعلماء يقولون: فقه البخاريُّ في تراجمه(١) أي: عناوينه.

أما الآية الأولىٰ وهي في سورة البقرة فهي من الآيات الجامعة، وتقرر أن البرَّ لا يتحقق بأن يقوم الإنسان ببعض العبادات ويقتصر عليها، بل إنه مجموع أمورٍ هي أمور الإيمان ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] .

إن هٰذه الآية تتضمَّن قواعدَ الإيمان والعملِ الصالح، وهما مترابطان في تصور المسلم وفي سلوكه، لا يَنْفَكُّ أحدهما عن الآخر أبدًا. إنَّ الإيمان ليس شكليات ظاهرية، وليس قيامًا وقعودًا وترديدًا لكلماتٍ، وليس توجهًا نحو الشرق أو نحو الغرب أو نحو الشمال أو نحو الجنوب. لا . . ، ليس الإيمان هٰذا أبدًا، ولكنه شعورٌ وعمل، وارتباطٌ بالله في الشعور والعمل.

قال أحد المفسرين المعاصرين: «ليست غاية البِرِّ -وهو الخير جملة- هي تلك الشعائر الظاهرة، فهي في ذاتها- مجردة عما يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك- لا تحقق البِرَّ، ولا تنشئ الخير، إنما البِرُّ تصوُّرٌ وشعور، وأعمال وسلوك: تصوُّر يُنشئ أثرَه في ضمير الفرد والجماعة، وعَمَلٌ يُنشئ أثره في حياة

---

(١) انظر: «المتواري علىٰ أبواب البُخاري» لابن المُنَيِّر ص٣٧. وكتابنا «الحديث النبوي» ص٣٥١، الطبعة الثامنة.

الفرد والجماعة، ولا يغني عن هٰذه الحقيقة العميقة توليةُ الوجوه قِبل المشرق والمغرب، سواءٌ في التوجه إلىٰ القبلة هٰذه أم تلك، أو في التسليم من الصلاة يمينًا وشمالا، أو في سائر الحركات الظاهرة التي يزاولها الناسُ في الشعائر. ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين...»[(١)].

ولو سُئل إنسان عن الإيمان فتلا هٰذه الآية لما جاوز الصواب ولا أخطأ الحقيقة[(٢)]. فأمور الإيمان التي تضمنتها الآيةُ ما يأتي:

١- أنْ تؤمنَ بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب والنبيين (وهٰذه أكثر أركان الإيمان ويُضمُّ إليها الإيمان بالقدر خيره وشره).

٢- أن تؤتي المال ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب.

٣- أن تقيم الصلاة.

٤- أن تؤتي الزكاة.

٥- أن تفي بعهدك إذا عاهدت.

٦- أن تصبر في البأساء (أي: في الفقر) والضرَّاء (أي: في المرض والأسقام) وحين البأس (أي: في الحرب وقتال العدوِّ).

هٰذه هي عناصر الإيمان التي تحقق البِرَّ والتقوىٰ، ومن اتَّصف بها وفَعَلها كان من الصادقين في إيمانهم، وكان من المتقين.

أرأيت يا أخي كيف عبَّرت الآية عن أمور الإيمان، وكيف

---

(١) «في ظلال القرآن» ١/ ١٥٩.

(٢) هناك حديثان أوردهما ابن كثير: أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الإيمان فتلا هٰذه الآية، ولكنهما منقطعان؛ ولذلك لم ننسب ذلك إلىٰ النبي ﷺ. انظر «تفسير ابن كثير» ١/ ٢٦٦.

ٱرتبطت هٰذه الأمور بالسُّلوك والحياة؟

إن من أمور الإيمان بالإضافة إلىٰ الٱعتقاد بأركان الإيمان المعروفة: إيتاءَ المال ذوي القربىٰ، واليتامىٰ، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وإنفاق المال في سبيل تحرير الأرقاء، وإقامة الصلاة وهي أعظم شيء بعد الإيمان، ومن هٰذه الأمور إيتاء الزكاة الواجبة.

وهكذا نرىٰ أن الآية الأولىٰ ذكرتْ من هٰذه الأمور نوعين من الإنفاق: الزكاة، وإيتاء المال الأصناف المذكورة.

ومن هٰذه الأمور الوفاء بالعهد، فالإخلاف بالعهد علامة من علامات المنافق.

ومنها الصبرُ علىٰ الشدائد: من الفقر والمرض والجهاد في سبيل الله، والثباتُ إلىٰ أن يتحقَّق للمسلم إحدىٰ الحُسنَيَيْن: إما النصر وإما الشهادة.

ونودُّ أن نتأمل الآيات التي أوردها البخاري رحمه الله في العنوان بعد هٰذه الآية، وتلكم الآياتُ هي الآياتُ الواردةُ في أول سورة (المؤمنون) قال الله تعالىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

فهٰذه الآياتُ جمعت صفاتٍ للمؤمنين، ولن نُفَصِّلَ القولَ في كلِّ صفة من هٰذه الصفات؛ وإنما الذي يعنينا أن نقرِّره هنا هو ٱرتباط الإيمان بهٰذه الصفات. فالمؤمنون الذين نالوا منزلة الفلاح -وما أعظمها من منزلة- هم الذين يتصفون بالصفات الآتية:

١- الخشوع في الصلاةِ.

٢- الإعراض عن اللغوِ.

٣- إخراج الزكاةِ.

٤- حفظ الفروجِ عما حرَّم الله.

٥- أداء الأمانةِ.

٦- الوفاء بالعهدِ.

٧- المحافظة علىٰ الصلواتِ.

فهٰذه أمور سبعةٌ من أمور الإيمان سَبَقَ أن وَرَدَ منها ثلاثةٌ في آية البقرة، وهي: الصلاة والزكاة والوفاء بالعهد.

وفيها -زيادةً عمَّا جاء هناك- أربعةُ أمورٍ هي: الإعراض عن اللغو، وحفظ الفروج عما حرَّم الله، وأداء الأمانة، والأمر الرابع: التفصيل في موضوع الصلاة، فالحديثُ عن الصلاة في هٰذه الآيات أشار إلىٰ أمرين: المحافظةِ علىٰ الصلاة فلا تفوته صلاةٌ مهما كانت الظروف، والخشوعِ في هٰذه الصلاةِ حيث تتحقق به روح الصلاة.

وفي آية البقرة ذكرت الآية أن الذين يتصفون بأمور الإيمان المذكورة هم الذين صدقوا وأولئك هم المتقون.

وفي آيات سورة (المؤمنون) أنَّ من ٱتَّصف بأمور الإيمان المذكورة مفلحٌ وأنه سيكون من الوارثين الذين يَرِثون الفِردوس هم فيها خالدون.

وهكذا؛ فإنَّ في هٰذا العنوان الذي وضعه الإمام البخاريُّ دلالةً علىٰ أن المجتمع الإسلامي يقوم علىٰ العقيدة الإسلامية الحية المتحركة القائمة في السُّلوك والحياة، وفيه تصحيح لخطأ قد يعرض لبعض الناس، وهو أن المجتمع الإسلامي ما دام يقوم علىٰ الدِّين فهو مجتمعٌ يقوم علىٰ الشعائر التعبدية فقط، فأورد البخاري آية سورة البقرة التي تنفي أن يكون البِرُّ مقصورًا علىٰ التوجه في الصلاة إلىٰ جهة ما، ولٰكن البِرَّ هو جِماع تلك الأمور. وما أروعه من تصحيح.

إن كثيرًا من السُّذَّج قد يخدعون ببعض الناس الذين يؤدُّون الشعائر فقط، وحياتُهم وسلوكهم وفكرهم بعيدٌ عن الٱلتزام بالإسلام والإيمان به.

إن كل دعوة تقتصر علىٰ جانب من جوانب الإيمان وتدع ما سواه، دعوةٌ باطلة تشوِّه صورةَ الدِّين في أذهانِ الناس، وإننا لنقرأُ في كتاب الله ﷻ قوله: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المَائدة: الآية ٤٩] وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البَقَرَة] وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾[البقرة].

ثم أورد البخاريُّ حديث شُعَبِ الإيمان: «**الإيمانُ بِضْعٌ وستون شُعبةً**» وذكرنا أن هناك رواياتٍ أخرىٰ للحديث في مسلم والسُّننُ تذكر

أن هٰذه الشعب بِضْعٌ وسبعون درجة.

ولم يصرِّحِ النبيُّ ﷺ في روايات هٰذا الحديث إلا بثلاثةٍ: أعلاها وهي: «**لا إله إلا الله**» وأدناها وهي: «**إماطة الأذىٰ عن الطريق**» و «**الحياء شعبةٌ من الإيمان**».

وهناك حكمةٌ بالغة في إغفالِ باقي هٰذه الشُّعَب.

وللعلماء بَحْثٌ في العدد في مثل هٰذا الحديث: هل يُراد بالعدد المدلول الرقميُّ، أم يُراد به التعدد الذي يبلغ العشرات؟.

وقد فَهِمَ الإمام الحَليمي[(١)] مدلوله الرقمي فبيَّن في كتابه «المنهاج في شُعب الإيمان»[(٢)] هٰذه الشُّعب المُشار إليها في الحديث، إلا أنه ٱقتصر في ذلك علىٰ ذِكْرِ المتون وحَذَفَ الأسانيد تحريًا للاختصار، ثم جاء الإمام البيهقي[(٣)] وصنَّف كتابه: «الجامع لشُعب الإيمان» [(٤)] فاقتدىٰ به في تقسيم الأحاديث علىٰ الأبواب

---

(١) هو أبو عبد الله، الحسين بن الحسن بن محمد بن حَليم البخاري، الشافعي، رئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر، أحد أصحاب الوجوه، وأذكياء زمانه، توفي سنة (٤٠٣هـ) انظر: «السير» ١٧/ ٢٣١.

(٢) طُبع في دار الفِكر ببيروت في عام (١٣٩٩هـ) بتحقيق: حلمي محمد فودة. في ثلاث مجلدات.

(٣) هو: الإمام الحافظ العلامة أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ، البيهقي، ولد سنة (٣٨٤هـ) وتوفي سنة (٤٥٨هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة النافعة.
انظر: «السير» ١٨/ ١٦٣.

(٤) ٱبتدأتْ بطبعه الدارُ السلفية بالهند في عام (١٤٠٦هـ)، وقام علىٰ تحقيقه وتخريج أحاديثه الدكتور: عبد العلي عبد الحفيظ حامد، وفرغ منه في عشرين مجلدًا في عام (١٤١٦هـ) فجزاه الله خيرًا. وفي غضون ذلك قامت دار الكتب العلمية ببيروت بطباعته في تسع مجلدات عام (١٤١٠هـ) وقد أصدره رجل لا يوثق في علمه، ولا جهده.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونَسَجَ علىٰ منواله، ونقل كلامه علىٰ الأحاديث بحروفه، وزاد عليه بأن أسند أحاديث الكتاب علىٰ رَسْمِ أهل الحديث وطريقتهم.

ثم ٱختصر الشيخ عمر القزويني[(١)] كتاب البيهقي في رسالة[(٢)] صغيرة.

قال القاضي عياض: «تكلَّف جماعةٌ حَصْرَ هٰذه الشُّعب بطريق الٱجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صُعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حَصْر ذلك علىٰ التفصيل في الإيمان»[(٣)]. ٱنتهىٰ.

وقال ابن حجر: «ولم يتفق مَن عَدَّ الشُّعب علىٰ نمط واحدٍ، وقد لَخَّصتُ مما أوردوه ما أذكره، وهو أن هٰذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب فيه المعتقداتُ والنياتُ، وتشتملُ علىٰ أربعِ وعشرين خصلةً:

١- الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده

---

(١) هو القاضي الفقيه أبو المعالي عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد القزويني الشافعي، ولد سنة (٦٥٣هـ) وتوفي سنة (٦٩٩هـ). ٱنظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي ٤/ ١٤٨٧.

(٢) طُبع أول مرة في المطبعة المنيرية بمصر في عام (١٣٤٣هـ) وقام بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ: محمد منير الدمشقي، ثم طبعه للمرة الثانية عام (١٣٥٥هـ) مع التوسع في التعليق عليه. ويوجد طبعة أخرىٰ -من دون تاريخ- بالمطبعة اليوسفية بمصر. وهٰذه الطبعات حافلة بالتحريف والتصحيف. ثم قام أخونا الشيخ عبد القادر الأرناؤوط بتحقيقه وتصحيحه وتخريج أحاديثه والتعليق عليه، وطبعه في دار البيان بدمشق عام (١٤٠٣هـ). ثم جدَّد طبعه في دار ابن كثير بدمشق عام (١٤٠٥هـ) فجزاه الله خيرًا.

(٣) «فتح الباري» ١/ ٥٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بأنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: الآية ١١] واعتقاد حدوث ما دونه.

٢- والإيمان بملائكته.

٣- وكتبه.

٤- ورسله.

٥- والقدر خيره وشره.

٦- والإيمان باليوم الأخر، ويدخل فيه: المسألةُ في القبر، والبعثُ، والنشورُ، والحسابُ، والميزانُ، والصراطُ، والجنةُ، والنارُ.

٧- ومحبة الله.

٨- والحبُّ والبغض فيه.

٩- ومحبة النبيِّ ﷺ واعتقاد تعظيمه. ويدخل فيه الصلاة عليه، واتباعُ سُنته.

١٠- والإخلاص، ويدخل فيه تَرْك الرياء والنفاق.

١١- والتوبة.

١٢- والخوف.

١٣- والرجاء.

١٤- والشُّكر.

١٥- والوفاء.

١٦- والصبر.

١٧- والرضا بالقضاءِ.

١٨- والتوكل.

١٩- والرحمة.

٢٠- والتواضع، ويدخلُ فيه: توقير الكبير، ورحمةُ الصغيرِ.

٢١- وترك الكبرِ والعجبِ.

٢٢- وترك الحسدِ.

٢٣- وترك الحقدِ.

٢٤- وترك الغضبِ.

وأعمالُ اللسانِ: وتشتمل علىٰ سبع خصالٍ.

١- التلفظِ بالتوحيدِ.

٢- وتلاوةِ القرآنِ.

٣- وتعلُّم العِلْمِ.

٤- وتعليمه.

٥- والدُّعاء.

٦- والذِّكْر، ويدخل فيه الاستغفارُ.

٧- واجتناب اللغوِ»[١].

إنَّ اللسان ليورد صاحبَه في كثير من الأحيان المهالك في الدنيا والآخرة، وقديمًا قالت العربُ: مقتلُ الرَّجُل بين فكَّيه[٢].

ورسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العبدَ ليتكلَّم بالكلمة؛ ما يتبيَّنُ[٣] ما فيها؛ يَزِلُّ بها إلىٰ النار أبعد مما بين المشرقِ والمغربِ**» متفقٌ عليهِ[٤]،

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٥٢.

(٢) «أدب الدنيا والدين» ٢٥٢.

(٣) يتبين: قال النوويُّ: يفكر أنها خير أم لا.

(٤) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة.

والهلاكُ هناك في يوم القيامة هلاكٌ أبديٌّ في جَهَنَّم وإنها أدهىٰ وأمرُّ.

ولو نظرنا إلىٰ شُعب الإيمان التي تتعلَّق باللسان وقد توافرت في رجل مسلم لرأينا إنسانًا فاضلا خيِّرًا لا يقول هجرًا، ولا يتكلَّم كلامًا لا فائدةَ منهُ، لسانهُ رَطْبٌ بذكرِ الله من تهليلٍ، وتوحيدٍ لله، وتعلم للعلم، وتعليمٍ له، ونصحٍ لعباد الله، ودعاء، وكلمة طيبة يواجه بها مَن يلقاه.

لقد كان المجتمع الإسلاميُّ كذلك في يومٍ زاهرٍ من أيامِ الإنسانيةِ.

قال الحافظ ابن حجر: «... **وأعمالُ البَدَن وتشتملُ علىٰ ثمان وثلاثين خصلةٍ:**

منها ما يختصُّ بالأعيانِ وهي خمس عشرة خصلةٍ:

١- التطهيرُ حسًّا وحكمًا، ويدخل فيه اجتنابُ النجاسات.

٢- وسترُ العورة.

٣- والصلاة، فرضًا ونفلا.

٤- والزكاة، كذلك (أي: فرضًا ونفلا).

٥- وفكُّ الرقاب.

٦- والجود ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرامُ الضيف.

٧- والصيامُ فرضًا ونفلا.

٨- والحجُّ والعمرة كذلك (أي: فرضًا ونفلا).

٩- والطوافُ.

١٠- والاعتكافُ.

١١- والتماس ليلةِ القَدْرِ.

١٢- والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرةُ من دار الشركِ.

١٣- والوفاءُ بالنذر.

١٤- والتحري في الأيمان.

١٥- وأداء الكفارات.

ومنها ما يتعلق بالأتباع، وهي ستُّ خصالٍ:

١- التعفُّف بالنكاحِ.

٢- والقيامُ بحقوق العيالِ.

٣- وبِرُّ الوالدين، ويدخل فيه اجتنابُ العقوق.

٤- وتربية الأولادِ.

٥- وصلة الرحمِ.

٦- وطاعةُ السادةِ، أو الرفقُ بالعبيدِ.

ومنها ما يتعلَّق بالعامَّة، وهي سبع عشرة خصلةً.

١- القيام بالإمرة مع العدل.

٢- ومتابعةُ الجماعة.

٣- وطاعةُ أُولي الأمر.

٤- والإصلاحُ بين الناس، ويدخل فيه: قتال الخوارج والبغاةِ.

٥- والمعاونةُ على البرِّ، ويدخل فيه: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

٦- وإقامةُ الحدود.

٧- والجهادُ، ومنه: المرابطةُ.

٨- وأداء الأمانةِ، ومنه: أداء الخمسِ.

٩- والقرضُ مع وفائهِ.

١٠- وإكرامُ الجار.

١١- وحسنُ المعاملة، ويدخل فيه: جمعُ المال من حِله.

١٢- وإنفاقُ المال في حقِّه، ومنه: ترك التبذير والإسرافِ.

١٣- وردُّ السلام.

١٤- وتشميتُ العاطس.

١٥- وكفُّ الأذىٰ عن الناسِ.

١٦- واجتنابُ اللهو.

١٧- وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق»[١].

قلتُ: ولم يذكر ابن حجر رحمه الله الحياءَ من شُعب الإيمان في هٰذا التصنيف، مع أنه نصَّ عليه الحديث، فهو أجدرُ بالذِّكْر ولا بُدَّ من أن يُستدرك عليه.

هٰذه أمورُ الإيمان التي تَوَقَّعَ العلماء أن يكون النبيُّ ﷺ قد عناها بـ (شعب الإيمان) بقوله: «**الإيمانُ بِضعٌ وسبعونَ شُعبة**».

ولكلِّ أمْرٍ منها أدلةٌ مستقلة، تدلُّ علىٰ ٱرتباطه بالإيمان، وقد أوسع هٰذه القضية تفصيلا وتدليلا الإمامُ البيهقيُّ في كتابه الواسع الذي أشرنا إليه آنفًا.

ولو تأمّلنا هٰذه الأمور التي فَسَّر بها العلماء شُعب الإيمان لوجدنا المعنىٰ الذي بدا لنا واضحًا عند دراسة آية سورة البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٧٧] الآية، وآيات مطلع سورة [المؤمنون] يبدو ظاهرًا في هٰذه الأمور مرةً أخرىٰ.

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٥٢-٥٣.

إنَّ المجتمع الإسلاميَّ مجتمعٌ يقوم علىٰ النظافة الحسيةِ والمعنوية، فالوضوءُ مرات في اليوم، والغسلُ قد يتكرر في الأسبوعِ، والحقدُ والحسدُ والبغضاءُ لا تكون في قلبِ المسلم، وأمثال ذلكَ، وكل ما ذكرنا من شُعب الإيمان.

والمجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعٌ يبني الفرد بناءً متوازنًا ليكون قادرًا علىٰ العطاء والإبداع، فلا خلل في تكوينه، ولا نوازع شريرة في أعماقه، يَرعىٰ روحه كما يرعىٰ جسده، فالعبادات شُعبةٌ من شُعبِ الإيمان.

والمجتمعُ الإسلاميُّ مجتمعٌ يحقق التضامن الاجتماعي بين أفراده، فيسدُّ خَلَّةَ[١] الفقراءِ، ويعمل علىٰ تحرير الأرِقَّاء، ويجعل ذلك من شُعب الإيمان.

والمجتمع الإسلاميُّ يُقيم العلاقات بين أفراده علىٰ أساسٍ من الودِّ المتبادل، والتعاون المثمر، والرحمة الرؤوفة، والإيجابية البناءة، ويعدُّ ذلك من شُعبِ الإيمان.

وقد أشار الحديثُ إلىٰ أن هٰذه الشُّعب متفاوتة، المراتب، فأعلاها: لا إلٰه إلا الله، وأدناها: إماطةُ الأذىٰ عن الطريق، وكونُ كلمة التوحيد أعلىٰ هٰذه الشُّعب وأفضلها أمْرٌ طبيعيٌّ، لأنَّ التوحيد هو الأصلُ الذي يقومُ عليه دين الإسلام. وهٰذه الأمور كلُّها لا تكون محمودةً ولا يُثاب عليها صاحبُها في الآخرة إلا إذا صدرت ممن يؤمن بكلمة التوحيدِ.

وإنَّ رَبْطَ هٰذه الأمور الاجتماعية بالعقيدةِ لَيَجْعَلُ المرءَ المسلم يأتي بها عن رضىٰ واقتناع، يأتي بها في كلِّ الظروف، في السرِّ

---

(١) الخَلَّة: الحاجة والفقر.

والعلن، في الخلوة وفي الملأ، عَرَفَ الناس قيامه بها أم لم يعرفوا، أثنوا علىٰ صاحبها أم ذموه. وفي ذلك تمكينٌ لهٰذه المعاني في الحياةِ، وأيُّ تمكين.

إنَّ النظام الٱجتماعيَّ في الإسلام نظامٌ متوازن، يَرعىٰ مصلحة الفرد كما يرعىٰ مصلحة الجماعة، ويُعنىٰ بالروح والمادة، ويجمع بين الدنيا والآخرةِ، ويبني ذلك كلَّه علىٰ العقيدةِ السليمةِ.

وإنَّ الفرد الذي ينشأ وَفْقَ هٰذه القيم إنسانٌ مثالي كله خيرٌ وعطاء، وودٌّ وسماحةٌ وصفاءٌ، وإنَّ المجتمع الذي يتألَّف من أمثاله مجتمعٌ يقوم علىٰ المحبةِ والرحمةِ والتعاونِ والفضيلةِ والسلامِ، وإنَّه لمجتمعٌ تتطلع إليه الإنسانية اليوم، وقد سبق أنْ حظيت به في عصرِ النبوةِ والراشدين والقرونِ الفاضلةِ.

فإلىٰ إنشائِه وإقامتِه من جديدٍ ندعوكم أيُّها المسلمون، ففي ذلك سعادتكم في الدنيا، ونجاتكم يوم القيامة.

وقد يفيدُ أن نقف وقفةً سريعةً أمام بعض الألفاظ الواردة في الحديث:

-بِضْعٌ: عددٌ مبهمٌ مُقيَّدٌ بما بين الثلاث إلىٰ التسع. وهٰذا هو الصوابُ.

وقال ابن سِيْدَه: إلىٰ العشرِ. وقيل: من واحدٍ إلىٰ تسعةٍ. وقيل: من ٱثنين إلىٰ عشرةٍ. وقيل: من أربعة إلىٰ تسعة، وقال الخليل: البِضع: السبع.

قال الصغانيُّ في «العباب»: إنه خاصٌّ بما دون العشرةِ وبما دون العشرين، فإذا جاوز العشرين ٱمتنعَ.

وأجاز آخرون ٱستعمالَه بالعشراتِ إلىٰ التسعين. فلا يقال: بضعٌ ومائة ولا يقال: بضعٌ وألف.

- **الشُّعبةُ**: القطعةُ والمراد الخَصْلةُ أو الجزء.

- **الحياءُ**[1]: **لغةً**: تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسانَ من خوفِ ما يُعابُ به.

وشرعًا: خُلُقٌ يبعث علىٰ ٱجتنابِ القبيحِ، ويمنعُ من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ. والحياءُ قد يكون غريزةً، وقد يكون تخلُّقًا.

واستعمالُه علىٰ وَفْقِ الشرع يحتاجُ إلىٰ ٱكتساب، وعِلم ونيَّةٍ، فهو من الإيمان لهٰذا.

والحياءُ الذي يمنعُ من قول الحقِّ أو فِعْل الخيرِ ليس حياءً شرعيًّا. وقد أفرده ﷺ بالذِّكْرِ في حديثِ الشُّعبِ؛ لأنه كالدَّاعي إلىٰ باقي الشُّعب، إذ الحَيِيُّ يخاف فضيحةَ الدنيا والآخرة، فيأتمرُ وينزجر.

---

(١) ٱنظر أبواب الحياء في كتب السُّنة. وانظر: «الأدب المفرد» (٨٨)، و«روضة العقلاء» ٤٢، و«أدب الدنيا والدين» ٢٢٤-٢٢٧، و«الترغيب والترهيب» ٣/ ١٧٢ و ٤/ ٧١، و«جامع العلوم» ١/ ٤٩٧، و«المواهب اللدنية» ٢/ ٣٥٨، و«العقد الفريد» ٢/ ٤١٣، و«المستطرف» ١/ ٢٨٢، وغيرها.

الحيـاء

إنَّ المجتمع الإسلاميَّ يقومُ علىٰ العقيدة، وإنَّ كل الأحكام التي تنظم المؤسساتِ الاجتماعية والتصرفاتِ الفردية والجماعية في هٰذا المجتمع تنْبثقُ عن هٰذه العقيدة. ودلّلنا علىٰ ذلك بقوله ﷺ: «**الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعبةً، أعلاها وأفضلُها: لا إلٰه إلاّ الله، وأدناها: إماطةُ الأذىٰ عن الطريقِ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ**».

ونودُّ أن نفصِّلَ القول في «**الحياءِ**» وكيف كان شُعبةً من شُعب الإيمان التي يقوم عليها المجتمع الإسلاميُّ الفاضل؟

إنَّ الحياء خيرٌ كُلُّه، ولذا كان هٰذا الخُلُق سمةً من سمات المجتمع الإسلاميِّ كما تصوّره كتب السُّنة. إنه مجتمعٌ يَستحي فيه الصغير من الكبير، وتستحي فيه النساءُ من الرجالِ، ويستحي فيه الناس بعضهم من بعض.

و«**الحياءُ**» كلمةٌ مأخوذةٌ من الحياةِ، وفي ذلك ما فيه من الدَلالة.

وهو لغةً: تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، وقد يطلقُ علىٰ مجرّد ترك الشيء بسببٍ. والتركُ إنما هو من لوازمه[(١)].

جاء في «مختار الصحاح»: «يقال: ٱسْتَحَيْتُ، بياء واحدة، وأصله: ٱستَحْيَيْتُ، فأعلّوا الياءَ الأُولىٰ وألقوا حركتها علىٰ الحاء، فقالوا: ٱستَحَيتُ؛ لَمّا كثر في كلامهم. وقال الأخفشُ: ٱستحىٰ بياء

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٥٢، و«المواهب اللدنية» ٢/ ٣٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واحدة لغةُ تميم، وبياءين لغةُ أهل الحجاز وهو الأصلُ، وإنما حذفوا الياءَ لكثرة ٱستعمالهم لهٰذه الكلمةِ»[(١)].

وجاء في «المصباح المنير»[(٢)]: «وحيي منه حياءً، بالفتح والمدِّ، فهو حييٌّ علىٰ فعيل. واستحيا منه. وهو الٱنقباض والانزواء. قال الأخفش: يتعدىٰ بنفسه وبالحرف، فيقال: ٱستحييتُ منه واستحييتُه، وفيه لغتان: إحداهما لغة الحجاز، وبها جاء القرآن، بياءين، والثانية لتميم بياء واحدة».

والحياء شرعًا: خُلُقٌ يبعث علىٰ ٱجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حقِّ ذي الحقِّ[(٣)].

قال الإمام أبو حامدٍ الغزاليُّ: «وهو خُلُق كريمٌ يحدث في أوَّلِ الصِّبا مهما أشرق عليه نورُ العقل، فيستحي من القبائح إذا شُوهدت منه، وهو وصف محمود» وقال: «فالذي يفسق ولا يُبالي أن يظهر فسقه للناس جَمَعَ إلىٰ الفسق التهتُّكَ والوقاحة، وفَقْدَ الحياء، فهو أشدُّ حالا مِمَّن يتستر ويستحي» وقال: «الحياء خُلُقٌ ينبعثُ من الطبع الكريم»[(٤)].

وقال ابن حبَّان: «الحياء: ٱسمٌ يشتمل علىٰ مجانبة المكروه من الخصال»[(٥)] وقال: «الواجب علىٰ العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل وبذرُ الخير. وتركه أصل الجهل وبذرُ الشر، والحياء يدلُّ علىٰ

---

(١) مادة (حيي). (٢) مادة (حيي).

(٣) «فتح الباري» ١/ ٥٢، و«المواهب اللدنية» ٢/ ٣٨٥.

(٤) «إحياء علوم الدين» ٣/ ٢١٢. (٥) «روضة العقلاء» ص ٤٢-٤٣.

العقل كما أنّ عدمه دالٌّ علىٰ الجهل. ومنَ لم يُنصفِ الناسَ منه حياؤه لم يُنصفه منهم قحته»[١].

وقال الماورديُّ: «سمة الخير الدّعةُ والحياء، وسمةُ الشر القحةُ والبذاءُ، وكفىٰ بالحياء خيرًا أن يكون علىٰ الخير دليلا، وكفىٰ بالقحة والبذاء شرًّا أن يكونا إلىٰ الشر سبيلا»[٢] وقال أيضًا: «وليس لمن سُلبَ الحياءَ صادٌّ عن قبيحٍ، ولا زاجرٌ عن محظورٍ، فهو يُقْدِم علىٰ ما يشاء ويأتي ما يهوىٰ»[٣] وقال: «واعلم أنَّ الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجهٍ: أحدها: حياؤه من الله تعالىٰ، والثاني: حياؤه من الناس، والثالث: حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله: فيكون بامتثال أوامره، والكفِّ عن زواجره»[٤]. وممَّا يُروىٰ: «**استحي من الله ٱستحياءك من ذوي الهيبة من قومك**»[٥].

وهٰذا النوع من الحياء يكون من قوة الدِّين وصحة اليقين. وقد رُوي: «**الحياءُ نظامُ الإيمان، فإذا ٱنحلَّ نظام الشيء تبدَّد ما فيه وتفرَّق**»[٦].

---

(١) «روضة العقلاء» ٤٢-٤٣.
(٢) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٤.
(٣) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٥.
(٤) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٦.
(٥) رواه أحمد في «الزهد» ص٤٦، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص٥٠، والبيهقي في «شعب الإيمان» ١٣/ ٤٢٤، عن سعيد بن يزيد بلفظ: «كما تستحي رجلًا من صالحي قومك». قال الهيثمي: رجاله وُثقوا علىٰ ضعف فيهم. وانظر «أدب الدنيا والدين» ٢٢٦، و«جامع العلوم» ١/ ٥٠١ . قال الألباني: إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات «الصحيحة» (٧٤١).
(٦) «أدب الدنيا والدين» ص ٢٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأما حياؤه من الناسِ: فيكون بكفِّ الأذىٰ وترك المجاهرة بالقبيحِ[(١)].

إن الحياء يمنع من السقوط في حمأة الرذيلة والأخلاق المنحطة، فالرجل الحييُّ يستحي أن يأتي فعلا منكرًا، كالسرقة، أو العدوان، أو نحو ذلك، ويستحي أن يقول هُجْرًا. ولو فقد إنسانٌ الحياء لفعل كلَّ مستقبحٍ، وفَاه بكلِّ كلامٍ ساقطٍ مرذولٍ.

يُرْوىٰ أن حُذيفة بن اليمان ﷺ قال: لا خير فيمن لا يستحي من الناس[(٢)].

وقال الشاعر:

ورُبَّ قبيحة ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياءُ
إذا رُزق الفتىٰ وجهًا وقاحًا ... تقلَّب في الأمور كما يشاءُ[(٣)]

قال ابن حبَّان: «الحياءُ حياآن: **أحدهما**: ٱستحياءُ العبد من الله جلَّ وعلا عند الٱهتمام بمباشرة ما حظر عليه .**والثاني**: ٱستحياؤه من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معًا، والحياآن جميعًا محمودان إلا أن أحدهما فرضٌ والآخر فضلٌ. فلزومُ الحياء عند مجانبة ما نهىٰ الله عنه فرضٌ. ولزومُ الحياء عند مقارفة ما كره الناسُ فضلٌ»[(٤)].

وأما حياؤه من نفسه: فيكون بالعفة وصيانة الخلواتِ.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» ص ٢٢٧.

(٢) «أدب الدنيا والدين» ص ٢٢٧، والخبر رواه عبد الرزاق في «مصنفه» ٢/ ٢٣٢ برقم (٥٤٦١).

(٣) «أدب الدنيا والدين» ص ٢٢٧. (٤) «روضة العقلاء» ٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قالَ بعضُ الحكماء: ليكن ٱستحياؤك من نفسك أكثر من ٱستحيائك من غيرك[١].

وقال بعضهم: من عمل في السرِّ عملا يستحيي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر[٢].

الحياء سمة المجتمع الإسلاميِّ، يتصف بها كلُّ من أراد أن يستكمل أسباب الإيمان.

ولقد ذكرنا أنَّ الحياء ثلاثة أنواع، فمتىٰ كَمُل حياء الإنسان من رَبِّه ومن الناس ومن نفسه فقد كَمُلت فيه أسبابُ الخير، وانتفت عنه أسبابُ الشَّرِّ، وصار بالفضل مشهورًا، وبالجميلِ مذكورًا. وإن أخلَّ بأحدِ وجوه الحياء هٰذه لَحِقَهُ من النقصِ بإخلاله بَقدْرِ ما كان يلحقه من الفضلِ بكماله[٣].

وقال بعض الشعراء[٤]:

وإني ليثنيني عن الجهل والخَنا ... وعن شَتْم ذي القُربىٰ خلائق أربعُ

حياءٌ، وإسلامٌ، وتقوىٰ وأنني ... كريمٌ، ومثلي من يضرُّ وينفعُ[٥].

الحياءُ محمود، وهو من الإيمان كما قال ذلك النبيُّ ﷺ، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«الحياءُ منَ الإيمان، والإيمان في الجنَّة، والبذاءُ[٦] من الجفاءِ، والجفاءُ في النارِ»**[٧].

---

(١) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٧. (٢) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٧.

(٣) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٨.

(٤) قال ابن عبد ربه في «العقد الفريد» ٢/ ٤١٥: ولابن أبي حازم.

(٥) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٨.

(٦) قال المنذري ٣/ ١٧٢: والبذاء: هو الفُحش في الكلام.

(٧) رواه ابن وهب في «الجامع» (٤٦٨)، وأحمد ٢/ ٥٠١، والترمذي (٢٠٠٩)، وابن

قال القاضي عياض وغيره: إنما جُعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزةً؛ لأنَّ ٱستعماله علىٰ قانون الشرع يحتاج إلىٰ قَصْدٍ واكتسابٍ وعلمٍ[١].

وقال القرطبيُّ: الحياءُ المكتسبُ هو الذي جعله الشارعُ من الإيمان، وهو المكلَّفُ به دون الغريزيِّ، غير أنَّ من كان فيه غريزةٌ منه فإنها تعينه علىٰ المكتسب، حتىٰ يكاد يكون غريزيًّا[٢].

وكان النبيُّ ﷺ قدُ جُمع له النوعان، فكان في الغريزيِّ أشدَّ حياءً من العذراءِ في خِدرها[٣].

وجاء في «المواهب اللدنية» شرحُ هٰذا القول: بأنَّ العذراء هي البكرُ، والخدر: الستر.

قال: «لأنَّ العذراء في الخِدر يشتدُّ حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه؛ لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها. فالظاهرُ أن المراد تقييده بما إذا دُخل عليها في خِدرها، حيث تكونُ منفردة فيه»[٤].

حبان ٢/ (٦٠٨، ٦٠٩)، والحاكم ١/ ٥٢-٥٣. وأخرجه ابن ماجه عن أبي بكرة برقم (٤١٨٤) والبخاري في «الأدب المفرد» ص١٩٠ . وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٥).

(١) «المواهب اللدنية» ٢/ ٣٥٨. (٢) «المواهب اللدنية» ٢/ ٣٥٨.

(٣) روىٰ البخاري (٣٥٦٢، ٦١٠٢، ٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠) عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله أشدَّ حياء من العذراء في خِدرها». وانظر «المسند» ٣/ ٧٧-٧٩-٩١، وابن ماجه (٤١٨٠) و«الأدب المفرد» (٨٨).

(٤) «المواهب اللدنية» ٢/ ٣٥٩. بل هٰذا الشرح مأخوذ من «فتح الباري» ٦/ ٥٧٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهكذا ٱتَّضح لنا أن الحياء نوعان: غريزيٌّ، ومكتسب.

أما الغريزيُّ: فهو ما كان جِبِلَّة وفِطرة غير مكتسب، خَلْقًا من صنع الله، ولا شكَّ أن البيئة والنشأة تساعدُ علىٰ إيجاده وطبعه، فترىٰ المرء ينشأ علىٰ هٰذا الخُلُق بحكم ما يرىٰ في الوسط الذي عاش فيه، لا يتكلَّفه ولا يتصنَّعُهُ، وهو من أجلِّ الأخلاق التي يمنحها الله العبد، ويجبلهُ عليها، ويهيئ له الظروف الوراثية والبيئية التي تعمل علىٰ طبعه به؛ لأن الحياء لا يأتي إلا بخير، يسعد صاحبُه في الدنيا والآخرة

عن عمران بن حُصين ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ**» ، وفي روايةٍ لمسلم: «**الحياءُ خيرٌ كلُّه**» أو «**الحياءُ كله خيرٌ**»[1].

وهٰذا الخُلُق -كما سبق أن قلنا- يكفُّ عن ٱرتكاب القبائح ويترفَّعُ بصاحبه عن دنيء الأخلاق، ويحثُّ علىٰ مكارم الأخلاق. وكيف لا يكون كذلك وهو من الإيمان ومن شُعَبِهِ كما ذكر ذلك المصطفىٰ ﷺ؟

وأما المكتسبُ: فهو ما كان مكتسبًا من معرفة الله وإدراك عظمتهِ، وتصور قُرْبه سبحانه من عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فهٰذا من أعلىٰ خصائص الإيمان، بل هو من أعلىٰ درجات الإحسان الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ في حديث جبريل المشهور: «**أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦١١٧)، ومسلم (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) عن أبي هريرة ﷺ. ورواه مسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد يتولَّد هٰذا النوع من الحياء من مطالعة نِعَم الله ورؤية التقصير في شكرها. فنِعَمُه سبحانه لا تُحصىٰ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] وقيامنا بشكرها ناقصٌ.

أما إذا سُلِبَ العبدُ الحياء المكتسب والحياء الغريزيَّ لم يبقَ له ما يمنعه من ٱرتكاب القبيح والاتصاف بالأخلاق الدنيئة، وأصبح عندئذ من الخاسرين الهالكين.

والحياء الممدوح: هو الخلق الذي يحث علىٰ فعل الجميل وترك القبيح، فأما الضعف والعجز الذي يُوجب التقصير في شيء من حقوق الله أو حقوق عباده فليس هو من الحياء. بل هو ضعفٌ وخورٌ وعجزٌ ومهانة[(١)].

إذن؛ فالحياء في التعلم والبحث عن أمور الدين مذمومٌ، لأنه يصدُّ صاحبه عن معرفة دين الله والوقوف عند أحكامه.

قالت عائشةُ رضىٰ الله عنها: «نِعْمَ النساء نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[(٢)].

وقال مجاهدٌ: «لا يتعلم العلّم مُسْتَحٍ، ولا مستكبرٌ»[(٣)].

إن المجتمع الإسلاميَّ هو مجتمعُ الحياء. فهل نعمل علىٰ إعادةِ هٰذه السمةِ المميزةِ له من جديدٍ؟

لنربِّ أنفسنا وأبناءَنا علىٰ الحياء فإنه خيرٌ كله.

عن أبي هريرةَ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا تُنكح الأيم حتىٰ تُستأمر،**

---

(١) ٱنظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب ١/ ٥٠٢ وذلك في شرح الحديث (٢٠).

(٢) رواه مسلم (٣٣٢).

(٣) رواه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، ترجمة حديث (١٣٠).

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا تُنكحُ البِكرُ حتىٰ تُستأذن» قالوا: يا رسول الله، وكيف إذْنها؟ قال: **«أنْ تسكت»**[١].

وعن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، إنَّ البكَر تستحي؟ قال: **«رِضاها صمتُها»**[٢] وفي لفظٍ: قلت: فإن البكر تستأمر فتستحي قال: **«سكاتها إذنها»**[٣]. وفي لفظٍ: **«إذنها صماتها»**[٤] وهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّ الحياء يُربىٰ عليه أولاد الأمةُ بنين وبنات.

إنَّ الحياءَ مشتقٌ من الحياةِ، فعلىٰ حسب حياة القلب تكون فيه قوة خلق الحياء، وقِلة الحياء حاصلة من موت القلب والروح، فكلَّما كان القلب أحيىٰ كان الحياء أتم.

إن هٰؤلاء الذين فقدوا الحياءَ مرضىٰ في قلوبهم، وبعضهم موتىٰ القلوب.

ألا ترىٰ -يا أخي- أنَّ الميت إذا كشف أحدٌ عورته لا تبدو عليه أمارات الحياء ولا يستنكر ذلك، ولو كان حيًّا لثار واستحيا واستنكر.

إنَّ دعوة الإسلام إلىٰ الحياء دعوةٌ إلىٰ الحياة الفاضلةِ الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال].

ولأنَّ الحياءَ صفةٌ كريمةٌ نجد في بعض النصوص أنَّ الله تبارك وتعالىٰ يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أنْ يردهما صِفرًا وأن يخيّب صاحبهما، ويستحي أنْ يعذِّب شيبةً شابْت في الإسلام.

---

(١) رواه البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩)، وأبو داود (٢٠٩٢).
(٢) رواه البخاري (٥١٣٧)، ومسلم (١٤٢٠).
(٣) رواه البخاري (٦٩٤٦).
(٤) رواه البخاري (٦٩٧١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عن يعلىٰ بن أُمية أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالىٰ حييٌّ سِتِّير، يُحبُّ الحياء والستر، فإذا اْغتسل أحدُكم فليستتر**»[(١)].

وعن سلمان أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حيي كريم يستحيي من عبده أن يبسط إليه يديه ثم يردهما خائبتين**»[(٢)].

وفي لفظٍ: «**إنَّ الله حَيي كريم، يستحي إذا رفع العبد إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين**».

وعن أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «**إن الله رحيمٌ حييٌّ كريم، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرًا**»[(٣)].

وقد أسند النبيُّ ﷺ الاْستحياء إلىٰ الله في الحديث الصحيح المتفق عليه: عن أبي واقد الليثي أنَّ رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناسُ معه، إذ أقبل ثلاثةُ نفر، فأقبل اْثنان إلىٰ رسولِ الله ﷺ وذهب واحدٌ قال: فوقفا علىٰ رسول الله ﷺ فأما أحدُهما فرأىٰ فُرْجَةً في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالثُ فأدبر ذاهبًا. فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدُهم؛ فأوىٰ إلىٰ الله، فآواه الله، وأما الآخر؛**

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٢٢٤، وأبو داود (٤٠١٣)، والنسائي ١/ ٢٠٠، والطبراني في «الكبير» ٢٢/ (٦٧٠)، والبيهقي ١/ ١٩٨. قال الألباني: صحيح. «الإرواء» رقم (٢٣٣٥).

(٢) رواه أحمد ٥/ ٤٣٨، وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وابن حبان (٨٧٦، ٨٨٠)، والطبراني في «الكبير» ٦/ ٢٥٦ (٦١٤٨)، والحاكم ١/ ٤٩٧، والبيهقي ٢/ ٢١١. وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. وقال ابن حجر: سنده جيد «الأمالي الحلبية» ص ٢٦-٢٧. وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٣٧): صحيح.

(٣) رواه الحاكم ١/ ٤٩٧ وقال: إسناده صحيح وقد تعقبه الذهبي.

فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخرُ؛ فأعرض فأعرض الله عنه»[1].

وعن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالىٰ: إني لأستحي من عَبدي وأَمَتي، فتشيبُ لحيةُ عبدي ورأسُ أَمَتي في الإسلام أعذّبهما بعد ذلك»**[2].

ذكرنا أنَّ الحياءَ ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام وهي:

١- الحياء من الله.

٢- والحياءُ من الناس.

٣- والحياء من النفس والذات.

وقد عَمَدَ ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين»[3] إلىٰ هٰذه الأقسام ففصلها، وذكر أن الحياء عشرةُ أنواع وهي:

١- حياء جنايةٍ: وهو الحياء الذي يكونُ من المرءِ بعد وقوعه في المخالفة، ويصوِّر هٰذا الحياء أثرٌ عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ يقول: «**إنَّ المؤمنَ يرىٰ ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخافُ أنْ يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مَرَّ علىٰ أنفه»**[4].

٢- وحياءُ تقصيرٍ: وهو الحياءُ الذي يكونُ من المرء بعد التقصير في أداء الواجب، وما أكثر ما يقصِّر الإنسانُ، وهنا نلمسُ الفرقَ بين القلب الحيِّ الذي يألم لتقصيره وبين القلب الميت الذي لا يحسُّ بالتقصير أصلا.

٣- وحياءُ إجلالٍ: وهو حياءُ المعرفة، وعلىٰ حسب معرفة

---

(١) رواه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦)، وأحمد ٥/ ٢١٩ . ومالك ٢/ ٩٦٠

(٢) رواه أبو يعلىٰ (٢٧٦٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» ٢/ ٣٨٧. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥/ ١٥٩: فيه نوح بن ذكوان، وغيره من الضعفاء.

(٣) أنظر «مدارج السالكين» ٢/ ٢٦١.

(٤) رواه البخاري (٦٣٠٨) وأحمد ١/ ٣٨٣.

العبد ربَّه يكونُ حياؤه منه. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨].

٤- وحياءُ كرمٍ: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم وطوّلوا الجلوس عنده، فاستحيا أن يقول لهم: ٱنصرفوا. قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣].

٥- وحياءُ الحشمةِ: كحياء عليٍّ ﷺ أنْ يسأل النبي ﷺ عن المذي؛ لمكان ابنته منه.

٦- وحياء الأستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربِّه حين يسأله حوائجه، ٱحتقارًا لشأن نفسه واستصغارًا لها. وقد يكونُ لهٰذا النوع سببان:

الأولُ: ٱستحقارُ السائل نفسه واستعظامُ ذنوبه.

والثاني: ٱستعظامُ مسؤوله.

٧- وحياءُ المحبَّة: وهو حياءُ المحبِّ من محبوبه، حتَّىٰ إنه إذا خطر علىٰ قلبه في غيبته هاج الحياءُ من قلبه وأحسَّ به في وجهه، وكذا يعرض للمحب- عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له- روعة شديدة.

٨- وحياءُ العبودية: وهو حياء ممتزجٌ من محبةٍ وخوفٍ، وينشأ هٰذا الحياء عندما يتبيَّن العبد عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأنَّ قدر المعبود أعلىٰ وأجلُّ منها، فعبوديته توجب ٱستحياءه منه.

٩- وحياء الشرف والعزة: وهو حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قَدْرها من بذلٍ أو عطاءٍ أو إحسان.

١٠- وحياءُ المرء من نفسه: وهو حياءُ النفوسِ الشريفة العزيزةِ الرفيعةِ من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون.

وهٰذا أكملُ ما يكون من الحياء، فإنَّ العبد إذا ٱستحيا من نفسه، فهو بأنْ يستحي من غيره أجدرُ.

وهٰذه الأنواع العشرة لا تخرجُ عن الأنواع الثلاثة السابقة، ولٰكن هٰذا التقسيم يفصلها ويصنفها حسب معانيها ويزيدُها وضوحًا.

وأوّل الحياء حياءٌ يتولَّد من علم العبد بنظر الله إليه، فإن العبد متىٰ علم أنَّ الرَّب تبارك وتعالىٰ ناظرٌ إليه ومطَّلعٌ عليه، أورثه هٰذا العلم حياءً منه يجذبه إلىٰ ٱحتمال الطاعة ومجانبة المعصية.

والله سبحانه معك -أيها العبد- في كل أحوالك، يعلم سرَّك وعلانيتك، وهو أقربُ إليك من حبل الوريد.

فإذا نظرت في هٰذه المعية واستحضرتها تولَّد عندك حياءٌ عظيمٌ منه تبارك وتعالىٰ، يباعدُ بينك وبين المعصية، وينأىٰ عن التقصير فيما أوجب عليك من الطاعة، أو فيما ندبك إليه من القُرُبات والنوافل وهٰذه معيةُ العِلم ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحَديد: الآية ٤].

فإذا حقَّق الحياء ذلك فيك؛ كنت قريبًا من الله، وكانتْ لك منه النصرة، وكان لك الحفظُ والتأييدُ وهٰذه معيَّةُ القُرْب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النّحل].

ومِمَّا يبيِّن لنا مكانة الحياء في المجتمع الإسلامي: الأحاديثُ الكثيرةُ الصحيحةُ الواردةُ في كُتُب السُّنة في الحثِّ علىٰ الحياء والثناء عليه، وسنوردُ بعض هٰذه الأحاديث، ونخرِّجها، ونقف معها بعض الوقفات التأملية.

فمن ذلك الحديثُ الجميل الرائع الجامعُ الذي رواه أبو مسعود

البدريُّ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولىٰ: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**»[1].

يقرر هٰذا الحديثُ أنَّ هٰذه الحكمة العظيمةَ عن الحياء مأثورة عن الأنبياء المتقدمين صلوات الله عليهم أجمعين، وأنَّ الناسَ تداولوها بينهم، وتوارثوها عنهم قَرْنًا بعد قرن، واشتهرت بين الناسِ حتىٰ وصلتْ إلىٰ عصر النبوة الأغر أول هٰذه الأمة الكريمة.

وقد أوردها الرسولُ الأعظم ﷺ مُقِرًّا لها، وهٰذا يدلُّ علىٰ أن رسالات الأنبياء موصولةٌ متحدة، وهي في أُصولها واحدة، وفي مقاصدها متفقة.

يقول تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورى: الآية ١٣].

ويقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية ١٣١].

وقوله ﷺ: «**إذا لم تستحي فاصنعْ ما شئت**» ذمٌّ لهٰذه الحالة ونهيٌ عنها، وليس معناه أنْ يصنع ما شاء.

وهٰذا الأمرُ خرج عن معناه الأصليِّ؛ وهو طلب حصول الشيءِ إلىٰ التهديد والوعيد، والمعنىٰ: إذا لم يكن لك حياءٌ فاعمل ما شئت، فإن الله يجازيك عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤). وورد عنده بلفظ: «فاصنع» ولفظ: «فافعل». ورواه أحمد ٤/ ١٢١ وأبو داود (٤٧٩٧) وابن ماجه (٤١٨٣) وغيرهم.

وهٰذا ٱستعمال سائغٌ في العربية ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فُصّلت]

وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمَر]

وقد يكون المعنىٰ إخبارًا عن نموذج منحطّ من الناس، وهم الذين أسقطوا الحياء من تكوينهم. والمعنىٰ: أن من لم يستحي يصنعُ ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياءُ، فمن لم يكن له حياءٌ ٱنهمك في كل فحشاء، وأتىٰ كل منكر.

وهٰذا ٱستعمال سائغ في العربية، وهو أن يطلق الأمر ويرادُ به الخبر، ومنه قوله ﷺ: «**من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**».

ويمكن أن يفهم من الحديث المعنيان، فالحديث أمرٌ يراد به التهديدُ والوعيدُ، ويُفهم من هٰذا الأمر الخبر: أن من لم يستحي يصنُع ما يشاء.

وهانحن أولاء نرىٰ بعض السَّفِلَةِ يأتون أمورًا من المنكراتِ والفواحشِ، يجاهرون بها ولا يبالون، ولو كانت لديهم ذرَّة من حياءٍ ما أتوها.

وقد يعدُّ بعضهم قلةَ الحياء تقدمية، وجرأة في مخالفة القيم الموروثة، ويثني بعضهم علىٰ بعض إذ تمكّنوا من تحطيم جدارِ التقاليد والأخلاق، وأتوا بتلك المنكراتِ والفواحش أمامَ النَّاس. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ولكن أمرهم إلىٰ بوار، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة.

وهناك أثرٌ عن سلمان ﷺ أنه قال: «إن الله إذا أراد بعبدٍ هلاكًا؛ نزع منه الحياء، فإذا نُزع منه الحياءُ لم تَلْقه إلا مقيتًا ممقتًا. فإذا كان مقيتًا

ممقتًا نُزعتْ منه الأمانة، فإذا نُزعت منه الأمانة؛ لم تْلقه إلا خائنًا مخونًا، فإذا كان خائنًا مخونًا؛ لم تلقه إلَّا فظًّا غليظًا، فإذا كان فظًا غليظًا نُزع ربقُ الإيمان من عنقه، فإذا نزع رِبْقُ الإيمان من عنقه؛ لم تلقه إلا شيطانًا لعينًا ملعنًا»[١].

إن الحياء في المجتمع الإسلامي سياجٌ يحمي القيم من العدوانِ عليها؛ أو من الضعفِ الذي قد يعتريها بسبب الأهواء والشهوات، ويدفع الناس للمحافظة علىٰ هٰذه القيم من داخلهم.

وعندما غَرَسَ الإسلامُ هٰذا الخُلُقَ في الفرد والمجتمع وجعله قاعدةً أساسيةً ودعا إلىٰ التحلِّي به؛ كان الخير في المجتمع الإسلاميِّ ذائعًا معروفًا، وكان الشرُّ مستخفيًا منكرًا. فلا يُعلن المنكرُ في ذاك المجتمع. فإذا أقدم سفيْه علىٰ المجاهرة بالمعصية أو إعلان المنكر، قابله الناسُ بالامتعاض والاستنكار، والاحتجاج والاحتقار، وواجهه وليُّ الأمر بالعقوبة الزاجرة، وتحقَّق للنَّاس في ربوع ذاك المجتمع الفاضل الأمنُ والطمأنينةُ والمودةُ والسعادة.

إن الحياء مقرونٌ بالإيمان، وهٰذا يدلُّ علىٰ عظيم شأنه: عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[٢].

وعن ابن عمر أيضًا: أنَّ النبي ﷺ مَرَّ علىٰ رجلٍ وهو يعاتُب

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٠٤. وروىٰ ابن ماجه (٤٠٥٤) نحوه بإسناد ضعيف.

(٢) رواه الحاكم ١/ ٢٢، وقال: هٰذا حديث صحيح علىٰ شرطهما. ووافقه الذهبي ورواه أبو نعيم في «الحلية» ٤/ ٢٩٧ من طريق يعلىٰ بن حكيم، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن عمر. قال أبو نعيم: غريب من حديث سعيد، تفرَّد به عنه يعلىٰ.
قلت: ويعلىٰ بن حكيم، قال الحافظ في «التقريب»: ثقة، وروايته عن سعيد بن جبير في الصحيحين. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع» رقم (٣٢٠٠).

أخاه في الحياء يقول: إنك لتستحي. كأنَّه يقول: قد أضرَّ بك. فقال رسول الله ﷺ: **«دَعْهُ؛ فإن الحياء من الإيمان»**[(1)].

لقد ربط الرسولُ ﷺ الحياء بالإيمان كما في حديثي ابن عمر رضي الله عنهما وهما قوله ﷺ: **«الحياءُ من الإيمان»** وقوله: **«الحياءُ والإيمان قرنا معًا»**.

والإيمانُ أساسٌ يقوم عليه المجتمع الإسلامي.

هٰذا، وأُحبُّ أن أشير إلىٰ أن أوضاعًا غريبة وافدةً غَزَتْ مجتمعاتنا، واستطاعتْ أن تترك أثرًا يتفاوت من بقعة إلىٰ بقعة من بقاعنا.

ومن أهمِّ الأخلاقِ الإسلامية التي يستهدفها الأعداء خُلُق الحياءِ، وتراهم يركِّزون علىٰ المرأة، وعلىٰ علاقة الأبناء بالآباء، وعلىٰ الأسرة عامة.

إنَّ الخُلُق المتماسك حصنٌ يحمي الأمةَ من الانهيار السياسيِّ والعسكريِّ، وإننا لنلمح من آية من كتاب الله أنَّ أعداءنا يعملون علىٰ إغوائنا قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء].

يريد الذين يتبعون الشهوات أن تُطْلَقَ الغرائزُ في ديارنا من كل عقال: ديني أو أخلاقي أو اجتماعي «يريدون أن ينطلق السُّعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لون كان.... السُّعار

(١) رواه البخاري (٢٤، ٦١١٨)، ومسلم (٣٦)، ومالك ٢/ ٩٠٥، وأحمد ٢/ ٩، وأبو داود (٤٧٩٥)، والنسائي ٨/ ١٢١ وغيرهم.

المحموم الذي لا يقرُّ معه قلبٌ، ولا يسكن معه عصبٌ، ولا يطمئن معه بيتٌ، ولا يسلْم معه عِرْضٌ، ولا تقومُ معه أسرةٌ، يريدون أن يعود الآدميون قطعانًا من البهائم، ينزو فيها الذكران علىٰ الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة!

كلُّ هٰذا الدمار، وكلُّ هٰذا الفساد، وكلُّ هٰذا الشر باسم الحرية، وهي في هٰذا الوضع ليست سوىٰ ٱسم آخر للشهوة والنزوة.

وهٰذا هو الميل العظيم الذي يحذر الله المؤمنين إياه، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات، وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلىٰ الجاهليَّة في هٰذا المجال الأخلاقي»[(١)].

ولما ٱستسلم الناسُ في ربوع أوروبا وأمريكا للشهوات، وحطموا حواجز الحياء، وتجاهلوا أحكام الدِّين وتوجيهاته، والفضيلة ووصاياها، جاءتهم الأمراض الماحقة من الزُّهري والأمراض الجنسية الأخرىٰ، ثم داهمهم أخيرًا هٰذا المرض الفتَّاك الخطير المميت وهو فقد المناعة (الإيدز).

«هٰذا طرفٌ مما تتكلفه البشرية الضالة في جاهليتها الحديثة من جرَّاء طاعتها للذين يتبعون الشهوات، ولا يريدون أن يفيؤوا إلىٰ منهج الله للحياة، المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف علىٰ الإنسان الضعيف، وصيانته من نزواته، وحمايته من شهواته، وهدايته إلىٰ الطريق الآمن، والوصول به إلىٰ التوبة والصلاح والطهارة»[(٢)].

أخرج البخاريُّ في «الأدب المفرد»[(٣)] عن عثمان وعائشة رضي

---

(١) «في ظلال القرآن» ٢/ ٦٣١، ٦٣٢. (٢) «في ظلال القرآن» ٢/ ٦٣٧.
(٣) ٱنظر «الأدب المفرد» ص ٢٠٤ (٦٠٠). والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٨٧).

الله عنهما: أن أبا بكر ٱستأذن علىٰ رسول الله ﷺ وهو مضطجعٌ علىٰ فراش عائشة؛ لابسًا مِرْطَ[1] عائشة؛ فأذن لأبي بكرٍ وهو كذلك، فقضىٰ إليه حاجته، ثم ٱنصرف، ثم ٱستأذن عمر فأذن له وهو كذلك، فقضىٰ إليه حاجته، ثم ٱنصرف، قال عثمان: ثم ٱستأذنتُ عليه، فجلس. وقال لعائشة: «**اجمعي إليك ثيابك**» قال: فقضيتُ إليه حاجتي، ثم ٱنصرفتُ. قال: فقالت عائشة: يا رسول الله، لم أَرَكَ فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن عُثمان رَجُلٌ حييٌ، وإني خشيت إن أذنت له -وأنا علىٰ تلك الحال- أن لا يَبلُغَ إليَّ في حاجته**».

وقد كَثُرت الأخبار التي تصف سيدنا عُثمان بالحياء رضي الله عنه وأرضاه.

وعن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**ما كان الحياءُ في شيءٍ إلا زانَه، ولا كان الفُحشُ في شيء إلا شانه**»[2].

ولله درُّ أبي تمام إذ يقول[3]:

إذا جاريتَ في خُلُقٍ دنيًّا ... فأنت ومَن تُجاريه سواءُ

---

(١) المِرْط: واحد المروط، وهي أكسيةٌ من صوف أو خز، كان يؤتزر بها. اهـ «مختار الصحاح».

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٠١)، والترمذي (١٩٧٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤١٨٥)، وعبدالرزاق (٢٠١٤٥)، وأحمد ٣/ ١٦٥، وعبد بن حميد (١٢٤١)، وابن حبان (٥٥٠١). وصححه الألباني في «تخريج أحاديث المشكاة» (٤٨٥٤).

(٣) «الديوان» ٤/ ٢٩٦.

رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازي ويحميه عن الغدر الوفاءُ
وما مِن شدَّةٍ إلا سيأتي لها من بعد شدَّتها رخاءُ
يعيش المرء ما ٱستحيا بخير ويبقىٰ العود ما بقي اللحاءُ
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ
إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء

وقال ابن حبَّان[1]: وأنشدني محمدُ بن عبد الله البغداديُّ والبيتان لصالح بن عبد القدوس.

إذا قل ماءُ الوجه قلَّ حياؤه ولا خير في وجه إذا قلَّ ماؤه
حياءك فاحفظه عليك فإنما يدل علىٰ وجه الكريم حياؤه

وقال بعض الحكماء: مَن كساه الحياءُ ثوبه، لم يَرَ الناس عيبه، وحياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه[2].

وقال الجنيد: الحياءُ رؤية الآلاء ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تُسمَّىٰ الحياء.

وقال الفضيل بن عياض: خمسٌ من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلَّة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

وقال الخوَّاص: إن العباد إذا عملوا علىٰ أربع منازل: علىٰ الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء. فأرفعها منزلة الحياء، لمّا أيقنوا أنَّ الله يراهم علىٰ كل حال قالوا: سواء علينا رأيناه أو رآنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه[3].

وقد قيل: الوجهُ المصونُ بالحياء كالجوهر المكنون في

(١) «روضة العقلاء» ص٤٣.
(٢) «أدب الدنيا والدين» ٢٢٤-٢٢٨.
(٣) «المستطرف» ١/ ٢٨٢.

الوعاء[١].

وقيل: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كلِّه[٢].

وقال الشاعر:

إذا حُرِمَ المرءُ الحياءَ فإنَّهُ ... بكل قبيح كان منه جديرُ
له قحة في كل أمرٍ، وسرُّه ... مباحٌ، وجدواه جفًا وغرورُ
يرىٰ الشتم مدحًا، والدناءة رفعةً ... وللسمع منه في العظات نفورُ
فرجِّ الفتىٰ ما دام حيًّا فإنه ... إلىٰ خير حالات المنيب يصيرُ[٣].

وقالت ليلىٰ الأخيلية:

فتىٰ هو أحيا من فتاة حييَّةٍ ... وأشجع من ليث بخفان خادر[٤].

وقال ابن قيس:

تخالهم للحلم صمًّا عن الخنا ... وخُرْسًا عن الفحشاء عند التهاجر
ومرضىٰ إذا لوقوا حياءً وعفةً ... وعند الحفاظ كالليوث الخوادر[٥]

وقيل: الحياء يزيد في النبل.

وذكر أعرابيٌّ رجلا حييًّا فقال يصفه: لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنىٰ به عنك وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المسيء[٦].

وقد روي عن عمر أنه قال: من ٱستحيا ٱختفىٰ، ومن ٱختفىٰ ٱتقىٰ، ومن ٱتقىٰ وقي[٧].

---

(١) «المستطرف» ١/ ٢٨٢.
(٢) «المستطرف» ١/ ٢٨٢.
(٣) «العقد الفريد» ٢/ ٤١٣.
(٤) «العقد الفريد» ٢/ ٤١٣.
(٥) «العقد الفريد» ٢/ ٤١٣.
(٦) «العقد الفريد» ٢/ ٤١٣.
(٧) «جامع العلوم والحكم» ١/ ٥٠١.

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قلنا: يا نبي الله إنا لنستحي والحمد لله. قال: «**ليس ذاك، ولكنَّ الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، وأن تذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله**»[1].

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٨٧، والترمذي (٢٤٥٨)، وأبو يعلىٰ (٥٠٤٧)، والحاكم ٤/ ٣٢٣، وانظر صحيح الجامع (٩٣٥).

الانخلاع من كل عقيدة باطلةٍ

(التخلية قبل التحلية)

قررنا أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يقوم علىٰ عقيدةِ التوحيد، ويبني أحكامه وتصرفاته ومؤسساته كلَّها علىٰ هٰذه العقيدة السمحة السامية.

ونودُّ أن نشير إلىٰ أنَّ من المسلمات والبديهيات: أن يسبق تبني تلك العقيدة خروجٌ من الجاهلية، وانخلاعٌ من قيمها ومبادئها، وبراءةٌ وتبرؤٌ من كل عقيدةٍ باطلة، ورفضٌ لكل النظم والعادات الجاهلية.

إنَّ إقامة بناءٍ محكمٍ مريحٍ محققٍ لأغراض مطلوبة تستدعي إزالة المخلفات والآثار القديمة لبناءٍ متداعٍ مضعضع كان يقوم مقامه، ومِن هنا قيل: «التخلية قبل التحليةِ» إنَّ سياسة الترقيع والترميم لا تؤدي إلىٰ الحصولِ علىٰ الغاية المطلوبةِ التي تحقق هدفًا معينًا.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتحنَة: الآية ٤].

ولذلك جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة ما يدلُّ علىٰ أنَّ العقيدة الصحيحة قائمةٌ علىٰ أساس البراءة من كل مذاهب الكفر والجاهلية ثم الألتزام بعقيدة التوحيد الخالصة.

قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقَرَة].

والإسلامُ هو الذي أخرج الناس من الظلمات إلىٰ النُّور، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾ [المائدة].

إنَّ الانخلاع من كلِّ التقاليد المنحرفة، وترك كلِّ أمرٍ من أمورِ الجاهليةِ، والبراءة من كلِّ النحل الباطلة، إن ذلك كلَّه يمثل الخطوة الأولىٰ من خطواتِ الالتزامِ بطريقِ الإسلامِ، والقاعدة الأساسية في إقامةِ المجتمعِ الإسلامي.

إنَّ الكارثة الكبرىٰ التي تقع في عدد من الأفراد والمجتمعات المنتسبة إلىٰ الإسلام مردُّها إلىٰ أن عادات جاهلية، وتقاليد قومية كانت تقوم في حياة الناس لم يتخلَّ عنها من دخلوا في الإسلام، وعلىٰ مدىٰ الأيام اتسمت هٰذه العاداتُ والتقاليد بسمة الدِّين، والدين منها براءٌ، فكان من جرَّاء ذلك خللٌ في التصور أعقبه خللٌ في السُّلوكِ والمعاملةِ.

ولذلك كانت كلمةُ التوحيد التي يدخل بها المرء في دين الإسلام قائمة علىٰ نفي وإثباتٍ، علىٰ نفي الألوهية عما سوىٰ الله، وإثباتها له ﷻ (لا إلٰه إلا الله) وقد دعا رُسُلُ الله قاطبة إلىٰ هٰذه الكلمة الطيِّبة الكريمة ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ٥٩] ولنقرأ هٰذا الحوار الرائع الذي قصَّه الله علينا في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ
قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي
شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ
أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ
فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ
إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ
إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾
[الأنعام].

إنَّ الذين أثبت الله لهم الهداية هم الذين آمنوا، ولم يخلطوا إيمانهم بشركٍ، كما فسَّر ذلك النبيُّ ﷺ.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلتْ هٰذه الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] شقَّ ذلك علىٰ أصحاب النبيِّ ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يَلبسْ إيمانه بظلمٍ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذلك، ألا تسمعون إلىٰ قول لقمان:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] »(١).

والله أغنىٰ الشُّركاء عن الشرك كما جاء في الحديث القدسيِّ، عن أبي هريرةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاءِ عنِ الشركِ، مَن عَمِلَ عملا أشرك فيهِ غيري تَركته وشِركَه**»(٢) ولا يقبل إيمان امرئٍ خالط إيمانه شركٌ، وهٰذا ما يقع في

(١) رواه البخاري (٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤) والترمذي (٣٠٦٧).
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حياة كثيرٍ من الغافلين الخاسرين.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف].

«والبراء مظهرٌ من مظاهرِ كراهيةِ الباطل وأهله، وهٰذا أصلٌ من أصولِ الإيمان، وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر؛ فلأنه قد ٱختلط الحابلُ بالنَّابلِ، وغفل كثيرٌ من الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضعف إيمان بعضهم حتَّىٰ ظهرت فيهم مظاهر يكرهها المؤمن، فوالوا الكافرين، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وحطوا من قدرهم»(١).

وقد حدَّد الرسولُ الكريم الغاية التي يعتبرها الشرع غاية شرعية للقتال فقرَّر أنها التي تكون في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمته.

فعن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ أن أعرابيًّا أتىٰ النبيَّ، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرىٰ مكانه -وفي روايةٍ: يقاتل شجاعة- ويقاتل حَمية -وفي رواية: ويقاتل غضبًا- فمنَ في سبيل الله؟

فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمة الله هي العليا فهو في سبيلِ الله»** متفقٌ عليه(٢).

ولنتأمل قول الله جلَّ جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ

---

(١) من كلام الشيخ عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- في مقدمته لكتاب «الولاء والبراء». تأليف محمد بن سعد القحطاني.

(٢) رواه البخاري (١٢٣) ورواه مسلم (١٩٠٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

فالروابطُ التي ذكرتها الآيةُ هي: روابط النَّسب، والمال، والمصالح المادية، والوطن. وقرَّرت أنَّ الذي يقدِّم هٰذه الروابط علىٰ حب الله ورسوله والجهاد مهدَّدٌ من الله، وكان التفصيل في رابطة النسب والقرابة فذكرت الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة، ووصفت من يقدِّم هٰذه الروابط علىٰ رابطة العقيدة بالظلم والفسق، وأنذرته بأنْ يتربَّص حتىٰ يأتي الله بأمره.

ولما دعا بعض الناس بدعوىٰ العصبية قال ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**»(١).

ونودّ أن نقتبس من كلام الأستاذ سيِّد قطب- رحمه الله- ما يشرحُ هٰذه الفِكرة ويؤكدها، قال رحمه الله: «إنّ الوشيجة التي يتجمعُ عليها الناس في هٰذا الدين وشيجةٌ فريدةٌ تتميز بها طبيعة هٰذا الدِّين، وتتعلَّق بآفاق وآماد وأبعادٍ وأهداف يختصُّ بها ذلك المنهج الربانيُّ الكريمُ.

إن هٰذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة.

إنَّ هٰذه الوشائج جميعها قد توجد، ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد، كما قال الله ﷻ لعبده نوح عليه السلام وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هُود: الآية ٤٥] ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ [هُود:

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله.

الآية ٤٦] ثم بيَّن له لماذا يكون ابنه ليس من أهله ...﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هُود: الآية ٤٦] إنَّ وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هُود: الآية ٤٦] فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هٰذا الحسبان خاطئٌ، أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

وهٰذا هو المعْلم الواضح البارز علىٰ مفرق الطريق بين نظرة هٰذا الدِّين إلىٰ الوشائج والروابط وبين نظرات الجاهلية المتفرقة..

إنَّ الجاهليات تجعل الرابطة آنًا هي الدم والنسب.

وآنًا هي الأرض والوطن.

وآنًا هي القوم والعشيرة.

وآنًا هي اللون واللغة.

وآنًا هي الجنس والعنصر.

وآنًا هي الحرفة والطبقة.

تجعلها آنًا هي المصالح المشتركة، أو التاريخ المشترك، أو المصير المشتركُ.

وكلُّها تصورات جاهليةٌ علىٰ تفرقها أو تجمعها، تخالف مخالفةً أصيلة عن أصل التصور الإسلامي.

والمنهج الرباني القويم- ممثلا في هٰذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وفي توجيهات الرسول ﷺ، وهي من هٰذا القرآن وعلىٰ نسقه واتجاهه- قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية علىٰ ذلك الأصل الكبير، والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق.

وهٰذا المثل الذي يضربه... من نوحٍ وابنه فيما يكون بين الوالد

والولد ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى؛ ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها.

ضرب لها فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبرايهم عليه السلام وأبيه وقومه كذلك ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

وكذلك فقد قصَّ القرآن علينا ما كان بين إبراهيم وذريته ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٢٤].

وقصَّ علينا حال أمرأتين كانتا زوجتين لرسولين كريمين:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]

من خلال هذه الأمثلة وغيرها يتبين الأساس الذي يجب أن يقوم عليه المجتمع المسلم ولا يقوم على سواه.

يقول الله ﷻ ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]

فهٰذا أبو عبيدة بن الجرَّاح أمين هٰذه الأمة عاش هٰذه الحقيقة، وصدر عنها في تصرفاته، فلقد شهد أبو عبيدة بدرًا، فقتل أباه يومئذ[(١)]؛ وكان أبوه مع المشركين، ولم تستطع رابطةُ الأبوة والبنوّة أنْ تتغلب علىٰ رابطة العقيدة، فلقد فرَّق الإسلام بينهما، ولو نظرنا في الغزوات التي خاضها الصحابة مع رسول الله ﷺ وتأملنا سائلين: هٰؤلاء الصحابة مَن يقاتلون؟ لعرفنا أنهم كانوا يقاتلون أبناء عمِّهم وأقربائهم وأبناء عشيرتهم بل أحيانًا آباءهم وإخوانهم وأبناءهم، وجاء في «سير أعلام النبلاء»[(٢)]: أنَّ سعد بن أبي وقاص قال:

نزلت هٰذه الآية فيَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: الآية ١٥].

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ١/ ١٥٤، والحاكم ٣/ ٢٦٤، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ١٠١، والبيهقي ٩/ ٢٧، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٥/ ٤٤٦ عن عبد الله بن شوذب، به. قال البيهقي: هٰذا منقطع. وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٢/ ٢٤٤: إسناده جيد عن عبد الله بن شوذب. وقال الحافظ في «تلخيص الحبير»: هٰذا معضل، وقال في «الفتح» ٧/ ٩٣: مرسل.

(٢) ١/ ١٠٩-١١٠.

قال: كنت برًّا بأمي، فلما أسلمتُ قالت: يا سعدُ، ما هٰذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعَنَّ دينك هٰذا، أو لا آكل ولا أشرب حتىٰ أموت، فتعيَّر بي فيقال: يا قاتل أمِّه! قلت: لا تفعلي يا أمَّاه! إني لا أدع ديني هٰذا لشيء، فمكثتْ يومًا لا تأكل ولا تشرب وليلةً. وأصبحت وقد جُهِدَتْ، فلما رأيت ذلك قلت: يا أماه، والله، لو كان لك مئة نفسٍ، فخرجتْ نفسًا نفسًا ما تركت ديني. فإن شئت فكلي أو لا تأكلي. فلما رأت ذلك أكلت[1].

إن سعدًا البارَّ بأمه حدَّد علاقته بأمه وفق تعاليم هٰذا الدِّين الذي أكرمه الله به، إنه يريد إكرامها وبِرّها ولٰكن لا علىٰ حساب دينه.

فطاعة الوالدين مطلوبةٌ إلا عندما يأمران بالكفر أو المعصية؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إنَّ الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي هو «إسلام العباد لربِّ العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقِيمهم وتقاليدهم إلىٰ سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأنٍ من شؤون الحياة، وفي هٰذا جاء الإسلام علىٰ يد محمد ﷺ كما جاء علىٰ أيدي الرسل الكرام قبله، جاء ليردَّ الناس إلىٰ حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس، فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان

(١) رواه أحمد ١/ ١٨١، ومسلم (١٧٤٨) بعد رقم (٢٤١٢).

وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله».

وفَّق الله المسلمين إلىٰ ٱستئناف الحياة الإسلامية الفاضلة في كنف هٰذا المجتمع الإسلامي العظيم، ولا بُدَّ من البدء بالأساس الذي يقوم عليه ذاك المجتمع الكريم، وهو العقيدة السليمة الصحيحة والتزامها فِكرًا وعملًا وقولًا، وقبل ذلك الكفر بالطاغوت ونظم الجاهلية والبراءة منها جميعًا.

إنهم والله إن فعلوا سعدوا وأسعدوا وضمنوا لأنفسهم النجاة يوم يقوم الناس لربِّ العالمين.

عقيدةٌ ساميةٌ محرِّرة

قلنا: إن المجتمع الإسلامي يقوم علىٰ عقيدة التوحيد، وهٰذه العقيدة تحرر الإنسان من كل عبودية إلا من عبوديته لله سبحانه، وتمحضه ليكون عبدًا لله وحده لا شريك له.

ونستطيع أن نصف هٰذه العقيدة بأنها عقيدة سامية، وبأنها عقيدة محرِّرة.

سامية؛ لأنها حقٌّ، وللحق سُمُوُّه وتألقه، فهي تسمو بمعتنقها إلىٰ آفاق لا يبلغها غيرُ المؤمن.

ومحرِّرة؛ لأنها توفِّر للإنسان كرامته التامَّة، فلا يخضع لجبار ولا لشهوةٍ ولا مصلحة.

إذن؛ فالمجتمع الإسلامي لا يقوم علىٰ جاهليات كانت المجتمعات تقوم عليها ولا تزال.

ويؤسفني ويحزنني أن أكثر المجتمعات في عصرنا هٰذا قائم علىٰ جاهليات نتنة في بلاد الكفَّار، وهٰذا شيء طبيعي، وفي كثير من البلاد التي يعمرها مسلمون، وهٰذا هو المستغرب المؤلم.

القومية العربية:

من هٰذه الجاهليات: رابطة القومية؛ ومن الصعب أن تجد تعريفًا يحددها يكون واضحًا في أذهان الناس عنها، فإن عرَّفوها بالجنس الذي يجري فيه دم واحد؛ كان ذلك أمرًا موهومًا صعب التحقق، فليس هناك صفاء في دم أُمَّة من الأمم، ذلك لأن التمازج

بين الشعوب عبر القرون أذهب ذاك الصفاء المزعوم.

وعندما يقوم المجتمع علىٰ أساس القومية -أيًّا كان تعريفها وتحديدها- فينشأ تبعًا لذلك تمايز وتفاخر وتفاضل بين الناس في المجتمع، فكل من لا ينتسب إلىٰ هٰذه القومية دخيل مفضول، ينظر إليه نظرةً فيها ٱنتقاص، ويعامل معاملة يُهضم فيها حقه، ولا يوضع في المكان الذي تؤهله له إمكاناته ومواهبه، فيقع عليه الظلم، ويحرم المجتمع من عطائه وإنتاجه. وحتىٰ الذين ينتسبون إلىٰ القومية ذاتها، ليسوا سواءً؛ بل هم درجات بحسب قربهم من مفهوم القومية، فينتقص الناس بعضهم بعضًا.

كيف يستقيم في ميزان الحق أن يُقدَّم جاهل منحرف الخلق، زائغ العقيدة، سيئ المعاملة، دنيء النفس، علىٰ عالم مستقيم، حسن الخلق، سليم العقيدة كريم النفس! كيف يُقَدَّمُ الأول علىٰ الثاني؟ لمجرد أنه من هٰذه القبيلة أو القوم وذاك ليس كذلك.

ولا بُدَّ أن تقوم الصراعات ضمن البلد الواحد بين فئات المجتمع كما تقوم الصراعات بين ذاك المجتمع والأقطار المجاورة، وتاريخُ أوروبا القديم وغيرها شاهدٌ ناطقٌ.

وقد أحسن الشيخُ عبدُ العزيز بن عبد الله بن باز عندما قال[1]:

«.. وإنما الذي يُنكر اليوم ويُستغرب صدوره عن كثير من أبناء الإسلام من العرب ٱنصرافُهم عن الدعوة إلىٰ هٰذا الدين العظيم، الذي رفعهم الله به، وأعزَّهم بحمل رسالته، وجعلهم ملوك الدنيا وسادة العالم؛ لما حملوا لواءه وجاهدوا في سبيله بصدق وإخلاص

---

(١) «نقد القومية العربية علىٰ ضوء الإسلام والواقع» للشيخ ابن باز ص ٥ وما بعدها.

حتىٰ فتحوا الدنيا، وكسروا كسرىٰ وقيصر، واستولوا علىٰ خزائن مملكتيهما، وأنفقوها في سبيل الله سبحانه، وكانوا حينذاك في غايةٍ من الصدق والإخلاص، والوفاء والأمانة، والتحاب في الله سبحانه والمؤاخاة فيه، لا فرق عندهم بين عربي وعجمي، ولا بين أحمر وأسود، ولا بين غني وفقير، ولا بين شرقي وغربي، بل هم في ذلك إخوان متحابّون في الله، متعاونون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، مجاهدون في سبيل الله، صابرون علىٰ دين الله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يوالون في الإسلام، ويعادون فيه، ويحبون عليه ويبغضون عليه، ولذلك كفاهم الله مكايد أعدائهم، وكتب لهم النصر في جميع ميادين جهادهم، كما وعدهم الله بذلك في كتابه المبين حيث يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمَّد] ثم بعد هٰذا الشرف العظيم والنصر المؤزّر من المولىٰ سبحانه لعباده المؤمنين من العرب وغيرهم»[(١)].

ويتابع الشيخ ابن باز حديثه عن هٰؤلاء الذين نادوا بالقومية أساسًا يقوم عليه المجتمع فقال:

«ويدعون إلىٰ غير الإسلام، كأنهم لم يعرفوا فضل الإسلام، وما حصل لأسلافهم بالإسلام من العِزَّة والكرامة، والمجد الشامخ، والمجتمع القوي، الذي كتبه الله لأهل الإسلام الصادقين، حتىٰ إن عدوهم ليخافهم، وهو عنهم مسيرة شهر، نسي هٰؤلاء أو تناسوا هٰذا المجد المؤثَّل والعزَّ العظيم، والملك الكبير الذي ناله المسلمون

(١) المصدر السابق ص ٦، ٧.

بالإسلام، فصار هٰؤلاء الأبناء يدعون إلىٰ التكتل والتجمع حول القومية، وقد ٱختلف الدُّعاة إليها في عناصرها، فمن قائل: إنها الوطن والنسب واللغة، ومن قائل: إنها اللغة فقط، ومن قائل: إنها اللُّغة مع المشاركة في الآلام والآمال، ومن قائل غير ذلك...»[١].

وهٰذه الدعوة الجاهليةُ بالنسبة إلينا نحن العرب دعوة وافدة، وقد أشار إلىٰ ذلك الشيخ ابن باز فقال:

«اعلم أن هٰذه الدعوة- أعني: الدعوة إلىٰ القومية العربية- أحدثها الغربيون من النصارىٰ[٢] لمحاربة الإسلام والقضاء عليه في داره، بزُخرف من القول، وأنواعٍ من الخيال، وأساليب من الخداع، فاعتنقها كثيرٌ من العرب من أَعداء الإسلام، واغترَّ بها كثيرٌ من الأغَمار ومن قلَّدهم من الجهَّال، وفرح بذلك أرباب الإلحاد وخصوم الإسلام في كل مكان»[٣]

ثم قال فضيلته:

«ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة: أن الدعوة إلىٰ القومية العربية أو غيرها من القوميات دعوة باطلة، وخطأ عظيم، ومنكر ظاهر، وجاهلية نكراء، وكيد سافر للإسلام وأهله. وذلك لوجوه»[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ١٠.

(٢) ٱنظر: «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس، وقال الشيخ ابن باز في ص١٢: «إن أول من دعا إلىٰ القومية العربية في أواخر القرن ١٩ الميلادي هم الغربيون، علىٰ أيدي بعثات التبشير في سوريا؛ ليفصلوا الترك عن العرب، ويفرقوا بين المسلمين، ولم تزل الدعوة إليها في الشام والعراق تزداد حتىٰ عقد لها أول مؤتمر في باريس سنة ١٩١٠» نقل ذلك عن الموسوعة العربية.

(٣) المصدر السابق ص ١٠.

(٤) المصدر السابق ص ١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم ذكر الوجوه، فقرر أن هٰذه الدعوة تفرق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرق بين العرب أنفسهم؛ لأنهم ليسوا يرتضونها كلهم، والإسلام يدعو إلىٰ الاجتماع والوئام، كما يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالىٰ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

إن الكتاب والسنة يُبيِّنان بوضوح تام، وصراحة ظاهرة أن المجتمع الإسلامي يقوم علىٰ العقيدة ويبرأ من الجاهليات كلها كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٦] .

وذكرنا أنَّ عددًا من بلاد المسلمين ٱبتُلي بجاهليات أقامها المستعمرون في ديارهم ومنها القومية، ولقد كان في ذلك إساءةٌ إلىٰ الإسلام، ومحاربة له في بلاده، وإساءة أيضًا إلىٰ العرب أنفسهم، كما يقول الشيخ عبد العزيز بن باز(١).

---

(١) «نقد القومية العربية» ص ١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال أبو الحسن الندوي: «فمن المؤسف المحزن المخجل: أن يقوم في هٰذا الوقت في العالم العربي رجالٌ يدعون إلىٰ القومية المجردة من العقيدة والرسالة، وإلىٰ قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان، وعن أقوىٰ شخصية ظهرت في العالم، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد، إنها جريمة... تبز جميع الجرائم القومية التي سجَّلها تاريخ هٰذه الأمة»(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«كل ما خرج عن دعوىٰ الإسلام والقرآن من نَسَبٍ، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة، فهو من عزاء الجاهلية. بل لما اختصم مهاجريٌّ وأنصاريٌّ فقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. وقال الأنصاريُّ: يا للأنصار قال النبي ﷺ: «**أَبِدَعْوىٰ الجاهِلِيَّةِ وأنَا بَينَ أظْهُرِكم؟**»(٢) وغضب لذلك غضبًا شديدًا»(٣).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس منَّا من دعا إلىٰ عصبية، وليس منا من قاتل علىٰ عصبية، وليس منا من غضب لعصبية**»(٤).

---

(١) «نقد القومية العربية» ص ١٤ نقلًا عن رسالة الندوي «اسمعوها مني صريحة أيها العرب» ص ٢٧-٢٨.

(٢) رواه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٣) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٣٢٨، «نقد القومية العربية» ص١٦.

(٤) رواه أبو داود (٥١٢١)، ورواه أيضًا ابن عدي ٣/ ١٠٠٥ عن عبد الله بن أبي سليمان، عن جبير بن مطعم، به. قال الخطابي في «معالم السنن» ٨/ ١٩: قال أبو داود في رواية ابن العبد: هٰذا مرسل؛ عبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير. قلت: والحديث معناه صحيح فقد روىٰ مسلم (١٨٥٠) عن جندب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قتل تحت راية عميَّة يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلةٌ جاهلية».

وروىٰ مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا حتىٰ لا يبغي أحدٌ علىٰ أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ علىٰ أحدٍ**»(١).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تُراب لا فضل لعربي علىٰ عجمي إلا بالتقوىٰ**»(٢).

وهٰذا الحديث يوافق قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٣].

وعن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهنّ: السمعُ، والطاعةُ، والجهادُ، والهجرةُ، والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قِيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا دعوىٰ الجاهلية فإنه من جُثىٰ جهنم**». فقال رجل: يا رسول الله، وإنْ صلَّىٰ وصام؟

فقال: «**وإن صلّىٰ وصام، فادعوا بدعوىٰ الله الذي سمّاكم المسلمين، المؤمنين، عباد الله**»(٣) وهو حديث صحيح.

---

(١) أنظر «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٩٥٦)، ورواه أيضًا: أبو داود (٥١١٦)، وأحمد ٢/ ٣٦١-٣٦٦ عن أبي هريرة، به. قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح.
والعُبية: الكبر. أنظر «النهاية في غريب الحديث» ٣/ ١٦٩.

(٣) رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد ٤/ ١٣٠ و٢٠٢، وأبو يعلىٰ (١٥٧١)، وابن خزيمة (٤٨٣، ٩٣٠، ١٨٩٥)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٢٧)، والحاكم ١/ ١١٧ و١١٨. قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

وقوله: (فإنه) أي: الداعي المذكور. وقوله: (من جُثىٰ جهنم) بضم الجيم مقصور أي من جماعاتها، جمع جثوة بالحركات الثلاث، وهي الحجارة المجموعة، وروي: «من جُثيّ» بضم الجيم وتشديد الياء: جمع جاثٍ، وهو من جثا علىٰ ركبتيه. وجُثي: وكسر الجيم فيها جائز لما بعدها من الكسر، وقرئ بهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: الآية ٧٢] وقراءة حفص بكسر الجيم.

قال العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز:

«وهٰذا الحديث[١] الصحيح من أوضح الأحاديث وأبينها في إبطال الدعوة إلىٰ القومية، واعتبارها دعوة جاهلية؛ يستحق دعاتها أن يكونوا من جُثىٰ جهنم، وإن صاموا وصلوا وزعموا أنهم مسلمون. فيا له من وعيد شديد، وتحذير أكيد، ينذر كل مسلم من الدعوات الجاهلية، والركون إلىٰ معتنقيها وإن زخرفوها بالمقالات السحرية، والخطب الرنانة، والخيالات الواسعة التي لا أساس لها من الحقيقة، ولا شاهد لها من الواقع، وإنما هو التلبيس والخداع والتقليد الأعمىٰ الذي ينتهي بأهله إلىٰ أسوأ العواقب. نسأل الله السلامة من ذلك»[٢].

ومن دلائل نبوته ﷺ: أنه أخبرنا في الحديث الصحيح الثابت: أنه سيقوم بين ظهراني المسلمين ناس يدعون إلىٰ إقامة مجتمعاتهم علىٰ أسس من الجاهلية الباطلة، وحذَّر أمته ﷺ منهم، وإن كانوا

(١) أي حديث الحارث الأشعري (انظر ص٨٣).
(٢) «نقد القومية» ص ١٩-٢٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يتكلمون بلساننا ويقيمون بيننا.

فلا أساس للمجتمع عند المسلمين إلا العقيدة، عقيدة التوحيد، أما الدعوات الأخرىٰ من قومية واشتراكية ووطنية ومصلحة مادية، ورأسمالية، وما إلىٰ ذلك من الدعوات، فهي دعواتٌ باطلة تقود إلىٰ النار، والعياذ بالله تعالىٰ.

عن حذيفة ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله، إنا كُنَّا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهٰذا الخير، فهل بعد هٰذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم**». قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَن**». قلت: وما دَخَنه؟ قال: «**قومٌ يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر**». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاةٌ علىٰ أبواب جهنم. من أجابهم إليها قذفوه فيها**». قلت: يا رسول الله، صِفْهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**». قلت: فما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**». قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت**»[(١)].

قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «فهٰذا الحديث العظيم الجليل يرشدك أيها المسلم إلىٰ هٰؤلاء الدُّعاة اليوم الذين يدعون إلىٰ أنواع من الباطل؛ كالقومية، والاشتراكية، والرأسمالية الغاشمة، وإلىٰ الخلاعة والحرية المطلقة وأنواع الفساد، كلهم دعاة علىٰ أبواب جهنم، سواء علموا أم لم يعلموا، مَن أجابهم إلىٰ باطلهم قذفوه في

---

(١) رواه البخاري (٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧)، وانظر دراستنا لهٰذا الحديث في ص١٣٨ وما بعدها..

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جهنم»[(١)].

لابُدَّ من دراسة تاريخية لنشوء فكرة القومية العربية؛ لأن هٰذه الدراسة تلقي أضواءً ساطعة علىٰ واقع هٰذه الفِكرة وأهدافها، ويحسن الرجوع إلىٰ الكتب الكثيرة التي أُلفت في هٰذا الموضوع، ومن أهمها «يقظة العرب» لجورج أنطونيوس، و«مذكرات الشقيري»، و«أعمدة الحكمة السبعة» وغيرها.

ولا بُدَّ من دراسة دور اليهودية العالمية في إنشاء القومية العربية، فلا شكَّ في أن لها دخلا مع كل التحفظات من المبالغة في مخططات اليهود.

ولابد من ذكر أثر الملحدين الأتراك الذين آلت إليهم السلطة بعد سقوط الخلافة والذين قاموا بعملية التتريك فأيقظوا النعرات القومية في شعوب الدولة العثمانية.

ولابُدَّ من دراسة أثر الإنكليز ودفعهم الشريف حسين لخدمة فِكرة القومية العربية، وإنشائهم جامعة الدول العربية.

ولابُدَّ من دراسة أثر النصارىٰ العرب، ودور الجامعة الأمريكية في بيروت في إنشاء هٰذه الفِكرة والدعوة لها.

ولا بُدَّ من دراسة حياة بعض الأعلام الذين عملوا لهٰذه الفكرة من أمثال: ساطع الحصري، وزكي الأرسوذي، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وجورج حبش، والكتب التي أُلِّفت حول حزب البعث العربي الاشتراكي من قِبل أفراد بعثيين ومن قبل آخرين.

إن ذلك - إن تم - يبين المؤامرة التي حِيكت بإتقان لمحاربة الإسلام، والله غالب علىٰ أمره ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

(١) «نقد القومية» ص ٢٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العقيدة أولا ثم سائر أحكام الإسلام

إن المجتمع الإسلامي مجتمع يقوم علىٰ العقيدة الإسلامية: عقيدة التوحيد، العقيدة التي تظهر آثارها في كل جانب من جوانب هٰذا المجتمع، وتنبثق عنها المؤسسات التي تقوم فيه. فلننظر كيف وجّه النبيُّ ﷺ ولاته في إقامة المجتمع وسياسته ورعاية شؤونه. ومن الأمثلة علىٰ ذلك حديث معاذ رضي الله عنه لما أرسله ﷺ إلىٰ اليمن.

عن ابن عباس، عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ اليمن فقال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلىٰ شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله**» وفي رواية: «**فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: عبادة الله عز وجل**»

قال: «**فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنَّ الله ٱفترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة.**

فإن هم أطاعواَ لذلك فأعلمهم أنَّ الله ٱفترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ»[(١)].

هناك مسألةٌ تتعلق بالحديث: هل هو من مسند معاذ، أو من مسند ابن عباس؟

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٤٣٤٧، ٧٣٧٢)، ورواه مسلم (١٩) من حديث ابن عباس عن معاذ بن جبل، والنسائي ٥/٢، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥)، وابن ماجه (١٧٨٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والجوابُ: أنَّ الحديث من مسنديهما: فقد أخرج مسلم الحديث في روايةٍ[1] بسنده إلىٰ ابن عباس عن معاذ، فهو بهٰذا من مسند معاذ.

وسائر الروايات التي في الصحيحين تقف عند ابن عباس؛ فهو بناءً علىٰ هٰذه الروايات من مسند ابن عباس. وعندئذ فهو: إمَّا أن يكون من مراسيل ابن عباس، الذي سمع الحديث من معاذ ولم يسمِّه، ومراسيل الصحابة صحيحة؛ لأنهم كلهم عدول كما قرَّر ذلك علماء الحديث، ولا تضرُّ جهالة الصحابي، فكيف وقد علمنا أن ابن عباس سمَّاه في بعض الروايات وهو معاذ.

وإما أن يكون الحديث سمعه ابن عباسٍ من معاذ مرة، وسمعه مرة أخرىٰ من رسول الله ﷺ، وليس هٰذا ببعيد؛ فقد كان الحديث في أواخر حياة النبيِّ ﷺ كما ذكر الإمامُ البخاري، وحضور ابن عباس محتملٌ في ذلك الوقت.

هٰذا الحديث يدلُّنا علىٰ أنَّ المجتمع الإسلامي مجتمعٌ يقوم علىٰ عقيدة التوحيد، ولذا فقد أخرجه مسلمٌ رحمه الله في: كتاب الإيمان، كما سبق بيانه، وتأتي الصلاة بعد الإيمان في الأهمية، ثم الزكاة.

وأوامر الدين التي يقوم عليها لا بد من أن يكون تحققها في مجال من المجالات الثلاثة الآتية وهي:

المجال الاعتقادي، والمجال البدني، والمجال المالي، وهٰذه الأركان الثلاثة: التوحيد، والصلاة، والزكاة، التي وردت في

---

(١) مسلم رقم (١٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث جمعت بين هٰذه الجوانب.

فالشهادتان تمثلان الجانب الٱعتقادي، والصلاة تمثل الجانب البدني، والزكاة تمثل الجانب المالي، والواجبات التي أوجبها الشرع علىٰ أتباعه لابُدَّ أن تكون في هٰذه الجوانب، فالصوم بدني، والحج ماليٌّ وبدني، والجهاد ماليٌّ وبدني، وهكذا.

وهٰذا الحديث من الأحاديث التي قالها ﷺ في آخر حياته؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل معاذًا إلىٰ اليمن قبل حَجَّة الوداع كما ذكر ذلك البخاريُّ، وقيل: كان ذلك في أواخر سنة تسع عند منصرفه من تبوك، والقولان متقاربان. وقيل غير ذلك. واتفقوا علىٰ أن معاذًا لم يزل علىٰ اليمن إلىٰ أن قدم في عهد أبي بكر رضىٰ الله عنه، ثم توجَّه إلىٰ الشام فمات بها.

ولقد كان معاذٌ في اليمن ذا سلطة واختلفوا في طبيعة هٰذه السلطة، فقيل: كان واليًا. وقيل: كان قاضيًا. والله أعلم، وشاركه في البعث إلىٰ اليمن أبو موسىٰ الأشعري؛ كما جاء في البخاري وغيره.

ومعاذٌ رضي الله عنه أنصاريٌّ خزرجي كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام، أسلم وهو فتىٰ، وآخىٰ النبيُّ ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي طالب، وشهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها. ولما أُصيب أبو عبيدة في طاعون عَمَواس في الشام ٱستخلف معاذًا وأقره عمر، ومات سنة ١٨هـ.

وقوله ﷺ: **«ستأتي قومًا أهل كتاب»** يدلُّ علىٰ أن اليهودية دخلت في اليمن، ولا يدلُّ علىٰ أن جميعهم كانوا من أهل الكتاب، بل كان فيهم من أهل الكتاب ومن غيرهم.

وقوله ﷺ: **«فادْعُهم إلىٰ شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله»**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يدلُّ علىٰ الأصل الذي يقوم عليه الإسلام، وهو ٱلٱعتقاد بهاتين الكلمتين. قال ابن حجر: «وقعت البَداءَةُ بهما؛ لأنهما أصل الدين الذي لا يَصِحُّ شيء غيرهما إلا بهما. فمن كان منهم غير موحِّد، فالمطالبة متوجهةٌ إليه بكل واحدةٍ من الشهادتين علىٰ التعيين، ومن كان موحدًا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية، والإقرار بالرسالة...واستُدلَّ به علىٰ أنه لا يكفي في الإسلام ٱلٱقتصار علىٰ شهادة «أن لا إلٰه إلا الله» حتىٰ يضيف إليها الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة»[1].

ومما يلفت النظر أن الرسول ﷺ في هٰذا الحديث لم يذكر إلا هٰذه الأركان الثلاثة:

١- الشهادتين.

٢- وإقامة الصلاة.

٣- وإيتاء الزكاة.

ولم يذكر الصومَ ولا الحجَ مع أن الأركان الأخرىٰ كانت مفروضةً، وكذلك كانت واجبات عدة مفروضة، وكان ٱلٱقتصار علىٰ هٰذه الأمور الثلاثة في هٰذا الحديث، وذلك لأهميتها في الدين كما تدلُّ علىٰ ذلك النصوص المتكاثرة، ولأثرها في حياة الفرد والمجتمع.

وقيل: ٱقتصر في الدعاء إلىٰ الإسلام عليها لتفرع الركنين الأخيرين من أركان الإسلام عليها، فإن الصوم عبادة بدنية محضة، والحج عبادة بدنية مالية.

---

(١) «فتح الباري» ٣/ ٣٥٨-٣٥٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والحق أن هٰذه الأمور الثلاثة هي أصعب ما في هٰذه الدعوة الكريمة، فكلمة الإسلام شاقة علىٰ الكفار، لا سيما إن كانت حياتهم ومصالحهم المادية مرتبطة بتلك الطواغيت التي تُعبد من دون الله، واعتيادهم علىٰ عبادتها، وألفتهم لها تجعل نبذها والكفرَ بها أمرًا عسيرًا عليهم، وإننا لنقرأ في كتاب الله ﷻ يحكي قوْلَهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾[سورة ص].

وقال قومُ هود لنبيهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ [الأعراف: الآية ٧٠]

وقال قومُ صالح لنبيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ [هُود]

وكذلك قال قومُ شعيب لنبيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ [هُود]

والصلواتُ شاقةٌ لتكررها قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البَقَرَة] جاء في «تفسير القرطبي»[١] «.. والمصلِّي يمتنع من جميع ذلك فجوارحُه كلُّها مقيدة بالصلاة عن جميع الشهوات، وإذا كان ذلك كانت الصلاة

(١) أنظر «تفسير القرطبي» ١/ ٣٧٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أصعب علىٰ النفس ومكابدتُها أشدّ».

ومن هنا أمرنا بأن نعوِّد أولادنا بنين وبنات علىٰ الصلاةِ قبل أن تُفرضَ عليهم حتىٰ إذا بلغوا رشدَهم وأصبحوا محلَّ التكليف سهل عليهم أداؤها.

والزكاة شاقةٌ علىٰ النفس؛ لما في جبّلة الإنسان من حُبِّ المال والبخل وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النِّساء: الآية ١٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر]

فإذا أذعن المرءُ لهٰذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها. والموضوع: هو موضوع دعوة وليس موضوع بيانٍ تفصيلي لأركانِ الإسلام، ففي مجال البيان التفصيلي لابُدَّ من ذكر الأركان الخمسة كلها، أما إذا كان المجال مجال دعوة فإن ذكر هٰذه الأمور مقدَّمٌ علىٰ غيرها، وهو في الوقت ذاته ممهد لبقية الأركان والواجبات والمندوبات.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التدرج أمر مطلوب

عندما ندعو إلىٰ إقامةِ المجتمعِ الإسلامي لابُدَّ من أن نُقدِّم الدعوةَ إلىٰ الشهادتين، ثم إقامَ الصلاة، ثم إيتاءَ الزكاة؛ كما أوصىٰ بذلك رسولُ الله ﷺ معاذًا عندما أرسله إلىٰ اليمن. وذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه(١) الذي رواه ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

والإسلامُ يتضمنُ واجبات أخرىٰ غير الأركانِ الخمسة، يتضمن واجبات كالجهاد في سبيل الله، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك. ولكن البَدَاءة إنما تكون بهٰذه الأمور الثلاثة. والترتيب الوارد في الحديث ترتيبٌ في الدعوة، والترتيب في الدعوة لا يستلزم الترتيب في الوجوب، فالصلاةُ والزكاةُ لا ترتيب بينهما في الوجوب، ولا يلزم من عدم الإتيان بالصلاة إسقاط الزكاة. ويمكن أن يقال أيضًا: إن مَن أقرَّ بالتوحيد وأنكر وجوب الصلاة كان كافرًا وبذلك يصير ماله فيئًا فلا تنفعه الزكاة.

قال الخطابيُّ: إنَّ ذِكْرَ الصدقة أُخِّرَ عن ذِكْرِ الصلاة، لأنها إنما تجب علىٰ قوم دون قوم، ولأنها لا تتكرر تكرار الصلاة.

وهٰذا الحديث العظيم يدلنا علىٰ أمرٍ في غاية الأهمية، وهٰذا الأمرُ هو اتباعُ المراحلِ التي ينبغي أنْ يسلكها الدعاةُ والقادة وأولو الأمرِ في إقامةِ المجتمعِ الإسلامي، والتدرجُ في مطالبة الناس،

(١) سبق تخريجه ص٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والبداءةُ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب؛ لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمنِ النفرة.

إن مراعاة الأولويات شيء أساسي في نجاحِ الدعوات، وكثيرًا ما يغفلُ الدعاةُ عن هٰذا الأمر.

إنَّ كلَّ كُلِّية وجُزئية جاء بها الشرعُ المطهر وأمر بها علىٰ وجه اللزوم واجبة التطبيق، والتهاون فيها يحمل معنىٰ سيئًا لا يليقُ بالمسلم أنْ يتصفَ به، وجهلُها إن كانت مطلوبةٌ علىٰ وجه اللزوم نقص في المسلم لا يجوزُ أنْ يستمر فيه، ولكن هٰذا شيء، والتدرجُ في مطالبة الناسِ بالالتزام بالإسلام شيءٌ آخر.

إن هناك أولويات تُطلبُ من المسلم أولا، ثم تأتي أمورٌ أخرىٰ تُبنىٰ عليها وتليها في الأهمية.

ومراعاةُ هٰذا يحقق أمرين اثنين:

١- **الأمر الأول:** سلامةُ الأعمال التي يُطلب فِعْلُها من الإنسان؛ لأنَّ الأمورَ الأُولىٰ أساسٌ يُبنىٰ عليه، فكما أن السقَف لا يركب إلا علىٰ أركان وأُسس فكذلك الأمور الأخرىٰ لا تصح ولا تُقبل إلا إذا تقدمتها الأسس، وهٰذا أمر مُطَّرد في الفِكر والعلم والاجتماع وكلِّ شيء، فالصلاةُ وهي أهم أركان الإسلام العملية لا تصحُّ ولا تُقبلِ إلا إذا كانت مبنيةً علىٰ تحقق الشهادتين.

ما أحرانا -ونحن مهتمون بإقامة المجتمع الإسلاميِّ- أنْ نُراعي هٰذه الأولويات، لا يجوزُ أنْ نُطالبَ النصرانيَّ بالصلاةِ والصيام قَبْلَ أنْ نَدْعوه إلىٰ كَلمةِ التوحيدِ، ولا ينبغي أنْ نأمره ببعضِ الواجبات التي تَشْغَلُ عن الواجبات الأكثر أهمية؛ نفهمُ ذلك من قوله

ﷺ: «**فإنْ هُمْ أطاعوا لذلك فأخبرهم أنّ الله...**».

وهناك ملاحظةٌ لُغويةٌ يُفيدُ أن نذكرها؛ لأنها تسهم في توضيح المعنىٰ: فعل (أطاع) متعد بنفسه. تقول: أطاع فلانٌ الله ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النِّساء]

ولكننا نجد هٰذا الفعلَ في الحديثِ قد عُدِّيَ باللام؛ وذلك لأنه تضمن معنىٰ (انقاد).

وفائدةُ التضمينِ: أنَّ الفعلَ يُصبحُ دالًّا علىٰ معنيين: المعنىٰ الأصليُّ للكلمةِ، والمعنىٰ الذي يتعلَّق باللام، فقوله: «**أطاعوا لذلك**» معناه: أطاعوا ذلك وانقادوا له من أعماقهم.

والتدرجُ في إبلاغِ الناسِ مبادئَ الدين، وسلوكُ المنهج المرحليِّ أمرٌ مطلوب، فلا يليقَ أن نطلب من كافرٍ أو متشكِّك في الدين أو مُلحدٍ يُنكرُ وجودَ الله أو مشركٍ يؤمن بالطاغوت، لا يليق أن نطلب من واحد منهم أداء واجب من الواجبات التي لا تصح إلا بالإيمان، وكذا طلب المندوبات.

وهٰذا أمرٌ قد يقع فيه بعضُ الدعاة الذين لم يدرسوا الوسط الذي يتكلمون فيه.

إنَّ من الواجب علىٰ الداعية أن يعلمَ حق العلمِ طبيعةَ المجتمع الذي يواجهه بالدعوة، وأن يبدأ بالأساسيات وعليه أن يتجنب المنفّرات.

إننا لا نريد قهر الناس ولا تبكيتهم، بل نريد هدايتهم وجلبهم..

إن كثيرًا من الأمور التي يصعب علىٰ الناس قبولها من دعوتنا لو بدأنا بها لنفروا منا، وأعرضوا عنا، ولكننا لو بدأنا بذكر محاسن

الإسلام وما أعدّ الله لمن يؤمن به من الثواب لاَستجابوا لنا .. أجل سيستجيب لنا هؤلاء الناس عندما تستقر الدعوة في قلوبهم، ويصبح ما كانوا يكرهونه حبيبًا إلىٰ نفوسهم، ومن الأمثلة الموضحة: موقف الداعية في وسط ألف السفور والحسور.. أو ألف الموسيقىٰ والغناء.. لو بدأناهم بإنكار هٰذه المحرمات، وهي تستحقّ الإنكار لأعرضوا عنا وعن دعوتنا.. ولكننا لو أخّرنا التعرض إليها حتىٰ نطمئنّ إلىٰ أنّ إيمانهم أصبح قويًا، والخوفَ من الله يملك عليهم تصرفاتهم لاستجابوا لنا في إنكارها وانقادوا إلىٰ الحق راضين من أعماق قلوبهم طائعين.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا. ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا[(١)].

أقول: بهٰذا التدرج والاَعتماد علىٰ العقيدة نجح الإسلام في تحريم الخمر والقضاء عليه كما تقول السيدة عائشة. بينما أخفقت حكومة أمريكا عندما أرادت منعه علىٰ الرغم من الأموال والجهود الكثيرة التي بذلتها، واضطرت إلىٰ إباحته مرة أخرىٰ سنة ١٩٣٣م[(٢)].

إنَّ التدرج يسهّل علىٰ الداعي أداءه لمهمته، ويسهّل علىٰ المدعو الاَقتناع بالفكر الذي يُدْعَىٰ إليه، ثم العمل به، ومن أجل ذلك كان التدرج هو السبيل الذي جاء به ديننا العظيم.

وقيمةُ الصلاةِ في المجتمعِ الإسلامي لا تحتاجُ إلىٰ بيان؛

(١) رواه البخاري برقم (٤٩٩٣).

(٢) انظر كتاب: «ماذا خسر العالم بأنحطاط المسلمين» ص٩١ .

شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالأحاديثُ الواردةُ في قيمتها وأهميتها أكثرُ مِنْ أنْ تُحصىٰ في هٰذه الكلمة.

ويكفينا في ذلك حديثُ ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**بُني الإسلامُ علىٰ خمسٍ: شهادةِ أنْ لا إلٰه إلا الله؛ وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصوم رمضان، وحجِّ البيت**»[1].

وعن عمرو بن مُرة الجهني ﷺ قال: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدتُّ أنْ لا إلٰه إلا الله وأنَّك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وأديت الزكاة، وصمت رمضان وقمته، فممَّن أنا؟ قال ﷺ: «**من الصديقين والشهداء**»[2].

إن المجتمعَ الإسلاميَّ لا يعرفُ المتأملُ فيه عاقلا مكلفًا لا يصلِّي، إنه مجتمعُ السمو والاتصال بالله، وليس هناك طريقٌ للسمو والاتصال بالله غير العبادة، وليستْ هناك عبادةٌ أفضلَ مما ٱفترضه الله علىٰ عباده.

ولذلك كانت الصلاةُ علىٰ مَرِّ القرون سمةً أصيلةً من سماتِ المجتمعات الإسلامية وقد أخبر الرسولُ أنَّ آخر ما يُفقدُ من الدين الصلاة.

والحرصُ عليها حرصٌ علىٰ أعظم مظهر من مظاهر الدين.

والصلاةُ المطلوبةُ هي الصلاةُ التي يتحقق فيها الخشوعُ والإخباتُ لله

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) رواه البزار كما في «كشف الأستار» (٢٥)، ورواه ابن خزيمة (٢٢١٢)، وابن حبان (٣٤٣٨)، والطبراني في «معجم الشاميين» (٢٩٣٩). وأورده المنذري في «الترغيب والترهيب» ١/ ١١٤. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ٤٦: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو أنَّ إسناده حسن أو صحيح. وتعقبه الحافظ ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» (١٥) قائلا: بل هو صحيح قطعًا، فشيخا البزار ثقتان.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحضورُ القلبِ، قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [سورة المؤمنون] فجعل أوَّل صفةٍ من صفاتِ المؤمنين الخشوعَ في الصلاة، وكذلك فإنَّ من صفاتهم المحافظةَ عليها، قال تعالىٰ في ذكر صفات المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون].

وللصلاةِ أثرٌ في نفسِ الفردِ، والصلاة تملأُ الجانبَ الوجدانيَّ منها وتصله بالله، وتمدُّ روحَه بالغذاء، ولها أثرٌ في المجتمع، فهي تنهىٰ صاحبَها عن الفحشاءِ والمنْكر قال تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت].

أمر رسولُ الله ﷺ معاذًا عندما أرسله إلىٰ اليمن أن يبدأ بدعوة الناس إلىٰ الشهادتين: التوحيد والإيمان بنبوَّةِ محمدٍ ﷺ، وأمره -إن هم ٱستجابوا لذلك- أنْ يأمرَهم بالصلواتِ الخمْسِ التي ٱفترضها الله عليهم. وأَمْرُهم بالصلواتِ عنوانٌ يندرجُ تحته كلُّ ما يتعلقُ بالصلاة من معرفةِ أوقاتها وشروطِ صحتها وأركانِها وسننها ومبطلاتها؛ إذ لا يمكنهم أن يؤدوا ما أمروا به إلا بمعرفة هٰذه الأمور.

وبعد ذلك تبدأُ الخطوةُ الثالثةُ، نعم إذا خالطتْ العقيدةُ السليمةُ قلوبَهم فآمنوا وحَسُن إيمانُهم، واتَّجهوا بعبادتهم إلىٰ الله وحده كما أمر الله سبحانه؛ سَهُلَ عليهم أن يُواجَهوا بالتكاليف الأخرىٰ.

قال رسول الله ﷺ: «**فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنَّ الله ٱفترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ في فقرائهم**»

وقد لفتتْ هٰذه القطعة من الحديث أنظارَ عددٍ من المحدثين

أصحابِ الكتب الستَّةِ أكثر من الجُمَل الأخرىٰ في الحديث حتىٰ جعلتهم يوردون هٰذا الحديثَ في باب الزكاة دون غيره من الأبواب، كأبي داود والنَّسائي والترمذي وابن ماجه.

إنَّ في هٰذه الجملة بيانًا واضحًا لأهمية الزكاة، وأنها من الأولويات المقدَّمة، وأنَّ الله سبحانه ٱفترضها علىٰ المؤمنين كما ٱفترض عليهم التوحيدَ والصلاةَ.

والزكاةُ هي الفريضةُ التي تُبرزُ الجانبَ التعاونيَّ الإلزاميَّ في الشريعة الإسلامية المطهرة، إنها تمثل التكافل الاجتماعي في أجلىٰ صوره؛ إذ يؤمر المكلَّفون أن يؤدوها طواعيةً؛ فإنْ أبوا أُخذتْ منهم قَهْرًا بقوة الدولة، فإن ٱمتنعوا قوتلوا علىٰ أدائها، ورضي الله عن الخليفة الأول العظيم الذي قاتل مانعي الزكاة وأقسم أنه سيقاتلهم ولو منعوهُ عِقالًا كانوا يُؤدونه لرسول اللهﷺ.

إنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ مجتمعٌ متضامنٌ متكافلٌ متعاونٌ، يشعر كلُّ فردٍ فيه بمسؤوليته نَحْوَ إخوانه، وقد شبَّهه الرسول ﷺ بالجسد الواحد.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطُفِهم كمثل الجسد الواحد، إن ٱشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**»(١).

إن ترابطَ أعضاء المجتمع الإسلامي بعضهم ببعضٍ ترابطٌ عضوي دائمٌ ما دامت الحياة، فالتراحمُ والتوادُّ والتعاطفُ أمورٌ قائمةٌ بين المؤمنين كما يقوم هٰذا التعاطفُ والترابطُ بين أعضاء الجسدِ الواحدِ،

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

فإذا ٱشتكىٰ إنسانٌ من ألم في إصبع رِجْلِه؛ ٱمتنع عليه النومُ وارتفعتْ درجةُ حرارته، وكذلك لو ٱشتكىٰ ضرسًا من أضراسه أو أي عضو آخر تراه يتألَّم، وقد يتأوه ويصيح، ويسارع إلىٰ الطبيب يبتغي علاجه.

فالتراحم قائم بين أفراد المجتمع المسلم، يرحم الكبير الصغير، ويرحم القوي الضعيف، ويرحم الغني الفقير، فلا يصيب في هٰذا المجتمع المثالي الواقعي فردًا من أفراده مكروهٌ إلا ويرحمه إخوانه الذين يعلمون به، بل إن الرحمة في المجتمع الإسلامي تتجاوز أبناء آدم إلىٰ الحيوانات العجماوات، فإذا رأىٰ إنسان كلبًا يلهث من العطش فسقاه كان ذلك سببًا لمغفرة الله له ورحمته؛ لأنَّ في كُلِّ كَبدٍ رَطْبَةٍ أجرًا. عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسـول الله ﷺ قـال: «**بينما رجل بطريقٍ اشتدَّ عليه العطش فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرىٰ من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هٰذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني؛ فنزل، فملأ خفه ماءَ ثم أمسكه بِفِيهِ حتىٰ رقي، فسقىٰ الكلب، فشكر الله له فغفر له**» قالوا: يارسول الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجر؟ فقال: «**في كل كبد رطبةٍ أجر**»[1]. ومن حبس هرَّةً فلم يطعمْها ولم يتركْها تأكلُ من خشاشِ الأرض دخل النَّارَ بسبب ذلك. عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عذبت امرأةٌ في هِرَّة سجنتها حتىٰ ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[2]. وللرحمة مجالٌ آخر في المجتمع الإسلامي سنذكرها بالتفصيل إن شاء الله.

---

(١) البخاري (٢٤٦٦)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢).

وفوق التراحم نجد التوادَّ[1] بين أفراد المجتمع، إنهم يتبادلون الودَّ الصادق، ويحب كل واحدٍ منهم أخاه. وكيف لا يكونون كذلك وهم أتباع محمد ﷺ الذي جعل الحب في الله من أوثق عُرىٰ الإيمان. عن البَراءِ بن عازب ﷺ قال: كنَّا جُلوسًا عند النبي ﷺ فقال: **«أيُّ عُرىٰ الإسلام أوثق؟»** قالوا: الصلاة؛ قال: **«حسنةٌ. وما هي بها»** قالوا: الصيام؛ قال: **«حسنٌ، وما هو به»** قالوا: الجهاد؛ قال: **«حسنٌ. وما هو به»** قال: **«إن أوثق عُرىٰ الإيمان أنْ تُحب في الله وتُبغض في الله»**[2].

ويقرر ﷺ أن من أحب أخاه في الله وجد بسبب ذلك حلاوة الإيمان في قلبه، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كان الله ورسولُهُ أحبَّ إليه مِمَّا سواهما، ومن أحبَّ عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن كره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار»**[3].

وصيغة التواد التي جاءت في حديث النعمان بن بشير تدلُّ علىٰ أن ذلك كان متبادلا من الطرفين ويستتبع الحبُّ الاهتمامَ بشؤون المسلمين والاتصال بهم وعيادة مريضهم وزيارتهم فيكون التواصل المؤكد لوحدة المجتمع وتآخيه، وقد وصف القرآنُ ذلك فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وفوق التواد التعاطفُ، إذا كانتْ الرحمةُ عاطفةً روحيةً ساميةً، وكان الودُّ أمرًا قلبيًا، فإن هناك شيئًا عمليًّا تظهر آثاره المادية وهو

(١) انظر مبحث (الحب في الله) في كتابنا: «خواطر في الدعوة إلىٰ الله» ص ١٨٨.

(٢) رواه الطيالسي (٧٤٧)، وابن أبي شيبة في الإيمان (١١٠)، وأحمد ٤/ ٢٨٦، والروياني (٣٩٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» وانظر: «الصحيحة» للألباني (٩٩٨).

(٣) رواه البخاري (١٦، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

التعاطفُ، فلا يطيب عيشٌ للمسلم الصادقِ حتىٰ يرىٰ إخوانَه المسلمين سُعداء. وبنحو الذي قلنا قال ابن أبي جمرة -كما جاء في «فتح الباري»[1]- قال: «الذي يظهر أنَّ التراحم والتوادَّ والتعاطفَ وإن كانت متقاربةٌ في المعنىٰ، لٰكن بينها فرقٌ لطيفٌ؛ فأمَّا التراحمُ فالمراد به: أن يرحم بعضهم بعضًا بأخوَّة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، وأما التوادُّ فالمرادُ به: التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي.

وأما التعاطف فالمراد به: إعانةُ بعضهم بعضًا، كما يعطف الثوب عليه ليقويه».

وانظروا -رعاكم الله- إلىٰ هٰذا الحديث الصحيح الرائع في معنىٰ التعاطف، يقول ﷺ: «**ليس المؤمن الذي يَشْبَع وجارُه جائع إلىٰ جنبه**»[2].

إن هٰذا الحديث الجميل الذي يُشَبِّه الرسولُ فيه المؤمنين بالجسد الواحد سبق إلىٰ معنىٰ ٱجتماعي صحيح؛ لم تهتد له العقول إلا بعد قرون متطاولة. إننا نلمس في هٰذا الحديث الرائع مساواة الناس بالنسبة لمشاركة إخوانهم لهم في أحاسيسهم ومشاعرهم، فمهما كان الفرد المصاب هيِّنَ الشأن، وضيعَ المكانة، فإنه موضع الرحمة والعطف والمواساة من قِبَلِ إخوانه المسلمين، يسوؤهم ما يسوؤه، ويألمون لما يألم منه.

إن الظفر إذا ٱنكسر تألَّم الجسمُ كله، وهكذا الشأن في المجتمع.

---

(١) «فتح الباري» ١٠/ ٤٣٩.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٢)، والطبراني في «الكبير» ١٢/ (١٢٧٤١)، وأبو يعلىٰ ٥/ ٩٢، والحاكم ٤/ ١٦٧ من حديث عبد الله بن عباس ﷺ. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وقال الألباني: هو صحيح بما له من الشواهد. انظر «الصحيحة» (١٤٩).

وفي الحديث إشارة إلىٰ أن هٰذه الأعضاء، وإن كانت كلها موضع العطف والمواساة متفاوتة، فالقلب والرأس ليسا كالظفر والأصبع والسن، إنَّ السنَّ يمكن أن يقلعه الإنسان المتألم فيستريح منه، لٰكن القلب والرأس ليسا كذلك.

إنَّ العالِمَ والمربي والإمامَ العادل يختلفون في الأثر الذي تتركه الإصابة بهم، إن الكارثة بفقد واحد من هٰؤلاء ليست كالكارثة بفقد إنسان عادي لا أثر له في المجتمع، وإن كانت الكارثة بهٰذا الإنسان العادي تبقىٰ كارثة يتأثر لها بقية أعضاء المجتمع.

فالفقير أخو الغني، والمال مال الله، جعله الله بين أيدي الأغنياء ليبتليهم، قال تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام] وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥].

وجعل في هٰذا المال حقًّا للسائل والمحروم، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الذاريات].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج] فمن أخرج الزكاة ووضعها في مصارفها؛ يكون قد أدىٰ الأمانة، وأوصل الحق إلىٰ أصحابه، وليس له في ذلك مِنَّةٌ ولا فضل، فإن لله المِنَّةَ عليه أن آتاه مالا ويسَّر له سبيل

الخير في أداء الحق لأصحابه، ولكن الله ﷻ من فضله العظيم وكرمه الواسع يثيبه علىٰ ذلك ويجعله- إن أدَّاها وأقام الصلاة وأتىٰ بالواجبات الأخرىٰ -من الصديقين والشهداء كما مرَّ بنا آنفًا في حديث عَمرو بن مُرَّة الجهني.

ألا ما أعظم فضل الله! وما أجلَّ مِننه! وما أوسع كرمه!

إن الصدقة الواجبة في مال المكلّف حقٌّ لأصحابها الذين ذكرهم الله في كتابه في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التّوبة] فمقدارها من ذلك المال ليس لمن يملك المال، بل هي للفقراء والمساكين، والسائلين والمحرومين، والبائسين والمحتاجين، وغيرهم ممن ذَكَرَ الله سبحانه. فمَن منع الزكاة كان آكلًا مال غيره، وعرَّض نفسه لعقوبة الدولة المسلمة في الدنيا وأخذها منه قهرًا، وعرَّض نفسه لعذاب أليم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة]

إن في المسلمين اليوم أغنياء كبارًا، وزكاتهم تشكل مبلغًا ضخمًا جدًّا، والفقراء والمعوزون في المسلمين كثيرون؛ ولا سيما في البلاد التي ٱبتُلي أهلها بِشَرٍّ ما عرفه العصر الحاضر وهو (الاشتراكية) المسمومة التي حوَّلت الأغنياء إلىٰ فقراء، وأبقت

الفقراء فقراء، ولم تحقق إلا البؤس والشقاء، وخفضت مستوىٰ الدخل، وتفاقم الغلاء، وعمَّت الفاقة والعناء، وأوقدت بين أفراد الأمة نيران العداوة والبغضاء.

لو أخرج الأغنياء زكوات أموالهم ووضعوها في مصارفها التي حدَّدها الله، لم يبقَ محتاجٌ ولا فقير، ولا بائس ولا مسكين.

إن إخراج الزكاة علىٰ وجهها الصحيح يحوَّل الفقير إلىٰ غني، ذلك أن الفقير القادر علىٰ العمل تُيسِّرُ له الزكاةُ الوسائل التي يعمل بها فيكسب؛ ليكون عضوًا منتجًا في المجتمع، يستغني عن تلقي الزكاة، أو مَدِّ يده لأخذ الصدقة.

قال الإمام النووي في كتابه «روضة الطالبين»(١):

«والفقير والمسكين يُعطيان ما تزول به حاجتهما، وتحصل كفايتهما، ويختلف ذلك باختلاف الناس والنواحي: فالمحترف الذي لا يجد آلة حرفته، يُعطىٰ ما يشتريها به، قلَّت قيمتُها أو كثرت، والتاجر يُعطىٰ رأس مالٍ ليشتري ما يُحسن التجارةَ فيه، ويكون قَدْر ما يفي ربحه بكفايته غالبًا، وأوضحوه بالمثال فقالوا: البقلي يكتفي بخمسة دراهم، والباقلاني بعشرة، والفاكهيُّ بعشرين، والخبَّاز بخمسين، والبقال بمائةٍ، والعطار بألفٍ، والبزاز بألفي درهم، والصيرفي بخمسة آلاف، والجوهري بعشرة آلاف».

وقال أيضًا(٢): «مَنْ لا يحسن الكسب بحرفة ولا تجارة؛ قال العراقيون وآخرون: يعطىٰ كفاية العمر الغالب. وقال آخرون- منهم الغزالي والبغوي-: يعطىٰ كفاية سنة؛ لأنَّ الزكاة تتكرر كل سنة».

---

(١) «روضة الطالبين» ٢/ ٣٢٤.

(٢) الموضع السابق.

الزكاة... والإيثار

إذًا ليست الزكاة صدقةً هزيلةً تدفع حاجةً يوميةً، ثم يعود الفقير إلىٰ العَوَزِ والسؤال، لا، ليست كذلك، بل هي وسيلة لاستئصال شأفة الفاقة والعوز من المجتمع، أجل، إنها كذلك، كأنَّ الدولة المسلمة عندما تدفع الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين القادرين علىٰ العمل بحرفة أو تجارة تقول لهم: أعطيناكم هٰذه السَّنة، ونريد منكم منذ الآن أن تستغنوا بالكسب الحلال، ونرجو أن نراكم في العام المقبل مِمَّن يدفع الزكاة، لا مِمَّن يأخذها.

أما العاجزون عن العمل فهٰؤلاء تكون مؤونتهم علىٰ الدولة والجهات الخيرية التي تستقبل الزكوات والصدقات. وهم معذورون.

إنَّ المجتمع الإسلامي مجتمع يكره البطالة ويقضي عليها، ويُحرِّم السؤال من غير حاجة ملجئة، ويسهل للناس أسباب العمل، ويعينهم علىٰ تخطي العقبات.

ولقد أتىٰ علىٰ هٰذه الأمة حينٌ من الدهر أدىٰ الموسرون فيه ما أوجب الله عليهم من الزكاة، ووزعتها الدولة علىٰ مستحقيها فامَّحت الحاجة، وانتهت الفاقة، وتحققت الكفاية للناس، ولم يجد وليُّ الأمر في سَنَةٍ من السنوات من يستحقُّ الزكاة ولا من يقبلها.

وفي كتب السُّنَّة نماذج رائعة من الإيثار والتعاون، والبذل والتعاطف، نذكر بعضها فيما يأتي، وفي عرض هٰذه النماذج صور ناطقة عن الحياة الاُجتماعية السامية التي تحققت في ظلال الإسلام:

أخرج الحاكم في «مستدركه» عن ابن عمر قال: أُهدي لرجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ رأسُ شاةٍ، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلىٰ هٰذا منّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلىٰ آخر، حتىٰ تداوله سبعة أبيات، حتىٰ رجع إلىٰ الأول، فنزلت ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: الآية ٩] (١).

وأخرج ابن المبارك أن أبا جهم بن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمي، ومعي شنة(٢) من ماء وإناء، فقلت: إن كان به رمقٌ سقيته من الماء، ومسحت به وجهه. فإذا أنا به ينشغ(٣) فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمي أن انطلقْ به إليه، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص، فأتيته فقلت له: أسقيك؟ فأشار أن نعم. ولكنَّه سمع آخر يقول: آه. فأشار هشام أن انطلق إليه. فجئته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات، ثم أتيت ابن عمي فإذا هو قد مات(٤).

وقال ابن كثير: «وهكذا الماء الذي عرض علىٰ عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلىٰ صاحبه، وهو جريح مثقل، أحوج ما يكون إلىٰ الماء، فردَّه الآخر إلىٰ الثالث، فما وصل

---

(١) انظر «المستدرك» ٢/ ٤٨٤.   (٢) قربة صغيرة.

(٣) ينشغ: أي يشهق.

(٤) انظر «الزهد والرقائق» لابن المبارك ص ١٨٥ برقم (٥٢٥) و«تفسير القرطبي» ٨/ ٢٨. وقد أشار ابن حجر إلىٰ القصة في «الإصابة» ٤/ ٣٦.

إلىٰ الثالث حتىٰ ماتوا عن آخرهم ولم يشرب أحد منهم ﷺ. وأرضاهم»[1].

عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: أتىٰ رجلٌ لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلىٰ نسائه فلم يجد عندهنَّ شيئًا. فقال النبي ﷺ: «**ألا رجلٌ يضيف هٰذا الليلة رحمه الله؟**» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله.

وفي رواية لمسلم: أنه أبو طلحة- فذهب إلىٰ أهله، فقال لامرأته: هٰذا ضيف رسول الله ﷺ، لا تدخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فَنَوِّميهم، وتعاليْ فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت، ثم غدا الرجل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**لقد عجب الله ﷻ- أو ضحك- من فلان وفلانة**». وأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: الآية ٩][2].

وعن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم في المدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اْقتسموه بينهم في إناء واحد**

---

(١) اْنظر «تفسير ابن كثير» ٤/٣٣٨ و«البداية والنهاية» ٧/١٢ وقد ذكر ابن قتيبة قصةَ عكرمة في «عيون الأخبار» ١/٣٣٩-٣٤٠ وردها قائلا: [وهٰذا الحديث عندي موضوع، لأنّ أهل السيرة يذكرون أن عكرمة قتل يوم أجنادين، وعياش مات بمكة، والحارث مات في طاعون عَمواس] وانظر كتابنا «وقفات مع الأبرار» الفقرة رقم ٣٥٩.

(٢) رواه البخاري (٣٧٩٨، ٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

بالسَّويَّة؛ فهم منِّي وأنا منهم»[1].

يُثني رسول الله ﷺ علىٰ هٰذا الحي من الأشعريين قوم أبي موسىٰ ﷺ، ويخبر أنهم كانوا إذا ٱفتقروا وهم في الغزو، أو قَلَّ طعام عيالهم وهم مقيمون في المدينة تضامنوا فجمعوا ما كان عندهم من طعام في ثوب واحد، ثم يقتسمون هٰذا الذي جمعوه بالسوية بينهم، وبعد أن قصَّ رسول الله ﷺ واقع أولئك القوم قال: «**فَهم منِّي وأنا منهم**» وكفاهم هٰذا شرفًا وثناءً. إنهم متعاطفون متعاونون، لم يتركوا واحدًا منهم يتضور جوعًا.

أيُّ مجتمع هٰذا الذي تصوره هٰذه الروايات المذكورة؟! إني لأحسب أن رواية هٰذه الأخبار تغني عن أي تعليق أو تحليل.

إنها صور واقعية من حياة القوم، ترجمت المعاني الكريمة إلىٰ واقع حيٍّ ملموس.

لم يَبْقَ التوجيه القرآني كلامًا يردِّده التالون، بل تحَّول إلىٰ تعاون قام في حياة هٰؤلاء القوم.

إن ذلك كله ثمرة من ثمرات عدة جناها القوم يوم أن التزموا بالإسلام، وهكذا كان السلف الصالح كما يعبر عنهم الحديث الجميل «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يَشدُّ بعضه بعضًا**»[2]

وفي كتب السيرة نماذجٌ رائعةٌ من الإيثار والود والتعاون تجدها عند ذِكْر هٰذه الكتب لموضوع الهجرة.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠) وانظر «أحاديث القصاص» بتحقيقنا رقم ٤.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) والترمذي (١٩٢٨) والنسائي ٥/ ٧٩.

أسباب نجاح المجتمع الإسلامي

كثيرًا ما يكون ٱهتمام المؤرخين والناس عمومًا بالأوضاع السياسية في الأمة، فهم يعيرون جانب الدولة والحكام ٱهتمامًا كبيرًا، ولا ينتبه كثيرٌ منهم علىٰ أن الأساس الذي تقوم عليه الدولة وتقرر مواقفها السياسية هو المجتمع.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «فالمجتمعُ هو الأساس الذي يقوم عليه بناء الدولة، وحين يكون متينًا قويًّا سيظلُّ بناء الدولة ثابتًا شامخًا؛ لا تزلزله العواصف، ولا تصيبه القلاقل بالتصدِّع والانهيار»(١) ٱنتهىٰ كلامه.

هٰذه حقيقة لا بُدَّ من أن نقرِّرها وننبه عليها ونحن نعرض الحياة الٱجتماعية في ضوء ما جاء في كتب السُّنة.

إنَّ الدولة عندما تكون مستندةً إلىٰ مجتمع متماسك تقوم بشوؤنه، وترعىٰ عقيدته، وتصون مقدساته، وتحمي مُثُلَه، وتنسجم مع تطلعاته؛ تضمن لنفسها التأييد والبقاء، وتكون عندئذ الدولة المثالية الفاضلة.

وهناك مؤسسة تأتي قبل المجتمع، وهي مؤسسة الأسرة، فلا نستطيع أن نجد المجتمع المتين المتماسك إلا إذا كانت الأُسر فيه متينة متماسكة.

والأفراد هم اللبنات التي تتشكل منها الأُسر ثم المجتمع.

والفرد الصالح هو الذي جمع أمرين ٱثنين:

---

(١) «نظرات في الإسلام» (المقدمة).

١- العقيدة الصالحة السليمة.

٢- والخلق الزكيّ الحسن.

ولو نظرنا إلىٰ المجتمع الإسلامي -من خلال النصوص والوقائع- لوجدنا عناية بالغة بالفرد لا تفوقها عناية، واهتمامًا كبيرًا بالعقيدة والخلق لا يسمو عليه ٱهتمام.

والعقيدة الصادقة هي التي تتجلّىٰ في العمل الصالح والسُّلوك المستقيم، ومن هنا ٱقترن الإيمان بالعمل الصالح في كتاب الله كثيرًا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥].

والخلق الحسن المنبثق عن العقيدة يحقق تعاونًا بَنَّاءً بين أفراد الأمة المسلمة.

وبالعقيدة المرتبطة بالعمل والخلق الحسن قام هٰذا المجتمع العظيم الذي أقامه الإسلام.

قال الدكتور دراز:

«إن رسالة الإسلام حين بسطت جناحها في أقلَّ من قرنٍ علىٰ نصف المعمور؛ كانت كأنما أنشأته خَلْقًا آخر، لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنًا واحدًا، ومن قوانينه المختلفة قانونًا واحدًا، ومن آلهته المتعددة إلهًا واحدًا، لقد نفذت إلىٰ جوهر نفسه فحوَّلته تحويلا، وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا، بل عمدت إلىٰ لغته فأضافت لغة القرآن لسانًا إلىٰ جانب لسانه، وكثيرًا ما أنسته لسانه الأصيل، وجعلت لسان الإسلام هو لسانه الوحيد، ثم هي لا تزال في كل عصر تتلقىٰ معاول الهدم من أعدائها فتتكسر هٰذه الصدمات علىٰ صخرتها، وهي قائمة تتحدىٰ الدهر، وتنتقل من نصر إلىٰ نصر، فليحاول الباحثون ما شاءوا

أن يعرفوا مصدر هٰذه القوة الغلابة، وهٰذا الأنتصار الباهر، إن هٰذا النجاح ليس مردُّه في نظرنا إلىٰ سبب واحدٍ من الأسباب، ولا إلىٰ فضيلة واحدة من الفضائل؛ لقد تضافرت عليه شخصية الداعي، ومنهاج دعوته، وشخصية الأمة التي تلقت الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهٰذه الرسالة حتىٰ بلغت كمالها.

أما صاحب الرسالة، وما أدراك من صاحب الرسالة، فحسبك منه أنه عليه الصلاة والسلام جمع خِلالًا كل واحدة منها كانت عنصرًا فعالًا في هٰذا النجاح، خِلالًا نَعدُّ منها ولا نَعدُّها، ونرسم شيئًا من جوانبها ولا نحدُّها: صبر ومصابرة، وجدٌّ ومثابرة، وحرص علىٰ بلوغ الغاية، والتزام لأدق حدود الصدق في الوسيلة والغاية.

تلطف في الدعوة، وقصد في الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة.

سخاء بما في اليد، وزهد فيما بأيدي الناس، تضحية بحظوظ نفسه، وتنازل عن حقوق شخصه، أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة، فعزيمة متوفرة لا تني، وصلابة في الحق لا تنثني.

هٰذه الخلالُ الفُضْلىٰ، وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم ﷺ من ينبوعٍ ذي ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل:

إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها، وحب للإنسانية واهتمام بإنقاذها، وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها أقصىٰ غايتها.

نعم، إن هٰذا القلب الذي يمتلئ إيمانًا وحكمة يفيض في الوقت نفسه حنانًا ورحمة، ويطالع في الأفق دائمًا أملا باسمًا في النجاح والفلاح، لا أقول: إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب، فإنَّه وإنْ كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر، فهو- كما وصفه الله- رحمةٌ للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص علىٰ خيرهم وسعادتهم، مشفق علىٰ عنتهم وشقوتهم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٨] ولا أقول: إنه كان يداعب أملا في نجاح جزئي يخصُّ عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرىٰ ومن حولها، ولكنه كان يحمل أملا في نجاح محيط شامل ينتظم البشرية كلها.

ألم تر كيف كان كلُّ ٱنتقاص من محيط هٰذا النجاح ٱنتقاصًا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادةً في أحزانها وآلامها؟ هٰذا القلب الرحيم كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يرىٰ طائفة من إخوته في الإنسانية يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة، أو في حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله؟

كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول ٱستنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه وتردوا أمامه في الهاوية متهافتين علىٰ ضعفهم، كما يتهافت الفراش علىٰ النار.

لابُدَّ إذًا أن يعيد الكرة، وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة، عسىٰ أن يتحقق له هٰذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح وقد مُلئت برًّا وعدلا، وسعادة وكرامة...

إيمان قوي، وحب عميق، وحرص علىٰ ٱقتناص الأمل البعيد،

ذلك هو سرُّ عزمه المتوقد، وجهاده المتجدد، الذي كان أول عوامل النجاح.

هٰذا العامل من جانب صاحب الرسالة يسنده ويؤيده عاملٌ آخر من جانب الأمة التي تلقت تلك الدعوة، أمة ألمعية الذهن، مرهفة الحسِّ، حفيظة للحمىٰ، أَبية للضيم. ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الأولىٰ لكل غريب، وما هو إلا أنْ فتحت عينها علىٰ كُنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شعورها وتفكيرها، فحملت مِشعله بسواعدها القوية، وقلوبها الفتية، هكذا تجاذبت نفسية الداعي والمدعو فالتقت القوتان في حلقة مفرغة حملت إلىٰ العالمين رسالة الإسلام»[1].

رأينا أنَّ الزكاة تقوم بتحقيق التكافل في المجتمع الإسلامي، وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهٰذه الزكاة فرضت في مجتمع رُبِّيَ علىٰ الحب والألفة والتعاون والأخوة والوحدة، فلقد كان أفراده يتسابقون إلىٰ الخير والبر، ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وقد عرضنا آنفًا بعض الوقائع التي تدل علىٰ ذلك، وأود أن أضيف واقعة صوَّرتها كُتب السنة، وهي ذات دلالات كثيرة.

أخرج البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه والترمذي وأحمد ومالك وغيرهم[2] هٰذه الواقعة، وأكمل الروايات ما نجده في

---

(١) «نظرات في الإسلام» ص ٦-٨.

(٢) رواه البخاري (٢٠٤٩، ٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦)، ومسلم (١٤٢٧)، وأبو داود (٢١٠٩)، والترمذي (١٠٩٤)، والنسائي ٦/ ١٢٨، وابن ماجه (١٩٠٧)، ومالك ٢/ ٥٤٥، وغيرهم.

«صحيح البخاري»، وسأورد هٰذه القصة التي بلغت حدَّ البطولة في الإيثار والجود من روايات البخاري التي أوردها في مواضع مختلفة من «صحيحه» سأوردها في نسق واحد.

ذكر البخاري أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قدم المدينة، فآخىٰ النبيُّ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان سعدٌ ذا غنىٰ، فعرض عليه سعدٌ أن يُناصفه ماله وأهله قائلا: إني أكثر الأنصار مالا، فأَقْسِمُ لك نصف مالي، ولي ٱمرأتان فانظر أيتهما هويتَ نزلت لك عنها -وفي رواية: فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أُطلقها -فإذا حلَّت تزوَّجتها- وفي رواية: فإذا ٱنقضت عدتها فتزوجها-فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، هل من سوقٍ فيه تجارة؟ دُلَّني علىٰ السوق. قال سعد: هناك سوق قينقاع. فخرج عبد الرحمن إلىٰ السوق فباع واشترىٰ، فما رجع حتىٰ ربح شيئًا من أقط وسمن، فأتىٰ به أهل منزله. ثم تابع الغدو؛ فرآه النبي ﷺ بعد أيام وعليه وضر -أي: أثر من صفرة- فقال النبي ﷺ: «**مَهْيَمْ**» -أي: ما شأنك؟ أو: ما هٰذا؟- **يا عبد الرحمن؟**» قال: يا رسول الله، تزوجت ٱمرأة من الأنصار. قال ﷺ: «**ما سقت فيها؟**» فقَالَ: وزن نواةٍ من ذهب. فقال النبي ﷺ: «**بارك الله لك، أولم ولو بشاة**».

قال العلماء: وزن نواة الذهب خمسة دراهم. وقال ابن حجر في «الفتح»[(١)]: «ليست (لو) هٰذه الٱمتناعية، وإنما هي للتقليل».

إن هٰذا الحديث الرائع ليصور لنا مدىٰ تماسك المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، ومدىٰ تحقق المؤاخاة التي أراد الرسول

(١) ٩/ ٢٣٥.

ﷺ أن تقوم بين أفراد المجتمع الواحد.

إن مجتمعًا يقوم علىٰ هٰذه المعاني مجتمع لا يمكن أن يقهر، ويستطيع أن يأتي بالأمور الجسيمة.

هاجر المسلمون من مكة إلىٰ المدينة اْمتثالا لأمر الله جلَّ وعزَّ، وتركوا أموالهم وديارهم وأهلهم ووطنهم، وكل ذلك عزيز علىٰ الإنسان، وأتوا المدينة دار الهجرة، مهاجرين لله ورسوله، وحلُّوا فيها غرباء.

والغريب يستوحش، ويحنُّ أبدًا إلىٰ بلده، يخشىٰ أن يصيبه ما يصيب الغرباء عادة من الذلة والتعرض للظلم، ولٰكن هٰؤلاء المهاجرين كانوا طرازًا آخر عجيبًا، لم يكونوا غرباء، ولم يشعروا بالوحشة التي يشعر بها الغريب، ولم يروا إلا الإكرام والاحترام.

لقد هاجروا بعد أن دخلوا في الإسلام ليجدوا في مهاجرهم الوسط الذي يتيح لهم أن يقيموا شعائر هٰذا الدين ليحكموا به؛ وليعملوا علىٰ إقامة المجتمع المثالي العظيم، فاستُقبلوا أكرم اْستقبال من قبل الأنصار الذين رحَّبوا بهم، وأنزلوهم في بيوتهم، وكانوا كما تمثل سيدنا أبو بكر الصديق[1] بأبيات طفيل عند ذكر الأنصار، فقال: ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال طفيل:

جَزىٰ الله عنَّا جعفرًا حين أزلقتْ ... بنَا نعلنا في الواطئين فَزلَّتِ
أَبوا أَنْ يملونا ولو أنَّ أمَّنا ... تُلاقي الذي لا قوه منا لملَّتِ
هُمُ أَسْكَنونَا في ظِلالِ بُيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأتْ وأظلَّت

انتقلوا من دار الشرك التي لقوا فيها المهانة والاستهزاء،

---

(١) «ديوان طفيل» ٩٨ و«فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر» ص ٢٣ و«زهر الآداب» ١/ ٣٣.

والشتيمة والمقاطعة والإيذاء، والتكذيب والتعذيب الذي طغىٰ، وجاوز حدَّ الٱحتمال عند المستضعفين الذين لا ناصر لهم في مجتمع قَبَلي، بل لقد لقي بعضهم وجه ربَّه شهيدًا بسبب هٰذا التعذيب.

انتقلوا من هٰذا الوسط الكئيب إلىٰ وسط يُكرمون فيه ويُحترمون، ويتاح لهم فيه أن يحققوا ما يريدون من الخير والعبادة، وأن يستزيدوا فيه من المعرفة بهٰذا الدين، وأن يُعدُّوا أنفسهم للانطلاق إلىٰ الدنيا كلها، يُبلِّغون الناس رسالة الله، ويخرجون الناس المظلومين من ظلمات الجاهلية إلىٰ نور الإسلام بهٰذا الدين العظيم الذي أكرمهم الله به، وينقذون بهٰذا الدين إنسانية الإنسان من المهانة إلىٰ الكرامة والعدالة.

ولما ٱستقر المهاجرون في المدينة أقام الرسول الكريم ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، فآخىٰ رسول الله ﷺ بين المهاجر عبد الرحمن بن عوف والأنصاري سعد بن الربيع.

وهنا تبدو أصالة سعد، ويظهر معدنه الكريم، والناس معادن.

فيقول سعد لعبد الرحمن: يا أخي، إني من أكثر الأنصار مالا، وسأقسم هٰذا المال بيني وبينك نصفين. ولي زوجتان فأدعوك أن تنظر إليهما، فأيهما أعجبتك طلقتها، فإذا ٱنقضت عدتها تزوجتها.

ولما كان سعد من أغنىٰ الأنصار فسيكون نصيب عبد الرحمن من المال كبيرًا جدًّا، وكان بإمكان سعد ﷺ أن يزوجه أي ٱمرأة من الأنصار، وهو يتكفَّل بنفقات الزواج، ولٰكن الإيثار الذي بلغ عنده القمة حمله علىٰ أن يتنازل عن شيءٍ ثمين، فقد ذاق طعم السعادة بهاتين الزوجتين الصالحتين، فهو يريد أن يخصه بإحداهما.

أكاد أجزم أن هٰذه أعظم من الأولىٰ، أن يطلق ٱمرأته ليتزوجها أخوه في الإسلام، ليس هٰذا أمرًا سهلا علىٰ العربي الغيور. ولقد كان جادًّا في عَرْضِه كلَّ الجدِّ، ولا شك أن هٰذا العرض المؤثّر ترك في نفس عبد الرحمن سرورًا عظيمًا، وشعورًا بالغًا بصدق أخوة هٰذا المضيف.

ولٰكن إباء عبد الرحمن، وعزة نفسه جعلته يقول: بارك الله لك في مالك وأهلك، دلَّني علىٰ السوق، هل من سوقٍ عندكم فيه تجارة؟ فيجيبه سعد: نعم، هناك سوق قَيْنُقَاع. وهو فيما يبدو سوق تجاري مهم سُمّي باسم قبيلة من قبائل اليهود، منازلها قريبة من السوق.

فذهب ﷺ وعمل في التجارة، وكسب ومازال يكسب من الحلال، حتىٰ ٱجتمع له من المال ما يغنيه وما يمكنه من الزواج والاستقرار.

إن الإنسان في المجتمع الإسلامي ما دام قادرًا علىٰ الكسب لا يرضىٰ أن تكون يده سفلىٰ، ولو كان العطاء عن طيب نفس من قريب أو صديق.

لقد رَبَّىٰ الإسلام أتباعه علىٰ عِفَّة النفس، والترفع عن الأخذ من الناس، وعلىٰ الزهد بما في أيديهم، ولم يبح لهم السؤال إلا عند الضرورة القصوىٰ، ورغبهم في العمل والكسب.

وهكذا كان موقف عبد الرحمن بن عوف ﷺ من أخيه في الله سعد بن الربيع عندما عرض عليه مناصفته ماله وأهله، فقال له: بارك الله لك في مالك وأهلك، دلَّني علىٰ السوق.

وسيدنا عبد الرحمن قرشي من أهل مكة التي ٱشتهر أبناؤها

بالتجارة، ولما دلُّوه علىٰ السوق مضىٰ يعمل، ولم يرجع إلا ومعه أقط وسمن.. لقد كان ﷺ ماهرًا في التجارة نشيطًا في تعاطيها، والتجارة إن ٱتقىٰ المرءُ فيها ربَّه من أفضل الكسب.

إن الله يكره العبد البطال، الذي يحلو له أن يعيش علىٰ عطايا الآخرين، أو علىٰ صدقاتهم، أو علىٰ الديون التي يقترضها.

إن المجتمع الإسلامي مجتمع عمل لا يعرف الكسل ولا العجز، وأفضل الكسب أن يأكل المرء من عمل يده.

ولقد ٱمتلأت نفوس المؤمنين بهٰذا الهدي الكريم في كل عصر من العصور، فالإمام أبو حنيفة المُتوفَّىٰ (١٥٠ هـ) كان تاجرًا وكان يأكل من كسب يده، والإمام الليث بن سعد المُتوفَّىٰ (١٧٥ هـ) كان دخله ثمانين ألف دينار في السنة، وما وجبت عليه زكاة قط[1]، وأمير المؤمنين في الحديث، الإمام المجاهد التاجر: عبد الله بن المبارك المُتوفَّىٰ (١٨١ هـ) كان يعمل في التجارة.

وقد عُرف عدد من العلماء بالمهن التي كانوا يعملون بها ونُسبوا إليها، وقد ٱتخذ بعضهم مهنة النسخ، فكانوا ينسخون الكتب والمصاحف ويعيشون من كسبهم فيها.

وإني لأعرف عددًا من العلماء الأجلاء كانوا تجارًا ويأكلون من كسبهم: منهم[2]: الفقيه الشافعي الورع الأمَّار بالمعروف والنهَّاء عن

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» ٢/ ٧٣-٧٤.

(٢) ومنهم الشيخ عبد الحميد كيوان، والشيخ عبده الصباغ إمام المسجد الأموي والشيخ أحمد القشلان وغيرهم كثير. وقد كنت عازمًا علىٰ كتابة بحث عن هٰؤلاء العلماء التجار الدمشقيين، ولكن صرفتني صوارف عن ذلك. وذكرت هٰذا الآن.

المنكر، والجريء في قول الحق شيخنا الشيخ صالح العقاد[1] المُتوفَّىٰ (١٣٩٠هـ)، ومنهم علامة المعقول والمنقول ووحيد عصره في الفروع والأصول، الشيخ عبد الحكيم الأفغاني[2] المتُوفَّىٰ (١٣٢٦ هـ) الذي كان يشتغل مع فَعَلة الطين؛ ليأكل من كَدِّ يمينه، وعرق جبينه، فرارًا من الأكل بالدين، فإذا ٱشتهر أمره في بلدة هاجر منها فورًا إلىٰ غيرها، يعمل ويأتي بما يكفيه في نفقته، ولا يستدين من أحدٍ شيئًا؛ لأنه لا يعرف لنفسه دخلا في المستقبل يمكنه به قضاء الدين.

وهكذا فإن المسلم الكريم الحر يؤثِر أن يعمل أي عمل مشروع ما دام قادرًا علىٰ العمل مهما كان دخل هٰذا العمل قليلا، ولا يأخذ من أحد شيئًا.

وظلَّ عبد الرحمن بن عوف ﷺ يغدو كل يوم إلىٰ السوق، وما لبث أن كوَّن لنفسه رأس مال يمكنه من الكسب والعمل المستمر، واتَّخذ له مسكنًا، ثم وفَّقه الله وتزوَّج ٱمرأة من الأنصار.

وبعد أيام لا أشهر رأىٰ رسول الله ﷺ عبد الرحمن وعليه بشاشة العرس وآثاره.

فسأله عن ذلك، فقال: تزوَّجت ٱمرأة من الأنصار. فسأله عن المهر، فقال: نواة من ذهب، وهو مهرٌ قليلٌ، فسأله: «**هل أولمت؟**» قال: لا. قال: «**فأولم ولو بشاة**».

إنَّ الحديث المذكور يقدِّم لنا صورةً حيةً عن جانب من الحياة

---

(١) وقد كتبت له ترجمة، وهي فصل من كتاب لي في تراجم من أعرف من العلماء يسَّر الله أسباب نشره.

(٢) ٱنظر ترجمته في «عمدة التحقيق» لمحمد سعيد الباني ص ٦٣.

الاّجتماعية، فالزواج سهلٌ والمهور قليلةٌ.

وهٰذا ما نفتقده في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؛ إذ أقام الناس عقبات وعقبات في طريق الزواج، وما وضع الناس عقبة في سبيل الزواج إلا كان ذلك سببًا لفساد في المجتمع وشقاء في البيوت.

إننا بحاجة إلىٰ جيل ينبذ هٰذه العقبات، ويعود إلىٰ ما كان عليه السلف الصالح من تسهيل وتيسير لأمر الزواج.

نعم، إذا أردنا المحافظة علىٰ أخلاقنا الإسلامية العفيفة الكريمة فلا بُدَّ من تسهيل الزواج، وكذلك إذا أردنا الحرص علىٰ الصحة النفسية لأبناء أمتنا، وأن تكون هٰذه الأمة بعيدة عن الأمراض والعقد فلا بُدَّ من تسهيل الزواج.

إن المبالغة في الشروط التي تُطلب من الشاب الناشئ الراغب في الزواج من العقبات التي تقوم في وجه الزواج، وغلاء المهور وإقامة الحفلات والمآدب الضخمة، كل ذلك من العقبات التي تعوق الزواج، وتعود علىٰ الأمة بأسوأ النتائج. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ الله مِنْ فَضْلِهِ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. [النُّور: الآية ٣٢]

فقد يكون الزواج سببًا من أسباب الغنىٰ ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

والحديث الذي هو موضوع دراستنا شاهد لذلك، فهٰذا عبد الرحمن بن عوف جاء وليس يملك شيئًا، فعمل وتزوَّج فأضحىٰ من الأثرياء الكبار، وقد وفقَّه الله في عمله. قال عبد الرحمن بن عوف: «فلقد رأيتني ولو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب ذهبًا أو فضة».

جاء في «فتح الباري»[1]: «فكأنه قال ذلك إشارة إلىٰ إجابة الدعوة النبوية بأن يبارك الله له». وجاء فيه أيضًا[2]: «قال أنس: فلقد رأيته قُسم لكل ٱمرأة من نسائه بعد موته مائة ألف. قلت: مات عن أربع نسوة. فيكون جميع تركته ثلاثة آلاف ألف ومائتي ألف».

وفي الحديث: مشروعية الوليمة[3]، والوليمة هي الطعام الذي يُقدَّم بمناسبة العرس، وذهب الجمهور إلىٰ أنها سُنة مؤكَّدة وإلىٰ أن إجابتها فرض، وذهب الظاهرية -كما ذكر ابن حزم- وبعض الشافعية إلىٰ أنها واجبٌ.

وأما وقتها فقد ٱختُلف فيه: هل هو عند العقد؟ أو عقبه؟ أو عند الدخول؟ أو عقبه؟ أو وقتها موسَّع من ٱبتداء العقد إلىٰ ٱنتهاء الدخول؟

والمسارعة في إقامتها عند العرس أقرب إلىٰ الصواب، والله أعلم.

وقال العلماء: لا حَدَّ لأكثرها ولا لأقلها، فتحصُل بما تيسَّر، وهٰذا تابع للوضع الماديِّ للزوج، والشرع يشجع إطعام الطعام في كل مناسبة.

واستدلَّ بعض أهل العلم بالحديث علىٰ أن الوليمة تستدرك إذا فاتت بعد الدخول.

واستدلُّوا علىٰ أن الشاة أقل ما تجزئ عن الموسر، ولولا ثبوت أنه ﷺ أولم علىٰ بعض نسائه بأقل من الشاة؛ لكان يمكن أن

---

(١) ٩/ ٢٣٥. (٢) ٩/ ٢٣٥.

(٣) أورد الترمذي هٰذا الحديث في باب: مشروعية الوليمة.

يُستدلَّ به علىٰ أن الشاة أقل ما تجزئ في الوليمة، ولكن الأمر أيسر. ولله الحمد والمِنة.

وفي الحديث: مشروعية قلة المهر[1]، فنواة الذهب قلنا: إن قيمتها خمسة دراهم. وهٰذا النص يُقرِّر أن الناس في المجتمع الإسلامي لا يغالون في المهور، وهناك نصوص كثيرة تدلُّ علىٰ هٰذا المعنىٰ.

وفي الحديث: أن الدعاء للمتزوج: «بارك الله لك». وأخرج أصحاب السنن وصحَّحه الترمذي، وابن حبان والحاكم من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفَّأ إنسانًا قال: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»[2].

وفيه: مشروعية دعاء من لم يشهد التزويج، فليس هٰذا خاصًّا بمن شهده.

وفيه: الرخصة في الصُّفرة عند الزواج، ويمكن أن نقول: للرجل أن يتزيَّن؛ لأن لكل عصر طرائقه في الزينة.

---

(١) أورد أبو داود هٰذا الحديث تحت عنوان: باب: قلة المهر.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٣٨١، والدارمي (٢١٨٠)، وأبو داود (٢١٣٠)، والترمذي (١٠٩١)، وابن ماجه (١٩٠٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٥٩)، وابن حبان ١٤٨٤(موارد)، والحاكم في «المستدرك» ٢/ ١٨٣، والبيهقي ٧/ ١٤٨. وقال الترمذي: حسن صحيح. قال ابن حجر في «التلخيص» ٣/ ١٥٢: [وصححه أيضًا أبو الفتح في «الاَقتراح» علىٰ شرط مسلم]. وانظر «الاَقتراح» ص٥٠٢ تحقيق قحطان عبد الرحمن الدوري. مطبعة الإرشاد-بغداد ١٤٠٢هـ.

وفي الحديث: تصويرٌ لما كانوا عليه من الإيثار حتىٰ بالنفس والمال والأهل(١).

وفيه: جوازُ نظر الرجل إلىٰ المرأة عند إرادة تزوجها(٢).

وفيه: جوازُ المواعدة بطلاق المرأة(٣) وسقوط الغيرة في مثل ذلك(٤).

وفيه: تنزه الرجل عما يبذل له(٥).

وفيه: عرضٌ لمستوىٰ المروءة الرفيع الذي كان عليه عبد الرحمن.

وفيه: ترجيح الاكتساب بنفسه تجارة وصناعة(٦).

وفيه: استحباب المؤاخاة وحُسن الإيثار من الغني للفقير.

وفيه: أن مَن تَرَكَ أمرًا بقصدٍ حَسَنٍ صحيح عوَّضه الله خيرًا منه.

وفيه: استحباب التكسُّب، وأن لا نقص علىٰ من يتعاطىٰ من ذلك ما يليق بمروءة أمثاله.

وفيه: كراهة قَبول ما يتوقع منه الذُّل من هِبة وغيرها.

وفي الحديث: استحباب أن يأتي الضيف بشيء من الطعام لمن ينزل في دارهم، ولا سيما إن كانت إقامته طويلةً، أو كان الوضع المادي لأهل الدار ضعيفًا.

* * *

(١) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

(٢) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

(٣) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

(٤) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

(٥) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

(٦) «الفتح» ٩/ ٢٠٤.

فصل

في حديث النبي ﷺ لمعاذ حين أرسله إلىٰ اليمن: ذِكْر لعناصر ثلاثة في المجتمع الإسلامي وهم: الأغنياء، والفقراء، والحُكَّام. والواجبات المذكورة في الحديث مطلوبة منهم جميعًا، فكلهم مطالبون بكلمة التوحيد بأن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكلهم مطالبون بالصلاة، وكلهم مطالبون بالزكاة إن كانوا مالكين للنصاب.

والتكافل والتعاون قائمان في هٰذا المجتمع بين العناصر الثلاثة، فالصدقة تؤخذ من الأغنياء وتُرَدُّ علىٰ الفقراء، والحُكَّام مطالبون بالعدل واجتناب الظلم، والمحكومون من الفقراء والأغنياء مطالبون بالطاعة فيما لا معصية فيه.

أجل؛ لقد أوصىٰ الله تبارك وتعالىٰ ورسولُه ﷺ الحُكَام بالعدل، وخوَّفهم من سلاحٍ لا يقوىٰ علىٰ درئه وصدِّه مخلوق، ذلك هو دعاء المظلوم، فقال ﷺ في الحديث الذي نتأمله: «**واتقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجابٌ**»(١).

إن الحاكم يمثل القوة التي لا تعلوها قوة أرضية في منطقته، فيذكّره رسول الله ﷺ بأن هناك قوةً أعظم وأكبر من قوته، وهي قوة الله ﷻ.

وإن المظلوم الذي لا يملك سوىٰ الدعاء يحمل سلاحًا ماضيًا فتَّاكًا لا تستطيع قوىٰ الأرض أن ترده، إنه سهام الدعاء.

---

(١) وانظر كتابنا «من هدي النبوة» ص ١٠٠ وما بعدها وما قبلها.

ويذكِّر الحديثُ الحاكمَ بأن الله يجيب دعوة المظلوم ويتلقاها؛ لأنه ليس بينها وبين الله حجاب.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهم: الصائم حتىٰ يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[1].

وفي لفظٍ: «**ثلاثة حقٌّ علىٰ الله أن لا يردَّ لهم دعوة: الصائم حتىٰ يفطر، والمظلوم حتىٰ ينتصر، والمسافر حتىٰ يرجع**».

وفي رواية للترمذي وحسنها: «**ثلاث دعوات لا شكَّ في إجابتهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد علىٰ الولد**»[2].

وعن عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة تستجاب دعوتهم: الوالد، والمسافر، والمظلوم**»[3].

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا دعوات**

(١) رواه أحمد ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٤٣، ٤٧٧، والدارمي (٣٨٢٤)، والترمذي (٣٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وابن خزيمة (١٩٠١)، وابن حبان (٨٧٤، ٣٤٨٧). وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٢٥٨، ٣٤٨، ٤٣٤، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢، ٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢) قال الترمذي: هٰذا حديث حسن.

(٣) رواه عبد الرازق في «مصنفه» ١٠/ ٤١٠، ومن طريقه: ابن خزيمة ٤/ ١١٣، والروياني في «مسنده» ١/ ١٦٠. وقال المنذري: رواه الطبراني في حديث بإسناد صحيح. انظر «الترغيب والترهيب» ٣/ ٧٦. وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن يزيد الأزرق وهو ثقة. «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٥١.

المظلوم فإنها تصعد إلىٰ السماء كأنها شرارة»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة المظلوم مستجابة، وإنْ كان فاجرًا، ففجوره علىٰ نفسه»**[2].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة المظلوم وإن كان كافرًا ليس دونها حجاب»**[3].

إنَّ الحاكم المسلم صاحب الحساسية المرهفة، والمخافة من الله الكبيرة، لتهزُّه هٰذه التحذيرات، وتردُّه إلىٰ الموقف المعتدل الذي يحول بينه وبين الظلم.

إنَّ في هٰذه الأحاديث تهديدًا للحاكم الظالم بعقوبة الله ونقمته.

وأحداث التاريخ دلَّت علىٰ أنَّ الله بالمرصاد لأولئك الظلمة الذين كانوا يسوسون شعوبهم بالخسف والقهر، والظلم والقتل،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» ١/ ٢٩ وقال: قد ٱحتج مسلم بعاصم بن كليب، والباقون من رواة هٰذا الحديث متفق علىٰ الٱحتجاج بهم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الطيالسي (٢٣٣٠)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٧٥، وأحمد ٢/ ٣٦٧، والطبراني في «الدعاء» (١٣١٨).

وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣/ ٣٦٠: إسناده حسن.

(٣) رواه أحمد ٣/ ١٥٣، ويحيىٰ بن معين في «تاريخه» ٢/ ٣٥٥، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٦٠)، والضياء في «المختارة» (٢٧٤٨) عن أبي عبد الله الأسدي، قال: سمعت أنس بن مالك، به.

وقال المنذري: أبو عبد الله لم أقف فيه علىٰ جرح ولا تعديل «الترغيب والترهيب» ٣/ ٧٦ وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٥٢: أبو عبد الله الأسدي لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح.

وبالجبروت والطغيان، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾[الفجر].

ذكر الخطيب البغدادي أن محمد بن عبد الملك ابن الزيات الوزير، كان قد صنع تنورًا من الحديد فيه مسامير إلىٰ داخله، ليعذِّب به من كان في حبسه...فأدخله المتوكل فيه، وعُذِّب إلىٰ أن مات، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين[1].

ومن قبله فرعون وهامان وقارون، وفيما بعد كان نابليون وهتلر، وغيرهم كثير.

والدعاء سلاح ماضٍ، وقد رأيت أثره في حياتي الشخصية، وكنت أرىٰ نتيجة الدعاء ماثلة أمام ناظري كفلق الصبح، لقد لجأت إلىٰ الله، ودعوته في أمور كان من المتعذر عليَّ بطاقتي البشرية أن أبلغها، فاستجاب الله دعائي وأكرمني وحقَّق بُغيتي.

وحدثني رجال ثقاتٌ صادقون أحاديثَ متعددة لجؤوا فيها إلىٰ الله

---

(١) أنظر «تاريخ بغداد» ٢/٣٤٣، و«تاريخ الطبري» ٩/١٥٩، وانظر كتابنا: «من هدي النبوة» ص ١٠٣. وانظر «وفيات الأعيان» ٤/١٨٧ طبع محيي الدين عبد الحميد، = =فقد جاء فيه: «... فكيفما أنقلب واحد منهم -أي: ممن يعذبهم فيه- أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه، فيجدون لذلك أشد الألم، ولم يسبقه أحد إلىٰ هٰذه المعاقبة، وكان إذا قال له أحد منهم: أيها الوزير أرحمنىٰ يقول له: الرحمة خور في الطبيعة، فلما أعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور، وقيده بخمسة عشر رطلًا من الحديد فقال: يا أمير المؤمنين أرحمني. فقال له: الرحمة خور في الطبيعة. كما كان يقول للناس».

لإنقاذهم من ورطة كانوا فيها بعد أن أعيتهم الحِيل ومحاولات الخلاص، فاستجاب الله دعاءهم، وأنقذهم، وذكر لي بعضهم أن مرضًا أصابهم أعيا الأطباءَ أمرُه، فدعوا الله مخلصين صادقين فشفاهم.

قال أحدهم[1] - وهو من أهل العلم والقلم -: مرضت مرضًا عُضالًا أقعدني في المستشفىٰ شهورًا وقرَّر الأطباء إجراء عملية لإخراج حصاة من موضع صعب، ولكنهم في اليوم الآتي لم يجدوا في الصور الشعاعية ما كانوا يجدونه في الصور السابقة! وتعجب الأطباء.

فقال لهم الشيخ: لا تعجبوا من أمر الله، إنه الدعاء.

ونصرة الله آتية للمظلوم ولو بعد حين، فلقد رأينا في حياتنا طواغيت بغوا وطغوا وقتَّلوا ونكَّلوا، وتصاعدت دعوات المظلومين من الأرامل واليتامىٰ، والمسجونين والثكالىٰ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ثم شرع الناس يتسابقون في كشف خزاياهم وفضائحهم، فحقت عليهم لعنة الناس والأجيال، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقىٰ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾[إبراهيم].

---

(١) هو أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي.

فصل

والحق أنَّ هٰذه العناصر الثلاثةَ: الحكام، والأغنياء، والفقراء معرَّضةٌ إلىٰ أن تقف مواقف تهدد سعادةَ المجتمعِ وعيشَهُ وسلامته، ولٰكن الإسلام العظيم وضع حدودًا يلتزمها كل واحد منهم، تحقق التعاون والسعادة والأمن.

فالفقراء ينبغي أن يواجهوا واقعهم بالجد والتخطيط، وأن يبذلوا جهدهم في تغيير واقعهم بالعمل والنشاط، وأن يجتنبوا الكسل والخمول، وأن يكونوا أغنياء في أنفسهم ولو كان مالُهم قليلًا؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول: **«ليس الغِنَىٰ عن كثرة العَرَض، ولٰكن الغنىٰ غنىٰ النفس»**[1] إن ٱقتناع الفقراء بأنَّ الغنىٰ غنىٰ النفس، وبأنه أمر معنوي يجعلهم أعزة، لا يذلّون ولا يرضون بالدون، بل يتطلعون إلىٰ واقع أفضل، ويسلكون في سبيل تحقيق ذلك ما شرعه الله من وسائل الكسب الحلال، إنَّ ذلكُ يُنمِّي إحساسهم بإنسانيتهم فيَصُون كرامتهم من المهانة.

إنهم أغنياءُ بإيمانهم، بتعففهم، بقناعتهم، بما كتب الله لهم.

إنهم أغنياءُ بإحساسهم بالنعم الوفيرة التي أنعمها الله عليهم، وبعافيتهم من كثير مما ٱبتلىٰ به الآخرين، إنهم أغنياء برسالتهم العظمىٰ -رسالة الإسلام- التي حملهم الله إياها، فجعلتهم شهداء علىٰ الناس يدعونهم إلىٰ الحق، ويوجهونهم إلىٰ الخير، وينقذونهم

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة.

من النار، وكم من غني كان فقيرًا في نفسه.

وينبغي أن يلهجوا بشكر الله الذي أمدَّهم بنعم لا تُعَدُّ ولا تُحصىٰ، ثمّ شكر من أحسن إليهم، وقد بشّرهم رسول الله ﷺ بأنهم أكثر أهل الجنة.

عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اطلعتُ في الجنة فرأيت أكثرَ أهلها الفقراء**»[1].

وأنهم يسبقون غيرهم إلىٰ دخولها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام**»[2].

والأغنياء ينبغي أن يواسُوا إخوانهم، ويساعدوهم، وأن يخرجوا زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، وأن يتصدقوا فوق ذلك علىٰ المحتاجين من المسلمين، وأن يعلموا أن شكر النعمة في إخراج حق الفقير، وأداء ما أوجب الله علىٰ المسلم في المال، والمال مال الله، والناس مُستخلَفون فيه، قال تعالىٰ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحَديد].

وقد بدأ الإسلام توجيهه -في هٰذه المسائل، وكل المسائل- من أعماق النفس، فغرس في النفس مخافة الله، والرغبة في رضوانه،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٩)، ومسلم (٢٧٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن حبان (٦٧٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال المنذري: ٤/ ٣٣ ورواته محتج بهم في «الصحيح»، وصححه الألباني -رحمه الله- في «صحيح الترغيب» ٣/ ٢٤٢-٢٤٣ (٣١٨٩).

ورغَّبَ المسلم في إخراج الزكاة والصدقات، ورتَّب علىٰ ذلك الثواب العظيم.

قال تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾[الحديد] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد].

وهدَّد مانعيها بأشدِّ العقوبة قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة].

والحكام ينبغي أن يسلكوا سبيل العدالة والإنصاف، ووعدهم رسول الله ﷺ إنْ هم فعلوا ذلك بأنهم يوم القيامة فائزون مكرمون.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله علىٰ منابرَ من نورٍ، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا**»[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله ٱجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعته ٱمرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر**

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

الله خاليًا ففاضت عيناه»[1].

وحذره من الظلم كما في حديثنا الذي نتأمله: **«وإياك ودعوة المظلوم»**.

وبذلك يقوم التوازن بين فئات المجتمع، وتسود الطمأنينة، ويقوم التكافل، ويتحقق التعاون، والتوادُّ، إنه مجتمع يتحقق فيه قول الرسول الأعظم ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا»**[2] فلا الفقير يضيع، ولا الغني يبخل، ولا الحاكم يظلم.

تُؤخذ الزكاة من الأغنياء وتُرَدُّ علىٰ الفقراء، يقوم بذلك ولي الأمر، ولا يجوز له أن يأخذ نفائسَ ما يملك الغني ليجعلها للفقراء، إلا أن يرضىٰ الغنيُّ ويجود بها عن طيب نفس، إن الإسلام يريد رفع الضيم والظلم والفاقة والحرمان عن كل فردٍ في مجتمعه، فليست أحكامه لمصلحة طبقةٍ ضدّ طبقة، إنه يرعىٰ الفقراء، والأغنياء، والحكام، والمحكومين.

فوائد الحديث: في هٰذا الحديث الجميل عددٌ من الفوائد نذكر أهمها فيما يأتي:

١- التدرجُ في إبلاغ الناس مبادئ الدين، وسلوك المنهج المرحلي.

٢- في هٰذا الحديث: دليل علىٰ قبول خبر الواحد، ووجوب العمل به. وانظر تفصيل المسألة في كتابي «الحديث النبوي».

٣- وفيه: أن الكفار يدعون إلىٰ التوحيد قبل القتال، وقد سبق أن ذكرنا ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

٤- وفيه: أنه لا يحكم بإسلام المرء حتىٰ ينطق بالشهادتين، وقد سبق أن ذكرنا ذلك.

٥- وقد ٱستدل بعضهم بالحديث علىٰ أن الكفار ليسوا مخاطبين بفروع الشريعة، وهٰذا الٱستدلال موضع خلاف عند العلماء.

٦- وفي الحديث: بيان قيمة الصلاة، وأن الصلوات الخمس تجب في كل يوم وليلة.

٧- وفيه: أن الوترَ ليس بواجب، بل هو سنة مؤكدة جدًّا.

٨- وفيه: أن الإمام هو الذي يتولىٰ قبض الزكاة، وصرفها، إمَّا بنفسه، وإمَّا بنائبه، فمن ٱمتنع عن دفعها أخذت منه قهرًا.

٩- وفيه: أنه يحرم علىٰ الساعي جابي الزكاة أن يأخذ كرائم المال، بل يأخذ الوسط.

١٠- وفيه: أن الزكاة لا تدفع إلىٰ كافر ولا إلىٰ غنيٍّ.

١١- وفيه: بعث السعاة لأخذ الزكاة.

١٢- وفيه: أن الفقير لا زكاة عليه.

١٣- وقد ٱستدل بعضهم بالحديث علىٰ أن الزكاة لا يجوز نقلها عن بلد المال، وهٰذا الٱستدلال ليس بظاهر؛ لأن الضمير في قوله ﷺ: «**فترد في فقرائهم**» محتمل لفقراء المسلمين ولفقراء أهل البلد.

١٤- وفي الحديث: بيان عظم تحريم الظلم، والمنع من جميع أنواع الظلم؛ لأن دعوة المظلوم مستجابة، وليس بينها وبين الله حجاب.

١٥- وفيه: أنه ينبغي للإمام أن يعظ ولاته، ويأمرهم بتقوىٰ الله، ويبالغ في نهيهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته، وعليه أن يحذرهم من الشهوات المدمّرة ومن أهواء النفس.

وبعد فقد رأينا أنّ هٰذا الحديث الشريف قرّر أمورًا مهمة جدًا في بناء المجتمع الإسلامي الفاضل، وٱستنبط العلماء منه فوائد عديدة ذكرنا أهمها آنفًا.

* * *

وهناك أمور تتصل بالناس المدعوِّين الذين ينبغي أن يكونوا علىٰ مستوىً جيدٍ من التلقي والتفاعل مع هٰذا الدين وقبوله والتزام العمل به. . وهٰذه مسؤولية العلماء والدعاة إلىٰ الله. . إنّ عليهم أن يعملوا ما وسعهم العمل وَفْقَ خطّة مدروسة تضمن لهم -إن شاء الله- النجاح في مسعاهم، وعليهم أن يعلموا أنّ عقباتٍ كثيرةً خارجية وداخلية ستقوم في وجوههم، فليعملوا وليصبروا ولا ييأسوا.

إن أعداء الله لن يكفوا عن محاربتهم ومحاولة القضاء عليهم واستئصالهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأخطر هٰذه العقبات هدمًا ما كان من داخل المجتمع، أي: من قِبَلِ أبناء المجتمع نفسه. وحديث حذيفة(١) يسلّط الضوء علىٰ ما كان من داخل المجتمع.

إنه خطر ماحِقٌ قلَّ مَن ينتبه عليه. إن هٰؤلاء الهدَّامين من دعاة السوء إن كانوا من داخل المجتمع، لديهم من الروابط، والعلاقات ما يمكنهم من المُضِيِّ في تحقيق كثير من أغراضهم، ولديهم من الحجج التي تحميهم من ٱنتقاد المنتقدين، من نحو قولهم: إننا

(١) وقد أوردناه في ص ٨٣-٨٤ وسنورده أيضًا بعد صفحتين.

مسلمون، متمسكون بتعاليم الدين مثلكم، أو أكثر منكم، ولا مانع لديهم من ممارسة بعض الشعائر، والتظاهر بالمظهر الذي يعجب الناس، ويمكنهم من قلوبهم، فقد يتظاهرون بالزهد، ولبس المرقعات، والمبالغة في بعض الأمور التي دعا إليها الشرع، فقد يبالغون في تقصير الثياب، وترديد بعض الأذكار أمام الناس إلىٰ غير ذلك من المظاهر، ولكنهم في قرارة أنفسهم علىٰ خلاف ذلك، إنهم يريدون هدم الدين والقضاء علىٰ مبادئه، ورجاله.

وحديث حذيفة يمثل تنبيهًا للدعاة وتوعيةً للمسلمين عامة؛ ليتقوا الله؛ وليحذروا عوامل الإفساد التي تقوم من داخل المجتمع.

وقد رأينا في عصرنا هٰذا كيف أن المستعمر الكافر ٱستطاع أن يخدع بعض الشباب ليرددوا أباطيل هدامة، من نحو قولهم: إن الدين لا يصلح للحياة. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وعندما يريدون تأييد قولهم بدليل يعمدون إلىٰ الٱستدلال بفساد الدين النصراني الذي حارب العلم، واضطهد العلماء، ونشر الخرافة ودعا إلىٰ تَبنِّيها، وكل ذلك لا وجود له في دين الإسلام، الذي هو دين العلم، والعدل، والعقل، والبعد عن الخرافةِ، والتدجيلِ.

ويعظم خطرُ هٰؤلاء الشباب المخدوعين عندما تؤول بعض الأمور والمسؤوليات إليهم، نسأل الله السلامة، ونعوذ به من الزيغِ والخذلانِ.

إن هٰذا الحديث العظيم من دلائل نبوتة ﷺ؛ إذ أخبر عن أمور لم تكن، ثم وقعت، كما ذكر صلوات الله وسلامه عليه. وما أكثر هٰذه

الدلائل، وقد ألَّف العلماء كتبًا كثيرةً في دلائل النبوة[١]، وإنَّ علماء عصرنا مطالبون ببيان الدلائل التي تحققت في عصرنا.

وهٰذا الحديث يصور حرص جيل الصحابة علىٰ معرفة أمور دينهم، فحذيفة يذكر أن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وهٰذه سمة من سمات المجتمع الإسلامي، والعلم هو الخطوة الأولىٰ في طريق الجنة، ومن هنا قال ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»[٢].

وكان حذيفة يسأل عن الشر مخافة أن يدركه، فقد كان يتلقىٰ آيات الله التي تدلُّ علىٰ الخير، ويسمع أجوبة الرسول عن أسئلة السائلين، وبيانه للناس طريق الخير، وكان ﷺ يسأله عن الشر مخافة أن يقع فيه، وهٰذا درسٌ كبير لمن يريد النجاة.

إنَّ معرفة الشر سبيل لتوقّيه والحذر منه، إن كان المرء من أهل الخير والاستقامة والدين.

إنَّ كثيرًا من الأنحراف يقع فيه الناس؛ لأنهم لا يعرفون أنه أنحراف.

إن دعاة السوء وأنصار الباطل موجودون، وهم يعيشون مع الناس، فلا بُدَّ من معرفة باطلهم، وتحذير الناس منه.

ومن هنا كانت دراسة المبادئ الهدامة أمرًا واجبًا، ودحضُ دعاواها والردُّ علىٰ أقوالها، وكشفُ زيفها واجبٌ علىٰ أهل العلم.

لابد من الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله حتىٰ يكون المرء

---

(١) ذكرت عددًا منها في كتابي «بحوث في أصول التفسير».

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤) والحديث صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه». وانظر تخريجه في تعليقي علىٰ كتاب «الفوائد الموضوعة» للكرمي برقم ٧٨.

مستمسكًا بالعروة الوثقىٰ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البَقَرة: الآية ٢٥٦] .

عن حذيفة ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنَّا في جاهليَّةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهٰذا الخير، فهل بعد هٰذا الخير من شرٍّ؟ قال: «**نعم**».

قلتُ: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**».

قلتُ: وما دخنه؟ قال: «**قومٌ يهدون بغير هَديي، تعرف منهم وتُنكر**»

قلتُ: فهل بعد ذلك الخير من شرٍ؟ قال: «**نعم، دعاةٌ علىٰ أبواب جهنَّم، من أجابهم إليها قَذفوه فيها**»

قلتُ: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**»

قلتُ: فما تأمرني- يا رسول الله- إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزمُ جماعة المسلمين وإمامهم**»

قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموت**»(١).

يُمثل هٰذا الحديث اليقظة التي أقامها الإسلام في نفوس الناس، فحذيفةُ ﷺ يخاف من أن يعود مجتمعه إلىٰ الشر الذي كان فيه، فيلجأ إلىٰ الرسول المؤيَّد بالوحي، فيسأله عن المستقبل، وهو مطمئنٌ إلىٰ إعلام الله لرسوله ﷺ بما سيكون، ويعدد الأسئلة، وكلَّما أجابه عن سؤال تولد عنده سؤالٌ جديد، فيطرحه بأدب ولهفة؛ لمعرفة الموقف

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

السليم الذي سيقفه، حتىٰ يأمن الزَّلَّةَ، والانحراف، والضياع، والهلاك، وحتّىٰ تتضح له معالم الصراط المستقيم، إن المجتمع الذي أقامه الإسلام مجتمعٌ ربّىٰ أبناءه علىٰ اليقظة، والوعي، والحذر من الرجوع إلىٰ التخلف، والانحراف.

وقد نبَّه الرسول أتباعه في أحاديث متعددة، منها هٰذا الحديث، نبههم علىٰ أن عوامل الإفساد والهدم والتخريب، قد تقوم بينهم، وحذَّرهم من الوقوع في أحابيلها، ودعاهم إلىٰ مقاومة تلك العوامل، وهٰذا يتصل بإحكام بناء المجتمع، وإقامته علىٰ أسسٍ راسخة.

لقد حذَّرهم من الدجالين، ومن دعاة السوء، ومن الشيطان، وأعوانه، ومن الدنيا الغرارة.

لقد بيَّن الله تبارك وتعالىٰ، ورسولُه ﷺ للناس المحرمات وسبلَ الشيطان حتىٰ لا يقعوا فيها.

فما أكثر الآيات التي بينت المحرَّمات، والوسائل التي تؤدي إلىٰ الهلاك، وحذَّرت من الدنيا، والنفس، والهوىٰ، والشيطان، وقرناء السوء.

وما أكثر الأحاديث التي بين فيها رسول الله ﷺ ذلك كله، وحذَّر منه أعظم التحذير، ومن ذلك: ما ذكر رسول الله ﷺ من أوصاف الدجال، حتَّىٰ لا نقع في شباكه؛ فنكون من الهالكين.

وحديث حذيفة يبين أنه سيقوم ناس يهدون بغير هدي النبي الكريم، يعرف الإنسان منهم وينكر، وسيقوم بعدهم دعاةٌ علىٰ أبواب جهنم، يدعون الناس إليها ليقذفوهم فيها.

وهانحن أولاء نرىٰ، ونسمع أولئك الدعاة، الدعاة للشر

والكفر، ونستطيع أن نذكر منهم نوعين:

- نوعٌ يعلن الكفر البَواح، ويصرح بمهاجمته للدين.
- ونوعٌ دجالٌ يدعو إلىٰ الضلال باسم الدين.

وكلاهما خطيرٌ يقود أتباعه إلىٰ النار، والعياذ بالله تعالىٰ.

فهناك الدعوات الإلحادية الهدّامة التي تنكر الدين، وتكفر بالله، وتحارب الفضيلة، وتنشر الرذيلة، وتزين الفحش للناس بوسائل جذابة مشوِّقة.

ونحمد الله أن ٱنكشف عُوار كثير من هٰذه الدعوات في زماننا هٰذا، وبدا إفلاسها، وشرع حملتها يبينون بأنفسهم فسادها، ويقضون عليها بأيديهم، وينشرون عيوبها، والفضائح والخزايا التي كانت بسبب التزامها، وتحكيمها، وهٰذا من فضل الله علينا وعلىٰ الناس.

لقد ظهر عجز هٰذه الدعوات عن أن تحكم حياة الناس، كما ظهر من قبل عجز الديانات الباطلة المحرفة التي كانت تحكم الناس بالخرافات والأباطيل.

والدعوات الهدامة الأخرىٰ، والأنظمة القائمة عليها تنتظر المصير نفسه، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ، وليس ذلك ببعيد.

وهناك دعواتٌ مضللة تقوم باسم الدين، وترتدي رداءه، وتدعو الناس إلىٰ الدين المشوب بالضلال والزيف، وأصحاب هٰذه الدعوات كثروا ونموا، عندما زال سلطان الدين الحق في بعض البلدان من الحكم، وشرعوا يمارسون نشر الضلال، متسترين بكلماتٍ برَّاقة، وشعارات خدَّاعة، من نحو: الٱجتهاد، وتصفية الروح، والحرية، وما إلىٰ ذلك من هٰذه الكلمات، ويأتون إلىٰ

السذج يخدعونهم، ويستغلون جهلهم لمقاصدهم وأهدافهم فيسيرون وراءهم[1].

وقد أوردنا هٰذا الحديث للدلالة علىٰ أن الدعواتِ الجاهليةِ دعواتٌ هدامة لا يمكن أن يقوم عليها مجتمعٌ يحقق السعادة لأفراده، وأنَّ المسلم ينبغي أن يعرفها ليرفضها، ويتجنبها، وينأىٰ بنفسه وأمته عن شرِّها، إنَّ عليه أن يدرك دائمًا هٰذه الحقيقة، وهي أن المجتمع الإسلامي يقوم علىٰ عقيدة التوحيد وعلىٰ شريعة الإسلام كما بينها الكتاب والسنة، وكما فهمها علماء السلف، رضوان الله عليهم.

إنَّ علينا ونحن نعرض صورةَ المجتمعِ الإسلاميِّ أن نبين أنَّ معرفة الشر ودوافعه، والانحراف ومبادئه أمرٌ ضروري، ولا سيما إذا أدركنا أن هناك بعض الضالين أوتوا مقدرة علىٰ قلب الحقائق، وجَعْل الباطل حقًّا، والحقِّ باطلًا، وإن من البيان لسحرًا.

وإني والله لأشفق علىٰ كثيرٍ من هٰؤلاء العوام البسطاء، الذين يقعون في أحابيل بعض هٰؤلاء الدجالين المنحرفين من النوعين اللذين ذكرناهما، فلقد ضلَّ سعيهم في هٰذه الحياة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وهكذا تبدو لنا رجاحة عقل حذيفة ﷺ، وليس من شك في أنَّ هٰذا الحديث مَنْقَبَةٌ من مناقب هٰذا الصحابي الجليل، الذي كان سببًا في تجلية هٰذا الأمر الغامض أوضح تجلية، فجزاه الله عنا، وعن المسلمين الخير.

---

(١) ولو أردت أن أذكر نماذج منهم لأتيت بالعشرات؛ ولكن ذلك يخرج بنا عن حدود هٰذه الدراسة.

وكذلك فإنَّ حذيفة ﷺ كان يشعر بالنعمة العظمىٰ التي أكرمه الله بها عندما دخل في الإسلام، وحكمت شريعتُه الغرَّاءُ مجتمعَه، وكان يوازن بين حالتين: حاله قبل الإسلام، وحاله بعده؛ فيحسُّ بعظم النعمة وجلال المنَّة، وإنه لحريصٌ علىٰ أن يبقىٰ في ظلال النعمة، لا يتحول عنها، فيقول: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في جاهليةٍ وشرٍّ، فجاءنا الله بهٰذا الخير، فهل بعد هٰذا الخير من شرٍّ؟

إنَّ إحساس المرء بجلال النعمة لَيَجْعَله أكثر ٱستمتاعًا بها، وأوفر تقديرًا لها.

إنَّ نعمة الإيمان لا تقدر بثمن، إنها نعمةٌ تصون المؤمن عن الأنحدار في مسالك الحيرة، والقلق، والضياع، ولا يَعْرِف قدر النعمة إلا من كان محرومًا منها.

إن الذي نحتاج إليه في مجتمعاتنا الحاضرة هو أن ندرك أنَّ الجاهلية شرٌّ، وهٰذا مطلبٌ ينبغي أن يقوم به الدعاة؛ ليصلوا إلىٰ إقناعِ جماهير المسلمين بأنَّ ما يحياه الناس من صنوف الجاهلية شر، وإن كانت فيه جوانب براقة خداعة؛ ذلك أنَّ السذج من الناس يُخدعون بكثير من مظاهر التقدم العلمي، ومن رعاية النظام، وتطبيقه علىٰ الناس جميعًا، ونحو ذلك، والحقيقة أن ذلك كله إن خلا من المعاني الكريمة لا يخدم الإنسانَ ولا المجتمعَ ولا المُثُلَ.

فالتقدم العلمي في ظلِّ الجاهليات القائمة أمر يهدّد الإنسانية بالدمار، إنَّ أسلحة الدمار الماحق المعتمدة علىٰ ذاك التقدم العلمي تُوجَّهُ إلىٰ الإنسان، وقد أصبحت شيئًا مخيفًا يقلق المخلصين من المفكرين، إن هٰذه الأسلحة المخزونة الآن تهديدٌ لحياة البشر؛ لأن

جزءًا منها يكفي لتدميرِ الحياة علىٰ ظهر الأرض، وإفناء بني الإنسان كلهم.

أمَّا التقدم العلمي عندما يكون بأيدٍ مؤمنة صادقة فإنه سَيُسعد البشر، وسيسخر لخدمة الإنسانِ، وإكرامهِ.

لقد خسرت الإنسانية الشيء الكثير عندما تأخر المسلمون، وآلت هٰذه الحضارة المادية الضخمة إلىٰ أناسٍ لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر.

إنَّ ما يسود حياةَ الغربِ من رعاية للنظام، وتأمينٍ للضرورات، وإباحيةٍ مطلقةٍ، لم يحقق للإنسان السعادة المطلوبة، بل إنَّ الأمراض النفسية تفتك بعدد كبير من الرجال والنساء هناك، وإنَّ الٱنتحار تزداد نسبته يومًا بعد يوم.

حقًا إنَّ الجاهلية كما يقول حذيفة ﷺ: شرٌ مستطيرٌ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣].

ومن المفيد أن نشير إلىٰ أنه كان في ذاك الحديث الصحيح العظيم حوارٌ حيٌّ، ولمساتٌ لأمور تجدُّ في حياة الناس الٱجتماعية.

ومما يقف عليه المرء في الحديث أن هٰذا الدين يتعرض لأحوالٍ، وظروف فيكون له إقبال في حين، ثم يضعف هٰذا الإقبال حينًا آخر، فيقرر ﷺ أن بعد هٰذا الخير العظيم الذي تحقق في عصر النبوة والراشدين شرًّا، وأن بعد الشر خيرًا، ولٰكن هٰذا الخير فيه دخن.

جاء في «شرح مسلم للنووي»[1]: «قال أبو عبيدة وغيره:

(١) ٱنظر «شرح النووي علىٰ مسلم» ١٢/٢٣٦-٢٣٧.

الدَّخَنُ -بفتح الدال والخاء- أصله أن تكون في لون الدابة كدورة إلىٰ سواد، قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول خبثها، ولا ترجع إلىٰ ما كانت عليه من الصفاء».

وجاء في «فتح الباري»[١]: «الدَّخَن: وهو الحقدُ، وقيل: الدغل، وقيل: فسادٌ في القلب. ومعنىٰ الثلاثة متقاربٌ، يشير إلىٰ أنَّ الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيرًا خالصًا، بل فيه كدر. وقيل: المراد بالدخن: الدُّخَان، ويشير بذلك إلىٰ كدر الحال. وقيل: الدخن: كل أمرٍ مكروه.

وقال أبو عبيد: يُفَسِّرُ المرادَ بهٰذا الحديثِ الحديثُ الآخر: «**لا ترجع قلوبُ قوم علىٰ ما كانت عليه**»[٢] وأصله أن يكون في لون الدابة كدورة. فكأن المعنىٰ: أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض».

وجاء في «النهاية»[٣]: «والدخن- بالتحريك- مصدر دَخِنَتِ النارُ تدخن: إذا أُلقي عليها حطبٌ رطب فكثر دخانها. وقيل: أصل الدخن: أن يكون في لون الدابة كُدورة إلىٰ سواد. ومنه الحديث: «**هُدْنَةٌ علىٰ دَخَنٍ**»[٤] أي: علىٰ فساد واختلاف؛ تشبيهًا بدخان الحطب الرطب، لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر.

---

(١) أنظر «فتح الباري» ١٣/ ٣٦.

(٢) هو جزء من حديث حذيفة الطويل: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر. رواه أبو داود (٤٢٤٦) وأحمد ٥/ ٣٨٦، وابن حبان «الإحسان» ١٣ برقم ٥٩٦٣. والحديث حسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) أنظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» ٢/ ١٠٩.

(٤) قال الشيخ ناصر الألباني: لم أجده. انظر كتابنا «الحديث النبوي» ص١١٨ الطبعة الثامنة.

وجاء تفسيره في الحديث: أنه لا ترجع قلوب قوم علىٰ ما كانت عليه، أي: لا يصفو بعضها لبعض، ولا ينصع حبها، كالكدورة التي في لون الدابة».

قلتُ: والحديث صورة بيانية رائعة تدل علىٰ أن الخير الذي سيحدث لا بُدَّ أن تخالطه شوائب عدة تباعده من الصفاء، فلا تجعله خالصًا.

والأقوال التي نقلناها عن العلماء في تفسير الدخن، تفسره بأشياء مادية كالدخان واللون الأكدر، أو بأشياء معنوية كالحقدِ وفسادِ القلبِ، ولا شك في أن المعنىٰ الأصلي للكلمة هو الأول، ثم ٱستعملت مجازًا في الأمور المعنوية.

وسواء أكان المرادُ بالدخن في الحديث الدخانَ، أو اللونَ الأكدر، أو الحقد، أو فساد القلب، فالصورة تعبر عن مجانبة الصفاء والخلوص والنقاء للخير الجديد الذي سيعقبُ الخير الأول، إنَّ ذاك الخير الأول العظيم الذي كان يمتازُ بالصفاءِ والنقاء عمَّ المجتمع الإسلاميَّ في القرون الفاضلة، قرون السمو والطُهر، التي هي خير القرون، إن ذاك الخير يبقىٰ منارة للأجيال الآتية؛ لأن الصفاء الخالص لا يعود.

إن عهد النبوَّة الزاهر الأغرَّ أثمر قيام جيل مثالي فذٍّ، حمل للدنيا مَشْعَلَ الهداية، وبدَّد ظلمات الجهل والشرك والطغيان، إنَّ ذاك الجيل المثالي كان القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي، ولئن كان من المتعذر أن يتكرر بمجموعه مرة أخرىٰ، إنَّ ذلك لا يمنع وجود أفرادٍ علىٰ مستوىٰ ذاك الجيل، يدعون إلىٰ الله علىٰ بصيرة، لا يخشون فيه

لومةَ لائم، يؤثرون ما عند الله علىٰ المغانم والشهوات.

إنَّ علينا إنْ أردنا الحق أن نلتمسه في ذاك العهد الذي كان خيرًا لا دخن فيه.

وقد ذكر الرسول الأعظم ﷺ أن الدخن الذي في الخير الجديد يتمثل في قوم يهدون بغير هدي النبي ﷺ.

جاء في «شرح مسلم»: الهدي: الهيئة، والسيرة، والطريقة يعرف الإنسان من دعوتهم أمورًا وينكر فيها أمورًا[1].

وجاء في «الفتح»: تعرف منهم، وتنكر يعني: من أعمالهم. وفي حديث أم سلمة عند «مسلم»: **«فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم»**[2].

وهٰذا ما تحقق في الأزمان التي جاءت بعد عصر النبوة، وأحسب أن هٰذه المرحلة التي ذكرها الحديث ممتدة ما زالت قائمةً، مع أن بعض الأماراتِ التي أوردها ﷺ في هٰذا الحديث عن المراحل الأخرىٰ قد ظهرت.

إنَّ دعوات خيرة تنادي بالإسلامِ موجودة، وفيها ما نقره وفيها ما ننكره، ولا تخلو من خيرٍ، إنها دعواتٌ تلبس لَبُوس الدين، وإذا نظرنا فيما ينادي به دعاتها سواءٌ عن طريق الخطابة في المساجد والنوادي، أو الحديث في وسائل الإعلام المسموعة، والمرئية، والمقروءة، أو في الكتب التي تصدر عنهم، وجدنا فيها خليطا من الحق والباطل.

ومهما يعلو هٰذا الدَّخَنُ فلا تزال طائفة من هٰذه الأمة تستطيع أن

(١) أنظر «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم» ١٢/ ٢٣٧.

(٢) أنظر «فتح الباري» ١٣/ ٣٦، والحديث رواه مسلم (١٨٥٤).

تميز بين الحق والباطل، فتعرف المعروف وتنكر المنكر.

ويذكر الحديث مرحلة أخرىٰ يبرز فيها الشر ورجاله، ويبدو أن تلك الحقبة أشدُّ وأخطر، إنها حقبة من الشرِّ، فيها دعاة يقومون في دنيا المسلمين يدعون إلىٰ ذاك الشر الصريح بكل وقاحةٍ، إنهم يقفون علىٰ أبواب جهنم يدعون الناس إلىٰ باطلهم، فمن أجابهم إلىٰ دعوتهم هلك وكان من الخاسرين.

جاء في «الفتح»: قوله: «**علىٰ أبواب جهنم**» أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم، كما يقال لمن أمر بفعل محرم: وقف علىٰ شفير جهنم[1].

وهي علىٰ أية حال صورة معبرة. إن هٰؤلاء الدعاة من أهل الإلحاد والفساد والشر يقودون الناس إلىٰ النار، فهم واقفون علىٰ أبواب جهنم المفتحة، وكل من خدع بكلماتهم وانقاد إليهم قذفوه في جهنم.

وهٰؤلاء الدعاة الأشرار، ليسوا غرباء عن مجتمعنا، إنهم من جلدتنا، ينحدرون من أصولنا، ويتكلمون بألسنتنا، وهٰذا يجعل خطرهم أشد تأثيرًا؛ لأن الغريب تضعفه غربته، وتخفف من تأثيره، وتتيح لمعارضيه مجالا لحمل الناس علىٰ إسكاته والردِّ عليه وإخراجه من وسط المسلمين، بل وقتاله أيضًا.

أما ذاك الذي من جلدتنا، ويقيم هو وأهله في أرضنا، ويتكلم بلساننا، وتربطه بالمجتمع روابط النسب والمصالح، فوضعه صعبٌ، وإسكاته صعب، وإخراجه من وسطنا صعب، وقتاله صعب.

---

(١) أنظر «فتح الباري» ١٣/ ٣٦.

إنَّ ما يقرره الحديث من مراحل كانت واقعًا متداخلًا، فلقد حلَّت المرحلة الثانية، والمرحلة الأولىٰ ما تزال قائمةً؛ ذلك لأن بلاد المسلمين وظروفهم مختلفة، وموقعها ممتد.

وهٰذا من دلائل نبوتهﷺ؛ إذ ما كان له أن يقول هٰذا إلا بوحي من الله ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾[سورة الجن].

واجه النبيُّ الكريم ﷺ بوحي من الله المجتمع الإسلامي في عهد النبوة، الذي كان قائمًا علىٰ الخير، متعاونًا متماسكًا، محققًا للمثل السامية، التي يتطلع إليها كل إنسان سوي، واجه هٰذا المجتمع بالحقيقة التي تنتظره علىٰ المدىٰ البعيد، وهي أن أحداثًا خطيرةً، وأوضاعًا غريبة طارئة ستقوم في وسطه؛ لتحرفه عن سبيله الحق، ولتحول بينه وبين الخير العميم الذي كان فيه.

لقد بيَّن ﷺ أن مراحلَ ستطرأ في حياة المسلمين؛ إذ سيكون بعد ذاك العهد الأغرِّ شرٌّ، ثم يكون بعده خير، ولكنه غير خالص، بل فيه دخن، ثم يكون بعد ذلك شرٌّ عبَّر عنه ﷺ بأنه سيقوم «**دعاة علىٰ أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها**» ويصف هٰؤلاء الدعاة الأشرار بأنهم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا، وأمر مَن أدركه ذلك أن يلزم جماعة المسلمين وإمامَهم.

وفي هٰذا من التنبيه النافع، والتوجيه المنقذ ما يضمن سلامة المجتمع، ويقيه من الأنحراف الكبير، إنَّ هاتيكَ الحقبة خطيرة جدًّا، فإذا جاءت فليس للمسلم إلا لزوم جماعة المسلمين مهما كان عددهم، ولزوم إمام المسلمين الذي يدعو إلىٰ الحق ويعمل به، لا

يخشىٰ في الله لومة لائم، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، ويدافع عن الإيمان والمؤمنين، ويذودُ عن حِمىٰ الدين.

إن لزوم كل مسلم جماعة المسلمين وإمامهم يقويهم ويمكن لهم في الأرض، ويدفع عنهم عدوان المعتدين، ويهييءُ لهم الجو الذي يستطيعون فيه إقامة شعائر الدين، وتربية أولادهم التربية الإسلامية.

ويشير الحديث إلىٰ أنه ما دام في الأرض جماعةٌ للمسلمين وإمامٌ لهم، فالدنيا ما تزال بخير، وما تزال النجاة من جهنم، ودعاتها ميسرة لمن أراد الله له السعادة.

إن لزوم المسلم جماعة المسلمين حمايةٌ له من الٱنحراف، وحمايةٌ له من الٱنزلاق في طريق الهلاك، الذي ينتهي بسالكه إلىٰ جهنم والعياذ بالله، وعون له علىٰ الٱستمرار في الهداية، وعلىٰ سلوك طريق الفوز بالجنة، ولابد للجماعة من إمام. وهٰذا شيء طبيعيٌّ.

ثم أشار الحديث إلىٰ مرحلة قاتمة مؤلمة وهي عندما لا يكون للمسلمين جماعةٌ ولا إمام قال ﷺ: **«فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرةٍ حتىٰ يدركك الموت»**

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن العلامة البيضاوي ما يأتي:

(المعنىٰ: إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة، والصبر علىٰ تحمُّل شدَّة الزمان.

وعضُّ أصل الشجرة: كنايةٌ عن مكابدة المشقة، كقولهم: فلان يعض الحجارة من شدة الألم، أو المراد: اللزوم، كقوله في الحديث

الآخر: «**عضوا عليها بالنواجذ**»[1].

ويؤيد الأول قوله في الحديث الآخر: «**فإن مت وأنت عاضٌّ علىٰ جذلِ خيرٌ لك من أن تتبع أحدًا منهم**»[2].

قلتُ: والأقرب لسياق الحديث أن تكون هٰذه الصورة البيانية كناية عن المبالغة في ٱعتزال المجتمع الفاسد، فهو يوصيه أن يبتعد عن حياة الناس، ويعض علىٰ أصل شجرةٍ، ولا يتحول عنها مهما دعته الدواعي؛ لأن المرء في مخالطة الأشرار لا يأمن علىٰ نفسه من التأثر.

وقوله: «**ولو أن تعضَّ بأصل شجرة**» ينبئ عن الخفاء، فهو يوصيه بأن يعض أصل الشجرة المختفي لا فرعها الظاهر.

ويدلُّ الحديث علىٰ أن من الأهمية بمكان أن نعرف الشر ومذاهبه وأهله حتىٰ نتقي شرهم، ولقد عني علماء الإسلام المتقدمون بهٰذا الموضوع؛ فقاموا بتأليف أنواع من الكتب تدخلُ في هٰذا الإطار، فقد قام بعض العلماء بتأليف كتب في حصر الكبائر، وإيراد ما ورد في التحذير منها من آيات القرآن، وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وكلام الأئمة الأعلام.

وعمد آخرون إلىٰ تأليف كتب في الترهيب من المعاصي والمحظوراتِ.

---

(١) هو جزء من حديث العرباض بن سارية، رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢) وابن حبان (٥). وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ١/ ١٢٣ برقم(٣٧).

(٢) هو جزء من حديث حذيفة رواه أبو داود (٤٢٤٦)، وابن ماجه (٣٩٨١).
والحديث حسَّنهُ الألباني في «صحيح أبي داود».

وقام آخرون بتأليف كتب في الطرق الضالة يكشفون زيفها.

وقام بعضهم بتأليف كتب في فضح أساليب الشيطان، وكشف تلبيسه علىٰ نماذج من الناس، وكتبٍ في بيان خطر آتباع الهوىٰ، وغاصوا في أعماق النفس الإنسانية.

وقام آخرون في بيان البدع، والتحذير منها، وذكر أنواعها.

وألف مؤلفون آخرون كتبًا في الأحاديث الموضوعة وبيان حقيقتها.

ومازال الأفاضل من الدعاة والعلماء يتابعون جهود العلماء السابقين، فيكتبون رسائل وكتبًا، وينشرون في المجلات مقالات يعالجون فيها هٰذه الموضوعات، ويخاطبون الناس موجهين ومحذرين في المساجد، وعن طريق وسائلِ الإعلام ما أتيح لهم ذلك. وهٰذا عملٌ جليل يستدعيه الواقع الذي يحياه المسلمون، أجزل الله مثوبتهم وأعانهم علىٰ السير في السبيل السويِّ، طريق الحق.

من الضروريِّ أن يقتنع كل مسلم بأن الجاهلية بأنواعها كلها القديمة والحديثة شرٌّ محضٌ وباطلٌ وضلال؛ لأن فيها مباعدة لعقيدة التوحيد ومقتضياتها، وانحرافات سلوكية واجتماعية، وبأن إقامة المجتمع علىٰ أسسها هدمٌ لمقومات المجتمع المسلم.

إن هٰذا الآقتناع هو الذي يقود إلىٰ البحث عن البديلِ، وهو الذي يجلي لنا النعمة العظمىٰ بالإسلام، ورضي الله عن سيدنا حذيفة الذي كان هٰذا الآقتناع يملأ جوانب نفسه، عندما قال: إنا كنا في جاهليةٍ وشر، ثم أنقذنا الله بالإسلام.

إن تبني هٰذه المقولة، والصدور عنها يدعو إلىٰ الآستمساك

بالإسلام والثبات عليه، لا سيما في وقت تكثر فيه المغريات، وتعظم فيه المخاوف من الجهات التي تدعم الجاهلية المعاصرة.

ويخبرنا الرسول ﷺ أنه بعد وقوع الشر سيكون خير، وهٰذا المعنىٰ دلَّت عليه نصوصٌ أخر كثيرةٌ، وشهدت لصحته وقائع الأيام، فقد كان للدين أيام إقبال بعد مراحل من سطوة الباطل ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٤٠]

وهناك مجددون يُبعثون بين الحينِ والحين.

ومهما يكن من ٱستشراء الفساد فإنه لا تزال طائفة من أمة محمدٍ ظاهرةً علىٰ الحق، لا يضرها من خالفها حتىٰ يأتي أمر الله.

وكلما ٱستحكمت الأزمات كان توقع الفرج أكبر.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٤]،

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يُوسُف: الآية ١١٠].

ولله در القائل:

اشتدي أزمةُ تنفرجي ... قد آذن ليلُك بالبلج
وظلامُ الليلِ له سرجٌ ... حتىٰ يغشاهُ أبو السُّرُجِ[(١)]

أبو السرج: الشمس

إنَّ الدعاة إلىٰ الله ينبغي أن تمتلئ صدورهم بالأمل الواسع الرحب بأن المستقبل لهم إن صدقوا في دعوتهم، وأحسنوا العمل لها

(١) ٱنظر القصيدة كاملة في «طبقات الشافعية» ٨/٥٦، ٥٩.

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمَّد: الآية ٧] وليوطنوا أنفسهم علىٰ أنهم سيلقون دجالين من جلدتهم يتكلمون بألسنتهم، ويدعون إلىٰ النار بوقاحة وعلانية، ويؤيدون الباطل ويعملون علىٰ نشره، ولكن العاقبة للمتقين، والمعركة أزلية بين أهل الحق وأهل الباطل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النِّساء].

المجتمع الإسلامي مجتمع مثالي

المجتمع الإسلامي الذي ينشئه المنهج الرباني الذي جاء به الإسلامُ، وعرضت مبادئه الأساسية في الكتاب الكريم، ونقلت لنا السنة المطهرة صورة صادقة عن واقع مجتمع مثالي لم يصل إلىٰ مستواه نظامٌ ولا عهد في أمم الأرض أبدًا حتىٰ الساعة.

إنه مجتمعٌ ينشأ في ظل النظام الذي ينبثقُ من عقيدة التوحيد، تلك العقيدة الجميلة الكريمة، وفي ظل الضمانات التي يحيط بها النفسَ، والعرضَ، والمالَ.

«هٰذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق، هٰذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرقىٰ وأصفىٰ صورة، ثم ظلّ يحقّقه في صورٍ شتىٰ علىٰ توالي الحِقَبِ، تختلف درجة صفائِه، ولكنه يظل في جملته خيرًا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكل مجتمع لوَّثته هٰذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية.

هٰذا المجتمع الذي تربطه آصِرَةٌ واحدة -آصرةُ العقيدة- حيثُ تذوب فيها الأجناسُ والأوطانُ، واللغات والألوانُ، وسائر هٰذه الأواصِرِ العَرَضِيَّة، التي لا علاقةَ لها بجوهر الإنسان.

هٰذا المجتمعُ الذي يسمع قول الله تعالىٰ له: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] والذي يرىٰ صورة هٰذا المجتمع في قول النبي الكريم ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحُمَّىٰ**»[١].

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، وأحمد ٤/ ٢٧٠ من حديث النعمان بن بشير.

هٰذا المجتمع الذي من آدابه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النِّساء: الآية ٨٦]، ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان]، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٣٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجرَات]، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢]

هٰذا المجتمع الذي من ضماناته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجرَات]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحُجرَات: الآية ١٢] وقوله ﷺ: «**كل المسلم علىٰ المسلم حرامٌ: دمُه، ومالُه، وعرضُه**»(١).

ثم هٰذا المجتمعُ النظيفُ العفيفُ الذي لا تشيعُ فيه الفاحشةُ، ولا يتبجح فيه الإغراء، ولا تروجُ فيه الفتنةُ، ولا ينتشرُ فيه التبرجُ، ولا تتلفتُ فيه الأعينُ علىٰ العوراتِ، ولا ترفُّ فيه الشهواتُ علىٰ الحرماتِ، ولا ينطلقُ فيه سُعارُ الجنس وعرامةُ اللحم والدم، كما

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وأبو داود (٤٨٨٢)، والترمذي (١٩٢٧)، وابن ماجه (٤٢١٣)، وأحمد ٢/ ٢٧٧ من حديث أبي هريرة. وانظر كتابنا «الحديث النبوي» ص٦١.

تنطلق في المجتمعاتِ الجاهليةِ قديمًا وحديثًا.

هٰذا المجتمعُ الذي تحكمه التوجيهاتُ الربانية الكثيرةُ، والذي يسمعُ قول الله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النور].

وقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة النور].

وقوله سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النور].

في مثل هٰذا المجتمع تأمن الزوجة علىٰ زوجها، ويأمنُ الزوجُ علىٰ زوجته، ويأمنُ الأولياءُ علىٰ حرماتهم وأعراضهم، ويأمن الجميع علىٰ أعصابهم وقلوبهم، حيث لا تقعُ العيونُ علىٰ المفاتن،

ولا تقود العيونُ القلوبَ إلىٰ المحارم. فإما الخيانة المتبادلة حينذاك، وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس، وقلق الأعصاب، بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن، ترفُّ عليه أجنحة السلم والطهر والأمان.

وأخيرًا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقًا، ولكل عاجز ضمانة للعيش الكريم، ولكل راغبٍ في العفة والحَصَانة زوجة صالحة، والذي يعتبر أهل كل حيٍّ مسؤولين مسؤولية جنائية لو مات فيهم جائعٌ، حتىٰ ليرىٰ بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية.

المجتمعُ الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع، فلا يؤخذ واحدٌ فيه بالظنة، ولا يتسور علىٰ أحد بيته، ولا يتجسس علىٰ أحد فيه متجسسٌ، ولا يذهب فيه دمٌ هدرًا والقصاص حاضرٌ، ولا يضيع علىٰ أحدٍ ماله سرقةً أو نهبًا والحدود حاضرةٌ.

المجتمع الذي يقوم علىٰ الشورىٰ والنصح والتعاون، كما يقوم علىٰ المساواة والعدالةِ الصارمةِ، التي يشعر معها كل أحد أنَّ حقه منوط بحكم شريعة الله، لا بإرادةِ حاكمٍ، ولا هوىٰ حاشيةٍ، ولا قرابةِ كبيرٍ.

وفي النهاية: المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية الذي لا يخضع البشر فيه للبشر، إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته، وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته، فيقف الجميع علىٰ قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين»[1].

(١) «الظلال» طبعة الشروق ١/٢٠٩-٢١٠.

إن هٰذا المجتمع المثالي الذي عرضتُ بعض جوانبه كما تصوره السنَّة المطهَّرة: مجتمعٌ يجب أن نحرص علىٰ إقامته، وإنشائه والمحافظة عليه، وإننا بذلك نحقق رضىٰ ربنا عنَّا، ونحققُ العدالةَ الاجتماعيةَ لأفرادنا وشعوبنا، والسعادة الحقيقية لأبناء أمتنا، والعزة والسيادة لنا وَلِمُثُلِنا، ونكيد أعداءنا، ونردَّ كيدهم لنحرهم، ونتيح للجماهير المنكوبة المظلومة التي تحكمها أنظمة الجاهلية أن تبصر طريق الخلاصِ.

إن أعداء الله حريصون أشدَّ الحرصِ علىٰ أن لا تقوم للمجتمعِ الإسلامي قائمة؛ لأنه إذا قام سيكشف زيفهم، ويبطل دعاواهم، وسيكون منارةً للشعوبِ التي يحكمونها، ويحجبون عنها مزايا الإسلام وخصائصه.

إنَّهم حريصون علىٰ أن يبقىٰ المسلمون علىٰ واقعهم المؤلم المتخلف؛ لأن هٰؤلاء المسلمين عندما ابتعدوا عن الإسلام كانوا حجابًا يخفي عظمة هٰذا الدين، ورحم الله القائل: «الإسلامُ محجوبٌ بأهله»[١].

إي والله، إنه محجوب بأهله، إنه لابد لنا من أن نغير واقعنا، وأن نعمل بكتاب ربنا وسنة رسوله، ويومئذٍ ستقبل علينا أممُ الدنيا منقادة؛ لأن العدالة التي كانت تطلبها لم تجدها في أي نظام من النظم البشرية التي تقوم في دنيا الناس اليوم.

فالصراع بين الإسلام والجاهلية ما يزال قائمًا، وإذا اصطرعت بعض معسكراتِ الجاهلية مع بعض المعسكراتِ الجاهليةِ حينًا من الدهر، فسرعان ما تتبين أن معركتها الحقيقية مع الإسلامِ.

---

(١) قائل هٰذه الكلمة هو: الشيخ محمد عبده رحمه الله.

ألم يأتكم ما يردده بعض أساطينِ الكفرِ، أن المعركة الآن وبعد سقوط الشيوعية مع الإسلام.

وقد تنبه إلىٰ هٰذا المعنىٰ الشاعر محمد إقبال منذ وقت مبكر، فقد ذكر في قصيدته الرائعة (برلمان إبليس) التي وردت في ديوانه الأخير «أرمغان حجاز» أي: هدية الحجاز.

تخيل الشاعر فيها جلسة برلمانية حضرها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي برئاسة إبليس نفسه، [واستعرضوا فيها الاتجاهاتِ والحركاتِ والمذاهب السياسيةِ العصريةِ التي تتهدد مهمتهم في العالم، وتحبط مساعيهم، أو تعرقل سيرهم وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم][1]، وأدلىٰ إبليس -بعد أن عارض أكثر آرائهم- برأيه المعتمد فيه علىٰ دراسته العميقة، وتجاربه الماكرة الخبيثة الواسعة. وخلاصتُه: أن المسلم هو المنافس الوحيد، والمصارع الكفؤ للنظام الإبليسي، وهو الشرارة التي تتحول بسرعةٍ نارًا، فمن الواجب علىٰ الزملاء أن يركزوا تفكيرهم علىٰ محاربةِ هٰذا العدو أو إلهائِه وتنويمه.

ومن قول إبليس الذي تخيله الشاعر في التخوف من أمة الإسلام قوله:

إن كنتُ خائفًا، فإني أخاف أمةً لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنةً في زنادها، ولا يزال فيها رجال ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السَّجدَة: الآية ١٦]، وتسيل دموعهم علىٰ خدودهم في السحر تائبين مستغفرين، لا يخفىٰ علىٰ الخبيرِ المتفَرِّسِ أن الإسلام هو

(١) «روائع إقبال» ص ٦٣ و«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ٢٨٤ لأبي الحسن الندوي.

فتنة الغد وداهية المستقبل لا الأشتراكية.

وتابع إبليس كلامه -كما يتخيل ذلك الشاعر محمد إقبال- قائلًا:

«أنا لا أجهل أن هٰذه الأمة قد ٱتخذت القرآن مهجورًا، وأنها فتنت بالمال وشغفت بحبه وادِّخاره كغيرها من الأمم، أنا خبير بأنَّ ليلَ الشرقِ داجٍ مكفهر، ولكني أخاف أن قوارع هٰذا العصرِ وهزاته ستقضُّ مضجعها، وتوقظ هٰذه الأمة وتوجهها إلىٰ شريعة محمد ﷺ. إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ حامي الذمارِ، حارسِ الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف، دين المروءة والبطولة، دين الكفاحِ والجهادِ، دين يلغي كل نوع من أنواع الرق، ويمحو كل أثر من آثار ٱستعباد الإنسان، يزكي المال من كل دنس ورجس، ويجعله نقيًّا صافيًا، ويجعل أصحاب الثروة والملّاك مستخلفين في أموالهم، أمناء لله وُكَلاء علىٰ الأموالِ[1]».

إن كل مسلم يرجو ثواب الله: الجنة مدعوٌّ إلىٰ أن يسهم في بناءِ هٰذا المجتمع المثالي الكريم، وهو بذلك يحقق إلىٰ ثوابِ الآخرة سعادة الدنيا وأمنها وطمأنينتها.

والمسؤولية عامة تشمل: العالِمَ والعاميَّ، والحاكمَ والمحكوم، والرجل والمرأة، والعربي والعجمي، والغني والفقير.

والطريق ميسر ميسور لمن أراد الله له السعادة: إيمان بالله، واستقامةٌ علىٰ دينه وشرعه، ودعوةٌ إلىٰ السبيل السوي المستقيم.

---

(١) ٱنظر «روائع إقبال» ص ٦٣ و«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص ٢٨٤.

أما كيد الأعداء فلنا- إن نحن صدقنا مع الله ونصرناه في حياتنا وسلوكنا- نصرة الله وتأييده.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحجّ: الآية ٤٠] ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمَّد].

بل إنني أريد أن أقول للواعين من المسلمين: لا تهنوا ولا تحزنوا إن رأيتم هٰذا المكر والكيد من الأعداء، فلو لم يروا فيكم القوة التي يحسب حسابها، ما بالوا بكم، ولا بالغوا في إيذائكم وحربكم، فاحمدوا الله أنْ قوّاكم، واسألوه الثبات علىٰ الحق، واذكروا قول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

إننا يا عباد الله بحاجةٍ إلىٰ روَّاد عقلاء حكماء، صادقين صابرين، يتقدمون بنا نحو الحياة الفاضلة المستقرة في المجتمع الإسلامي، الذي يقوم علىٰ عقيدة التوحيد، وينفذ شريعة الله.

ولنحذر الٱستعجال، أو أن نقع في شَرَكِ أعدائنا، عندما يحملوننا علىٰ الموقف الذي لا يحقق مصلحة الإسلام، ولا يوصل إلىٰ البغية المطلوبة.

فالوعي والعقل والصدق والصبر وابتغاء ما عند الله وتقواه هي المراحل التي لابد من قطعها والتحلي بها؛ حتىٰ نرىٰ بأم أعيننا مجتمع الفضيلة والخير والرشد مجتمع الإسلام، والله غالب علىٰ أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فصل

جاء الإسلام، والدنيا تتخبط في ظلمات بعضها فوق بعض، من الشرك والظلم والبؤس والشقاء، فأخرج الله من آمن بمحمد ﷺ من الظلماتِ إلىٰ النورِ، وقام ذاك المجتمع المثالي منارة تدعو إلىٰ الرشد والحق.

جاء الإسلام والعرب في جاهلية جهلاء، إمكاناتهم المالية محدودة، وثقافتهم محدودةٌ، تسود فيهم الأمية، وتسيطر عليهم أعراف منحرفةٌ، وآراء باطلةٌ في موضوع الكسب.

فلقد كان الغزو من أشرف وسائل الكسب عندهم، وكان مصدرًا رئيسيًّا من مصادر الكسب؛ من أجل ذلك كانت تضيق صدورهم عندما تحل الأشهر الحرم، وكانوا يستطيلون الأشهر الثلاثة: ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم. وإذا ٱشتد الأمر عليهم عمدوا إلىٰ النَّسِيء، فينسؤون المحرم إلىٰ صفر، والنسيء زيادة في الكفر كما جاء في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التّوبَة: الآية ٣٧]

ولأهمية الغزو في حياتهم الاقتصادية كانوا يُسَرُّون بالمولود الذكر، ويكتئبون لمجيء الأنثىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل].

وكانوا ينظرون إلىٰ الصناعات نظرة ٱمتهان واحتقار.

أما الزراعة فكانت محصورة في البلاد التي تصلح لها كاليمن ويثرب ونحوهما، والتجارة عندهم وسيلة شريفةٌ مفضلةٌ، وكانوا مهرةً فيها لا سيما أهل مكة.

والصيد مورد من موارد الرزق، ولكنه كان غالبًا للفقراء منهم، وقد هجا عمرو بن معد يكرب قومًا بأنهم يعيشون علىٰ الصيد فقال:

أبني زيادٍ أنتمُ في قومكم ... ذَنَبٌ ونحن فروع أصلٍ طيبِ

نصل الخميسَ إلىٰ الخميسِ وأنتمُ ... بالقهر بين مُربِّقٍ ومُكلِّبِ

حُيُدٌ عن المعروف سعيُ أبيهمُ ... طلبُ الوعول بوفضةٍ وبأكلب[1]

[الخميس: الجيش. والمربّق: الصائد بالربقة وهي العروة في الحبل. والمكلّب: الصائد بالكلاب. والوفضة: جعبة للسهام من أدم].

هٰذا وكانت لديهم ألوان من الكسب أُخر، وقد حرَّمها الإسلام: كالغِشّ، والربا والبِغاء، والكَهانة، وبيع الخمور.

فعن أبي مسعود الأنصاري أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن: ثمن الكلب، ومهرِ البغيِّ، وحلوان الكاهن[2].

وحلوان الكاهن: ما يعطىٰ علىٰ الكهانة.

وعن أبي جحيفة أن النبيَّ ﷺ نهىٰ عن: ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسب البغي ولَعَنَ آكل الربا وموكله، ونهىٰ عن الواشمة والمستوشمة،

---

(١) «الحيوان» ٢/٣٠٩، وانظر «العصر الجاهلي» لشوقي ضيف ص ٨٠. وانظر «ديوان عمرو بن معد يكرب» جمع مطاع الطرابيشي ص ٦٥-٦٦.

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧).

ولعن المصور[1].

وعن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول -عام الفتح، وهو بمكة-: «**إن الله ورسوله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه تُطلىٰ بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس. فقال: «**لا، هو حرامٌ**» ثم قال عند ذلك: «**قاتلَ الله اليهودَ، إن الله لما حرَّم شحومها، أجملوه** -أي: أذابوه- **ثم باعوه فأكلوا ثمنه**»[2].

فدلت هٰذه الأحاديث علىٰ أن ذلك كله أنواع من الكسب كانت موجودة وأن الإسلام أبطلها وحرَّمها.

فصل

إنَّ ما سبق بيانه من وسائل الكسب التي كانت قائمة في الجاهلية يدل علىٰ أن المجتمع العربي حينذاك مجتمعٌ متنافر متخاصم، يأكل الناس بعضهم بعضًا، لا تهدأ الحرب في جهة حتىٰ تقوم من جديدٍ، وأنه مجتمع متواكلٌ يعتمد في أدواته ومُعَدّاته التي يستخدمها علىٰ الآخرين من غير أبناء جنسه، وأنه مجتمع يقوم في تعامله المادي علىٰ الظلم في كثيرٍ من ألوان كسبه.

ثم أكرم الله الإنسانية عامة والعرب خاصة بهٰذا الإسلام العظيم؛ فأقام مجتمعًا متماسكًا متعاونًا متكاملا، يعمل فيه كلٌّ قادر فيما أحله الله من وسائل الكسب، وينفق علىٰ أهله وأولاده وذويه،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٨٦).

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٦)، ومسلم (١٥٨١).

ويتصدق بشيءٍ مما يزيد عن نفقته علىٰ إخوانه المعوزين والمحتاجين من المسلمين.

فلا تتعطل طاقات أبناء المجتمع، ولا يضيع فيه محتاج، ولا يجوع فيه فقير، ولا يُظلم فيه يتيم ولا يُقهر، ولا يُنهر فيه سائل.

وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تقرر هٰذه الأمور وتحض عليها، وفيها لوحاتٌ رائعة في وصف ذاك الواقع المثالي.

عن المقدام بن معد يكرب ﷺ عن النبي ﷺ: **«ما أكل أحدٌ طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده»**[(١)]

ورواه ابن ماجه بلفظ: **«ما كسب الرجلُ كسبًا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل علىٰ نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقةٌ»**[(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: **«أنَّ داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده»**[(٣)].

وقال ابن حجر: وللنسائي من حديث عائشة رضي الله عنها: **«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه»**[(٤)].

روىٰ هٰذا الحديث الصحيح بألفاظ متقاربة عددٌ من الصحابة، وفي روايات بعضهم زيادة ليست في روايات الآخرين. منهم: المقدام ابن معد يكرب الكندي، وهو من صغار الصحابة. مات سنة بضع وثمانين بحمص، وليس له في «صحيح البخاري» سوىٰ هٰذا

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).
(٢) أنظر «سنن ابن ماجه» (٢١٣٨).
(٣) رواه البخاري (٢٠٧٣).
(٤) أنظر «فتح الباري» ٤/ ٣٠٦، والحديث رواه النسائي ٧/ ٢٤١.

الحديث، وحديثٌ آخر في كتاب الأطعمة. ومنهم: أبو هريرة، وعائشة، وعبد الله بن عمرو، ورافع بن خديج وغيرهم.

وإنَّ أفضل الطعام، وأطيب الكسب ما كان من عمل اليد، وفي تقرير هٰذه الحقيقة من الرسول الأعظم ﷺ: ترغيب في العمل، وتربية علىٰ الإباء، والتعفف عما في أيدي الناس، فمهما كان الطعام الذي يأكله من عملِ يده بسيطًا متواضعًا فإنه أطيب من الطعامِ الفاخر الذي يتناوله علىٰ موائدِ الناسِ.

ثم أعقب الرسول ﷺ هٰذا بذكر قدوة في هٰذا الموضوع، وهٰذا مثل رائع، هٰذا نبيُّ الله داود كان يأكل من عمل يده. ومن هو النبي داود؟

إنه نبيٌّ كريم من أنبياء الله، وهو ملك أيضًا، إن خزائن الأرض في يده، وأموال الدولة الكثيرة تحت تصرفه، ولكنه مع ذلك كان يعمل بيده ويأكل من كسبه ذاك.

جاء في «الفتح»: «والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن ٱقتصاره في أكله علىٰ ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة؛ لأنه كان خليفةً في الأرضِ، كما قال الله تعالىٰ، وإنما ٱبتغىٰ الأكل من طريقِ الأفضلِ، ولهذا أورد النبي ﷺ قصته في مقام الاَحتجاج بها علىٰ ما قدَّمه من أن خير الكسب عمل اليد، وهٰذا بعد تقرير أنَّ شرع مَن قبلنا شرع لنا، ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قوله تعالىٰ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعَام: الآية ٩٠].

وفي الحديث أن التكسب لا يقدح في التوكل، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في نفس سامعه»[1]. اهـ

(١) ٱنظر «فتح الباري» ٤/٣٠٦.

فصل

المجتمع الإسلامي مجتمع العاملين

إن المجتمع الذي يقيمه الإسلام هو مجتمع العاملين.. العاملين للدنيا يسهمون في عمارة الكون وَفْقَ ما شرع الله، والعاملين للآخرة يبتغون الفوز برضوان الله والجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف].

والعمل الصالح يشمل العبادةَ وغيرها من القربات، كالكسب للقيام بالإنفاق علىٰ الأهل ومساعدة المحتاجين وما إلىٰ ذلك.

والإنسان في هٰذه الحياة لابُدَّ له من نفقةٍ ينفقها علىٰ ضروراته وحاجاته وعلىٰ أهله وذويه، ويقرن القرآن العمل بوصف الصلاح في عدد من آياته، قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور].

إن الوعد الحق الذي لا يتخلَّفُ مُعلَّقٌ علىٰ الإيمان والعمل الصالح، وهٰذا الوعد كان بأمور مغريةٍ عظيمة يحرص عليها كل عاقلٍ وهي الٱستخلاف في الأرض، والتمكين لهم في الدين، والأمن.

وقد تحقق هٰذا الوعد عندما وجد مجتمع الإيمان والعمل الصالح. وهٰذا الوعد ينادي من جديد: أن آمنوا وٱعملوا صالحًا

ليتحقق لكم ما تحقق لآبائكم.

وقد عقد الإمام البخاري في «صحيحه» بابًا بعنوان:

(باب: كسب الرجل وعمله بيده).

أورد فيه ستة أحاديث: حديثًا في التجارة، وحديثًا في الزراعة، وأحاديث في الصنعة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما ٱستُخلف أبو بكر الصديق قال: لقد علم قومي أنَّ حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وشُغلْتُ بأمر المسلمين، فسيأكل آل أبي بكر من هٰذا المال وأحترف للمسلمين فيه[1].

فالحديثُ يدلُّ علىٰ أن أبا بكر كان يعمل بالتجارة، وأن عمله هٰذا كان يفي بمؤونة أهله، وهٰذا أمر ثابت في حق أبي بكر ﷺ، وكثيرٍ من الصحابة الذين كانوا يعملون بالتجارة. فقد روىٰ ابن ماجه وغيره من حديث أم سلمة: أن أبا بكر خرج تاجرًا إلىٰ بصرىٰ في عهد النبيِّ ﷺ[2].

وجاء في حديث لأبي هريرة ﷺ أنه قال: إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرين، والأنصار لا يحدِّثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصَفْقُ بالأسواقِ، وكنت ألزم

---

(١) ٱنظر «صحيح البخاري» كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده (٢٠٧٠-٢٠٧٥)، وأولها حديث عائشة المذكور.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧١٩) وأحمد ٦/٣١٦. والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

رسول الله ﷺ علىٰ ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت ٱمرءًا مسكينًا من مساكين الصُّفَّة، أعي حين ينسون[1].

فأبو هريرة يقرر في هٰذا الحديث أن المهاجرين كانوا يعملون في التجارة وأن الأنصار كانوا يعملون في الزراعة، والتجارة.

وقد روىٰ ابن سعد وابن المنذر بإسناد صحيح عن مسروق عن عائشة قالت: لما مرض أبو بكرٍ مرضه الذي مات فيه قال: ٱنظروا في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلىٰ الخليفة بعدي.

قالت: فلما مات نظرنا، فإذا عبدٌ نوبيٌّ كان يحمل صبيانه، وناضح كان يسقي بستانًا له، فبعثنا بهما إلىٰ عمر. فقال: رحمة الله علىٰ أبي بكرٍ، لقد أَتْعَبَ من بعده. وفي رواية: أن هٰذا العبد كان صيقلًا يعمل سيوف المسلمين ويخدم آل أبي بكرٍ[2].

وروىٰ ابن سعد بإسناد مرسل رجاله ثقات قال: لما ٱستُخْلف أبو بكرٍ أصبح غاديًا إلىٰ السوق، علىٰ رأسه أثوابٌ يتَّجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقال: كيف تصنع هٰذا وقد وليتَ أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالوا: نفرض لك. ففرضوا له كل يوم شطر شاة[3].

وأورد البخاريُّ في هٰذا الباب حديثًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أصحاب رسول الله ﷺ عمَّال أنفسهم، فكان يكون لهم أرواحٌ. فقيل لهم: لو ٱغتسلتم[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٠٤٧)، ومسلم (٢٤٩٢).

(٢) ٱنظر «فتح الباري» ٤/ ٣٠٤.

(٣) ٱنظر «فتح الباري» ٤/ ٣٠٥.

(٤) رواه البخاري (٢٠٧١).

وقد ذكر ابن حجر: أنَّ عملهم كان في الزراعة، ويبدو أن عملهم كان مجهدًا يجعلهم يعرقون، وكانوا يروحون إلىٰ الجمعة، ولأبدانهم رائحةٌ غير طيبةٍ، فأمروا أن يغتسلوا.

والرواية التي أوردها البخاري لا تعلق الاغتسال علىٰ صلاة الجمعة؛ بل قيل لهم لو اغتسلتم ليذهبوا تلك الروائح.

وأرواح: جمع روح، ويقال في جمعه أيضًا: أرياح.

ثم أورد حديث المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال: **«ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»**[1]. وقد سبق أن وقفنا وقفة تأملية للحديث، والمراد بالخيرية: ما يستلزم العملُ باليد من الغنىٰ عن الناس[2].

وذكر ابن حجر أنه جاء في رواية ابن المنذر للحديث: **«ما أكل رجلٌ طعامًا أحلَّ من عمل يديه»**[3] وذكر أنه ورد في روايةٍ من الروايات زيادة الجملة الآتية: **«من بات كالاً من عمله بات مغفورًا له»**[4].

ومن رحمة الله بالناس أن جعل ميولهم متنوعةً متعددة، فهناك من يميل للزراعةِ، وهناك من يميل للتجارة، وهناك من يميل للصناعة، وهناك من يرغب في الطبِّ، وهناك من يحب التعليم،

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢). (٢) انظر «فتح الباري» ٤/ ٣٠٦.

(٣) عزاه ابن حجر في «فتح الباري» ٤/ ٣٠٦ لابن المنذر.

(٤) جاء في ضعيف الجامع الصغير هٰذا الحديث بصيغتين متقاربتين. وقال الشيخ ناصر عن كل واحدة منهما: ضعيف. وهما: «من أمسىٰ كالا من عمل يديه أمسىٰ مغفورًا له» برقم (٥٤٩٤) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس. و«من بات كالا من طلب الحلال بات مغفورًا له» برقم (٥٥٠٧) أخرجه ابن عساكر عن أنس.

وهناك من يحلم أن يكون مهندسًا، وهكذا.

وباستجابتهم لهٰذه الميول تتحقق مصالح الناس، ويحصل التكامل بينهم في المجتمع، وقد يكون إلىٰ جانب الميل الرغبةُ في الحصول علىٰ المنفعة، وهذاأيضًا يساعد في توفير الخدمات والمصالح.

النـاسُ للناس من عُرْبٍ ومن عَجَم   بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

ومراعاة تلك الميول والاستجابة إلىٰ هاتيك الدوافع، كل ذلك يحقق للعامل الإتقان في العملِ.

وقد جاء في الحديث الصحيح: «**اعملوا، فكلٌّ ميسر لما خلق له**»(١)

ويقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزّخرُف: الآية ٣٢].

قال الزمخشري: «إن الله عزَّ وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها، ودبَّر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسوِّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويجَ، وموالي وخدمًا؛ ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم، ويستخدمونهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم؛ حتىٰ يتعايشوا، ويترافدوا، ويصلوا إلىٰ منافعهم، ويحصلوا علىٰ مرافقهم. ولو وكلهم إلىٰ أنفسهم، وولاهم تدبير أمرهم، لضاعوا وهلكوا»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩) عن علي بن أبي طالب.

(٢) انظر «الكشاف» ٤/ ١٩٥-١٩٦.

وقال ابن كثير في: «ثم قال تعالىٰ مبينًا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال، والأرزاق، والعقول، والفهوم، وغير ذلك من القوىٰ الظاهرة، والباطنة ليُسَخِّر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج هٰذا إلىٰ هٰذا، وهٰذا إلىٰ هٰذا»[1].

ولا بُدَّ أن تتوافر في المجتمع الخدمات، والمهن، والصناعات التي تحقق حاجات الناس المعاشية، والأمنية، والفكريَّة، ولابد من إتقان العلوم، والمهارات التي توصل إليها.

قال الإمام أبو حامد الغزالي: «أما فرض الكفايةِ فهو كل علم لا يستغنىٰ عنه في قوام أمور الدنيا: كالطب؛ إذ هو ضروريٌّ في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروريٌّ في المعاملات وقسمة الوصايا، والمواريث وغيرهما.

وهٰذه هي العلوم التي لو خلا البلدُ عمَن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحدٌ كفىٰ، وسقط الفرض عن الآخرين، فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة، بل الحجامة، والخياطة؛ فإنه لو خلا البلد من [الطبيب][2] تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإنَّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلىٰ ٱستعماله، وأعدَّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله»[3].

---

(١) ٱنظر «التفسير» ٧/ ٢١٣ طبعة الشعب.

(٢) في الأصل: الحجام. وبدلتها أنا؛ لأن كلمة (الطبيب) هنا أوقع وأصح.

(٣) إحياء علوم الدين ١/ ٢٣.

وفروض الكفاية لها أهميةٌ كبيرة في بناء المجتمعِ وإقامة الدولةِ.

ويدل علىٰ ذلك[1] ما جاء في هٰذا النصّ الذي نقلناه عن الإمام الغزالي.

وقرَّر نحوه ابن تيمية فقال: «فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم كأبي حامد الغزالي وأبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهما: إن هٰذه الصناعات فرضٌ علىٰ الكفاية؛ فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها، كما أن الجهاد فرضٌ علىٰ الكفاية إلا أن يتعين فيكون فرضًا علىٰ الأعيان، مثل أن يقصد العدو بلدًا»[2].

وما دُمنا نعرض صورة المجتمعِ الإسلاميِّ في ضوء السنة فيحسن بنا أن نقرر أنَّ ذاك المجتمع الفاضل كان محققًا لفروض الكفاية علىٰ أتم وجه، لقد كان الصحابة الكرام يتسابقون إلىٰ الخير.

وأودُّ أن أورد هنا في هٰذا الآستطرادِ النافع بعض ما ذكره العلماء من تلك الفروض قالوا[3]: إنَّ فرض الكفاية ما قصد حصوله من غير شخص معين، فإن لم يوجد إلا واحد تعيَّن عليه.

وذكروا من فروض الكفاية دفع ضرر عن المسلمين: كستر عارٍ، وإشباعِ جائعٍ، وفكِّ أسير علىٰ قادر. ومن ذلك: الصنائع المباحة التي يحتاج إليها الناس لمصالحهم الدينية، والدنيوية البدنية، والمالية، كخياطةٍ، وحدادةٍ، وزراعة، وبناء؛ لأنَّ أمر المعاد والمعاش لا

---

(١) وهٰذا أمر يحتاج إلىٰ بسط فالكلام حوله كلام واسع.

(٢) «الحسبة» طبعة دار البيان بدمشق ص٢٦.

(٣) «مطالب أولي النهىٰ» ٢/ ٤٩٨.

ينتظم إلا بذلك.

فإذا قام المسلم بهٰذه الأمور الدنيوية ونوىٰ التقرب إلىٰ الله بخدمة إخوانه المسلمين والنصح لهم كان عمله طاعة، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل آمرئ ما نوىٰ.

ومِن ذلك إقامة الدعوة إلىٰ الإسلام باللسان، والقلم، والمعاملة الحسنة، والتأليف بالأسلوب المناسب، واليد والسيف لمن عاند وقاوم.

ومن ذلك: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بشرطه.

قال ابن عقيل: «من شرطِ الإنكار: أن يعلم أو يغلب علىٰ ظنه أنه لا يفضي إلىٰ مفسدة»[1].

وقال أحمد: «من شرطه: أن يأمن علىٰ نفسه وماله خوف التلف» وكذا قال جمهور العلماء.

ومن شرطه: أيضًا رجاءُ حصول المقصود، وعدم قيام غيره به.

ومن ذلك: عمل القناطر، والجسور، والمساجد؛ لعموم حاجة الناس إلىٰ ذلك.

ومن ذلك: تعليم الكتاب، والسنة، والعلوم الشرعية كالفقهِ، والأصولِ، والفرائضِ، وآلاتها من نحو: حسابٍ، ولغةٍ، ونحوٍ، وصرفٍ، وبيانٍ، وبديعٍ، ومعانٍ، وما إلىٰ ذلك.

إن العمل هو الوسيلة الفعالة للقضاء علىٰ الفقر والعوز في المجتمع، ويُتِيح للطاقات الإنسانية أن تقوم بدور إيجابي بَنَّاء.

وإن الشعورَ بالمسؤولية بين يدي الله، والمصلحةَ الشخصية

---

(١) «مطالب أولي النهىٰ» ٢/ ٤٩٨.

كليهما يقتضيان أن لا يُعنِّي الإنسان نفسه إلا بما يُتقن من العمل.

إنَّه عندئذ ينصف نفسه، ويخدم أمته ويحقق منفعةً ذاتيةً.

وعندما يعمل الإنسان في العمل الذي يميل إليه، ويعرف أسراره بسبب التجربة والخبرة، يكون الإنتاج الجيد الغزير، وبذلك يتحقق الخير للفرد، والتقدم للأمة.

لو نظرنا في الحياة الاجتماعية التي أقامها الإسلام، لوجدنا أن كل قادرٍ علىٰ العمل منصرف إلىٰ عمله، يحاول أن يتقنه. فالتاجر يعمل في السوق بأمانة وصدق، والزارع يكدُّ في حقله وشجره، والصانع يتقن عمله.

لقد كان النبيُّ الكريم إذا أرسل رسولًا أرسله حسن السَمْت، حسن اللسان، وكان إذا طلب أحدٌ الولاية لم يجب طلبه ونصحه بأن يعمل العمل الذي يتناسب وإمكاناته ومواهبه.

عن أبي ذر قال: قلتُ: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده علىٰ منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر، إنك ضعيفٌ، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدَّىٰ الذي عليه فيها**»(١).

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحبُّ لك ما أحب لنفسي، لا تأمَرَنَّ علىٰ اثنين، ولا تَولينَّ مال يتيم**»(٢).

بهٰذا ونحوه قام المجتمع الإسلاميُّ، وبهذا ونحوه ساد المسلمون وفتحوا الدنيا المعمورة.

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٥). (٢) رواه مسلم (١٨٢٦).

إنَّ إسناد المناصب والأعمال لغير القادرين ولغير الأكفاء؛ خضوعًا لاعتبارات أخرىٰ غير الموهبة والعقيدة والقدرة يؤدِّي إلىٰ خلل في المجتمع، وينشئ مشكلات مدمِّرةً، ويعطِّلُ المواهب والطاقات، وينتهي بالأمة إلىٰ التخلُّف، وجديرٌ بالإنسان أن يعرف قدرته وموهبته فيعمل فيما يستطيع، فإن لم يكن ذلك فعلىٰ المجتمع الإسلامي أن يصارح من يتطلع إلىٰ عمل لا يحسنه أن يصارحه بحقيقة الأمر، وقد مرَّ بنا أن سيدنا رسول الله ﷺ صارح أبا ذر بأنه لا يصلح للإمارة؛ لأنه ضعيف.

والمرء الذي لا يصلح في عمل من الأعمال يصلح في غيره. إننا نرىٰ كثيرًا من الشباب يضيِّعون سنوات من أعمارهم وهم يحاولون أمرًا ليسوا مستعدين لتحمله، هناك شبابٌ يدخلون الجامعة وليست لديهم القدرة ولا الاستعداد للمضي في هٰذا السبيل، فيرسبون ويرسبون، ثم يخرجون محزونين ناقمين معقدين، ويكونون مخفقين في أعمالهم، ولو أنَّ أحدهم انصرف إلىٰ ما يتفق مع استعداده لكان خيرًا له وللمجتمع، هٰذا مثل، وهناك أمثلةٌ كثيرة في هٰذا الموضوع.

فصل

الإسلام يحارب البطالة والشحاذة (السؤال).

أما محاربته للبطالة فتتجلىٰ بأمره بالعمل، وهناك نصوصٌ كثيرة من الكتاب والسنة تدعو إلىٰ العمل، فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: الآية ١٥] وقوله علىٰ لسان صالح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: الآية ٦١].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: الآية ١٠].

وقوله ﷺ: «**ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه طيرٌ، أو إنسانٌ، أو بهيمة إلا كان له به صدقة**»[(١)].

وخيرُ الطعام وأطيبُه وأحلُّه ما كان من كسب اليد، وقد ذكر الرسول ﷺ أنه هو والأنبياء عملوا بأيديهم فذكر داود أنه كان يأكل من عمل يده.

وأن الأنبياء كلهم رعوا الغنم: عن أبي هريرة قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيًا إلا ورعىٰ الغنم**» فقالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**نعم كنت أرعاها علىٰ قراريطَ لأهل مكة**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣) عن أنس.

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٢).

أما محاربته للشحاذة فقد أخرج البخاريُّ حديثًا فيه ترغيبٌ بالعمل، وتزهيدٌ بسؤال الناس:

عن الزبير بن العوام عن النبي ﷺ قال: «**لأن يأخذ أحدُكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب علىٰ ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[1].

وهناك حديثٌ لطيفٌ عن أنس بن مالك: أنَّ رجلا من الأنصار أتىٰ النبيَّ ﷺ يسأله، فقال ﷺ: «**أما في بيتك شيءٌ؟**»

قال: بلىٰ، حِلْسٌ[2] نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعبٌ[3] نشرب فيه من الماء.

قال: «**ائتني بهما**».

قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشترىٰ هذين؟**»

قال رجل: أنا آخذهما بدرهم.

قال ﷺ: «**من يزيد علىٰ درهم؟**» مرتين أو ثلاثًا. قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري وقال: «**اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلىٰ أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فأتني به**». فأتاه به، فشدَّ فيه رسولُ الله ﷺ عودًا بيده ثم قال له: «**اذهب فاحتطبْ وبعْ، ولا أرينَّك خمسةَ عشرَ يومًا**».

فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم،

---

(١) رواه البخاري (١٤٧١).

(٢) الحلس: كساء يوضع علىٰ ظهر الدابة، أو يفرش ويجلس عليه.

(٣) القعب: الإناء والقدح.

فاشترىٰ ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: **«هٰذا خيرٌ لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثةٍ: لذي فقرٍ مُدْقِعٍ، أو لذي غُرمٍ مُفْظِعٍ، أو لذي دمٍ مُوْجِعٍ»**[(١)].

وذهب بعض أهل العلم[(٢)] إلىٰ أنه ضعيفٌ، ولكن معناه ورد في أحاديث كثيرةٍ صحيحة، والله أعلم.

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«ما يزال الرجلُ يسأل الناس حتىٰ يأتي يومَ القيامة ليس في وجهه مُزعَةُ لحم»**[(٣)].

ورُوي من طريقٍ آخر بلفظ: **«لا تزال المسألة بأحدكم حتىٰ يلقىٰ الله وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم»**[(٤)]

حديثٌ رائع موجز، يُنفِّر من السؤال ويبين مصير صاحبه، إنه مصيرٌ مزرٍ في يوم القيامة، يوم تجتمع الخلائق التي مرت علىٰ هٰذه الأرض، فتكون فضيحة لا تعدلها فضيحة، يوم لا يستطيع المرء تدارك ما فاته من عمل الخير، يوم لا ينفع فيه غذاءٌ ولا دواءٌ لاستعادة

---

(١) رواه أبو داود (١٦٤١) واللفظ له ، والترمذي (١٢١٨)، والنسائي ٧/ ٢٥٩، وابن ماجه (٢١٩٨) وأحمد ٣/ ١١٤. وقال المنذري: رواه أبو داود والبيهقي بطوله، واللفظ لأبي داود، وأخرج الترمذي والنسائي منه قصة بيع الحطب فقط. وقال الترمذي: حديث حسن. وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» ١/ ٢٥٤ (٥٠١).

(٢) أنظر: «ضعيف ابن ماجه» للألباني برقم (٤٧٨) وقد أحال إلىٰ «الإرواء» (١٢٨٩) في الجزء الخامس، وضعفُه كان بسبب أبي بكر عبد الله الحنفي. والله أعلم

(٣) رواه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠)، والنسائي ٥/ ٩٤.

(٤) رواه مسلم (١٠٤٠) والمزعة: القطعة.

ما فقد الإنسان من الصحة، ولا تنفع فيه وسائل التجميل﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء] في ذلك اليوم يأتي السائل علىٰ هٰذه الهيئةِ المُزْرِيَة المُهِيْنَةِ، ليس في وجهه مزعة لحم.

لو تذكرنا نماذج من الناس، ممن رأينا ممن صارعوا المرضَ وقتًا طويلًا حتىٰ ٱعتراهم الهزال، فبدا ذاك في وجوههم، زالت خدودهم وبرزت أعينهم، وأطلت جباههم، فزالت كل قسماتِ الجمالِ من تلكَ الوجوه، وأضحت مؤذيةً لعينِ الناظر، فما القول إذا كان اللحم كلُّه قد زال حتىٰ لم تبق قطعة من اللحم في وجه أحدهم مهما كانت هٰذه القطعة صغيرة؟

إنه -دون شك- منظر مخيف، لو ٱطلع المرء عليه لولَّىٰ من صاحبه فرارًا، ولامتلأ منه رعبًا، مع قدر كبير من التَقَزُّزِ، والاشمئزاز.

إنَّ سؤال الناس يورث صاحبه هٰذا المصير البشع الذي عرضه الحديث النبوي الشريف.

وأحب أن أنبه علىٰ خطأ لغويٍّ شائع؛ ذلك أن كثيرًا من الناس يستعملون كلمة (التسول) محل كلمة (السؤال)، أو (الشحذ)، أو (الكدية)، وليس لهٰذا الٱستعمال أصلٌ في اللغةِ.

فقد ذكرت النصوصُ القرآنية والأحاديث النبوية كلمة (السؤال)، وقد يستعمل العرب كلمة (الشحاذ) بمعنىٰ السائل، ويستعملون كلمة (الكدية) محل كلمة (السؤال).

قال «صاحبُ القاموس»: والشحذ: الإلحاح في السؤال، وهو شحاذ ملحٌّ.

وذكر الزبيديُّ في «التاج»: أن الكدية السؤال.

والسؤال: كلمة وردت في القرآن، من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضّحى] وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٣].

وجاء في اللسان: «والتسول: ٱسترخاء البطن».

وهكذا يبدو أنه لا صلة بين المعنىٰ الحقيقيّ لكلمة (التسول) والاستعمال الشائع، ولا يجوز أن تستعمل بمعنىٰ السؤال، والله أعلم.

وسوَّل في اللغة: زيَّن. جاء في «القاموس» و«المصباح»: سولت له نفسه كذا: زينت. وسوَّل له الشيطان: أغواه.

وجاء في التنزيل. قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمَّد] وقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يُوسُف: الآية ١٨] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طٰه: الآية ٩٦].

إنَّ السؤال دون حاجةٍ محظورٌ، ولم يكتفِ الإسلام بحظره بل أقام النظام الاجتماعي الذي لا يتيح له أن يكون.

١- فقد كرَّه إلىٰ أتباعه السؤال، وزهَّدهم فيه، وهدَّدهم بالمصير البئيس والعذاب الأليم إنْ هم أقدموا عليه، وهٰذا منهجٌ تربوي قويم يبدأ فيه التوجيه من داخل النفس.

٢- وشجع علىٰ العمل ورغَّب فيه.

٣- وييسِّر أسباب العمل للقادرين وأصحاب الطاقات.

ولننظر في هٰذه الأمور علىٰ الترتيب المذكور.

هناك أحاديث كثيرة تحذر من السؤال:

من ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن سأل الناس أموالهم تَكَثُّرًا، فإنما يسأل جمرًا فليستقلَّ أو ليستكثرَ»**[(١)].

ومن ذلك حديث سمرة قال: قال ﷺ: **«إنما المسائل كُدوحٌ** -أي: آثار الخموش- **يكْدَحُ بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقىٰ علىٰ وجهه، ومن شاء ترك، إلا أن يسأل ذا سلطان، أو في أمر لا يجد منه بُدًّا»**[(٢)].

ومن ذلك ما رواه أحمد عن ابن عمر قال: قال ﷺ: **«المسألة كدوح في وجه صاحبها يوم القيامة، فمن شاء استبقىٰ علىٰ وجهه»**[(٣)] قال المنذري: ورواته كلهم ثقاتٌ مشهورون.

وأخرج البزار والطبراني في «الكبير» حديثًا عن مسعود بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزال العبد يسأل وهو غنيٌّ حتىٰ يَخْلَقَ وجهُه، فما يكون له عند الله وجه»**[(٤)] قال المنذريُّ: في إسناده محمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: **«من سأل**

---

(١) رواه مسلم (١٠٤١)

(٢) رواه أبو داود (١٦٣٩)، والترمذي (٦٨١)، والنسائي ٥/ ١٠٠ وابن حبان (٣٣٩٧). وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ١/ ٤٨٦ (٧٩٢).

(٣) رواه أحمد ٢/ ٩٣-٩٤، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ١/ ٤٨٦ (٧٩٣).

(٤) رواه البزار كما في «كشف الأستار» (٩١٩)، والطبراني ٢٠/ ٣٣٣ (٧٩٠) وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» ١/ ٢٥٠ برقم (٤٨٨).

الناس في غيرِ فَاقَةٍ نزلت به، أو عيالٍ لا يُطيقهم، جاء يوم القيامة بوجهِ ليس عليه لحم».

وقال رسول الله ﷺ: «**من فتح علىٰ نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب**»[1].

فهذان الحديثان يوضحان الحالتين التي يحل فيهما السؤال وهما: نزول فاقة بالإنسان، أو كثرة في عيال لا يقوىٰ كسبه علىٰ القيام بالنفقة عليهم.

ومن سأل في غير هاتين الحالتين: جاء يوم القيامة ليس عليه لحمٌ، وفتح الله عليه في الدنيا باب فقرٍ من حيث لا يحتسب.

ومن ذلك ما رواه النسائي عن عائذ بن عمرو أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ يسأله فأعطاه، فلما وضع رجله علىٰ أسكفة الباب قال رسول الله ﷺ: «**لو يعلمون ما في المسألة ما مشىٰ أحدٌ إلىٰ أحد يسأله شيئًا**»[2].

ومن ذلك ما رواه مسلمٌ، وأبو داود، والنسائيُّ عن قبيصة بن مخارقٍ قال: تحملت حَمَالةً[3] فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال ﷺ: «**أقمْ حتىٰ تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**» ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثةٍ: رجلٍ تحمَّل حمالة، فحلَّت له المسألة**

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» ٣/ ٢٧٤ (٣٥٢٦) وحسنه الألباني «صحيح الترغيب» ١/ ٤٨٧ برقم (٧٩٤).

(٢) رواه النسائي ٥/ ٩٤.

(٣) والحَمَالة: هي المال الذي يتحمله الإنسان أي: يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين بين قبيلتين ونحو ذلك.

حتىٰ يصيبها ثم يمسك، ورجلٍ أصابته جائحة اَجتاحت ماله فحلت له المسألة حتىٰ يصيب -قوامًا من عيش- أو قَالَ: **سدادًا من عيش- ورجلٍ أصابته فاقة حتىٰ يقول ثلاثةٌ من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقةٌ، فحلت له المسألة حتىٰ يصيب قِوامًا من عيش** -أو قال: سِدادًا من عيش- **فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتُ**[1] **يأكلها صاحبها سحتًا»**[2].

ومن ذلك ما رواه أحمد بإسناد جيد عن عمران بن حصين أنه ﷺ قال: **«مسألة الغني شينٌ في وجهه يوم القيامة»** وزاد الطبراني: **«ومسألة الغنيِّ نارٌ، إن أعطي قليلًا فقليل، وإن أعطىٰ كثيرًا فكثير»**[3].

(١) في مسلم: «سحتًا». وأولوها بأنه معمول لمحذوف تقديره: يؤكل سحتا، وأثبت رواية أبي داود والنسائي.

(٢) رواه مسلم (١٠٤٤) وأبو داود (١٦٤٠) والنسائي ٥/ ٩٦-٩٧.

(٣) رواه أحمد ٤/ ٤٢٦، والطبراني في «الكبير» ١٨/ ١٧٥ (٤٠٠). وقال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد، والطبراني في «الكبير». وصحح الألباني الشطر الأول منه في «صحيح الترغيب والترهيب» ١/ ٤٨٨ برقم (٧٩٨).

فصل

قيام المجتمع الإسلامي ضرورة

إن قيام المجتمع الإسلامي كما أراده الله ضرورةٌ لتحقيق الإصلاح الذي تتطلع إليه جماهير الناس في كل مكان، فالظلم والفساد قد عمَّ وطمَّ، وإنسانية الإنسان تُسحق وتُداس، وبعد ذلك كله يقولون لهٰؤلاء المظلومين: إن حقوق الإنسان مصونةٌ! والديمقراطية حاكمة! والحرية محققةٌ! يضحكون عليهم بالأماني الكاذبة، والأوهام الهائمة، والشعارات الفارغة.

إن قيام المجتمع الإسلامي في بقعة من بقاع الأرض دعوةٌ إلىٰ الإسلام؛ لأنَّ الناس سيرون بأمِّ أعينهم عظمة المبادئ التي يحققها الإسلام، وفرق كبير بين دعوة اللسان، ودعوة الواقع العملي الملموس، إنَّ الذي يعاني منه الدعاة أنهم يتكلمون عن معانٍ عظيمة، ويفتقدون المثال الحي الذي يترجمها في دنيا الواقع.

لقد كان المجتمع الإسلامي الذي قام في البلاد المفتوحة منارةً تنادي غير المسلمين من أبناء تلك البلاد وجيرانهم: أن تعالوا إلىٰ مبادئ الإسلام. . إلىٰ السعادة التامة والفوز الكبير، والحق والكرامة.

ومن كان في ريب من ذلك فلينظر إلىٰ واقعنا. . إنه سيجد الأمن، والعدالة ، والرعايةَ للروح والمادة والدنيا والآخرة، والسمو في الخلق، والسلامة في العقيدة، والتقدم، والقوة، والحرية. . إنه

مجتمعٌ فذٌّ فريد، لا نعرف له نظيرًا في سموه ونظافته وتحقيقه للمثل العليا في أقصر مدة.

لقد خرج المسلمون من جزيرتهم إلىٰ العالم المعمور يحملون رسالة الإسلام، وحققوا ظفرًا باهرًا عندما غزوا دولتين من أعظم دول العالم القديم، وأشدها منعة، وأوفرها موارد، وهما دولتا فارس والروم.

وأقاموا في أقلَّ من قرن مجتمعًا مثاليًّا راقيًا ٱنبثقت عنه دولةٌ عظيمة في تلك الأصقاع. . دولةٌ تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وتؤمن بالله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتنشر دين الله، وتحقق العدالة الٱجتماعية بأكمل صورها، وتدافع عن المستضعفين المظلومين.

ولقد كان هناك أمرٌ يستحوذ علىٰ الإعجابِ، ويكادُ ينفرد به تاريخنا، ألا وهو ٱنتصار الإسلام علىٰ الأديانِ القديمة التي كانت سائدةً في البلاد التي حررَّها المسلمون وفتحوها ٱنتصارًا مذهلا، لقد تبنَّت شعوب البلاد المفتوحة مبادئ هٰذا الدين الجديد، وخالطت بشاشتُهُ قلوبَهم، وأقبلوا عليه بحماسة واندفاع، ودخلوا في دين الله أفواجًا.

هٰذا بالنسبة إلىٰ الشعوبِ، وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد؛ فإن مجردَّ ٱتصال فرد من غير المسلمين بهٰذا المجتمع الإسلامي، والوقوف علىٰ تحقق القيم الٱجتماعية الكريمة والمثل العليا فيه ورؤيته المعاملة الحسنة، كان ذلك سببًا في إسلامه ،وهٰذا كثير.

فكم نقرأ من أخبار في كتب التاريخ تدور حول إسلام رجل كافر عندما ٱتصل بهٰذا المجتمع واحتكَّ به، فهٰذا رجلٌ عامله جاره المسلم

معاملةً كريمةً فكان ذلك سببًا في إسلامه.

وذاك إنسان أنصفه قاضٍ مسلم فحكم له وهو كافرٌ عندما أدلىٰ ببينته علىٰ المسلم، فكان ذلك سببًا في إسلامه، وهٰذا ثالثٌ أدىٰ إليه حاكمٌ قوي حقه فكان ذلك سببًا في إسلامه، ولم يحدثنا التاريخ بمطاردات دموية لأتباع الديانات الأخرىٰ من قِبَلِ المسلمين الفاتحين.

وإننا لنقرأ بكثير من الأسف والحسرة ما فعله الصليبيون عندما ٱحتلوا بلاد المسلمين أيام الحروبِ الصليبيةِ، أو ما فعلوه مع المسلمين في الأندلسِ، أو ما كان بين فرقهم المختلفة بل كان المسلمون أرحم الفاتحين علىٰ مر العصور.. كانوا كذلك أيام الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، وكانوا كذلك يوم أن فتح صلاح الدين القدسَ واستردَّها من أيدي الصليبيين.

وموازنةٌ يسيرةٌ بين معاملة المسلمين للمغلوبين من أبناء الديانات الأخرىٰ، ومعاملة النصارىٰ لمسلمي الأندلس تدلنا علىٰ عظمة المجتمع الإسلامي. ولله درُّ الشاعر أسعد بن محمد (الحيص بيص) إذ يقول:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلمَّا ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأُسارىٰ وطالما ... غدونا علىٰ الأسرىٰ نعف ونصفح
فحسبكمُ هٰذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح[1]

يقول مؤرخٌ إسبانيٌّ عاش قريبًا من ذلك العصر، يصف موقف الكنيسة العدواني من المسلمين يقول: «إنه منذ ٱستولىٰ فرناندو علىٰ

(١) «وفيات الأعيان» ٢/١٠٨ .

غرناطة كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاحٍ أن يعملَ علىٰ سحقِ طائفة محمد من إسبانيا، وأن يطلب إلىٰ المسلمين الذين يودون البقاءَ إما التنصير، أو بيع أملاكهم، والعبور إلىٰ المغرب»[1].

كان هٰذا في البداية، ولٰكن النصارىٰ لم يتركوا من تنصَّر من المسلمين يعيش حرًّا مثل الآخرين؛ بل كانت هناك أنظمةٌ تقيد حريتهم، كانوا يلزمون بالسكنىٰ في أحياءٍ خاصةٍ بهم، وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارىٰ أسوارٌ كبيرةٌ،[2].

وكان يُحظر عليهم إحراز السلاح علنًا، أو سرًّا، ومن خالف عوقب بالحبس، والمصادرة، ثم بالموت بعد ذلك[3].

وكانوا يمنعون، وهم متنصرون أن يغادروا مكان سكناهم إلىٰ مكانٍ في المملكة نفسها.

وصدر قرارٌ يحرِّم علىٰ المتنصرين أن يبيعوا أملاكهم لأي شخصٍ دون ترخيصٍ سابق، ومن خالف عوقبَ بالموتِ، والمُصادرة؛ لأنه تبين أن كثيرًا من المتنصرين يبيعون أملاكهم، ثم يعبرون إلىٰ المغرب، وهناك يعودون إلىٰ الإسلام[4].

وتحقق في هٰؤلاء النصارىٰ الغالبين ما قاله فارس عاقل للمسلمين:

«إنهم ظَمِئُون إلىٰ دمنا، والموت خير ما تلقون منهم، إن ما ينتظركم شر الإهانات، والرق ينتظركم، نهبُ منازلكم، واغتصابُ

---

(١) «نهاية الأندلس» ٣١٣ لمحمد عبد الله عنان.

(٢) «نهاية الأندلس» ٣٢٦.

(٣) «نهاية الأندلس» ٣٢٦.

(٤) «نهاية الأندلس» ٣٢٧.

نسائكم وبناتكم، وتدنيس مساجدكم، تنتظركم المحارق الملتهبة لتجعل منكم حطامًا هشيمًا»[١].

ولم يكتفوا بالتنكيل بالبشر، بل جمعوا كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهل غرناطة وأرباضها ونظمت أكداسًا هائلة في ميدان باب الرملة أعظم ساحات المدينة، ومنها مصاحف، وآلافٌ من كتب الآداب والعلوم واحترقت النيران فيها جميعًا[٢].

أما محاكم التفتيش فشيءٌ فظيعٌ جدًّا[٣]:

يعتقل المتهم الذي يشك في أنه ما يزال علىٰ الإسلام بغرف التحقيق والعذاب، وهي غرفٌ عميقةٌ مظلمة رطبة تغص بالحشرات، والجرذان، ويصفد المتهمون بالأغلال[٤] وتصادر أملاك السجين كلها وتصفىٰ علىٰ الفور[٥] وقد تستغرق المحاكمة عامًا، أو ثلاثة أعوام، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة وكثيرًا ما تستغرقها، وقد يحول إلىٰ التعذيب[٦] وبعد ٱنتهاء التعذيب يُحمل المتهم ممزَّقًا داميًا إلىٰ قاعة الجلسة ليجيب عن التهم التي توجه إليه، ثم تحال القضية إلىٰ الأحبار الذين يحكمون، وغالبًا ما يكون الحكم بالإعدام العاديِّ، أو الإعدام حرقًا، وكان التنفيذ في ساحات المدن الكبيرة وفي ٱحتفال رسمي يشهده الأحبار والكبراء، وكان يقع علىٰ الأغلب جملة[٧] هٰذا غير العدوان علىٰ النساء، واغتصابهن[٨].

---

(١) «نهاية الأندلس» ٣١٤-٣١٥. (٢) «نهاية الأندلس» ٣١٦.

(٣) والاسم الأصح لها: محاكم التحقيق، وعرفت بهٰذا الأسم خطأ.

(٤) «نهاية الأندلس» ٣٣٤. (٥) «نهاية الأندلس» ٣٣٤.

(٦) ٱنظر أنواع التعذيب في «نهاية الأندلس» ٣٣٥-٣٣٦.

(٧) «نهاية الأندلس» ٣٣٧-٣٣٨. (٨) «نهاية الأندلس» ٣٣٩.

لم يعرف تاريخنا شيئًا من ذلك، لقد ٱنتشر الإسلام بوسائله الخاصة وكان هٰذا الظفر أعظم ما سجلَ تاريخ الأديان، يقول المؤرخ فون جون شميث: «إن الإقبال العام علىٰ ٱعتناقِ دينٍ جديد علىٰ أثر فتح أجنبي أمر لا يكاد يعرفه العصر القديم، ولكن الإسلام يقف وحيدًا في هٰذا الفوز»(١).

ويقول دوزي: «إن هٰذه الظاهرة تبدو لأول وهلة لغزًا غريبًا ولا سيما متىٰ علمنا أن الدين الجديد لم يفرض فرضًا علىٰ أحد»(٢).

نعم لقد دخل الناس من أبناءِ البلاد المفتوحة في الإسلام طَواعية ومن تلقاء أنفسهم دون ضغطٍ، أو إكراه؛ لأنهم وازنوا بين ما كانوا عليه من الخسف والظلم والطغيان، وبين ما رأوه، وعاشوه في ظلال المجتمع الإسلاميِّ، فآثروا حكم المسلمين علىٰ حكم أبناء دينهم الظلمة.. ولما جاء المسلمون رأوا مجتمعًا جديدًا.. تقوم فيه دولة العقيدة التي تدعو الناس إلىٰ الإسلام.. فإذا دخلوا في الإسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ومن أبىٰ الدخول فيه ورضي بدفع الجزية والخضوع لنظام الدولة ٱستطاع أن يعيش في المجتمع الإسلامي آمنًا، له ذمة الله وذمَّة رسوله، وله أن يمارس شعائر دينه، لا يعتدي عليه أحد، يأمن علىٰ روحه وعرضه وماله.

يقول دوزي عن المسلمين: «ولم يرهقوا أحدًا في شؤون الدين، ولم يغمط النصارىٰ للمسلمين هٰذا الفضل، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم، وآثروا حكمهم علىٰ حكم الجرمان

---

(١) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» ص ١٩.

(٢) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» ص ٢٠.

والفرنج»[1].

إن المجتمع الإسلاميَّ، وقيام نظام الإسلام فيه أتاح للفطرة الإنسانية السليمة أن تستيقظ، وأن تختار؛ فكان أَنِ ٱختارت الإسلام عن طواعيةٍ وتركت دين آبائها الذي سيمت باسمه أفظع ألوان الخسف والمهانة، والظلمِ والمصادرة، والسلبِ والعدوانِ.

---

(١) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» ص٢١.

العملُ والبَطَالةُ

شجَّعَ الإسلامُ العاملين وحَضَّ الناسَ عامةً علىٰ العمل ورغَّب فيه، وقد سبقَ أن أوردنا نصوصًا من الكتابِ والسنة تحضُّ علىٰ العمل.

ومزايا العملِ كثيرة جدًا نذكر أهمها فيما يأتي:

١- فالعمل يوفر للأمة الٱقتصاد المتين المتماسك، وهٰذا يعود عليها وعلىٰ قيمها بالقوة والسيادة. إن الأمم الغنية اليوم يعود غناها في أكثر الأحيان إلىٰ ٱنصراف أبنائها إلىٰ العمل الجادّ. والمَثَلُ الواضح علىٰ ذلك اليابان وبعض بلدان أوربا.

إنَّ العمل هو ثروة الأمة الحقيقية؛ ذلك لأننا لو تصورنا بلدًا توافرت فيه المواد الأولية والثروات الطبيعية، وكان أبناؤه كسالىٰ، فإن هٰذه الثروات قد تكون وبالًا عليه؛ إذ تجعله هدفًا لمطامع المستثمرين والمستعمرين، والمال الذي يكون بين أيدي الناس فيه يفسد أخلاقهم وضمائرهم ونفسياتهم.

وهكذا يبدو أن العمل هو الثروة الحقيقية للأمة.

٢- والعمل يُعِفُّ المرء عن السؤال، لا سيما إذا كان المرء موضع ٱهتمام مؤسسات التربية في المجتمع من البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع، وكانت هٰذه المؤسسات قائمة علىٰ مبادئ سليمة.

٣- والعمل يوفر للرجل وأسرته الكرامة، ويحقق له أن ينفق علىٰ من تجب عليه نفقتهم، والكرامة ترتبط بإنسانية الإنسان، فلا تسلم لأحد إنسانيته إن أهينت كرامته يقول ﷺ: «**بحسب ٱمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١)

---

(١) هو جزء من حديث رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﷺ.

٤- والعمل يوفر الغذاء الجيِّد الذي يقوِّي المرءَ علىٰ القيام بالواجبات الإسلامية الكثيرة: من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهاد في سبيل الله، ودفاع عن الحرمات، ونشر لمبادئ الدين وتشريعاته.

٥- والعمل يوفر المال الذي يعين علىٰ الدعوة إلىٰ الله، ويساعد المحتاجين من المسلمين، وإننا لنرىٰ دَوْرَ المال في الحركات والدعوات المنحرفة، ومن ذلك ما تتمتع به حركات التنصير التي يدعونها بالتبشير.

٦- والعمل يشغل المرء عن سفاسف الأمور، ويملأ وقته بالنافع؛ لأنَّ الفراغ مفسدة للمرء أيُّ مفسدة؛ ذلك لأن لدىٰ الإنسان طاقة، فإن لم يصرفها في العمل المجدي زيَّن له الشيطان أن يصرفها في الأمور المحرَّمة، أو الأمور التي لا منفعة فيها.

* * *

والبطالةُ شرٌّ تجعل صدر الإنسان ضيقًا، وخلقه سيئًا، ومطالبُ الحياة الكثيرة قد تحمل البطَّال الذي لا يجد المال الذي ينفقه في تحقيقها، قد تحمله علىٰ السرقة، والاختلاس، أو تكفف أيدي الناسِ.

ما أكثر ما نقرأ عن حوادث السرقة والنهب، وقد يتفنن هٰؤلاء السارقون في ٱختراع وسائل السرقة، ولو يسرت لهم أسباب العمل وتوافر عندهم المال، ما أقدم كثير منهم علىٰ سلوك ذاك السبيل المنحرف الخسيس.

إنّ البطالة تحرم المجتمع موارد ٱقتصادية ضخمة، وتكون سببًا من أهم أسباب وقوع الجرائم، التي تروع الناس، وتهز الوضع الأمني في الأمة.

وموضوع البطالة موضوع واسع، ولن نستطيع أن نوفيه حقه في هٰذه الكلمة، ولكننا سنلمس جوانبه لمسًا رفيقًا.

إن البطالة مشكلة ٱقتصادية ٱجتماعية، تئنُّ من وطأتها كثير من المجتمعات الأجنبية والعربية، فبين الفينة والفينة تنشر الصحف إحصائيات عن ٱرتفاع نسبة البطالة في تلك المجتمعات، وعن تزايد أعداد البطالين الذين أصبحوا جيوشًا.

والبطالةُ علىٰ نوعين:

-نوع يعود إلىٰ الفرد القادر علىٰ العمل الذي يؤثر الكسل والركون إلىٰ الراحة والانصراف إلىٰ الملذات مع توفر مجالات العمل، وهٰذا النوع أخطر النوعين، ويشترك في المسؤولية عنه البيت والمدرسة والدولة، ونصيب البيت هو الأكبر.. إن علىٰ الآباء والأمهات أن يربوا أولادهم علىٰ حب العمل، وقد أدركنا الناس في أيام طفولتنا يعمدون إلىٰ تشغيل أولادهم أيام العطلة الصيفية، بل كانوا يكلفونهم بمساعدة آبائهم في أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية طيلة أيام السنة حتىٰ في أيام الدراسةِ، فينشأ الأولاد علىٰ العمل ويفكرون فيه.

-ونوع يعود إلىٰ المجتمع الذي لم يهيئ فرص العمل للناس جميعًا، ولم يفتح مجالاته أمام عدد من أصحابِ المؤهلاتِ. وهٰذا النوعُ تعود المسؤولية عنه في معظمِها إلىٰ الدولة.. والتخطيط والتوجيه والشعور بالمسؤولية يمكن أن يعمل ذلك كله علىٰ علاجهِ.

والنوعان كلاهما يمثلان مشكلة كبيرة يعود ضررها علىٰ الأمة بمجموعها.

إن الإنسان عنصر منتج، وإنتاجه -غالبًا- يزيد علىٰ حاجته واستهلاكه، فعندما يركن إلىٰ البطالة يصبح عنصرًا مستهلكًا فقط، وتُنشئ فيه البطالةُ عُقدًا نفسية، وقد تدفعه إلىٰ الإجرام.

وقد كنا حفظنا في بدءِ طلبنا العلمَ كلمةَ عمر بن الخطاب رضيَ الله عنه المشهورةَ:

(لا يقعدنَّ أحدكم عن طلبِ الرزقِ، وهو يقولُ: اللَّهم ٱرزقني، وقد علمَ أنَّ السماءَ لا تمطرُ ذهبًا ولا فضة)[1].

وحفظنا كلمةً تُنسب إليه ﷺ وهي قولُه: (إنِّي لأرىٰ الرجلَ فيعجبُني، فأسألُ: أله مهنةٌ؟ فإنْ قيل: لا، سَقَطَ مِنْ عيني)[2].

إن مجالات العمل ميسورةٌ لمن كان عازمًا علىٰ العملِ، أما إذا وضع الإنسان شروطًا مبالغًا فيها لا يعمل إلا إذا تحققت فسيؤول أمره إلىٰ البطالة.

إن العملَ بشروط لا تروقُ للإنسان خير من حاجة الناس والاضطرار إلىٰ سؤالهم. وقد قدمنا أن رسول الله ﷺ وَجَّه بعضَ العاطلين عن العمل إلىٰ ٱلاحتطاب، فصان وجوههم عن ٱلابتذال، وكرامتَهم عن المهانة.

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري ٣/ ٢٦. و«أخبار عمر» للطنطاوي وأخيه ط المكتب الإسلامي ص٢٦٤ .

(٢) «التراتيب الإدارية» ٣/ ٢٣ عن ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» و«مناقب عمر». وهي في تلبيس إبليس لابن الجوزي طبعة محمد منير الدمشقي في مطبعة السعادة سنة ١٣٤٠ ص ٣٠٢ وهي في «تاريخ عمر بن الخطاب» لابن الجوزي مطبعة التوفيق الأدبية بمصر ص ٢٠٢ وفي «تاريخ عمر بن الخطاب» بتعليق أسامة عبد الكريم رفاعي (الناشر مكتبة السلام العالمية) ص ٢٣٠ وتاريخ مقدمة المحقق ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ.

وهناك كتب لمؤلفين قدامىٰ تحث علىٰ العمل:

منها: كتاب «الكسب» تأليف: محمد بن الحسن الشيباني المتوفىٰ ١٨٩هـ وهو مطبوعٌ، وقد نشره أخيرًا رجل لا علاقة له بالعلوم الشرعية، ويدعىٰ: سهيل زكار، سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) في دمشق. وعدد صفحاته بالفهارس ١٣٦.

ومنها: كتابُ «**الحثُّ علىٰ التجارةِ والصناعةِ والعمل، والإنكارُ علىٰ من يدَّعي التوكلَ في تركِ العملِ والحجة عليهم في ذلك**» تأليف: أحمد بن محمد بن هارون الخلال الحنبلي المتوفىٰ ٣١١هـ.

نشرته مكتبة القدسي وبدير في دمشق سنة ١٣٤٨هـ، وطبع في مطبعة الترقِّي في دمشق وعدد صفحاته ٣٥ صفحةً.

ومنها: كتابُ «البركة في فضلِ السعي والحركةِ». تأليف: محمد بن عبد الرحمن الوصابيِّ الحبشيِّ المتوفىٰ سنة ٧٨٢هـ. طَبع المكتبةِ التجارية بمصر وعدد صفحاته ٤٣٢ صفحة.

البطالةُ والسرقةُ

قلنا: إنَّ الإسلام دعا إلىٰ العمل، وحرَّم السؤال علىٰ غير المحتاج، وحارب البَطالةَ. وإن مطالب الحياة قد تحمل البطَّال علىٰ أمور محظورة كالسرقة وقطع الطريق، ويبدو من دراسة أحوال هٰؤلاء السارقين وحياتهم وظروفهم أنَّ عددًا منهم كانوا عاطلين عن العمل.

وبسبب البطالة من جهة، ولين العقوبات الوضعية من جهة أخرىٰ، تكاثر عدد اللصوص، وعظم خطرهم. يقول أحد رجال القضاءِ وهو وكيل النيابة في بلدٍ عربي:

«إني أتذكر أنه لم يمضِ عليَّ يومٌ مدىٰ خمس سنوات قضيتها في العمل، دون أن أحقق مع سارق أو أكثر وأقدمه للمحاكمة، والنتيجة هي خروج هٰذا الشخص من محبسه بعد شهور قلت أو كثرت، واقترافه للسرقة مرة أخرىٰ، وإدمانه الإجرام بصورة أشد، بل أتذكر أني قدمت أشخاصًا عديدين للمحاكمة في أكثر من سرقة ٱقترفها كل منهم»[(١)].

إلىٰ أن يقول: «فانتشرت هٰذه الجريمة بصورة رهيبة ومخيفة، واختلَّ بذلك أمن المجتمع وأمانه، وأصبح الناس في مختلف المدن والأماكن لا يأمنون علىٰ أنفسهم وأموالهم»[(٢)].

إنَّ علاج الإسلام لموضوعِ السرقة قام علىٰ أمور عديدةٍ لا نستطيع ٱستقصاءها هنا، ولكننا نَذكر أهمها: فلقد بدأ العلاج من

---

(١) «عقوبة السارق» للدكتور أحمد توفيق الأحول ص٤.

(٢) «عقوبة السارق» للدكتور أحمد توفيق الأحول ص٤.

أعماق النفس، فغرس فيها: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يأخذ شيئًا يملكه الآخرون فقال ﷺ: «**كلُّ المسلمِ علىٰ المسلم حرامٌ: دمُه، ومالُه، وعرضُه**»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ الله السارقَ يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**» قال الأعمش: كانوا يرون أنه بيض الحديد، والحبل كانوا يرون أنه منها ما يساوي دراهم(٢).

عن عبادة بن الصامت رَضي الله عنه قال: كنَّا عند النبيِّ ﷺ في مجلسٍ فقال: «**بايعوني علىٰ أنْ لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا**» وقرأ هٰذه الآية كلها(٣) «**فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومَنْ أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فهو إلىٰ الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**»(٤).

وأقام نظامَ العدالة الاجتماعية في الأمةِ، فرعىٰ الفقراء، وأوجبَ علىٰ الأغنياء صدقةً تُردُّ علىٰ الفقراء، فإن لم تَفِ تلك الصدقةَ بحاجتهم قامت الدولة برعايتهم، وحقَّق مبدأ الأخوة الإسلامية، فكانت المحبة والألفة بين المسلمين قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣]

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

(٣) وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المُمتحنَة].

(٤) رواه البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩).

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠] وأتاح لكل إنسان في المجتمع الإسلامي أن يعمل، وفتح له أبواب العمل.. ووطّد الأمن، وعمل علىٰ القضاء علىٰ الفقر وشرع في محوه من المجتمع، ثم بعد هٰذا كله فرض عقوبة رادعة علىٰ من يتحدىٰ المجتمع ونظامه، ويعمد إلىٰ السرقة. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المَائدة: الآية ٣٨].

لقد ربط الإسلام الكف عن السرقة بالإيمان، وقرر أنَّ السارق عندما يقدم علىٰ السرقة لا يكون في هٰذه اللحظة مستكمل الإيمان.

وعمّق في نفوس أتباعه مراقبة الله فهو سبحانه ناظرٌ إلينا مطلع علينا، لا يخفىٰ عليه شيء من أمورنا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران] يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وقد حرَّم السرقة وجعلها من الكبائر، وأعدَّ لمن يقترفها العذاب الشديد يوم القيامة، فكيف يقدم من يؤمن بهٰذا ويستحضره ويتصوره علىٰ السرقة؟

إن ذلك مستحيلٌ، لو أنَّ السارق رأىٰ شرطيًّا يراقبه لما أقدم علىٰ السرقة، فكيف يُتصور مِن مُؤمن يؤمن بالله وقدرته وعلمه وعظيم عقوبته أن يقدم علىٰ السرقة؟

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حينَ يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**» قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يُنْزع الإيمان منه؟ قال: هكذا، وشبك بين أصابعه، ثم أخرجها، فإن تاب عاد إليه هكذا، وشبك بين أصابعه[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٠٩).

وفي روايةٍ أخرجها الطبريُّ عنه رضيَ الله عنه قال: فإذا زال رجع إليه الإيمانُ.

ورویٰ هٰذا الحديث أيضًا أبو هريرةً كما في البخاري وغيرهما ورواية البخاري كما يأتي:

«**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ حينَ يسرقُ وهو مؤمن ولا ينتهبُ نهبةً يرفع الناس إليه فيها وهوَ مؤمنٌ**»[1].

قال النوويُّ: «اختلف العلماء في معنىٰ هٰذا الحديث، والصحيح الذي عليه المحققون أنَّ معناه: لا يفعل هٰذه المعاصي وهو كامل الإيمان. وهٰذا من الألفاظ التي تطلق علىٰ نفي الشيء والمراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة.

وإنما تأولناه علىٰ ما ذكرناه؛ لحديث أبي ذر وغيره: «**مَنْ قالَ لا إله إلا الله دخلَ الجنة وإنْ زنىٰ وإن سَرَقَ**»[2].

وحديثِ عبادة بن الصامت الصحيح المشهور: «**أنهم بايعوا رسولَ الله علىٰ أنْ لا يسرقوا ولا يزنوا**» الحديث، وفي آخره: «**ومن فعلَ شيئًا من ذلكَ فعوقبَ في الدنيا فهو كفارةٌ ومن لم يعاقبْ فهو إلىٰ الله إن شاءَ عفا عنه، وإنْ شاءَ عذَّبَه**»[3] فهٰذا مع قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨]

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

(٣) رواه البخاري (١٨).

مع إجماع أهل السنة علىٰ أن مرتكب الكبائر لا يكفر إلا بالشرك»[١].

وتأوله بعض العلماء علىٰ من فعله مستحلا مع علمه بتحريمه.

وهناك رأي لطيف في تأويل هٰذا الحديث للحسن البصري والطبري قالا: معناه ينزع عنه ٱسم المدح الذي سمَّىٰ الله به أولياءه، فلا يقال في حقه: مؤمن. ويستحق ٱسم الذم فيقال: سارق وزان وفاجر وفاسق[٢].

وهٰذه الآراء لا تعارض الرأىٰ الأول.

إنَّ الإيمان قد خفَّ عند السارق وضعف حتىٰ كأنه غير موجود.

إن هٰذا المعنىٰ يخيف كل مؤمن، وتدبره يحول بينه وبين المعصية، ويوقظ فيه مراقبة الله، وأن أعمالنا محصاة «**يا عبادي إنَّما هي أعمالكُم أحصيها لكم**»[٣] ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: الآية ١٨] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

قال القرطبيُّ: «إن الحديث يتضمن التحرز من ثلاثة أمور هي من أعظم أصول المفاسد، وأضدادُها من أصول المصالح، وهي: ٱستباحة الفروج المحرمة، وما يؤدي إلىٰ ٱختلال العقل، وخصَّ

(١) ٱنظر «الفتح»١٢/ ٦٠ هٰذا ما نقله ابن حجر في «الفتح» عن النووي، وتجد نص كلامه في«شرح مسلم» ٢/ ٤١.

(٢) «شرح مسلم» للنووي ٢/ ٤١-٤٢. (٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

الخمر بالذكر؛ لكونها أغلب الوجوه في ذلك، والسرقة بالذكر؛ لكونها أغلب الوجوه التي يؤخذ بها مال الغير بغير حق».

واللصوص أنواع:

فمنهم من يعمدون إلىٰ تشكيل عصابات منظمة، ويعملون وفق مخططاتٍ ودراسات، وتحت أيديهم أسلحةٌ يحملها مخربون منظمون، وقد يستعينونَ بالخمور والمخدرات، وقد يستعينون بتسهيل الفواحش لراغبيها، وهم ينشطون عندما تضعف السلطة، أو يكون وضع طارئ من الأوضاع.

ومنهم ناسٌ يعملون بصورة فردية.

والشرع المطهرُ وقف من هٰذه الجريمة الموقف الحازم فجعل حدَّ السرقة القطع، وحد الحرابة ما نصت عليه الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المَائدة: الآية ٣٣] .

ومن عظمة هٰذا الدين أن تنفيذ حد واحد مرة واحدة يقطع دابر المجرمين أو يقلل من وقوع الجرائم.

البطالةُ والسؤالُ

كنَّا قد ذكرنا موقف الإسلام من السؤال، وبينَّا أن الأحاديث الصحيحة الصريحة قد حرَّمت السؤال دون حاجة ملجئة مُلِحَّةٍ. ونودُّ أنْ نذكر أنَّ من آثار البطالة السيئة أن تضطر الإنسان إلىٰ أن يتكفف أيدي الناس، فيهين كرامته.

وقد تكون البداية بالسؤال نتيجة لضرورة، ولكن سرعان ما تتحول لدىٰ نفر من ضعاف النفوس إلىٰ مهنة؛ لأنهم يجدونها مريحة بعد أن بذلوا ماء وجوههم، وبعد أن سهل الهوان عليهم، إنَّ الخطوة الأولىٰ هي المنزلق:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ... ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وقد يغريهم بالاستمرار فيها ٱرتفاع دخلها[1].

وقد قرأت مقالًا نشر في صحيفة يومية من عهد قريب، وهٰذا المقال مزود بصور وحقائق عن هٰذا الموضوع من عالَم الواقع. جاء في المقال:

«منهم من كان محتاجًا بالفعل، وتدرج في المهنة إلىٰ أن أصبح محترفًا. ومنهم من بدأها وهو غير محتاج إطلاقًا، إلا أنه ٱستسهل

---

(١) من الأخبار التي هي أقرب إلىٰ النكت الطريفة منها إلىٰ الأخبار الواقعية الخبر الآتي: ذكروا أن أحد الموظفين الذين يعملون في التجسس كُلِّف أن يتظاهر بأنه شحاذ ويلازم بيت شخص معين ليرصد تحركاته وأحواله وضيوفه، وبعد أن أدىٰ تلك المهمة علىٰ مدىٰ شهر قدَّم ٱستقالته من عمله، واتخذ الشحاذة مهنة له؛ لأنه وجد أن دخلها يفوق راتبه أضعافًا مضاعفة!!!

الأمر بدافع الكسل والكسب السهل، ولم يبال بسمعته، ومنهم من ٱحترف (التسول)[1] لأنه وجه سهل وبسيط من أوجه الاحتيال التي تنأىٰ بصاحبها عن المساءلة القانونية.

والأطرفُ من كل ذلك أنَّ هناك من دخلَ مهنة (التسول)[2] بدافع الوراثةِ، توريث المهنة من الجدّ إلىٰ الأبِ إلىٰ الحفيد».

وجاء في المقال ذكرٌ لأنماط هٰؤلاء الشحاذين «فمنهم من يتذرَّعُ بتقريرٍ طبي، وينشد شراءَ الدواء لإنقاذ مريضٍ في الأسرة».

وقالت إحدىٰ الشحاذات: «إنها لم تفكرْ إطلاقًا في أن تعملَ خادمة بدل أن تمدّ يدها للناسِ، فالعمل عند الناس -حسب رأيها- متعبٌ ومزعج، ومهنتها أفضلُ، وأقل وجعًا للدماغ»

«ولوحظ أنَّ أعمار هٰؤلاء الشحاذين مختلفةٌ، وتغطي كافة الأعمار ذكورًا وإناثًا، وأن معدل دخلهم الشهري يبلغ أضعاف رواتب كثير من الموظفين».

وأشنع أنواع السؤال أن يشحذ إنسانٌ باسم الدين، كما يفعل بعض القصاص، فقد ذكرت الكتب التي عُنِيتْ بذكر أخبار هٰؤلاء قصصًا كثيرة فحواها: أن رجلًا يقوم فيعظ الناس بأحاديثَ، بعضها صحيح وأكثرها موضوع، ثم يطلب من الناس إعانته بشيء من المال. وأذكر أنني من نحو خمس وأربعين سنة صليت الجمعة في مدينة القنيطرة، فما إن قضيتُ الصلاةَ حتىٰ صعد المنبر رجلٌ معمم يلبس زيَّ العلماء، فذكر أحاديث تتعلق بقيام الساعة، وأنها قريبة جدًّا،

---

(١) ٱنظر «جريدة الشرق الأوسط» العدد ٤٩١١ يوم السبت ٩/ ٥/ ١٩٩٢.

(٢) ذكرنا أن هٰذه الكلمة لا يصح ٱستعمالها في معنىٰ السؤال.

وصور للحاضرين أنها ربما تقوم في ذاك اليوم، ثم شرع يذكر لهم مسَّ الحاجة، وكثرة العيال، وضيق الحال، ثم طلب من الناس أن يعطوه شيئًا مما تجودُ به أنفسهم.

ويبدو أنَّ أمثال هٰذا الشحاذ كثيُر، يترددون علىٰ القرىٰ والأرياف، ويسألون الناس وهم يَظْهَرون بمظهر التدينِ والعلم، وكان لهٰذا أثرٌ سيئ علىٰ الناس، فلم يعودوا يُقْبِلُون علىٰ سماع الموعظة ولا التوجيه.

إن هٰؤلاء الذين يسألون ويتركون أموالا يعذبون بها في جهنمَ.

عن مسعود بن عمرو قال: أُتي النبيُّ ﷺ برجل يصلِّي عليه. فقال: «**كم ترك؟**» قالوا: دينارين أو ثلاثة. قال: «**ترك كَيَّتينِ، أو ثلاث كياتٍ**» فلقيت عبد الله بن القاسم مولىٰ أبي بكر، فذكرت ذلك له، فقال: ذاك رجل كان يسأل الناس تكثرًا[1].

وعن حُبْشي بن جُنَادة عن رسول الله ﷺ قال: «**من سألَ من غير فقرٍ فكأنما يأكلُ الجمرَ**» رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة والبيهقيُّ[2].

وهناك ألوانٌ من الحيل يلجأ إليها هٰؤلاء الشحاذون.

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٤٢٩، وابن أبي شيبة ٣/ ٥٢-٥٣، والبزار كما في «(كشف الأستار» (٣٦٤٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٢٥). وقال الألباني في «صحيح الترغيب» ١/ ٤٨٨ (٨٠١)، و«الصحيحة» (٣٤٨٤): صحيح لغيره.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٦٥، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» ٣/ ١٨٣ (١٥١٣)، والطبراني في «الكبير» ٤/ ١٥ (٣٥٠٦، ٣٥٠٧)، وابن خزيمة في «صحيحه» ٤/ ١٠٠ (٢٤٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ١٢٧). وقال الألباني في «صحيح الترغيب» ١/ ٤٨٨-١٨٩ (٨٠٢): صحيح لغيره.

من ذلك: ناسٌ تراهم يظهرون بمظهر أنيق، ويدَّعون التعفف عن قبض ما تعطيه من الصدقة، ويقول: ما أنا إلا دالٌّ علىٰ الخير، ويأخذك إلىٰ شريك له في الخفاء لتعطيه.

ومن ذلك أن يأتيك شاب يطلب مبلغًا كبيرًا من المال، فيذكر أنه خاطب، وأنَّ غُرفة النوم ٱشتراها، وهي علىٰ وشك الاْنتهاء لولا أن النجَّار يطلب بقية ثمنها وليس لديه شيء من ذلك، وأن حياته الزوجية مهددة بالدمار إن لم يأت بهٰذا الأثاث، ويقول لك: أنا لا آخذ شيئًا ولكنني أدلُّك علىٰ النجار لتستبينَ منه الأمر، ثم تدفع إليه. ويكون هٰذا النجار شريكه في الحيلة.

وهناك من يستأجر بعض أصحاب العاهات، ويدَّعي أنهم أقرباؤه، ويعرضهم ويستدر عطف الطيبين من الناس.

ومنهم من يدعي المرض، وقد يضع علىٰ يده الجبس أو يلف رجله ويجلس في طريق الناس.

وقد ذكر الإمام أبو حامد رحمه الله شيئًا من ذلك فقال: «وأما المكدي -أي: الشحاذ- فإنه إذا طلب ما سعىٰ فيه غيره، وقيل له: ٱتعب واعمل كما عمل غيرك، فما لك والبطالة؟ فلا يعطىٰ شيئًا. فافتقروا إلىٰ حيلةٍ في ٱستخراج الأموالِ، وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة. فاحتالوا للتعلل بالعجزِ، إما بالحقيقةِ: كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة، ليعذروا بالعمىٰ فيُعطون.

وإما بالتعامي والتفالجِ والتجانن والتمارضِ، وإظهار ذلك بأنواعٍ من الحيل، وجماعةٍ يلتمسون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها، حتىٰ تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فَيَسْخُوا برفع اليدِ عن قليل من المال.

وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة.

وقد يكون بالأشعار الغريبة، والكلام المنثور المسجع، مع حسن الصوت، والشعرُ الموزونُ أشدُّ تأثيرًا في النفس، لا سيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب، كأشعار مناقب الصحابة، وفضائل أهل البيت، ويدخل في هٰذا الجنس الوعَّاظ والمكدون علىٰ رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءَهم طائلٌ علميٌ، وكان غرضهم ٱستمالة قلوب العوام، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد علىٰ ألف نوع وألفين» [1].

فإلىٰ العملِ المثمر الذي ينأىٰ بصاحبه عن المهانةِ، وينجيه من الوقوعِ في الإثم.

---

(١) ٱنظر «إحياء علوم الدين» ٣/ ٢٢٣.

التَّعفُّفُ

يُربي المجتمع الإسلاميُّ أبناءه علىٰ التعفف، وذلك من خلال إيقاظ الرغبة لدىٰ الفرد فيما عند الله من الخير، والتطلع إلىٰ الفوز يوم القيامة، فالمسلم إذا أصابته فاقة أنزلها بالله، وعندئذ فإن الله لا يضيعه.

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ أصابتْه فاقةٌ فأَنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومَنْ أنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ**»[1].

إنَّ التعففَ صفةٌ تدرك بالترويض وحمل النفس علىٰ الإباء والأنفة؛ ذلك أن حبَّ المال أمر مغروس في النفس الإنسانية كما قال تعالىٰ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجر] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات].

فليغالب المرءُ نفسه، وليستعن بالصبر وحسن الثقة بالله.

عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ: أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نَفِدَ ما عنده. فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «**ما يكنْ عندي من خيرٍ فلن أدخره عنكم،**

---

(١) رواه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦)، وأحمد ١/ ٤٠٧، وأبو يعلىٰ (٥٣١٧)، (٥٣٩٩)، والطبراني في «الكبير» ١٠/ ١٣ (٩٧٨٥). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

ومن يستعففْ يُعفه الله، ومن يَستغنِ يُغنهِ الله، ومن يتصبّر يُصبره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»(١).

من يستعفف يعفه الله، هٰذه العفة التي هي صفة كريمة من صفات المسلمين، يمكن أن يحصل عليها الإنسان بأن يطلبها ويغالب أهواءه وشهواته، وكذلك من يستغن يغنه الله.

إن المسلم الذي ربَّاه البيت القائم علىٰ الإسلام إنسان عفيف، يأبىٰ أي أمر يجرح كرامته أو يجرُّ عليه المهانة. ولقد درجت علىٰ هٰذا السنن الكريم أجيال المجتمع الإسلامي علىٰ مرِّ العصور هٰذه الأجيال التي كانت تتحلىٰ بالفضائل، ويأبىٰ معظمها قبول العطاء والمنح، إن لم تكن هناك ضرورةٌ ملجئة، ولننظر إلىٰ هٰذا الحديث الصحيح الذي يصور طائفة من الناس المتعففين:

عن حكيم بن حزام ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم، إنَّ هٰذا المال خَضِرٌ حلو، فمن أخذه بسخاوة**(٢) **نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس**(٣) **لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يشبعُ، واليد العليا خيرٌ من اليدِ السفلىٰ**».

قال حكيمٌ: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتىٰ أفارق الدنيا.

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٢) سخاوة النفس: هي عدم الإشراف إلىٰ الشيء والطمع فيه والمبالاة به والشره.

(٣) إشراف النفس: تطلعها وطمعها بالشيء.

فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء، فيأبىٰ أن يقبل منه شيئًا.

ثم إنَّ عمر ﷺ دعاه ليعطيه فأبىٰ أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم علىٰ حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هٰذا الفيء فيأبىٰ أن يأخذه.

فلم يرزأ[1] حكيم أحدًا من الناس بعد النبي حتىٰ توفي[2].

لا بُدَّ لنا من وقفةٍ مع هٰذا الحديث العظيم الذي يصور جانبًا مهمًا من حياة الناس الاجتماعية في عصر النبوة، إنه يُصوّر كرم الرسول الكريم ﷺ الذي تواترت الأدلة عليه، لقد كان يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقرَ، وكان بعض أصحابهِ رضوان الله عليهم يسألونه فيعطيهم.

وهٰذا حكيم بن حزام يحكي قصته مع النبي ﷺ، فقد سأله فأعطاه، ثم سأله ثانية فأعطاه، ثم سأله ثالثة فأعطاه، وما كان ليردَّ سائلًا.

هٰذا شأنه مع الناس جميعًا، صلوات الله وسلامه عليه. لقد كان حقًّا أجود الناس، كما قال ابن عباس ﷺ: كان رسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة[3].

---

(١) لم يرزأ: أي: لم يأخذ من أحد شيئًا. وأصل الرزء: النقصان، أي: لم ينقص أحدًا شيئًا بالأخذ منه.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

(٣) رواه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

ولكنه أحب أن ينصح صديقه وصاحبه حكيمًا، عندما رأىٰ منه تلك المسألة، أحبَّ ألا يدع صاحبه يمضي في هٰذا السبيل، فبيَّن له حقائق عظيمة، ما أشد حاجتنا إلىٰ تدبرها ووعيها. لقد بيّن له أنَّ المال خضر حلو؛ لأن المال له نضرة جذابة مهما نال الإنسان منه لا يشبع، إنه كالماء الملح كلما شرب الإنسان منه ٱزداد عطشًا، ولٰكن المال الخضر حلوٌ. يقول ﷺ في حديث آخر: «**لو أنَّ لابن آدم واديًا من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله علىٰ من تاب**»[1].

إن المال[2] خَضِرٌ حلوٌ لذيذ يفرح الإنسان بتحصيله؛ إذ بالمال تقضىٰ الحاجات، وتؤمَّنُ الضرورات، وتحقق الآمال والطموحات والشهوات.

إذا كان المال بهٰذه الجاذبيةِ، وله هٰذه الخطورة فعلىٰ الإنسان أن يحذر وينتبه، فإن المال فتنةٌ كما قال ﷺ: «**إنَّ لكل أمة فتنةٌ وفتنة أمتي المالُ**»[3].

علىٰ المسلم أن يحذر من أن يجعل الحصول علىٰ المال هو الغاية من الحياة، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس بن مالك.

(٢) ٱنظر «شرح المقامات» في شرحه «المقامة الدينارية».

(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٦)، وأحمد ٤/ ١٦٠، والحاكم ٤/ ٣١٨ وابن حبان ٨/ ١٧ (٣٢٢٣) عن كعب بن عياض. قال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح غريب، وكذلك صححه الألباني في «صحيح الترمذي».

إنّ المال ينبغي أن يكون في أيدينا لنستعين به علىٰ ما يقرّبنا إلىٰ رضوان ربنا، لا أن يكون في قلوبنا، ولا أن يكونَ هدفَنا في هٰذه الحياة.

لقد أوصىٰ رسول الله ﷺ حكيمًا فقال له: خذ ما شئت من المال الحلال بسخاوة نفس. وهٰذا التعبير رائع في دلالته، أي: خذ المال وأنت غير متعلق به، بل خذه ونفسك سخية مستعدة أن تبذله، لا تتطلع إليه، ولا تطمع به طمعًا مبالغًا فيه.

إنَّ بعض الناس يستبد بهم الطمعُ في المال حتىٰ ينسيهم المُثل، والفضائل، وحدود الله، وواجبات المسلم، وعندئذٍ تحكم المادة تصرفاتهم، فلا يتحركون حركة إلا عندما تتراءىٰ لهم مصلحةٌ مادية، ولا تكون علاقاتهم بالناس إلا من خلال توقعهم الحصول علىٰ المال.

إنَّ الشرهَ في طلب المال يهبطُ بصاحبه عن رتبة الإنسان، وقد يوقعه في الحرام.

إنَّ حرص المرء علىٰ المال يفسد دينه إفسادًا كبيرًا، كما دل علىٰ ذلك الحديث النبوي الرائع: حديث الذئبين الجائعينِ اللذين أتيح لهما أن يأتيا زريبة غنم لا راعي لها ولا حافظ[1].

---

(١) روىٰ الطبراني في «الأوسط» ١/ ٢٣٦ (٧٢٢)، وأبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٨٩، والقضاعي في «مسند الشهاب» ٢/ ٢٦-٢٧ (٨١٣). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان ضاريان جائعان باتا في زريبة غنم أغفلها أهلها، يفترسان ويأكلان، بأسرع فيها فسادا من حب المال والشرف في دين المسلم». وقال الألباني -رحمه الله- في «صحيح الترغيب والترهيب» ٣/ ٢٦٧ (٣٢٥١): حسن صحيح.

إنّ من أخذ المال بسخاوة نفس بهٰذا المعنىٰ بورك له فيه، والبركة متعددةٌ الوجوه، فيبارك له في كميته فينمو ماله، ويبارك له فيه عندما ينفقُ منه سرًّا وجهرًا. إن الإنفاقَ سهلٌ عليه؛ لأنه أخذه بسخاوةِ نفس، ويبارك له فيه عندما يقويه هٰذا المال علىٰ طاعة الله.

أما الذي يأخذه بإشراف نفس.. يتطلع إليه ويتعلق به ويطمع به.. إنها صورةُ إنسانٍ شره متهالكٍ علىٰ المال، إنها صورة ذات دلالات كثيرة.

إن من يكون كذلك لا يجد وقتًا يفكر فيه بنفسه، وأولاده، وأمته، وآخرته؛ لأن أوقاتِ يقظته كلَّها مخصصة للمال، يفكر في طرق الحصول عليه، ويفكر في وسائلِ المحافظة عليه، فأنّىٰ له أن يفكر في الأمور الأخرىٰ، وهو يأخذه عندما يأخذه بإشراف نفس! ومن كان كذلك لم يباركْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، إنَّ ذلك يقوده إلىٰ الهلاك.

لنتصورْ إنسانًا يأكل ويأكل ولا يشبع، ويستمر في الأكل، ماذا سيحدث له؟ إنها صورة رائعة منفرة من الإقبال علىٰ المال والانصراف إليه والتعلق به.

* * *

ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن بيّن لحكيم ﷺ أنَّ الذي يغلب علىٰ إغراء المال ويقبل علىٰ كسبه ونفسه سخية مستعدة أن تبذله يبارك له

فيه أتبع ذلك بقوله: «**اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلىٰ**»[١].

لا ترضَ أيها المسلم بالهوان .. واحرص علىٰ أن تكون يدك هي المعطية؛ لأنها اليدُ التي أثبت لها الرسول ﷺ الخيرية.

والحديثُ بتعبيره الجميلِ يأتي بصورة بيانيةٍ جميلة تحكي حالةَ اليدين عند عطاءِ المنفق وأخذ السائلِ أو الرجل المحتاج. والعليا أبدًا خيرٌ من السفلىٰ.

إن هٰذا الدرس النبويَّ الكريم أثَّر في نفس الصحابي الجليل حكيم بن حزام ﷺ، فانطلق يقول مباشرة: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتىٰ أفارق الدنيا.

لقد حَلَفَ حكيم يمينًا أنه لن يأخذ شيئًا من أحد بعد النبيِّ ﷺ حتىٰ يفارق الدنيا. وقد كان حكيمٌ من المعمرين، يذكر ابن حجر أنه عاش مائة وعشرين سنة: ستين في الجاهلية، وستين في الإسلام[٢].

في هٰذا الحديث: بيانُ أثر الموعظة والنصيحة، لقد أعطىٰ الرسول ﷺ حكيمًا ما سأل، ثم بعد ذلك بيَّن له هٰذه الحقائق، وأتبعها بالنصحِ الرقيق اللين، فكانت هٰذه الاْستجابة.

وفي هٰذا الحديث: أدب الصحابة رضوان الله عليهم، نتبيَّن هٰذا من قول حكيم: «لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا» فلم يردَّ ما أخذ من النبي ﷺ بل قطع علىٰ نفسه العهد أنه لن يأخذ من أحدٍ بعد النبيِّ شيئًا، ولقد صَدَقَ في تعهده، وبرَّ في يمينه، فلم يأخذْ من أحدٍ شيئًا حتىٰ لَقِيَ ربَّه.

---

(١) سبق تخريجه

(٢) اْنظر «الإصابة» ١/ ٣٤٩-٣٥٠.

ويشيرُ الحديث إلىٰ أمر أنفردَ به المجتمع الإسلاميُّ، وليس هناك مجتمعُ يشاركه في هٰذا الأمر؛ ذلك أن كلَّ فرد في الأمة كانَ له عطاء يأخذه، ومن هٰؤلاء حكيم، ولما دَعَا أمير المؤمنين أبو بكرٍ وأمير المؤمنين عمرُ حكيمًا إلىٰ أخذ عطائه أبىٰ قبوله؛ وفاءً للعهدِ الذي التزم به بينَ يدي رسول الله ﷺ، ولما تكرر من عمر الطلب خاطب المسلمين قائلًا: يا معشرَ المسلمين، أشهدُكم علىٰ حكيم أني أعرضُ عليه حقَّه الذي قسمه الله له فيأبىٰ أن يأخذه.

إن هٰذه التربية النبوية الكريمة هزت أعماق حكيم، فقد قرَّر له رسول الله ﷺ أنَّ الإنسان يحبُّ المال، ولكنه ينبغي أن يحذر من إرسالِ نفسه علىٰ سجيِّتها دون ردع، وأنَّه لا يليق بالإنسانِ أن يُقبلَ علىٰ تحصيلِ المال وأخذهِ بشرهٍ وتعلق وطمع، وأنَّ عليه أن يسعَىٰ لتكون يدُه هي المنفقة المتعففة، فذلك خيرُ وأبقىٰ.

إن تربيةَ الأمة أبناءها علىٰ التعففِ مازال قائمًا في معظمِ الأسر الإسلامية الملتزمة.

أَعرِفُ واحدًا قضىٰ مرحلة الطفولة والشباب ولم يطلبْ من أبيه الغني مالًا ولا نفقةً، بل كان إذا دَفَعَ إليه أبوه نفقتَه اليومية أو الشهريَة يتأبىٰ عن قبولها، ويتظاهر بأنه ليسَ بحاجة إلىٰ شيءٍ من ذلكَ.

وسمعُت أن أحد العلماءِ كان في مجلس بعضِ الملوك، فأعطاه صرَّة من الدنانير الذهبية، فشكَر الملك واعتذر عن قبولها، وقال: إنَّني ولله الحمدُ في غنىٰ، وأرجُو أن تقبلوا معذرتىٰ. فقال له: كيف تردُّها؟ ألا تعلم أنَّ عطايا الملوكِ لا تردُّ؟ فعندئذٍ أخذها وصارَ يبكي. فقال الملكُ: لا بأسَ عليك. وقبل عذرَه واسترجع الصرَّة.

علمًا بأن العلماءَ قالوا: يجوز للمرءِ أن يسألَ عندما يكون في حاجةٍ ملحة أو عندما يكونُ المسؤول سلطانًا.

عن سمرةَ بن جندب قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**إنَّ المسألةَ كدٌّ يكدُّ بها الرجلُ وجهه، إلا أن يسألَ الرجلُ سلطانًا، أو في أمرٍ لا بُدَّ منه**»[(١)].

والكدُّ: الخدشُ ونحوه، كما قال ذلك النوويُّ في «الرياضِ».

ومع ذلك فإن هٰذا العالم لاعتباراتٍ قدَّرها تعفَّفَ عن أخذ تلكَ العطية، وأراد أن يضربَ مثلًا حيًّا في الإباء والتعفف.

هٰذا وقد ورد حديثٌ صحيح يدلُّ علىٰ أنَّ الإنسانَ إذا أتاه شيءُ، من غيرِ مسألةٍ فليأخذه، فإن لم يكن محتاجًا تصدَّقَ.

عن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاءَ فأقولُ: أعطه من هو أفقر إليهِ مني. فقال ﷺ: «**خذْهُ؛ إذا جاءَك من هٰذا المالِ شيء وأنت غيرُ مشرفٍ ولا سائل، فخذهُ، فتموَّلْهُ، فإن شئتَ فكلهُ، وإن شئت تصدَّقْ به، وما لا، فلا تتبعْه نفسكَ**»[(٢)].

وقد وقفت علىٰ خبر في ترجمة الخطيب البغدادي فحواه: أنَّ رجلًا من أتباع بعضِ الفرق المنحرفةِ أرسل إليه مبلغًا كبيرًا من الدنانيرِ، وقال له: ٱصرفْ هٰذا في بعض مهماتِك.

فقال الخطيبُ: لا حاجة لي فيه، وقطَّب وجهه.

فقال الرجل: ٱصرفه إلىٰ بعض أصحابك.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٣٩)، والترمذي (٦٨١)، والنسائي ٥/ ١٠٠، وأحمد ٥/ ١٩. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) رواه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

فقال الخطيب: قل لمن أرسلك يصرفه إلىٰ من يريد.

فقال الرجل: كأنك تستقله، وطرح الدنانير علىٰ سجادة الخطيبِ وقال: هٰذه ثلاثُ مائة دينارٍ.

فقام الخطيب محمرًّا وجهه وأخذ السجادةَ، وصبَّ الدنانير علىٰ الأرض، وخرج من المسجد.

قال راوي القصة: فما أنسىٰ عزَّ خروجُ الخطيب، وذلَّ ذلك الرجلُ وهو قاعدُ علىٰ الأرض؛ يلتقطُ الدنانيرَ من شقوقِ الحصيرِ يجمعها[(١)].

إنَّ هٰذه القصة لتدلُّ علىٰ عزَّةِ العلماءِ وعفتهم.

وعن أبي هريرة ﷺ قال قال ﷺ: «**عرض عليَّ أول ثلاثةٍ يدخلون الجنةَ، وأول ثلاثة يدخلون النارَ. فأمَّا أولُ الثلاثةِ يدخلون الجنة: فالشهيدُ، وعبدٌ مملوكٌ أحسن عبادة ربِّهِ ونصحَ لسيده، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيال...**»[(٢)].

وانظروا إلىٰ قولهِ: «**عفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ**» إنه عفيف في أصلِ فطرته، وهو يتعففُ علىٰ الرغم مِن كونه ذا عيالٍ، أي: يتكلف هٰذا الخلقَ، فالعيالُ قد يحملون المرءَ علىٰ غير طبيعته؛ لمطالبهم المتعددةِ، ولا سيَّما في أيام الغلاءِ واشتداد الفقرِ، ومع ذلك فهو

---

(١) أورد هٰذه القصة: ياقوتُ الحموي في «معجم الأدباء» ٤/ ٣١، والسبكيُّ في «طبقات الشافعية» ٤/ ٣٥.

(٢) رواه ابن خزيمة ٤/ ١ (٢٢٤٩)، وقال الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» ١/ ٢٣٩ (٤٦٤): ضعيف.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يتكلَّفُ العفةَ علىٰ الرغم من أنه عفيفٌ[(١)]، وليست العفة في الظروف الشديدة هينةً، ومن أجل ذلك كان هٰذا العفيفُ من الثلاثة الأول الذين يدخلونَ الجنة.

وعن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«أهلُ الجنةِ ثلاثةٌ: سلطانٌ مقسطٌ متصدِّقٌ موفقٌ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلبِ لكلِّ ذي قربىٰ ومسلمٍ، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ»**[(٢)].

إنّ هٰذا النصَّ وأمثاله من النصوصِ رسَّخَتْ في نفوسِ المسلمين العفةَ عما في أيدي الناسِ، وأوجدتْ مجتمعًا تسودُ فيه روحُ الإباءِ والاستغناءِ عن السؤالِ.

إن سؤالَ الناس فيه ضراعةٌ وذلة لا تليقُ بالمسلم، وما أحسنَ قول محمودِ الورَّاق:

شادَ الملوكُ قصورَهم وتحصَّنوا ... من كلِّ طالبِ حاجةٍ أو راغبِ
غالوا بأبوابِ الحديدِ لعزِّها ... وتنافَسُوا في قبحِ وجهِ الحاجبِ
فإذا تلطَّف في الدخولِ عليهِمُ ... راجٍ تَلَقَّوْه بعذرٍ كاذبِ
فأطلبْ إلىٰ ملكِ الملوكِ ولا تكُنْ ... بادي الضراعةِ طالبًا مِنْ طالبِ

وقال إبراهيمْ بن أدهم:

«ما ينبغي لمن ذلَّ لله في طاعته، أن يذلَّ لغير الله في مجاعتهِ، فكيف بمن يتقلبُ في نعمِ الله وكفايته»[(٣)]؟

---

(١) جاء في «مختار الصحاح»: تعفف: تكلف العفة.

(٢) هو جزء من حديث طويل أوله: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم» رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) «أقوال مأثورة» ١/ ٤٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لو نظرنا إلىٰ هٰؤلاء الذين هم من أهلِ الجنة كما في حديث عياض؛ لوجدناهم جميعًا ممن يعملون في الحقل الاجتماعي، فالسلطان العادل هو الذي يوصل الحق إلىٰ صاحبه، ويردعُ المعتدي عن عدوانهِ، ويقيمُ حدودَ الله في المجتمع، وينشرُ الصلاحَ، ويعمل علىٰ سيادة القيم الفاضلة، ويحققُ للناس الأمنَ والاطمئنانَ وأسبابَ السعادةِ.

والرجلُ الذي تملأُ قلبه الرحمةُ، يرحمُ أقرباءه الأدنين والأبعدين، ويرعاهم ويحبُّ لهم السعادة الدنيوية والفوزَ يوم القيامةِ.

وكذلك شأنهُ مع المسلمين كافةً، يرحم صغيرَهم، ويوقر كبيرهَم، ويعين ضعيفَهم، ويواسي منكوبهَم، ويحس بالألمِ وافرًا إذا مس سوءٌ أفرادًا أو مجتمعًا من المسلمينَ، علىٰ نحو ما جاء في الحديث الصحيح: «**مثلُ المؤمنينِ في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفِهم كمثلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعَىٰ لهُ سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّىٰ**»(١).

ثم ذكر رسولُ الله ﷺ من أهلِ الجنة: الرجل الغنيَّ العفيف المتعففَ ذا العيال، فوصفَ الرجل بصفاتٍ ثلاث: الغِنىٰ، والعفة، والإنفاق.

ومفهومُ الغِنَىٰ في الشرعِ له مدلولانِ:

أحدُهما: أن الغنىٰ غنىٰ النفسِ، كما قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ليس الغنىٰ عن كثرةِ العرضِ، ولكن الغِنَىٰ غِنَىٰ النفسِ**»(٢) وهٰذا المدلول مرتبط بالعفة، وتغلب عليه النزعة المعنوية لا المادية، وهٰذا المعنىٰ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

يلامس كبد الحقيقة.

إن كثيرًا ممن يملكون الألوفَ فقراءُ في نفوسهم، يتطلعون إلىٰ المال ويقبلون العطية، وقد يطلبون الصدقة، إن هٰؤلاء في حقيقةِ الأمر فقراءُ ولو ملكوا الألوف.

قال رجلٌ لإبراهيم بن أدهَم: هٰذه جبةٌ أحب أن تقبلها منِّي.

فقال إبراهيمُ: إن كنتَ غنيًّا قبلتُها، وإن كنتَ فقيرًا لم أقبلها.

قالَ الرجلُ: أنا غنيٌّ.

قال إبراهيم: كم عندك؟

قالَ: ألفان.

قال إبراهيمُ: أتودُّ أن تكون أربعة آلاف؟

قال: نعم.

قال: فأنت فقيرٌ؛ لا أقبلها منكَ[(١)].

وثانيهما: أن الغني من توافرتْ لديه كميَّةٌ من المالِ. وقد اختلفَ العلماءُ[(٢)] في حدِّ الموسر: فقيلَ: من عنده مؤونتُه ومؤونةُ من تلزمه نفقتهُ. وقال الثوريُّ وابن المباركِ وأحمدُ وإسحٰق: من عنده خمسونَ درهمًا -أو قيمتها من الذهبِ- فهو موسرٌ.

وقالَ الشافعيُّ: قد يكونَ الشخص بالدرهم غنيًا، وقد يكون بالألف فقيرًا مع ضعفه في نفسه وكثرة عياله.

---

(١) انظر: «عيون الأخبار» ٢/ ٣٦٢، و«البداية والنهاية» ١٠/ ١٣٨، و«أقوال مأثورة» ١/ ٦١.

(٢) انظر «فتح الباري» ٤/ ٣٠٧.

وقيلَ: الموسرُ والمعسرُ يرجعان إلىٰ العرف، فمن كان حالُه بالنسبة إلىٰ مثله يعد يسارًا فهو موسرٌ.

ومهَما يكن من أمرِ تعريف الغني فليس المرادُ منه -في نظر الشرعِ- الثريَّ صاحب الأموال الطائلة فقط، بل هٰذا غني، وكذلك من دونه كما فهمنا من عرض آراء أئمة العلم.

فالرجلُ الغنيُّ العفيف المتصدقُ علىٰ الفقراءِ والمساكينِ هو ثالثُ ثلاثةٍ من أهل الجنةِ.

إن العفيفَ يفرض ٱحترامهَ علىٰ الناسِ، وهو محبوبٌ، يقولُ ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناسِ يُحبّك الناسُ**»[1].

وهناك قصةٌ مشهورة تدلُّ علىٰ أن التعففَ عما في أيدي الناسِ يهبُ الإنسان قوة في مواجهةِ الجبابرة ويوفِّرُ له كرامته، وفحوىٰ هٰذه القصة: أن جبارًا سفاكًا دخل بلدًا من بلاد المسلمين فاتحًا، وبعد أن ٱستتب له الأمر، جاء الوجوه والعلماءُ والأعيانُ يسلمون عليهِ.

وسأل هٰذا القائدُ الفاتح: هل هناك أحدٌ من الوجوه لم يأتِ مُسَلِّمًا؟

فقيلَ له: نعم هناك شيخٌ زاهد لم يأت؛ لأنه لا يهتمُّ بما يهتم به أكثرُ الناس.

قال: إذن نزوُره.

وذهبَ هٰذا القائد الفاتحُ بموكبه وجندِه إلىٰ الشيخِ، ولما حضَر كان الشيخُ يقرأ درسًا من دروس العلمَ مع تلامذتهَ، وكان مادًّا رجلَه،

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٠٢)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» ٢/ ١١ (٤١٣) ترجمة: خالد بن عمرو، وابن عدي في «الكامل» ٣/ ٤٥٨ ترجمة: خالد بن عمرو، والبيهقي في «الشعب» ٧/ ٣٤٤. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٤٤).

فسلَّم علىٰ الشيخِ، فردَّ عليه السلام، وأمره بالجلوسِ، فجلس، ثم مضَىٰ الشيخ يتمم درسَه. وانصرف القائدُ الفاتح وفي نفسهِ شيءٌ، ولكنه وجدَ نموذجًا من الرجالِ فذًّا، يذكره بحقيقتهِ الإنسانية التي غابتْ عنه في خضمِّ المجاملات، ومظاهرِ التعظيم التي يلقاها؛ فأرسلَ إلىٰ الشيخ في اليومِ الذي تلا زيارتَه كيسًا فيه ألف دينارٍ من الذهبِ، فلما جاءَ به الرسولُ وألقاه بين يدي الشيخِ، تبسَّم الشيخُ رحمه الله، وردَّه شاكرًا وقال: سلِّم علىٰ سيدِك وقل له: إن من يمدُّ رجله لا يمد يده[1].

* * *

أوصَىٰ رسولُ الله أصحابه ألا يسألوا الناسَ شيئًا، فاستجابوا لذلكَ، حتَّىٰ لو أن أحدَهم سقطَ سوطُه من يدِه وهو راكبٌ ما كان يسأل أحدًا أن يناولَه إياه، وهٰذه الصورةُ الواقعية المشرقةُ رواها مسلم في الحديثِ الآتي:

عن عوفِ بن مالك الأشجعىٰ ﷺ قال: كنا عندَ رسولِ الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً. فقال: **«أَلاَ تبايعونَ رسولَ الله؟»**

وكنَّا حديثي عهدٍ ببيعةٍ. فقلنا: قد بايعناك يا رسولَ الله. ثم قال: **«أَلاَ تبايعونَ رسولَ الله؟»** فبسطنا أيدينا وقلنا: قَدْ بايعناك يا رسولَ الله، فعلام نبايعُك؟

قال: **«علىٰ أن تعبدوا الله ولا تشركُوا به شيئًا، والصلواتِ الخمسِ وتطيعوا الله»**.

---

(١) كتب هٰذه القصة أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي بقلمه البليغ في كتابه «قصص من التاريخ» ١٤٦-١٥١ وقد قلد فيها الأستاذ الرافعي، كما ذكر هو، رحمه الله.

وأسرَّ كلمة خفيفةً: «**ولا تسألوا الناسَ شيئًا**». فلقد رأيت بعضَ أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسألُ أحدًا يناوله إياهُ(١).

وعن ابن عمر أن رسولَ الله ﷺ قال وهوَ علىٰ المنبرِ وذكر الصدقَة والتعفف عن المسألةِ: ((**اليدُ العليا خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلَىٰ. والعليا هيَ المنفقةُ، والسفلَىٰ هيَ السائلةُ**))(٢).

قال الخطابيُّ: [رواية من قال: «**العليا هي المتعففةُ**» أشبه وأصحُّ في المعنىٰ؛ وذلك أن ابن عمر ذكر أن رسولَ الله ﷺ ذكرَ هٰذا الكلامَ وهو يذكر الصدقةَ والتعفف عنها. فعَطْفُ الكلامِ جزمٌ علىٰ سببهِ الذي خرجَ عليه وعلىٰ ما يطابقهُ في معناه أولىٰ](٣).

إذن فاليدُ العليا -كما يرجح الخطابيُّ- هي المتعففةُ. إن وجودَ هٰؤلاء المتعففين في دنيا الناسِ ضروريٌّ لتصحيح المفاهيمِ المغلوطة، فقيمة المرءِ ليست في غناه، وإن المرء الذي يعفُّ عن قبولِ الصدقة إنسانٌ رعىٰ كرامته الإنسانيةَ حقَّ رعايتها، وهو بذلك يستحقُّ الثوابَ العظيم.

عن ثوبانَ ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**من تكَفَّلَ لي أنْ لا يسألَ الناسَ شيئًا وأتكَفَّلُ له بالجنةِ؟**». فقلت: أنا.

فكان لا يسألُ أحدًا شيئًا(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣).

(٢) رواه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣)، وأبو داود (١٦٤٨)، والنسائي ٥/ ٦١، ومالك في «الموطأ» ٢/ ١٧٧ (٢١٠٨).

(٣) أنظر «الترغيب والترهيب» ١/ ٢٥٢.

(٤) رواه أبو داود (١٦٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٥٠).

فصل

المجتمع الإسلامي مجتمع متسامح

إنَّ المجتمعَ الإسلاميَّ مجتمع متسامحٌ، وليس ذلك بغريب، بل هو نتيجةٌ طبيعية لتأكّد روح المودّة والمحبَّةِ والأُخوّةِ بين أفراده ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

نعم لقدْ تحققتْ في هٰذا المجتمع: الأخوة، والألفة، بفضلِ الله، وما كانَ لأحدٍ أن يؤلف بين قلوبهِم ولو أنفق ما في الأرضِ جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال] حتّىٰ أضحوا إخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٠]

ولقد مرَّ بنا كيف تجلَّتْ هٰذه الأخوة عندما هاجر المسلمونَ من مكةَ إلىٰ المدينة، وكيف تلقّاهم الأنصارُ وبذلوا لهم وأحلوهم في بيوتهِم، وقاموا نحوهم بما يقوم به الأخُ نحو أخيه.

وهناك أحاديث كثيرةٌ في كتب السنة تدعو إلىٰ التسامح وتحضُّ عليه، وأحاديثُ أخرىٰ تصور هٰذا التسامحَ واقعًا حيًّا.

عن جابر ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باعَ، سمحًا إذا اشترىٰ، سمحًا إذا قضىٰ، سمحًا إذا اقتضىٰ**» رواه البخاريُّ في باب السهولة والسماحةِ في الشراءِ والبيع ومن طلب حقًّا

فليطلبه في عفافٍ[1]، وقد أشار البخاريُّ بهٰذا العنوان إلىٰ حديث ابن عمَر وعائشة: «**من طلبَ حقًا فليطلبه في عفافٍ واف أو غير وافٍ**»[2].

وهناك حديثُ حذيفة الذي أخرجه البخاري ومسلم يقولُ ﷺ: «**تلقت الملائكةُ روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملتَ من الخيرِ شيئًا؟ قالَ: لا. قالُوا: تذكَّر. قال: كنتُ أداين الناسَ، فآمرُ فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجوزوا عن الموسرِ. قالَ الله ﷻ:** تجوزوا عنه»[3].

إنَّ هٰذا الرجلَ لم يعمل من الخيرِ إلا ما ذكر، فكان ثواب ذلك أن تجوزَ الله عنه، وياله من ثوابٍ عظيم.

إن هٰذا التسامحَ في المعاملة كان السمةَ التي تميز المجتمع الإسلامي.. ألم يأتكم نبأ ذلك القاضي الذي بقي سنتين لم يتقاض إليه اْثنان. كان ذلك في عصر الراشدين الذي هو خير القرون. كم نحن بحاجةٍ إلىٰ هٰذا الخلق الكريم. إن زيارة لقصر العدل وقاعات المحاكم لتقنعنا بأن مجتمعاتنا بحاجة إلىٰ أن تذكر بذاك الواقع العظيم الذي أقامه الإسلام.

إنَّ حبَّ المال والرغبة في التملك غريزةٌ ثابتة في النفس الإنسانية، وقد تغري هٰذه الغريزةُ لو تُركت علىٰ سجيتها بالعدوانِ والاستئثار.. وهنا يأتي دورُ الدين ليهذبَ هٰذه النفسَ ويمنعها من تعدِّي الحدود التي شرعها الله ﷻ.

ويقرر رسولُ الله ﷺ أن الحقَّ يبقىٰ حقًا لا يغيره حكم حاكمٍ في

---

(١) اْنظر «صحيح البخاري» (٢٠٧٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٢١) وابن حبان في «صحيحه» (٥٠٨٠). وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٧)، ومسلم (١٥٦٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مجلس القضاء، ولا يذهب بتقادم الأيام.. ويوم القيامة ينتصف المظلوم من الظالم؛ لأنه لا يضيعُ شيء عند الله.

إن مواهب الناس متفاوتة، فقد يستطيع بعضهم أن يعرض قضيته ببلاغة وبراعة، وبطريقة يقنع مخاطبه بأنه صاحب حق، وقد يعجز خصمه عن إثبات حقه.. وهنا لا يبقىٰ رادع يردع المبطل إلا مخافة الله. وقد قامت في العصور الأخيرة مهنة تقوم علىٰ أساس النيابة عن الخصم في عرض الحجة، وتستخدم وسائل الإقناع والتأثير علىٰ القضاة، ويتبارىٰ هٰؤلاء المحامون في الٱحتيال علىٰ المواد القانونية ليضمنوا لموكليهم الفوز في المحكمة والنجاة من المسؤولية.

إن كل خصومة لابد أن يكونَ فيها محقٌّ ومُبطلٌ، وبمقدار ما يؤتىٰ المتقاضي أو وكيله من البراعة في عرضِ قضيته يكون ٱحتمال نجاحه في دعواه.. ولذلك يلجأُ الناس إلىٰ أولئك المحامين المقتدرين المتمكنين من عملهم بيانًا واطلاعًا.

أعرفُ ناسًا قضوا حياتهم كلها ولم يدخلوا محكمة في خصومة، بل إن أكثر الناس في مجتمعنا هم كذلك.

إن المرء إذا عرف واجبه فأدَّاه، وعرف حقوق الآخرين فلم يَعْتَدِ عليها، كان غنيًّا عن مخاصمة الناس، فلماذا يلجأُ إلىٰ المحاكم؟!

والتسامح مع المسلمين يحلُّ كثيرًا من المشاكل، ويريح المرء لا سيما في هٰذه الأيام التي نَمَت النزعة المادية في حياة كثيرٍ من الناس، وتعقدت طرائق التقاضي والمحاكمات، فأصبحت القضية معرضة إلىٰ البقاء في المحاكم سنوات وسنوات.

أخرج البخاريُّ ومسلم وأحمد وغيرهم عن أمِّ المؤمنين أم سلمة هند بنت أمية رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جلبة أمام بابها،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فخرجَ فوجد شخصين يختصمان وقد علت أصواتهُما فقال ﷺ:

«إنَّما أنا بشرٌ، وإِنَّهُ يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضَكم أنْ يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنَّه صادقٌ، فأقضي لهُ بذلكَ، فمن قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ فإنَّما هي قطعةٌ من النارِ فليأخذْها أو ليتركْها»[1].

زادَ عبد الله بن رافع في آخر الحديث: فبكىٰ الرجلان، وقال كل منهما: حقي لك. فقال لهما النبي ﷺ: **«أما إذا فعلتُما فاقتسِمَا، وتوخَّيا الحقَّ، ثم اُستهما، ثم تحالَلَا»**[2].

أرأيتمُ إلىٰ هٰذا المجتمع الذي صاغته التربية النبوية المثلىٰ؛ لقد أغنتْ تلك الموعظة الرائعةُ ذينك المتخاصمين عن التحاكم إلىٰ من يفصل بينهما، وتنازل كل منهما عما كان يدعيه من الحق في الحال.

وتبرز الحكمة النبويةُ في توجيه هذين المتخاصمين، فقد أمرهما ﷺ بثلاثة أمور:

أمرهما أن يقتسما من جديد، ويتوخيا الحق هٰذه المرة، ثم بعد ذلك أمرهما أن يستهما ويأخذ كل منهما ما تخرج له القرعةُ، ثم طلب من كلٍّ منهما أن يحل صاحبهَ ويسامحه.

هٰذا رسولُ الله ﷺ يقول: **«إنما أنا بشرٌ مثلكم»** ويذكرنا هٰذا الحديثُ بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: الآية ١١٠] والمعنىٰ: أنني بشرٌ مثلكم والفرق بيني وبينكم أنه يوحىٰ إليَّ، فإن لم يأتني في أمر من الأمور الوحيُ كنت مثلكم أتأثر بما

(١) رواه البخاري (٧١٨١)، ومسلم (١٧١٣) وأحمد ٦/ ٢٠٣، ٢٩٠، ٣٠٧.

(٢) هٰذه الزيادة عند ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٦٩، وإسحٰق بن راهويه في «مسنده» ٤/ ٦١ (١٨٢٣).

يتأثر به البشر، وإنكم تختصمون إليَّ، فقد يكون بعضكم أبلغ من بعض في عرض وجهة نظره، وقد يكون مبطلًا ولكنه لما أوتي من المقدرة والبلاغة وحسن العرض أحسب أنه صادق، فأقضي له بما ٱدَّعاه من الحق، ألا فاعلموا أن قضائي هٰذا لا يغيِّرُ من الحقيقة شيئًا، فيبقىٰ الحقُّ حقًّا، والباطل باطلًا، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هي قطعةٌ من النار، فإن شاء فليأخذْها وإن شاء فليدعها.

وتذكر لنا التتمة: كيف تأثر الخصمان بهٰذه الموعظة الرائعة، وتنازل كل منهما لصاحبه عن دعواه، وهٰذه صورةٌ من صور التسامحِ في مجتمع النبوة، فكلٌّ من الرجلين يسامح أخاه، ويقولُ: حقي لك.

وكان التوجيه النبوي الكريم للرجلين بعد أن أَثَّرتْ فيهما الموعظة توجيهًا حكيمًا بالغًا القمة في الحكمة والواقعية؛ إذ أن كثيرًا من القضايا الٱجتماعية والمشاكل المالية والتجارية تتداخل فيها الحقوقُ، ويصعب الفصل فيها، ولابُدَّ بعد الوصول إلىٰ حل لها، لابد من أن يسامح كل منهما صاحبه وأن يتحاللا.

لقد صاغ الإسلام أبناءه صياغة علىٰ نحوٍ فريد، فعرَّف كلا منهم حقوقه فعرفها ولم يتجاوزها، وعرَّفه واجباته فعرفها فأداها.

وإذا واجهت المسلم مشكلةٌ مع إنسان كان موقفه أقرب إلىٰ التسامح قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البَقَرَة].

قال ابن عباس ﷺ في هٰذه الآيةِ: «هٰذا في الرجل يكونُ عليه

مال، وليس عليه فيه بينة فيجحد المال، ويخاصم إلىٰ الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل حرام».

وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا:

«لا تُخاصمْ وأنت تعلمُ أنَّك ظالم»[١].

وقد دلَّت الآية والحديث الذي نحن في صدد دراستِهِ علىٰ أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُحِلُّ حرامًا هو حرام، ولا يحرم حلالًا هو حلال، وإنما هو يلزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلىٰ المحتال وِزْره؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدَّعونه، وتروجون في كلامِكم.

قال قتادة: «اعلم -يا بن آدم- أن قضاء القاضي لا يُحلُّ لك حرامًا، ولا يُحِقُّ لك باطلًا، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرىٰ ويشهد به الشهود، والقاضي بَشَرٌ يخطئ ويصيب، واعلموا أنَّ من قُضي له بباطل أن خصومته لم تنقضِ حتىٰ يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضي علىٰ المبطل للمحق بأجود مما قُضِيَ به للمبطل علىٰ المحق في الدنيا»[٢].

(١) روىٰ ذلك الطبري في «تفسيره» ٢/ ١٩٠ (٣٠٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٣٢١ (١٧٠٤).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» ٢/ ١٩٠ (٣٠٦٩)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٣٢٥-٣٢٦.

وفي ذلك كله إثارة للرقابة الداخلية في أعماق نفس الإنسان.

إن الإنسان علىٰ نفسه بصيرة، وإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدورُ، فليحاسبِ المرء نفسه في الدنيا، قبلَ أن يحاسب في الآخرة في يوم ليس فيه درهمٌ ولا دينار.

وقد أثَّر هٰذا التوجيه الإسلامي في حياة الناس الٱجتماعية علىٰ مرِّ العصور، وما تزال تتراءىٰ لنا صور رائعة في مجتمعاتنا التي هي ٱمتدادٌ لذاك المجتمع الأغر، وإن كان قد داخَلَها من أسباب الفساد ما داخلها، ولٰكن الأثر العميق الذي تركه الإسلام في بناء هٰذا المجتمع ما تزال آثاره ماثلة بين الحين والحين، فمن هٰذه الصور صورةٌ واقعية حُدِّثْتُ عنها:

توفي رجلٌ ثري وترك أولادًا بعضهم كبيرٌ راشد، وبعضهم صغيرٌ قاصر، فما كان من الأخ الأكبر الذي تولىٰ توزيع التركة إلا أن جعل حصته من الميراث ما يفنىٰ وينفد ويفسد كالملابس والأواني والدواب وما إلىٰ ذلك، وجعل حصة إخوته الصغار القاصرين ما يبقىٰ ولا يَدخُلُه الكسر، ولا يعرض له الموت كالعقارات والأراضي، فعندما كبر هٰؤلاء الأطفال وبلغوا رشدهم كانوا أغنياء علىٰ حين بادت أموال الأخ الكبير.

وصورة أخرىٰ تبدو في تنازل أحد الورثة من الرجال عن حقه من الإرث لأخواته البنات، ولم يكن أكثرهم غنىٰ.

إن التسامح سمة من سمات المجتمع الإسلامي، فما أحرانا بالحرص عليها والتذكير بها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصل

انتشار المعرفة في المجتمع الإسلامي

من أهم الأمور التي تتصلُ بالحياة الأجتماعية أنتشار الثقافة والمعرفة بين أفراد المجتمع.

ما مستوىٰ الثقافة عند المثقفين في هٰذا المجتمع؟ ما آثار هٰذه الثقافة والمعرفة علىٰ سلوك الناس؟ ما نسبة المتعلمين؟ ما المؤسسات العلمية في ذاك العصر؟ ما هي ألوان المعرفة التي كانت في المجتمع؟ ما الطرق التربوية التي كانت قائمة إذ ذاك؟ إلىٰ غير ذلك من الأمور التي نودُّ أن نتحدث عنها في المجتمع الإسلامي كما تصوره السنة المطهرة.

كان العرب قبل الإسلام أميين لا يقرؤون ولا يكتبونَ، نصيبهم من المعرفةِ[1] محدود لا يتجاوُز ما يشيع بين البدو والعامة من معارف بسيطة من أشعار، وأمثال، ومعرفة بالأنساب، ومعلومات أولية تتصل بالطبِّ والبيطرة والفلك والأنواء والكهانة والعيافة[2] والقيافة وتعبير الرؤيا والتنجيم وما إلىٰ ذلك.

---

(١) أنظر «العصر الجاهلي» لشوقي ضيف ٨٣-٨٥.

(٢) العيافة: وهي التنبؤ بما سيكون بملاحظة حركات الطيور. وجاء في «المصباح»: [والعيافة. . أن يرىٰ غرابًا يطير فيتطير به، والقيافة: تتبع الأثر في الأرض والرمل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد ذكر القرآن الكريم أمية العرب فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجُمُعَة].

وقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠].

وظلَّ العرب في هٰذه الأمية المطبقة حتىٰ شاء الله لهم الهداية والعز والعلم، فبعث فيهم رسولًا منهم، يتلو عليهم ما أُنزل عليه من الهدىٰ، ويعلمهم ويزكيهم، ويسمُو بأرواحهم وعقولهم، حتىٰ أضحوا أمة العلم في الكون، يتلقىٰ العلمَ علىٰ أيدي رجالهم كلُّ راغب في المعرفة والنور من أي صقعٍ وبلد، ويرجع الدارسون والعلماء إلىٰ الكتب التي ألفوها.. والتي لا تحصىٰ أسماؤها ولا يحيطُ بها العلم، وكانت ثروةً عظيمة للإنسانيةِ في كل عصورها.

وفي السُّنَّةِ المطهرة أحاديث عدة تبين كيف أن هٰذه الأمة ٱنتقلت من طور إلىٰ طور، من الجهل إلىٰ العلم، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، وكل ذلك كان عن طريق العلم، والنصوص في هٰذا كثيرة، ونستطيعُ أن نصنفها في زمرتين:

زمرةٌ تحوي النصوصَ التي تحضُّ علىٰ العلم.

وزمرةٌ تحوي النصوص التي تحكي إقبال الناس علىٰ العلم وما يتصل بالتعليم من أمور.

ولقد كان لأمةِ الإسلام دور عظيمٌ في تأصيل المعرفة، واكتشافِ عدد من الحقائق، ونشر العلمِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويكفينا في الدلالة علىٰ عظم دور أمة الإسلام في نشر العلم ما جاء في تحريم كتمان العلم، وتهديد الذي يُسأل عن علم فيأبىٰ الإجابة ويكتم العلم.. تهديده بالعقوبةِ الزاجرة المخيفة، وذلك في حديثِ أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْم فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَام منْ نارٍ يومَ القيامةِ**» وفي رواية: «**مَنْ كَتَمَ علمًا ينتفعُ بهِ جاء يومَ القيامَةِ مُلْجَمًا بلجام منْ نارٍ**»[1].

وقد كان التابعيُّ الحسن البصري -رحمه الله- يشكو من عامة الناس الذين يبتلىٰ بهم العلماء في كل عصر، فهم لا يفهمون ما يقال لهم، ويسألون وقد يجادلون، ولولا التهديد بلجام النار لما التفت إليهم العلماء ولسكتوا عنهم.

يقول الحسنُ -كما روىٰ ذلك عنه ابن عبد البر-: «دخلنا فاغتممنا، وخرجنا فلم نزد إلا غمًّا. اللهم إليك نشكو هٰذا الغثاءَ - يريد: أراذل الناس وسقطهم- إن أجبناهُم لم يفقهوا، وإن سكتنا عنهم وكلناهم إلىٰ عيٍّ شديد، والله لَولا ما أخذ الله علىٰ العلماءِ في علمهم ما أنبأناهُمْ بشيء أبدًا»[2].

وهٰذا النصُّ يصوّر العَناء الذي كان يلقاه الحسنُ البصري، وهو مَنْ هو بيانًا وفصاحة وعلمًا ومكانة اجتماعية، وهٰذا العناء يورث الغمَّ؛ لأن العالم الذي يشعر بمسؤوليته لا يستطيع أن يترك العامة ويهملهم، ولا أن يقعد عن توجيههم والإجابة عن أسئلتهم.

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١)، وابن حبان (٩٥)، والحاكم ١/ ١٠١. وقال الألباني في «صحيح أبي داود»: حسن صحيح. وانظر ما جاء في كتمان العلم «الترغيب والترهيب» ١/ ٥٩-٦١، و«جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٣-٦، و«مجمع الزوائد» ١/ ١٦٣-١٦٥ .

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٥-٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن قبل الحسن عانىٰ الصحابي الجليل أبو هريرة ما عانىٰ حتىٰ قال: لولا آيتانِ في كتاب الله ما حدثتكم شيئًا: إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة] ثم ذكر أبو هريرة الحديث: «**مَنْ كَتَم علمًا يُنتفعُ بِهِ جاءَ يومَ القيامةِ ملجمًا بلجامٍ من نارٍ**»[(١)].

. . . وهكذا. . . إنَّ اللعنةَ لتُلاحِقُ العالم الذي يكتمُ علمه، أما العالم الذي يبيِّنُ للناس ما أنزل الله فهو في منجاة، وإن كان معرضًا للمصاعب والمتاعب، ولكنه مأجور مثاب إن صبر وثابر.

إنّ الصحابة والتابعين والعلماء الذين جاؤوا من بعدهم كانوا ينشرون العلم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبلغون دين الله، ولا يريدون من الناس جزاء ولا شكورًا، ويطلبون الأجر من الله، ويصبرون علىٰ ما يلاقون.

لقد كانت المساجد منذ عهد الرسول ﷺ وإلىٰ زمن قريب مراكز علمية يؤمها من شاء، ويتزود فيها بزاد العلم وفنون المعرفة.

أيُّ مجتمع غير المجتمع الإسلامي وصل إلىٰ هٰذا المستوىٰ؟

حقًا لقد أضحَىٰ هٰذا المجتمع الأميُّ مجتمعًا يهتمُّ بالعلم والمعرفة والهدىٰ الذي أنزله الله، ويغني المعرفة الإنسانية، ويقدم للناس حقائقها بمؤلفات.

إن العلم ومؤسساته من أهم ما يميز الحياة الأجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، وإنَّ رُقيَّ المجتمع وتخلفه يُقاسان

---

(١) سبق تخريجه.

بانتشار العلم بين أبناء الأمة أو بسيادة الجهل بينهم.

إن للعلم تأثيرًا علىٰ السلوك لا محالة، ولابُدَّ أن يترك العلم أثره في الفرد ثم الأمة لا سيما إذا كان المعلم والمنهج والكتاب علىٰ الوجه الذي يحقق الأغراض السامية التي دعا إليها الإسلامُ.

وهٰذا ما نلمسه في الحياة الاجتماعية التي أقامها الإسلام في القرون الفاضلة، والتي نقلت السنة المطهرة لوحات وصفية دقيقة لها.

* * *

إنَّ تعلم العلم لله يورث الخشية منه سبحانه، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: الآية ٢٨] وطلبه عبادةٌ إن أحسن الطالبُ النيةَ، ومذاكرتهُ تسبيح، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ، وبذله لأهله قربةٌ؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الجنة، وهو الأنيسُ في الوحشة، والصاحبُ في الغربة، والمحدثُ في الخلوة، وهٰذا مشاهدٌ ملموس يعرفه من ذاقَ حلاوة العلم والبحثِ.

قيل لابن المباركِ: إذا أنت صليتَ لِمَ لا تجلس معنا؟ قال: «أجلسُ مع الصحابة والتابعين أنظر في كتبِهم وآثارهم، فما أصنعُ معكم؟ أنتم تغتابون الناس»(١).

وهو السلاح علىٰ الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تُقتصُّ آثارهم، ويُقتدىٰ بفعالهم، ويُنتهىٰ إلىٰ رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها

---

(١) أنظر كتابنا «وقفات مع الأبرار ورقائق من المنثور والأشعار» فقرة ٨٦٨.

تمسحُهُم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس، وحيتانُ البحر وهوامُّه، وسباع البر وأنعامه؛ لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم.

يبلغ العبدُ بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعة؛ إذ لا يُقبل العمل إلا بالعلم، فالعمل المقبول ما كان خالصًا لله وموافقًا لما جاء عن الرسول ﷺ، ولا يدرك ذلك إلا بالعلم.

من وُفِّقَ إليه، ونبغ فيه، وأُلهمه، وعمل بمقتضاه كان من السعداء، ومن حرمه وكرهه كان من الأشقياء[1].

ولا يستوي العالمُ والجاهل قال تعالىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩].

إن الفرقَ بينهما كبيرٌ؛ لأن الجهلَ كالموت كما قال الشاعر:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإن امرأً لم يحيَ بالعلمِ ميتٌ ... فليسَ لَهُ حتىٰ النشورِ نشورُ[2]

وممّا ينسبُ إلىٰ سيدنا علي رضي الله عنه:

الناسُ في جهة التمثيل أكفاءُ ... أبـوهـمُ آدمٌ والأمُّ حـواءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكلةٌ ... وأعظُمٌ خلقتْ فيهِم وأعضاءُ
فإنْ يكُ لهُمْ مِنْ أصلهِم حسبٌ ... يـفـاخـرونَ بـهِ فـالـطـينُ والماءُ

---

(١) كثير من هٰذه الجمل مقتبسةٌ من حديث ضعيفٍ جدًا ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٥٤-٥٥ وقال: وهو حديث ضعيف جدًا، وليس له إسناد قوي. ونقله عن ابنِ عبد البرِّ المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» ١/ ٤٦، ومن أجل ذلك لم أذكره حديثًا.

(٢) «أدب الدنيا والدين» ٢٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما الفضلُ إلَّا لأهلِ العلم إنهمُ ... علَىٰ الهدىٰ لِمَن ٱستهدىٰ أدلاءُ
وقدرُ كلِّ ٱمرئٍ ما كان يحسنُه ... وللرجالِ علَىٰ الأفعالِ أسماءُ
وضدُّ كلِّ ٱمرئٍ ما كانَ يجهلهُ ... والجاهلونَ لأهلِ العلمِ أعداءُ[1]

ولننظر في بعض النصوص التي وردتْ في السنة في الحضِّ علىٰ طلب العلم:

عن أبي الدرداءِ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سلكَ طريقًا يلتمسُ فيهِ علمًا سهَّلَ الله له طريقًا إلىٰ الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتهَا لطالبِ العلمِ رضىً بما يصنعُ، وإن العالمَ ليستغفر له مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ، حتَّىٰ الحيتان في الماءِ. وفضلُ العالم علَىٰ العابد كفضلِ القمرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلَم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ**»[2].

في هٰذا الحديث الجميل من المرغِّبات في طلب العلم الشيء الكثير، إنها مرغِّبات إذا سمعها المؤمن ووعاها؛ سارع إلىٰ طلب العلم، وبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، ولم يبال بما يلقىٰ من المتاعب، ولنتأمل هٰذه المغريات:

١- طريق العلم هو طريق الجنة، والجنة مطمحُ المؤمن وبغيته

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ٤٨ وانظر «ديوان الإمام علي» ص١٥.

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد ٥/ ١٩٦. والدارمي ١/ ٩٨، وابن حبان (موارد الظمآن٨٠). وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، وفصّل القول في رواياته ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٣٣-٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

شبكة الألوكة
www.alukah.net

وطِلْبَتُه، الجنة التي بذل الصالحون أرواحهم للحصول عليها، فكانوا يجاهدون ويقاتلون ويُقتلون رجاء أن يكونوا من أهلها، وإنها لتستحق هٰذا البذل؛ لأن الحياة فيها حياة أبديةٌ، وفي القيامة ليس هناك إلا الجنة أو النار.

٢- الملائكة تضعُ أجنحتها لطالب العلمِ رضىً بما يصنع.

وللعلماءِ في تأويل هٰذه العبارة وجوه:

أحدها: أن يكون وضعها الأجنحة بمعنىٰ: التواضع والخشوع تعظيمًا لحقه وتوقيرًا لعلمه، كقوله سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: الآية ٢٤].

ثانيها: أن يكونَ وضعها الأجنحة لتكونَ وطاءً له إذا مشىٰ لتحمله عليها، فتبلغه حيث يؤمُّ ويقصد من البقاع في طلبه، ومعناه: المعونة وتيسير السعي له في طلب العلم.

وثالثها: أن يكون وضعها الأجنحة بمعنىٰ: الكف عن الطيران للنزول عند مجالس العلم، كقوله ﷺ: «**مَا مِنْ قومٍ يذكرونَ الله إلاَّ حفَّتْهُم الملائكةُ**»(١).

ورابعها: أن يكونَ المعنىٰ إظلالهم بها(٢).

وخامسها: أن يكون المعنىٰ أن الملائكة تدعو لطالب العلم(٣).

ولخيالِ المسلم أن يتصور هٰذا التكريم لطالب العلم، إنه في طريق الجنة، لا يمشي علىٰ التراب والحجارة بل يمشي علىٰ أجنحة الملائكة، هٰذه المخلوقات المكرمة، تتواضع له وتعظمه، وتشاركه

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠)، والترمذي (٣٣٧٨)، وابن ماجه (٣٧٩١) وأحمد ٣/ ٩٢، وأبو يعلىٰ (١٢٥٢) عن أبي سعيد وأبي هريرة.
وانظر ابن القيم علىٰ مختصر أبي داود ٥/ ٢٤٣ «والنهاية لابن الأثير» ١/ ٣٠٥.

(٢) «النهاية» لابن الأثير ١/ ٣٠٥. (٣) «جامع بيان العلم» ١/ ٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في الجلوس في حلقات العلم، وهي تفعل ذلك رضىٰ بما يصنعُ. وفي هٰذا ترغيبٌ في طلبِ العلم كبير.

٣- يستغفر لطالب العلم من في السموات ومن في الأرض، سكان السموات والمخلوقات التي في الأرض كلها تدعو لطالب العلم وتستغفر له، ولنا أن نتصورَ كثرة هٰذه المخلوقات من إنسانٍ وحيوان وجن وطيور وحشرات وأسماك، إنها جميعًا تلهجُ بالاستغفار لطالبِ العلم، وليبين الرسولُ أن هٰذا الاستغفارَ عام، قال: **«حتىٰ الحيتان في الماءِ»**[(١)].

٤- ومن هٰذه المغرياتِ تقرير أن فَضْلَ العالمِ علىٰ العابد كبيرٌ كبير، ويمثل الرسولُ ﷺ لتوضيحِ المعنىٰ بالقمرِ والكواكب، كم هو الفرقُ بين القمرِ ليلة البدرِ وسائر الكواكبِ في السماء، هكذا يكون فضل العالم علىٰ العابد، فالعلمُ يفوق العبادة، وهٰذا المعنىٰ حقيقي؛ إذ أن العبادةَ إن تجردت عن العلمِ قادت إلىٰ الضلالِ والخطأ والانحرافِ. ويقرر هٰذا المعنىٰ عدد من الأحاديثِ الصحيحة منها حديثُ الرجلِ الذي قتل مائة نفس ثم تابَ.

٥- ومنها تقريرُ أن العلماءَ ورثة الأنبياء، فالأنبياءُ لا يورثون مالا؛ لأن ما يتركونَه من الأموالِ صدقة، إنما يرثهم العلماءُ الذين يحملون رسالتهم إلىٰ الناسِ، وينشرونَ ما جاؤوا به من البيناتِ والهدىٰ.

إنهم لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، إي الله، إنه لحظٌ وافر، كما تبين من تأمل هٰذا الحديث.

هٰذا مثالٌ، وهناك أمثلة كثيرةٌ نجدها في السنة قد نعرضُ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٩٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد عن أبي الدرداء، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» حسن لغيره.

لبعضها. فلا عجب بعد هٰذا الترغيب والإغراء أن يُضْحي المجتمع الإسلامي بعد حين مجتمع العلم والثقافة ومركز المعرفة، للناس دوي بالقرآن كدويّ النحل، ولدىٰ الناس في هٰذا المجتمع حرص علىٰ تعلم القراءة والكتابة. وذلك من فضل الله والله ذو فضل عظيم.

إنَّ المجتمع الإسلامي الذي دعا الإسلام إلىٰ إقامته مجتمع قائم علىٰ الدين، هٰذه حقيقة بديهية، ومع ذلك فإنَّ سيدنا رسول الله ﷺ يقرر أن الاستكثار من العلم خير من الاستكثار من العبادة؛ ذلك لأن قليل العلم الثابت عن المعصوم ﷺ خيرٌ من كثير من العبادة إذا نأىٰ عنها العلم.

أليسَ هٰذا دليلًا ناطقًا بأن المجتمع الذي يريدُ الإسلامُ إقامَتَه هو مجتمعُ العلم؟

ما أكثر ما نرىٰ من جهلٍ بعض العامة الذين يبالغونَ في العبادة دون علم، فيوقعهم ذلك بالبدعة والضلال والانحراف.

إن المرء إذا أخلص النية في طلبه العلمَ كان في عبادة.. فطلبُهُ العلم عبادةٌ، ويبصِّره العلم بالعبادة المرضية عند الله، وينجيه من الخضوع للهوىٰ والانقياد له، إن من طبائع البشر أنهم يعجبون بآرائهم، ويحسبون أن عقولهم أرجح العقول، فيأتي العلم ليبين للإنسان الحقيقة، ويدله علىٰ مواطن الضعف في آرائه. إنَّ طالب العلم يتهم رأيه حتىٰ يعرضه علىٰ حقائق العلم التي توصل إليها عمالقة الفكر والرأي. وقد قيل: «**كفىٰ بالمرء جهلًا إذا أعجب برأيه**»(١).

---

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في «الأوسط» ٨/ ٣٠١-٣٠٢ (٨٦٩٨).

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٠: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» وفيه إسحٰق بن أسيد، قال أبو حاتم: لا يشتغل به. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥١٥٥).

ومن شرف العلم أنه يقود إلىٰ الإيمان والعمل الصالح، وهما دعامتا الفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة، وذلك هو الفوز المبين.

ومجالسة العلماء تشرح الصدر، وتنير القلب، وتوسع الأفق، وتنمي الثقافة، ومن هنا جاءت بعض الآثار تحض علىٰ حضور مجالسهم، فليحرص المرء علىٰ مجالستهم، وليحذر مجالسة الجاهل أو مجاورته، وقد جاء في حديث حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: **«فضلُ العلمِ خيرٌ من فضلِ العبادةِ، وخيرُ دينكِم الورعُ»**(١).

والتعبير النبوي تعبير محكم، فزيادة العلم خير من زيادة العبادة، لا سيما إذا كان العابد جاهلًا، إنَّ ٱنصراف المرء إلىٰ العلم بعد أداء الواجب عليه من العبادة خيرٌ له من أن يستزيد من العبادة، أما الورع فإنه يمثل قمة التدين. . . إنَّ الورعَ يحمل صاحبَه علىٰ المعرفة والتبصرِ إذا وقف حائرًا بين الحِلِّ والحرمة في أمرٍ من أمور حياته، فإذا لم يتوصَّلْ إلىٰ اليقين فليتركْ ما يريبه إلىٰ ما لا يريبه؛ ذلكَ لأن الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، كما في الحديث المتفق عليه الذي رواه النعمان بن بشير قال: قال ﷺ: **«إنَّ الحلالَ بَينٌ، وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن ٱتقىٰ الشبهات فقد ٱستبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمىٰ، ألا وإن حمىٰ الله محارمهُ»**(٢).

---

(١) رواه البزار ٧/ ٣٧١ (٢٩٦٩)، والطبراني في «الأوسط» ٤/ ١٩٧ (٣٩٦٠).
وقال المنذري: رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بإسناد حسن.
وقال الألباني: صحيح لغيره ٱنظر «صحيح الترغيب» ١/ ١٣٧ (٦٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢)،(٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) وهو الحديث السادس من «الأربعين النووية».

وقد ورد هٰذا المعنىٰ في أحاديث أخر.

وتأسرني روعة البيان التي نقف عليها في الحديث السابق: «**إنَّ الحلال بين وإن الحرام بين**» إذ كل مَنْ نشأ في المجتمع الإسلامي يعلم أن الصلاة، والزكاة، والصيام، وبر الوالدين والحج، والجهاد من الواجبات المشروعة المطلوب فعلها من المسلم إن توافرتْ فيه الشروط الشرعية، وأن كسب التجارة والإرث والهبة والهدية من الحلال الذي لا شائبة فيه، ويعلم أن الكذب، والسرقة، والزنا، والقتل، والعقوق، والإيذاء والعدوان من الحرام المحظور. وهٰذا ما عبَّر عنه علماؤنا بما علم من الدين بالضرورة، لا يجهله أحد.

وبين هٰذا الحلال وذاك الحرام أمور مشتبهات، يلتبس أمرها علىٰ كثير من الناس، لا يعلمون حكمها، أما الراسخون في العلم فلا يشتبه عليهم ذلك، فمن ٱتقىٰ الشبهات وابتعد عنها فقد ٱستبرأ لدينه وعرضه... يتقيها خشية أن تكون من المحرَّمات، ويتركها طلبًا للسلامة، فمن فعل ذلك ضمن النجاة من الوقوع في الحرام، وسلم له عرضه من الذم والطعن والقدح، وفي هٰذا دليل علىٰ أن طلب البراءة للعرض ممدوحٌ كطلب البراءة للدين، ومن وقع في هٰذه الأمور المشتبهات التي لا يعلم حكمها وقع في الحرام؛ لأنها قد تكون موقعة للإثم ما دامت محتملة للأمرين، فإن نجا من الحرام في أمر منها وقع في آخر.

وضربَ الرسول الكريم ﷺ مثلًا معبرًا عن المعنىٰ أوضح تعبير؛ ليقرب هٰذه المسألة إلىٰ الأذهان، وهٰذا المثل مُشاهَد في عالم الواقع، إن كلَّ ملك يتخذ حمىٰ له، يمنع الناس من الاقتراب منه،

ويضع معالم وحدودًا يرتب علىٰ تجاوزها عقوبة رادعة، فلو أنَّ راعيًا ترك الأرض كلها، وجاء بغنمه وأنعامه يرعىٰ حول ذاك الحمىٰ، كان بعمله هٰذا مغامرًا، فقد تتعدىٰ أنعامه الحدود، ولا يفطن لها، ولا يشعر بنفسه إلا وهو يرتع في الحمىٰ، وعندئذ ستحل عليه النقمة، ويصيبه العقاب، ويندم، ولات ساعة مندم.

ولو أنَّه كان حذرًا بعيد النظر لابتعد عن حدود الحمىٰ وظل يرعىٰ في الأماكن المباحة.

ثم يقول رسول الله ﷺ: «**أَلاَ إنَّ حمىٰ الله محارمهُ**».

فعلىٰ المرء إذا واجه شيئًا من الشبهات أن يتحقق من أمرها بسؤال أهل العلم، وإلىٰ أن يصل إلىٰ الحقيقة ينبغي أن يبتعد عنها ويتركها؛ كيلا يقع في الحرام، فإن لم يصل إلىٰ حكم بين في الأمر تركه واتقاه، وهٰذا هو الورع الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**وخير دينكم الورع**» يتركه ولا يجزم بحرمته، إنَّ أمورًا قد تواجه طالب العلم ولا يستطيع أن يصل فيها إلىٰ الحرمة أو الحل، فلا يجوز له أن يتسرع بإطلاق الحكم عليها، بل يقول لمن يسأله عنها: لا أدري حكم الله فيها، وتركها أفضل وأحسن؛ لأنني لم أستطع أن أصل إلىٰ حكم نهائي فيها.

إن من ترك الأمر الذي لم يعلم حكم الله فيه خوفًا من أن يقع في الإثم لمجرد اشتباهه كان لما استبان له أمره أترك، ولذا جاء في روايةٍ للبخاري لهٰذا الحديث قوله ﷺ: «**فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك**»(١).

(١) رواه البخاري (٢٠٥١) عن النعمان بن بشير.

أمّا من أتىٰ شيئًا مما يظنُّه الناسُ شبهة، وهو في علمه اليقيني حلالٌ؛ فلا حرج عليه من الله في ذلك، لٰكن إذا خشي من طعن الناس عليه بذلك كان ترك هٰذا الشيء حينئذٍ ٱستبراءً لعرضه، فيكون حسنًا[١].

إن هٰذا الحديث الرائع ليصور معالم المجتمع الملتزم بأحكام الدين، الوَقَّاف عند حدوده، الذي يأتي أفراده ما أُحِلَّ لهم، ويمتنعون عما حُرِّم عليهم، ويتبينونَ المواقف التي تشتبه عليهم بالعلمِ.

إنه مجتمعٌ تُرعىٰ فيه الحقوقُ، فلا يقصر أحدٌ فيه عن أداء الواجب، ولا يقع في محرم ولا شبهة، ويحض أبناءه علىٰ العلم. وهٰذا لعمر الله هو المجتمع المنشود.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»[٢]

حقًّا إن الإسلام دين العلم؛ إذ يجعل طلبه فريضة علىٰ كل مسلم كما جاء في هٰذا الحديث.

ولفظ «**كل**» يدل علىٰ العموم، فكل مسلم مكلف بأن يطلب العلم سواء كان قارئًا أم أميًا، غنيًّا كان أم فقيرًا، صغيرًا كان أو كبيرًا، حضريًا كان أم بدويًا، إنه ما دام ٱتصف بالإسلام ودخل فيه كان طلب العلم فريضة في حقه، وسنبين المراد من طلب العلم الواردِ في هٰذا الحديثِ.

---

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٠٤.   (٢) سبق تخريجه.

ولفظ: «مسلم» يشمل المسلمة أيضًا؛ لأن الخطاب في النصوص الدينية إذا ووجه به الرجل ولم يكن مما يختص بالرجولة والذكورة شمل الأنثىٰ، وهٰذا مطرد في الآيات التي تخاطب الذين آمنوا من نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: الآية ١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: الآية ١٨٣] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: الآية ٢٨] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا﴾ [التّحْريم: الآية ٨] .

كل هٰذه الأوامر مخاطب بها المؤمنون والمؤمنات، وإن كان الخطاب موجهًا للمؤمنين. ولا داعي لأن تذكر المسلمة في الحديث: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**» لأنها داخلة في مفهوم المسلم كما بينا، وزيادة هٰذه الكلمة كما يشيع علىٰ ألسنة بعض الناس غير وارد ولا يصح.

لقد وعىٰ المسلمونَ الأولون هٰذه الحقيقة، فأقبلوا علىٰ العلم إقبالا شديدًا، وكانوا يسألونَ رسول الله ﷺ عن كل أمر من أمورهم، والإسلامُ دين يشمل الحياة كلها، وكان ﷺ يجيبهم بما علّمه الله، أو ينتظر فيتنزلُ الوحيُ عليه مجيبًا عن أسئلتهم، وسجّل القرآن بعض هٰذه الأسئلة من نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ [البقرة: الآية ٢١٥] وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ [البقرة: الآية ٢١٧]

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ [المَائدة: الآية ٤] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٧] وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ [الأنفَال: الآية ١] وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسرَاء: الآية ٨٥] وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ﴾ [الكهف: الآية ٨٣] إلىٰ آخرِ هٰذه الأسئلةِ الكثيرة.

وهناك في السنَّة أحاديث كثيرة كانت جوابًا لسؤال وُجِّه إلىٰ النبي ﷺ ودرجت الأجيال التي جاءت من بعد علىٰ سؤال ورثة الأنبياء وهم العلماء، وقد جمع بعض أهل العلم المسائل التي سئلها بعض الأئمة، فكان من ذلك كتب مثل: كتاب «مسائل أحمد» لأبي داود، وكتب الفتاوىٰ، وهي مكتبة ضخمة جدًّا، ولم يخل عصرٌ من العصورِ من التأليف فيها، يُسأل عالم عن مسألةٍ فيجيب عليها، وهكذا، وتجمع هٰذه الفتاوىٰ في كتب، ومن أشهرها: «فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية». وهٰذا هو المراد من طلب العلم.

المطلوبُ من المسلم إذا واجهه أمرٌ يتصل بعبادته أو معاملاتهِ ولا يعرفُ حكم الله فيه أن يسأل، وعلىٰ العالم إذا كان يعرف الحكم أن يجيبه ولا يكتم العلم، وليس معنىٰ الحديث أن ينقطع الناس كلهم عن أي عمل أو اختصاص، ويتفرغوا جميعًا لطلبِ العلم، فلا تكونُ زراعة ولا صناعة ولا تجارةٌ، بل ينصرف الناس جميعًا للتعلم، لا، ليسَ هٰذا هو المرادُ قال إسحٰق ابن راهويه: «معناه أنه يلزمه طلبُ علم ما يحتاج إليه من وضوئه، وصلاته، وزكاته إن كان له مالٌ، وكذلك الحج وغيره قال: وما وجب عليه من ذلك لم يستأذن أبويه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في الخروج إليه، وما كان فضيلة لم يخرج حتىٰ يستأذن أبويه»[1].

وعن ابن وهب قال: سئل مالكٌ عن طلب العلم: أهو فريضةٌ علىٰ الناس؟ قال: لا، ولكن يطلب من المرء ما ينتفع به في دينه[2].

وعن الحسن بن الربيع قال: «سألت ابن المبارك: قلت: قول النبي ﷺ: «**طلبُ العلمِ فريضةٌ علَىٰ كلِّ مسلمٍ**» قال: ليس هو الذي يطلبونه، ولكن فريضة علىٰ من وقع في شيء من أمر دينه أن يسأل عنه حتىٰ يعلمه»[3].

وقال سفيان بن عيينة: «طلب العلم -يريد: العلم التخصصي والجهاد- فريضة علىٰ جماعتهم، ويجزئ فيه بعضهم عن بعض، وتلا هٰذه الآية: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٢]»[4].

والعلمُ المفروض علىٰ كلِّ مسلم تعلمه هو معرفة عقيدة التوحيد، والأحكام التي تصح بها عبادة الإنسان وتستقيم معاملاته وفق أحكام الشريعة المطهرة، فهٰذا كله فرض عين علىٰ كل مسلم، أما التوسع في مسائل الفقه ودقائق العلم فهٰذا فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولا يلزم به كل الناس؛ لأن شرع الله قائم علىٰ اليسر ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية ٢٨٦].

ومن فضل الله علىٰ الناس أن العقيدة الإسلامية تتفق والفطرة

---

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ٩.

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٩-١٠.

(٣) «جامع بيان العلم» ١/ ١٠ وانظر «الفوائد المجموعة» بتحقيقنا الحديث (٨٧).

(٤) «جامع بيان العلم» ١/ ١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

التي فطر الله الناس عليها، فلا تعقيد فيها ولا غموض، بل هي سهلة الفهم، وتتناسب مع مختلف مستويات الناس، وكذلك أحكام العبادات سهلة يمكن أن تعلم عمليًا بالقدوةِ، كما فعل الرسول ﷺ حيث قال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[1].

قال ابن عبد البر: «قد أجمع العلماء علىٰ أن من العلم ما هو فرض متعين علىٰ كل ٱمرئ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض علىٰ الكفاية، إذا قام به قائم سقط فرضه علىٰ أهل ذلك الموضع... والذي يلزم الجميع فرضُه، من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان، والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له ولا شبه ولا مثل، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، خالقُ كلِّ شيء، وإليه مرجع كل شيء، المحيي المميت، الحيُّ الذي لا يموت، والشهادةُ بأن محمدًا عبدهُ ورسولهُ، وخاتم أنبيائه، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال، والخلودَ في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير حقٌّ، وأن القرآن كلام الله، وأن الصلوات الخمس فرضٌ، ويلزم من علمها علمُ ما لا تتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان فرض، ويلزم من علمه علم ما يفسد صومه وما لا يتم إلا به.

وإن كان ذا مالٍ وقدرة علىٰ الحج لزمه فرضًا أن يعرف ما تجب فيه الزكاة، ومتىٰ تجب؟ وفي كم تجب؟ ويلزمه أن يعلم بأن الحج فرض عليه مرة واحدة في دهره إن ٱستطاع إليه سبيلًا، إلىٰ أشياء يلزمه

(١) رواه البخاري (٦٠٠٨) عن مالك بن الحويرث.

معرفة جملها، ولا يعذر بجهلها نحو: تحريم الزنا والربا والخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة والأنجاس كلِّها، والغصب والرشوة علىٰ الحكم، والشهادة بالزور، وأكل أموال الناس بالباطل وبغير طيب من أنفسهم إلا إذا كان شيئًا لا يتشاح فيه ولا يرغب في مثله، وتحريم الظلم كله، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن، وتحريم قتل النفس المؤمنة بغير حق، وما كان مثل هٰذا كله، مما قد نطق به الكتاب، وأجمعت الأمة عليه.

ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه، وفَتْواهم به في مصالح دينهم ودنياهم فهو فرض علىٰ الكفاية يلزم الجميع فرضُه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء في ذلك»[(١)].

ولم يمض علىٰ أمة الإسلام وقتٌ طويل حتىٰ كانتْ أمةَ العلم، وحتىٰ كان كثيرٌ من أفرادها أساتذةً لأمم الدنيا.

يدلُّ علىٰ ذلك حديث ربعي بن عامر لرستم قائد الفرسِ حيث قال: «الله ٱبتعثنا لنخرجَ من شاء من عبادةِ العباد إلىٰ عبادةِ الله، ومن ضيق اِلدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبىٰ قاتلناه أبدًا حتىٰ نفضي إلىٰ موعود الله.

قال رستُم: وما موعودُ الله؟

قال: الجنة لمن مات علىٰ قتال مَنْ أَبَىٰ، والظفر لمن بقي»[(٢)].

---

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ١٠-١١.

(٢) «تاريخ الطبري» ٢/ ٤٠١، «البداية والنهاية» ٧/ ٣٩.

العلم هو الحياة والسعادة والخير والحق والجمال، والإسلام العظيم، دين الله الخالد حرص علىٰ أن يحقق لأتباعه هٰذه الأمورَ كلَّها وما يماثلها.

وقد ٱستطاع هٰذا الدين -بجهود أتباعه- أن يجعل المجتمع الإسلامي منارة العلم في الدنيا كلها، المنارة الوحيدة لقرون كثيرة.

ونودُّ أن نتأمل هٰذا الحديث الصحيح الذي كان له الأثر الكبير في نموّ الحياة العلمية في المجتمع الإسلامي.

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«إذا ماتَ ابن آدم ٱنقطعَ عمله إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»**(١).

وروىٰ نحوه أبو قتادة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«خيرُ ما يَخْلُفُ الرجلَ من بعده ثلاثٌ: ولدٌ صالحٌ يدعُو له، وصدقةٌ تجرِي يبلُغُه أجرُها، وعلمٌ يُعمل بِهِ من بعدِهِ»**(٢).

ولن نفصِّل القول في الثلاث. . . بل نودُّ أن نشير إشارة عابرة إلىٰ أن هٰذه الأمور الثلاثة تسهم في بناء المجتمع الفاضل السعيد.

فالصدقة الجارية التي تستمر بعد وفاة صاحبها ويَبْلُغه أجرها، تحقق في المجتمع الرفاه والتعاون والكفاية، ولقد كان من آثار حرص الناس الصالحين علىٰ الصدقات الجارية بناء المدارس، وإشادة المستشفيات، وتأمين الماء العذب في الطرقات؛ ليشرب منه المارة وأبناء السبيل، وإنشاء الأوقاف العظيمة المدهشة التي حققت في

---

(١) رواه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤١) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

مجتمعاتنا -كما يحدثنا عن ذلك التاريخ- أشياء تقرب من الخيال.

فقد كان في مجتمعاتنا أوقافٌ للمجذومين، وأوقافٌ للمقعدين، وأوقافٌ للعميان، وأوقافٌ للمنقطعين، وأوقافٌ لليتامىٰ والمساكين، وأوقافٌ للفقراء المسنين الذي لا عائل لهم، بل لقد حدثتنا كتب التاريخ بما يفوقُ ذلك، لقد وجدت أوقافٌ وقفها أصحابها لجبر خواطر الخدمِ والأرقاء، فقد ذكر محمد بن عبد الله (ابن بطوطة)[1] أنه رأىٰ في بلد من بلاد المسلمين -وهو دمشق- دكانًا فيه أوانٍ فخارية وزجاجية، فسأل القيم علىٰ الدكان عن ذلك فأخبره أن هٰذا الدكان أوقفه صاحبه جبرًا لخواطر الخدم الذين قد تنكسر معهم آنية فيخافون عقوبة سادتهم، فيأتونَ بحطام الآنيةِ ويأخذونَ واحدة جديدةً، حتىٰ لا يتعرضوا إلىٰ غضب السادة ونقمتهم، وإذا لم يكن عند صاحب الدكان من جنسِ المكسورِ دفع للغلام ما يشتري به مثلَ الآنية المكسورةَ.

وهناك رجلٌ وقف أرضًا واسعة يجري بجانبها نهرٌ للحمير والبغال التي هرمت ولم تعد تقوىٰ علىٰ العمل، وأصبح مالكوها يتضجرون من طعامها، فكان هٰذا الحقلُ الفسيح ترعىٰ من كلئهِ، وتشرب من ماءِ النهر وتبقَىٰ فيه إلىٰ أن تموت.

وتستمرُّ هٰذه الأوقاف جيلا بعد جيل، وهٰذا بحثٌ طويل قد نعود إليه في وقت آخر.

والولدُ الصالح الذي يدعو لأبيهِ بعد موته كسب للوالد مستمرٌّ لا يتوقف بالموت، وفي هٰذا إغراء بالتربية الحسنة التي تجعل الأولاد

---

(١) أنظر «رحلته» ١/١١٨ بتحقيق علي المنتصر الكتاني طبع مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

ناسًا صالحين. إنهم أمانةٌ بأيدينا فإن قمنا بواجب التربية والتوعية والإرشاد عاد ذلك نفعًا علينا وعلىٰ الأمة بكاملها، وفيه أيضًا: ترغيبٌ بالإنجاب والإنسال.

إن المؤمن حريص علىٰ الاستكثار من الطاعات والقربات، يرجو أن يرفع الله بها درجته، ويحط بها عنه خطاياه، ويكرمه بالجنة والرضوان. وعُمْرُ الإنسان قصير، فكل إنسان يمضي مسرعًا إلىٰ أجله، لا يتوقف عن المضي إلىٰ ذاك الهدف لحظة واحدة. ولذلك كانت هناك في الكتاب والسنة دعوة له إلىٰ المسارعة لعمل الصالحات قبل أن يدركه الأجل، وينقطع عمله. قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عِمرَان].

وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحَديد] وإذا كان عمل الإنسان ينقطع بوفاته فقد هيَّأ الله لعباده الراغبين في الخير طرقًا يستمر كسبهم الصالحات وأجرها بعد وفاتهم، وهٰذه الطرق هي التي ذكرها الحديث السابق، وإنها لمنة عظيمة مَنَّ الله بها علىٰ عباده، فله الشكر وله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

والعلم الذي ينتفع الناس به عمل يستمر أجره وثوابه لصاحبه. وانتفاع الناس به يتمثل في أمور عدة:

منها: أن يترك تلامذة أعدَّهم العالم قبل موته إعدادًا جيِّدًا حتىٰ أصبحوا قادرين علىٰ أن يملؤوا الفراغ الذي تتركه وفاته، فهم يبلغون

دين الله، ويفتون الناسَ في مسائل دينهم ودنياهم.

ومنها: أن يدلَّ الناسَ علىٰ سنَّةٍ يحييها، فيعملُ الناس بها بسببه.

ومنها: أن يؤلف كتبًا تعين طلبة العلمِ علىٰ تحصيل حقائقِ العلم ويعرضها بالأسلوبِ الذي يناسب المخاطَبين وعصرهم.

فكلما ٱنتفع الناسُ بهٰذا العلم الذي تركَه في الدنيا بعد أن ٱرتحلَ إلىٰ الدار الآخرة كتب له بذلكَ الأجر والثواب.

إن ذلك يدفع الراغب في الخير إلىٰ أن يتعلم ويترك في الناس المؤلفات النافعة، أو إلىٰ أن يعلِّم مَن يسأله من الناس، أو إلىٰ أن يعمل علىٰ إعداد العلماء العاملين، إعدادهم بالتعليم والتربية والتوجيه والقدوة، مهما تحمَّل في سبيل ذلك من التعب والعناء.

إنَّ هٰذا الحديث يفتح للناس باب كسب الحسنات بعد الموت.. فالناس جميعًا يدركون بأن في الحياة الدنيا الموت والزوال، فكل إنسانٍ ميت، وكل نعيم زائل، وكذا الشقاء.

أما الحياةُ الآخرة فلا موتَ فيها ولا زوال، ولقد أدرك هٰذه الحقيقة عثمان بن مظعون ﷺ فواجه بها لبيدًا الشاعر ومجتمع الشرك في مكة، وذلك عندما سمعه ينشد.

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

فقال عثمان: صدقت

ولما قال: وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ

قال: كذبت؛ إن نعيم الجنة لا يزول[١].

فإذا كانت المكافأة علىٰ قدر العمل، وكان الإنسان راغبًا في أن

---

(١) «سيرة ابن هشام» بتحقيق مصطفىٰ السقا وزملائه ٢/٩-١٠.

تعظم مكافأته فليفتش عن مصدر يمده بالحسناتِ حتىٰ بعد مماته.

والعلم سبيل ميسر لمن أراده من أصحاب الاْستعداد، وربما كان العلم أيسر الأمور الثلاثة لدىٰ نفر من الناس.

فقد يكون المرء فقيرًا لا يستطيع أن يتخذ صدقة جارية من نحو بناء مسجد أو مستشفىٰ أو طريق أو نحو ذلك من أنواع الصدقات الجارية.

وقد يكون عقيمًا أو لم يستطع أن يتزوج، أو تزوج وأنجب أولادًا ولكنهم لم يكونوا صالحين.

إن هٰذا وأمثاله يستطيع أن يقبل علىٰ حلقات العلم ويصبح عالمًا يترك في الناس العلم النافع. وكان العلم في المجتمع الإسلامي مُيسَّرةً سُبلُه، ليس هناك شروطٌ مشددة كما نرىٰ في عصرنا لراغبي التعلم.

فصل

إنَّ التزام الناس بالإسلام وعزمهم علىٰ العمل به يقود بالضرورة إلىٰ التعلم؛ ذلك لأنَّ المرء الملتزم الذي يريد أن يصلي لابُدَّ له من أن يتعلم كيف يصلي، وللصلاة مقدماتها من وضوء، وغسل في بعض الحالات، واستعداد للصلاة، وكل ذلك يحتاج المسلم أن يعرف كيفيته وشروطَه. وكذلك الصوم والزكاة علىٰ من وجبت عليه، والحج علىٰ من وجب عليه.

وكذلك إذا أراد هٰذا الإنسان المسلم الصادق في تدينه أن يبيع وأن يشتري ٱضطر إلىٰ أن يسأل عن أحكام البيع والشراء التي شرعها الله وبينها رسول الله ﷺ، وهكذا في شؤون حياته كلها، وإن حوادث الحياة غير محدودة.

فلا ينفكُّ المسلم في المجتمع الإسلامي عن التعلم أو التعليم؛ لأن التعلم أمر ضروري لابُدَّ للمسلم منه ما دام يريد أن يتصرف في حياته وفق أحكام الشرع.

وهٰذه الضرورة أوجدت حركة علميةً في أوساط الناس بمختلفِ مستوياتهم، وزاد هٰذه الحركة نشاطًا ونموًا ما جاء في الكتاب والسنة من الحضِّ علىٰ العلم من نحو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] وقوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: الآية ١١٤] ومن نحو قوله

ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أوعالمًا، ومتعلمًا**»(١).

الدنيا كلها ملعونة وملعون ما فيها، إلا ذكر الله والعالم والمتعلم.. أيُّ منزلة أعلىٰ من منزلة العلم في نظر الإسلام، إنه مقرون بذكر الله وما يحبه الله، وهو داخل في قوله: «**وما والاه**» لأن العلم مما يحبه الله، ولكن ذكره بالتخصيص للدلالة علىٰ عظيم شأنه.

ويراد بالدنيا الشهواتُ، والمُتَعُ والملذَّاتُ، والأموال التي تبعد عن الله، وقد أشارت الآيةُ الكريمة إلىٰ أهم هٰذه الشهوات وذلك في قوله سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وذم الدنيا وارد في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، وقد ألفتْ فيه مؤلفات، وفي كتب الحديث المؤلفة في الزهدِ أحاديث كثيرة في هٰذا الموضوع.

ومن هٰذه الأحاديث هٰذا الحديث الحسن الجميلُ.

إنَّ من شأن الكافِر أن لا يفكر إلا في دنياه ولا يتطلعَ إلىٰ شيءٍ

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه، (٤١١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٤/٣٣٨. وقال الترمذي: حسن غريب، والحديث حسنه الألباني في «صحيح الترمذي».

آخر.. إنَّ الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، وهدفه الذي يسعىٰ إليه، فهو في الآخرة لا ينال شيئًا من النعيم؛ لأنه لم يسعَ إليه. قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

أي: مَن كان يريدُ بعمله ثواب الآخرة نزِد له فيه الحسنةَ بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائةِ ضعف، والله يضاعفُ لمن يشاء والله واسعٌ عليم، ومن كان يريدُ حرث الدنيا نؤته نصيبًا من الدنيا وما لهُ في الآخرةِ من نصيب.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس].

إن هٰؤلاء الذين لا يريدون إلا الدنيا يشاركون في هٰذه الناحية المخلوقات العجماوات التي لا يهمها إلا قضاء ضروراتها من طعام وشراب ولذة.

وهٰذه صفة الذين لا يرجون لقاء الله.. أما المؤمن فإنه يتطلع إلىٰ الآخرة ورضوان الله، وإذا كانت الدنيا في يده سخرها لمرضاة الله.

ومن هنا كان الثناء علىٰ من يبتغي بما جعل الله تحت يده من

الدنيا يبتغي به الدار الآخرة، وكان مستثنىٰ من لعنة الله.

الدنيا ملعونةٌ بعيدةٌ عن رحمة الله، لا ينظر إليها، وكذلك كل ما فيها إلا أن يكون موصولا به ﷻ.

وهٰذه الدنيا الملعونة زين للناس شهواتها ٱختبارًا وابتلاءً، وزين للناس متاعها، فالذين لا يؤمنون.. والذين لا ينظرون إلىٰ بعيد يُقبلون عليها ولا يفكرون في أمرٍ سواها.

ولٰكن الذين هداهم الله، وأنار بصائرهم بنور الإيمانِ يرتفعون إلىٰ مستوىٰ أسمىٰ، مستوىٰ مناجاة الله، والإقبال عليه، وابتغاء ما عنده، ولا يحرمهم ذلكَ من أن يتمتعوا بما أحلَّ الله لهمُ من أنواعِ المتع.

وقوله ﷺ في الحديث: «**ملعونٌ ما فيها إلا ذكرَ الله**»[1] يشير إلىٰ هٰذا الذي ذكرنا، ويدخلُ في ذكر الله أداءُ العبادات الواجبة والمندوبة، وتلاوة القرآنِ، وترديد الأذكارِ المندوبة، كما يدخلُ فيه ما هو أعم، وهو مراقبة الله واستحضارُ أنه سبحانه ناظرٌ إلينا، مطلع علينا، وذكره في جميع أحوال الإنسانِ وتصرفاته وأعمالهِ في خلوته وعلنه.

إنَّ الذكرَ اللساني إنْ فارق الذكرَ القلبي، ومراقبة الله تبارك وتعالىٰ لا يغني شيئًا وقد قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم، ولا إلىٰ أجسادِكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم، وأعمالكم**»[2].

فمنْ ذَكَرَ الله، وابتغىٰ رضوانه كان من السعداء المفلحين؛ لأنه نجا من اللعنة، ومما يؤيد هٰذا المعنىٰ: الحديثُ الصحيح عن النبي

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ﷺقال: **«الدنيا ملعونةٌ، ملعون ما فيها، إلا ما ٱبتُغي به وجه الله»**[(١)].

فكل أمر من أمور الدنيا ٱبتغي به وجه الله ليس بملعون. ويُبتغىٰ وجه الله بالأعمال التي يحبها الله.

إن كل أمرٍ من أمور الدنيا يُبتغىٰ به وجهُ الله ليس بملعون، وصاحُبه مأجورٌ مؤيدٌ من الله بالتوفيق، ويُبتغىٰ وجهُ الله بالأعمال التي يحبها الله، وقد بيَّن الحديث: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها؛ إلا ذِكْر الله وما والاه أو عالمًا ومتعلمًا»**.

بَيَّن أهم هٰذه الأعمال التي يبتغىٰ بها وجه الله، فقرر (ذكر الله)، وقد أوضحنا المرادَ منها ثم قال: (وما والاه) أي: وما يحبه الله من الأعمال، والأقوال، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وإيتاء المال ذوي القربىٰ، واليتامىٰ، والسائلين، وعتق العبيد، والصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة والوفاء بالعهد والصبر والصدق، ونحو ذلك من كل ما يدرأ مفسدة أو يجلب مصلحة، ويكون المقصودُ بذلك وجهُ الله سبحانه.

والعلمُ مما يحبه الله، والعلم الممدوح هو العلم النافع الدال علىٰ الله، وكذا العلم الذي يعود علىٰ الأمة بالقوة، والخير في أمورها المعاشية حتىٰ لا تضعف أمام أعداء الله.

وهنا نُكتة بلاغية لطيفة وهي: أنه كان -في الظاهر- أن يكتفىٰ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة، ورُوي من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي الدرداء، وعبد الله بن مسعود. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٩٧) وساق له شواهد متعددة.

بقوله: «**وما والاه**» عن ذِكْر العالم والمتعلم؛ لأن ما يحبُّ الله يشمل جميع الخيرات والمستحسنات، لكنّه خصّص بعد التعميم؛ دلالةً علىٰ فضل العالم والمتعلم، وتفخيمًا لشأنهما، وإيذانًا بأن جميع الناس سواهما همج، وتنبيهًا علىٰ أن المراد بالعالم والمتعلم: العلماء الجامعون بين العلم والعمل، فيخرج الجهلاء، والعلماء الذين لم يعملوا بعلمهم، والعاملون عملًا لا يتعلق بالدين.

وحديث أبي هريرة هٰذا وَرَدَ بطرق مختلفة وبألفاظ كثيرة متقاربة جمع طائفة منها الحافظ ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»(١).

وفي بعضها زيادة في آخره، من ذلك الحديث الذي برواية أبي سعيد الخدري، فقد وردت فيه الزيادة كما يأتي: « ..**والعالم والمتعلم شريكان في الأجر، وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فيهم**».

وجاءت هٰذه الزيادة في أحاديث أخرىٰ منها: حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**عليكم بهٰذا العلم قبل أن يُقبض وقبل أن يُرفع**» ثم قال: «**العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعدُ**»(٢).

إذا سمع صاحب القلب الحي المُترَع بالإيمان هٰذه الأحاديث التي تُرَغِّب في العلم سارع إلىٰ طلبه بكل ما أوتي من قوة؛ لأنَّ المؤمن يبغي النجاةَ يوم القيامة، والبعد عن سخط الله، وقد سمع علىٰ لسان رسول الله ﷺ أن الدنيا -التي تشغلُ الناسَ عادة- ملعونةٌ، وأنَّ كل ما فيها ملعون إلا ذكر الله وعالمًا ومتعلمًا، فطبيعيٌّ جدًّا أن يكون همُّه في حياته الدنيا أن يسعىٰ لما يقرِّبه من ذلك، ولا يمكن أن نتصوَّر من صاحب القلب الحي المؤمن إلا هٰذا الموقف، وهٰذا الذي

---

(١) ١/ ٢٧ وما بعدها.

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٨.

كان كما تُحدثنا بذلك أحاديثُ عدةٌ وردت في كتب السُّنة.

إن المجتمع الإسلامي في القرن الأول زاخرٌ بأصحاب القلوب الحيَّة المؤمنة الراغبة في الخير؛ لأنه -كما أخبر الرسول ﷺ- خير القرون.

ولذا فقد حصل ما يشبه المعجزة؛ إذ ٱنقلب هٰذا المجتمع الذي كان أميًّا إلىٰ مجتمع يسعىٰ أبناؤه إلىٰ المعرفة والعلم بكل سبيل.

ومن هنا ورد عن الصحابة والتابعين أقوالٌ كثيرة في الحض علىٰ طلب العلم:

من ذلك ما رُوي عن عليٍّ ﷺ أنه قال: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم علىٰ سبيل نجاة، والباقي هَمَجٌ رعاع أتباع كل ناعق[1].

وكان ابن مسعود ﷺ يقول: ٱغْدُ عالمًا، أو متعلمًا، ولا تَغْدُ إمَّعة فيما بين ذلك، وإنَّ الملائكة تبسط أجنحتها لرجل غدا يطلب العلم، من الرضىٰ بما يصنع[2].

ومن ذلك ما رواه الحسنُ: أنَّ أبا الدرداء ﷺ قال: كُنْ عالمًا، أو متعلمًا، أو محبًّا، أو متبعًا، ولا تكن الخامس فتهلك، قيل للحسن: وما الخامس؟ قال: المبتدع[3].

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز قال: إذا ٱستطعت فَكُنْ عالمًا، فإن لم تستطع فَكُنْ متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا

---

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٩.

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٩ وكتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٠٩.

(٣) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٩ .

تبغضهم[١]. وأخرجه زهير بن حرب في كتاب العلم كما يأتي:

عن عون بن عبد الله قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يقال: إن استطعت أن تكون عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تكن متعلمًا فأحبهم، فإن لم تحبهم فلا تبغضهم. فقال عمر: سبحان الله! لقد جعل الله له مخرجًا.

ورُوي أيضًا أن الحسن قال: اْغْدُ عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، ولا تكن رابعًا فتهلك[٢].

قال ابن تيمية: ومنها: «**يا عليُّ كن عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو داعيًا، ولا تكُنْ الرابعة فتهلك**». هذا عن النبي ﷺ ليس بثابت، لكنه مأثور عن بعض السلف[٣].

فهذا القول الجميل مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ولكنه لا يصحُّ رَفْعُه إلىٰ النبي ﷺ كما قرَّر ذلك ابن تيمية.

وجاء في «أدب الدنيا والدين»[٤] هذا القول منسوبًا لعلي، ثم قال: «وقد رواه خالد الحذاء، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، عن النبي ﷺ مسندًا».

قلت: وأخرجه الطبراني في «المعجم الصغير»[٥] بالسند الآتي (محمد بن الحسين الأنماطي أبو العباس البغدادي، حدثنا عبيد بن جناد، حدثنا عطاء بن مسلم الخفاف، حدثنا مسعر عن خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقول...).

---

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٩ وكتاب العلم لزهير ص١١٠ .

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٢٩ .

(٣) «أحاديث القصاص» رقم (٥٢).

(٤) ص ٣٥.

(٥) ٢/ ٩.

وجاء في «مجمع الزوائد»[1]: «عن أبي بكرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اغْدُ عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو محبًّا، ولا تكن الخامسة فتهلك**» قال: قال لي مِسعر: زدتنا خامسة لم تكن عندنا. والخامسة: أن تبغض العلم وأهله. رواه الطبراني في الثلاثة والبزار، ورجاله موثقون».

وأخرج الدارميُّ عن عبدِ الله بن مسعودٍ موقوفًا: ٱغْدُ عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتهلك[2].

وأخرج أبو خيثمة؛ زهير بن حرب هٰذا الأثر موقوفًا علىٰ ابن مسعود وفيه: «ولا تكوننّ الرابع»[3].

إن هٰذه الأقوال لترسم لنا صورة ذاك المجتمع المقبل علىٰ العلم، المحب للعلماء، الحذر من بُغضهم، وهٰذه علامَةُ تقدم المجتمع وسموه.

---

(١) ٱنظر «مجمع الزوائد» ١/ ١٢٢.
(٢) «سنن الدارمي» ١/ ٧٩.
(٣) «كتاب العلم» ص ١٣٧.

فصل

الرحلة في طلب العلم

إنَّ الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الثابتة، التي ترغِّب في العلم، وقد أوردنا بعضها، كان لها أثرٌ كبير في إقبال الناس علىٰ العلم علىٰ مختلف أعمارهم ومستوياتهم، حتىٰ أصبح المجتمع الإسلامي يموج بالحركة العلمية.

وقد نشأ شيء جديد في حياة أمتنا لم نُسبق إليه، إنه: الرحلة في طلب العلم.

وهٰذه طريقة في تحصيل العلم، لم تعرفها أمة من أمم الأرض قبل أمة الإسلام.

والمعروف أنَّ الصحابة -رضوان الله عليهم- توزَّعوا في البلدان المفتوحة؛ ليبلِّغوا أبناء تلك الديار دين الله الذي شرَّفهم الله بحمله، وليعلِّموهم أحكامه، ونشأت مدارس علمية في الأقطار التي أقام فيها أولئك الأصحاب، الذين كانوا مصابيح الهُدىٰ، وأئمة الرشاد.

ومن أهم هٰذه الأقطار: مكةُ، والمدينة، والبصرةُ، والكوفةُ، والشامُ، ومصرُ، وبغدادُ، وغيرها، فشرع طلاب العلم يؤمُّون هاتيك المراكزَ العلمَّية من كل فج عميق، يتعلَّمون العلم، ويروضون أنفسهم علىٰ السلوك النظيف المستقيم عن طريق القدوة، ويكتبون الحديث، ويستوثقون من روايته.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

[ويبدو أن الرحلة أمر طبيعي يتلازم وطلب العلم، ولقد بدأت الرحلة في وقت مبكِّر، حتىٰ إنَّ بعض الصحابة رحلوا في طلب الحديث، ونمت الرحلة في عصر التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، حتىٰ أضحت الرحلة شيئًا لا بُدَّ منه لطالب العلم.

ويستدلُّون علىٰ طلبها وفضلها بقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٢] قال القاضي عياض: «فهٰذا أصلٌ في وجوب طلب العلم، والرحلة في طلب السنن»](١).

قال كثير بن قيس: كنتُ جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا الدرداء، جئتك من المدينة -مدينة الرسول ﷺ- لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ.

قال: ولا جئت لحاجة؟

قال: لا.

قال: ولا لتجارة؟

قال: لا.

قال: فأبشر إنْ كنت صادقًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب، وإن العالم ليستغفر**

---

(١) «الإلماع» ٨ وانظر كتابنا «الحديث النبوي» ٥١-٥٥ ط الثامنة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

له من في السموات ومن في الأرض، وكل شيء حتىٰ الحيتان في جوف الماء؛ إن العلماء وَرَثةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وأورثوا العلم، فمن أخذه أخذه بحظٍ وافر»[1].

هٰذه واقعةٌ جرت مع أبي الدرداء، وهناك وقائع كثيرة غيرها جرت مع عدد من الصحابة، إنها ظاهرة، وليست حادثة وحيدة، وسأورد بعض هٰذه الوقائع التي وصلت إلينا في كتب السنة، ولن أستقصي لوفرتها:

فمن ذلك: أنَّ زِرَّ بن حبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسَّال المرادي. فقال: ما جاء بك؟

قلت: ٱبتغاء العلم.

قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خرج من بيته ٱبتغاء العلم وضعت الملائكة أجنحتها له رضًا بما يصنع»

قال زِرٌّ: حاك في نفسي مَسْحٌ علىٰ الخفين بعد الغائط والبول، وكنتَ ٱمرأً من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتيتُك أسألك: هل سمعت من رسول الله ﷺ في ذلك شيئًا؟.

---

(١) أخرجه أحمد ١٩٦/٥، والدارمي (٣٤٩)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه برقم ٢٢٣، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ص٣٥، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠/٣)، وابن حبان «موارد الظمآن» برقم (٨٠). قال ابن عبد البر: حديث حسن غريب. قال الألباني: مدار الحديث علىٰ داود بن جميل، عن كثير بن قيس، وهما مجهولان، لكن أخرجه أبو داود من طريق أخرىٰ عن أبي الدرداء بسند حسن. ٱنظر: «صحيح الترغيب والترهيب» ١٣٩/١ وانظر: علل الدارقطني ٢١٦/٦. و«الرحلة في طلب الحديث» بأرقام ٤ و٥ و٦ .

فقال: نعم، كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا كنَّا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهنَّ إلَّا من جنابة، لٰكن من غائط وبول ونوم.

قلت: أسمعته يذكر الهوىٰ بشيء؟

قال: نعم، بينما نحن معه في مسير له، إذ ناداه أعرابيٌّ بصوت له جهوريٌّ: يا محمد. فأجابه النبي ﷺ بنحوٍ من صوته: «**هاؤم**» فقلنا له: اُغضضْ من صوتك؛ فإنك نُهيت عن هٰذا. فقال: لا والله، لا أغضضْ من صوتي. فقال: يا رسول الله، المرءُ يُحبُّ القومَ ولمَّا يلحقْ بهم. قال ﷺ: «**المرءُ مع من أحبَّ**».

قال: ثم لم يزل يحدثنا رسولُ الله ﷺ حتىٰ قال: «**إنَّ من قبل المغرب بابًا، مسيرة عرضه أربعون -أو سبعون- عامًا، فتحه الله للتوبة يوم خلق السموات والأرض، ولا يغلقه حتىٰ تطلع الشمس منه**»[(١)].

وكان لرحلة العلماء في طلب الحديث آثار كبيرة علىٰ هٰؤلاء العلماء، ومن ثم كان أثرها كبيرًا علىٰ المجتمع؛ لأن العلماء كانوا يمثلون القيادة الفكرية في الحياة الاجتماعية، وكان أثرهم يفوق أي أثر آخر.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ١/ ٣٣، وعبد الرزاق (٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٥)، وابن أبي شيبة ١/ ٧٧و١٧٨، والحميدي (٨٨١)، وأحمد ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، والدارمي (٣٦٣)، والترمذي (٩٦، ٢٣٨٧، ٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، وابن ماجه برقم ٢٢٦، والنسائي ١/ ٨٣،٩٨، والخطيب في «الرحلة» برقم ٧، وابن خزيمة (١٧، ١٩٣، ١٩٦)، وابن حبان «موارد الظمآن» برقم ٧٨ وغيرهم من طرق عن عاصم بن أبي النجود، عن زرّ، به. قال ابن عبد البر: حديث صفوان بن عسال هٰذا وقفه قوم عن عاصم، ورفعه عنه آخرون، وهو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع، ومثله لا يقال بالرأي. انظر: «جامع بيان العلم» (١٦٧، ١٦٨).

ومن هٰذه الآثار: شيوع العلم في أمصار الإسلام كلها، إذ كان طالب العلم بعد أن يعود إلىٰ بلده، ينشر ما حصل عليه من العلم.

وكان من آثارها: تعارف أهل العلم المتعاصرين حتىٰ أصبحوا كأنهم أفراد أسرة واحدة في بلد واحد.

وكان من آثارها حصول المَلَكة العلمية، والتأثر بالأفذاذ من كبار العلماء الصالحين.

قلنا: إن من آثار رحلة طلبة العلم التأثر بالأفذاذ من كبار الصالحين وتحصيل المعرفة.

قال ابن خلدون: «إن الرحلة في الطلب مفيدة، وسبب ذلك: أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه من المذاهب: تارة علمًا وتعلمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلاّ أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد ٱستحكامًا وأقوىٰ رسوخًا.

فعلىٰ قَدْر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، والاصطلاحات أيضًا في تعليم العلوم مغلقة علىٰ المتعلم، حتىٰ ظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا بمباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين.

فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ يفيده تمييز الٱصطلاحات بما يراه من ٱختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصيل، وتنهض قواه إلىٰ الرسوخ، والاستحكام في المَلَكات.

فالرحلة لا بُدَّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ، ولقاء الرجال»[1].

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» ٣/ ١٢٥٥ وقد نقل هٰذا الكلام حاجي خليفة في «كشف الظنون» ١/ ٤٢-٤٣.

فصل

وقد ذكرنا رحيل طلاب العلم من التابعين إلىٰ أبي الدرداء، وصفوان ﷺ لندلَّ علىٰ أن الرحلة لطلب العلم بدأت مبكرة، بل هناك ما هو أبلغ من ذلك، وهو أن الصحابة أنفسهم كانوا يرتحلون، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل الوقوف علىٰ حديث واحد، أو التأكد من صحة مسموعهم لحديث واحد.

ذكر البخاري تعليقًا أن جابر بن عبد الله ﷺ رحل مسيرة شهر إلىٰ عبد الله بن أُنيس في حديث واحد(١).

وروىٰ أحمد وأبو يعلىٰ في مسنديهما من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول:

بلغني عن رجل حديثٌ سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرًا، ثم شددتُ رَحْلي فسرتُ إليه شهرًا حتىٰ قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أُنيس. فقلت للبواب: قل له: جابر علىٰ الباب.

قال: فرجع إليّ الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟

فقلت: نعم.

فرجع الرسول إليه، فخرج إليّ فاعتنقنىٰ واعتنقتُه.

قال: قلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم؛ لم أسمعه؛ فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الله الناسَ يوم**

---

(١) ترجمة حديث (٧٨)، كتاب: العلم، باب: الخروج في طلب العلم. معلقًا مجزومًا به.

القيامة -وأشار بيده إلىٰ الشام- **عُراةً غُرلاً بُهمًا»**

قلت: ما بُهْمًا؟

قال: ليس معهم شيءٌ.

قال: **«فيناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرُب: أنا الملك الديَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحدٌ من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتىٰ اللطمة»**(١).

وأخرج الحاكم في كتاب «معرفة علوم الحديث»(٢) بسنده إلىٰ عطاء بن أبي رباح قال: خرج أبو أيوب إلىٰ عقبة بن عامر، وهو بمصر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ولم يبقَ أحدٌ سمعه من رسول الله غيره وغير عقبة، فلما قدم إلىٰ منزل مسلمة بن مخلد الأنصاري -وهو أمير مصر- فأخبر به، فعجل عليه، فخرج يعانقه، ثم قال: ما جاءَ بك يا أبا أيوب؟

قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحدٌ سمعه من رسول الله ﷺ غيري، وغير عقبة، فابعث من يدلُّني علىٰ منزله.

قال: فبعث معه من يدلُّه علىٰ منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعَجل فخرج إليه، فعانقه، فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟

فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبقَ أحدٌ سمعه من

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠)، وفي «خلق أفعال العباد» (٤٦٣)، والحاكم ٢/ ٤٣٧-٤٣٨ و٤/ ٥٧٤ وانظر «معرفة علوم الحديث» للحاكم ص٨، و«المجمع» ١/ ١٣٤، وتقدم أن البخاري علَّقه بصيغة الجزم.

(٢) ص ٧-٨.

رسول الله ﷺ غيري وغيرك في ستر المؤمن.

قال عقبة: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سَتَر مؤمنًا علىٰ خزيةٍ سَتَرَه الله يوم القيامة**».

فقال أبو أيوب: صدقت.

ثم ٱنصرف أبو أيوب إلىٰ راحلته، فركبها راجعًا إلىٰ المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر(١).

أرأيتم إلىٰ هٰذا الحرص علىٰ طلب العلم، ولولا ٱرتباط العلم بالدين لما كان هٰذا الحرص، ولا كانت هاتيك النهضة.

روىٰ ابن عبد البر عن مالك أن سعيد بن المسيب قال: إن كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد(٢).

وقد عقد الرَّامهُرمزي بابًا ذكر فيه العلماءَ الذين رحلوا في طلب الحديث، فجمعوا بين الأقطار، ورتبهم طبقات، وبدأ بذكر عبد الله بن المبارك، وانتهىٰ بذكر أحمد بن عمير المعروف بابن الجوصاء، ثم ذكر العلماءَ الذين قصدوا ناحية واحدة للقاء من بها.

هٰذا، وقد خصَّ الخطيب البغدادي موضوع الرحلة بكتاب أفرده لهٰذا الموضوع.

وهكذا بدأت الأنطلاقة العلمية لهٰذه الأمة من العهد الزاهر عهد النبوة، وتمت فيما بعد، حتىٰ أصبحت أمتنا أمة العلم، ومساجدها

---

(١) أخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٨٤)، وأحمد ٤/ ١٥٣، والخطيب البغدادي في «الرحلة» ص ١١٨-١٢٠، والحاكم في «معرفة علوم الحديث» ص ٧-٨. و«كتاب العلم» لزهير بن حرب برقم ٣٣، و«جامع بيان العلم» ١/ ٩٣-٩٤، و«المجمع» ١/ ١٣٤ .

(٢) «جامع بيان العلم» ١/ ٩٤.

جامعات المعرفة يقصدها طلاب العلم من كل صقع ومكان.

بيَّنت كُتُب السُّنة -كما سبق أن ذكرنا- رحلة الناس في طلب العلم، وأوردتُّ أسماء نفر من الصحابة رحلوا لسماع حديث، أو التوثق من صحته، وسار علىٰ نهجهم التابعون وتابعوهم.

وقد كانوا يلاقون في رحلاتهم هٰذه من المشقات والشدائد الشيء الكثير، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وقامَ علماء النقل والنقاد، بعلم الرواية والإسناد، فسافروا في ذلك إلىٰ البلاد، وهجروا فيه لذيذ الرقاد، وفارقوا الأموال والأولاد، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد، وصبروا فيه علىٰ النوائب، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب، ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة، والقصص المأثورة، ما هو عند أهله معلوم، ولمن طلب معرفته مرسوم، بتوسد أحدهم التراب، وتركهم لذيذ الطعام والشراب، وترك معاشرة الأهل والأصحاب، والتصبر علىٰ مرارة الأغتراب، ومقاساة الأهوال والصعاب، أمرٌ حبّبه الله إليهم وحلاّه، ليحفظ بذلك دين الله، كما جعل البيت مثابة للناس وأمنًا يقصدونه من كل فج عميق، ويتحملون فيه أمورًا مؤلمة تحصل في الطريق، وكما حبّب إلىٰ أهل القتال، الجهاد بالنفس والمال، حكمةٌ من الله، يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين، ويظهر به الهدىٰ ودين الحق، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون»[1].

وأود أن أذكر شيئًا مما كان يلاقيه هٰؤلاء المرتحلون في طلب الحديث من المشقات والمتاعب:

فمن ذلك ما حصل لأبي حاتم الرازي الذي يقول:

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١/٧-٨.

«أول ما رحلتُ أقمت سبع سنين، أحصيت ما مشيتُ علىٰ قدمي زيادة علىٰ ألف فرسخ، لم أزل أحصي حتىٰ زاد علىٰ ألف فرسخ فتركت العدد، وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلىٰ بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلىٰ المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحرين إلىٰ مصر ماشيًا، ومن مصر إلىٰ الرملة ماشيًا...إلىٰ الرقة، كل هٰذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة»[(١)].

وقال أبو حاتم الرازي:

«بقيتُ بالبصرة في سنة (٢١٤هـ) ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء حتىٰ بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلىٰ المشيخة، وأسمع منهم إلىٰ المساء، فانصرف رفيقي، ورجعتُ إلىٰ بيت خالٍ فجعلت أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحت من الغد، وغدا عليّ رفيقي، فجعلت أطوف معه في سماع الحديث علىٰ جوع شديد، فانصرف عني، وانصرفت جائعًا، فلما كان من الغد غدا عليّ، فقال: مرّ بنا إلىٰ المشايخ.

قلت: أنا ضعيف لا يمكنني.

قال: ما ضعفك؟

قلت: لا أكتمك أمري، قد مضىٰ يومان، ما طعمت فيهما شيئًا.

فقال لي: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء، فخرجنا من البصرة، وقبضت منه النصف دينار»[(٢)].

ويقول أيضًا: «وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس، وكانت الريح في

---

(١) «الجرح والتعديل» ١/ ٣٥٩-٣٦٠. و«تذكرة الحفاظ» ٢/ ٥٦٧ .

(٢) «الجرح والتعديل» ١/ ٣٦٣-٣٦٤.

وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفَنِيَ ما كان معنا من الزاد، وبقيت بقية، فخرجنا إلىٰ البَرِّ، فجعلنا نمشي أيامًا علىٰ البَرِّ حتىٰ فَنِيَ ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا وليلة لم يأكل أحدٌ منا شيئًا، ولا شربنا، واليوم الثاني كمثل اليوم الثالث، كل يوم نمشي إلىٰ الليل، فإذا جاء المساء صلَّينا وألقينا بأنفسنا حيث كنّا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي علىٰ قَدْرِ طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيًّا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل فتركناه، ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قَدْرَ فرسخ أو فرسخين، فضعفتُ وسقطتُ مغشيًّا عليَّ، ومضىٰ صاحبي، وتركني، فلم يزل هو يمشي إذ بصر من بعيد قومًا قد قرَّبوا سفينتهم من البر ونزلوا، فلما عاينهم لوَّح بثوبه إليهم، فجاؤوه، معهم الماء في إداوة فسقوه، وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيًّا عليهم، فما شعرت إلا برجل يصبُّ الماء علىٰ وجهي، ففتحت عيني فقلت: ٱسقني. فصبَّ من الماء في ركوة شيئًا يسيرًا، فشربتُ ورجعتْ إليَّ نفسي، ولم يُرْوني ذلك القدر، فقلت: ٱسقني، فسقاني شيئًا يسيرًا وأخذ بيدي. فقلت: ورائي شيخٌ ملقًىٰ.

قال: قد ذهب إلىٰ ذاك جماعة، فأخذ بيدي، وأنا أمشي أجرُّ رجليّ، ويسقيني شيئًا بعد شيء، حتىٰ إذا بلغت عند سفينتهم وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسن إلينا أهل السفينة بقينا أيامًا، حتىٰ رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتابًا إلىٰ مدينة يقال لها: راية[1]،

---

(١) ذكر ياقوت في «معجم البلدان» ٣/ ٢٢ أن الراية محلة عظيمة بفسطاط مصر، وذكر راية القلزم وقال: كورة من كور مصر القبلية. وذكر أيضًا أن (راية) موضع في بلاد هذيل. فالله أعلم أي المواضع أراد، والغالب أنه أراد راية القلزم (والقلزم هو البحر الأحمر).

إلىٰ واليهم، وزوَّدونا من الكعك والسويق والماء، فلم نزل نمشي حتىٰ نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عطاشًا علىٰ شط البحر...حتىٰ دخلنا مدينة الراية وأوصلنا الكتاب إلىٰ عاملهم، فأنزلنا في داره وأحسن إلينا. ثم خرجنا من هناك وزوَّدونا إلىٰ أنْ بلغنا مصر».

أقول: أي صبر علىٰ الشدائد في سبيل طلب العلم يقرب من هٰذا الصبر؟ وأي تصميم علىٰ متابعة الطريق في تحصيل العلم ورواية الحديث يقرب من هٰذا التصميم؟ إن هٰذا الخبر الذي ذكرنا ثابت يقينًا؛ لأن راويه ابن أبي حاتم وهو إمام كبير من أئمة الحديث، وعالم كبير موثوق، من أهل الصدق والأمانة، وقد سمع هٰذه الوقائع من أبيه مباشرة، وسجَّلها في كتاب من أهم كتب الحديث، وأبوه ثقة إمام جليل.

ويصور هٰذا النص الذي نقلناه عن ابن أبي حاتم الروح التعاونيه المثلىٰ والتراحم الودود الذي حققه الإسلام بين أبناء أمته، وأضحىٰ سمة تميز المجتمع الإسلامي. كما وقع من أهل السفينة الذين أسعفوا هؤلاء الطلاب الثلاثة، وظهرت منهم تلك الأريحية، وهم لا يريدون جزاء ولا شكورًا، بل يبتغون بعملهم هٰذا ثواب الله.

إن هٰذا النص الذي أورده ابن أبي حاتم عن رحلة أبيه في طلب العلم، وما لاقاه فيها من المصاعب. نصٌّ ثمين- وما أكثر النصوص الثمينة التي نقف عليها في كتب السُّنة- إنه ثمين؛ لأنه يصور لنا بدقة وواقعية جوانب عدة من الحياة الاجتماعية التي أقامها الإسلام.

ونودُّ أن ننبه علىٰ الأمور المهمة التي يدلُّ عليها هٰذا النص.

إنَّ أبا حاتم من رجال القرن الثالث، واسمه: محمد بن إدريس ابن المنذر الحنظلي الرازي، الإمام الحافظ الكبير، ولد سنة خمس وتسعين ومائة، وبدأ رحلته وهو أمرد، وبقي في الرحلة زمانًا، وحدَّث عنه أبو داود، والنسائي، وأبو عوانه الإسفراييني.

قال موسىٰ بن إسحٰق الأنصاري القاضي: ما رأيت أحفظ من أبي حاتم.

وبلغ من إحاطته بالحديث أنه كان مرة مع عدد من المحدثين علىٰ باب أبي داود الطيالسي؛ فقال: من أغرب عليَّ حديثًا صحيحًا فله درهم -يريد: من أتاني بحديث صحيح لا أعرفه فله مني هٰذه المكافأة- وكان في الحاضرين عددٌ من الأعلام: أبو زرعة فمن دونه، فلم يتهيأ لأحد أن يأتي بحديث، قال أبو حاتم: وإنما كان مرادي أن يلقىٰ عليَّ ما لم أسمع به؛ لأذهب إلىٰ راويه فأسمع منه.

تُوفِّي أبو حاتم في شعبان سنة سبع وسبعين ومئتين، وله ٱثنتان وثمانون سنة(١).

فهو إذن كما قلنا من رجال القرن الثالث، وهٰذا القرن من القرون الفاضلة التي شهد لها الرسول ﷺ بالفضل، وجاء الواقع فَصَدَّق هٰذا. . ونرىٰ صورة هٰذا الواقع في هٰذه النصوص الثابتة الصحيحة التي تقدم لنا الصورة الحقيقية لهٰذا العصر، هٰذه النصوص الموثوقة لا تلك الأكاذيب والمفتريات التي نجدها في كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني وأمثاله، فمؤلِّفوها من الكذابين المفترين، يذكرون بعض القصص التي إن صدقت -وقلَّما تصدق-

---

(١) «تذكرة الحفاظ» ٢/ ٥٦٧-٥٦٩.

فإنّما تمثل شريحة محدودة من شرائح المجتمع: شريحة المغنين والمغنيات... وهٰؤلاء لا يمثلون المجتمع كله. مثلهم في ذلك مثل الفنَّانين المعاصرين، فهل يمثل هٰؤلاء مجتمعنا وأسرنا وبيوتنا؟ ويصورون بأخلاقهم أخلاق أبناء مجتمعنا وبناته؟

وأحب أن أقرّر هٰذه الحقيقة التي يحاول أعداء الإسلام، وأنصار الرذيلة أن يشوِّهوا سُمعة تاريخنا بإيراد بعض القصص عن هٰذا النفر، ثم يدَّعون أن هٰذه القصص تصور المجتمع الفاضل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: الآية ٥].

١- يدل هٰذا النص علىٰ ترامي الدولة الإسلامية الواحدة واتساع رقعتها، إنها تكاد تشمل الدنيا المعمورة المتحضرة في ذاك العصر، أما البلاد الأخرىٰ فقد كانت مجاهل تعيش في ظلمات متكاثفة بعضها فوق بعض، لا علم فيها ولا عدالة ولا أمن، ولا عقيدة صحيحة.

فالفرد المسلم في أنحاء هٰذه الدولة ينتقل من بلد إلىٰ بلد، لا تقوم في وجهه حدود مصطنعة، ولا تعوق سَيْره حواجز مانعة يرقبها رجال مسلَّحون، لا يسمحون لأحد بدخول بلادهم إلا بمعاملات معقَّدة وإجراءات طويلة. كما هو جارٍ اليوم في بلاد المسلمين، وللعلَّامة الأستاذ محمود محمد شاكر -رحمه الله- كلمة رائعة وازن فيها بين الماضي والحاضر في هٰذا الموضوع، أقتبس منها ما يأتي:

قال: [أوكس الأمم اليوم حظًا في التعارف والتآلف، الأمة الإسلامية التي ألف الله بين قلوبها وألسنتها بالقرآن حين أنزله علىٰ رسوله وأيَّده ونصره، وجمع للمؤمنين من بعده أطراف الأرض تجبىٰ

إليهم ثمراتها وأرزاقها، وجعلهم أئمة يهدون إلىٰ الحق وبه يحكمون.

وأنت إذا نظرت إلىٰ العالم الإسلامي اليوم، ورجعت إلىٰ تاريخ هٰذا العالم فيما تصرّم من أيامه لوجدت تخلُّفًا عظيمًا بيننا وبين أولئك السلف الذين هداهم الله إلىٰ أسباب السعادة فاستمسكو بها، واعتصموا بحبلها، فجمعهم الله على قلب رجل واحد. فكان الرجل في أقصىٰ الصين تمتدّ أخوته إلىٰ أخيه المسلم فيما تطوّح عنه من بلاد المغرب الأقصىٰ. فكان الصيني المسلم ينزل أي أمة من الأمم التي تدين بالإسلام، فلا يجد الجنسية تفصل بينه وبين العربي أو المصري أو الشامي أو المغربي، بل كانوا جميعًا إخوانًا في الله، وكانت الدولة في أي أمة من أمم الإسلام تتلقىٰ هٰؤلاء الناس، وتقوم عليهم، وتفسح لهم كما تفسح للذين تربّوا في ظلها ونشؤوا في أرضها. فكان المسلم من أهل الشام يتولىٰ في بلاد المغرب التدريس والوزارة وكثيرًا من مرافق الدولة أو يقوم عليها ولا يفرق بينه وبينهم هٰذه الفتنة السوداء التي ظهرت حديثًا: فتنة الجنسيات وكانت أخبار كل أمة من الأمم الإسلامية معروفة عند جاراتها وغير جاراتها فيما تقاذف من الأرض، مع بطء المواصلات في ذلك العصر، وقلة أسباب الاّتصال والتعارف إذا قيست في هٰذا العصر من بريد وطباعة وطائرات وبرقيات سلكية ولا سلكية وغير ذلك من أسباب الاتصال، التي جعلت العالم كله كأنه أمة واحدة.

أما اليوم فإن الكثير من شباب العالم الإسلامي لا يكاد يعرف عن أقرب جيرانه إليه إلا نتفًا من الأخبار لا تفي بفائدة، ولا يجتمع من مجموعها ما يمكن أن يسمىٰ علمًا أو معرفة. وليس ذلك من شيء إلا هٰذه النزعات الفردية التي مزّقت العالم الإسلامي، وهٰذه الجنسيات البغيضة التي قضت علىٰ الحياة السعيدة بين أمم الشرق

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإسلامي][1]

لقد مشىٰ أبو حاتم من بلاد تقع في أقصىٰ شرق الدولة الإسلامية إلىٰ العراق ثم الشام ثم مصر والحجاز، ركب البحر، ومشىٰ في البر.

مشىٰ هٰذه المسافات الواسعة وهو آمن مطمئن، لم يحدثنا في حديث رحلته عن معكّر أمنيّ عرض له.

وذلك مردّه إلىٰ هٰذه الشريعة السمحة الغراء، إي والله، إنَّ حكم الشريعة يستأصل شأفة الجريمة، إما ٱستجابة لأمر الله ورسوله، ووقوفًا عند حدوده، وإمّا خشية العقوبة الرادعة التي تصل إلىٰ الجلد، والسجن، والنفي، والقطع، والقتل.

فمن نهاه دينه وخلقه وأدبه فانتهىٰ كان مكرمًا محترمًا، ومن أبىٰ الٱستجابة لأمر الله ورسوله ردعه السجن والسوط والسيف وعصا السلطان.

أقول: ليس قليلًا أن يسير أبو حاتم الرازي في رحلته الطويلة التي ٱستغرقت سنين، ولا يحصل له ما يسوؤه من الناحية الأمنية، أو يهدد حياته.

٢- ويعطينا النصُّ صورة عن تلك الرغبة الجامحة في طلب العلم في ذاك العصر، لا يقعد بهم عن هٰذه الغاية فقرٌ، ولا سَفَرٌ، ولا مَيْلٌ إلىٰ الراحة. فقد ذكر أبو حاتم قَطْعه لهٰذه المسافات الشاسعة مشيًا علىٰ رجليه بسبب قلة ذات يده.

لقد كان هناك في البلاد الإسلامية من يقوم بشؤون طلبة العلم

(١) مجلة المقتطف، المجلد ٨٣ أكتوبر ١٩٩٣، ص٣٥٩، وانظر جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ٢/ ٦٤٥-٦٤٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المادية والمعاشية، فيقدم لهم الطعام والشراب والملبس والمسكن والقرطاس.

والذي يقوم بهٰذه الشؤون إما أن يكون أبًا أو أخًا أو قريبًا، وإما أن يكون الشيخَ نفسه، وإما أن يكون تاجرًا محسنًا، وإما أن تكون مدرسة داخلية تقدِّمُ الطعام والشراب والمأوىٰ، وتعتمد في نفقاتها علىٰ أوقاف المحسنين.

وقد قامت مدارس شهيرة علىٰ مدىٰ القرون، مثل المدرسة النظامية في بغداد، والمدرسة المستنصرية، وهناك حيٌّ في دمشق عرف بحي المدارس[(١)]. وكلمة (المدرسة) كانت تستعمل محل كلمة (الجامعة) اليوم.

وإني لأرجو أن يتاح لي في المستقبل أن أتحدّث بشيء من التفصيل عن هٰذه المدارس، فقد تنوعت أنواعًا بحسب الفنون التي تدرّسها، فهناك دور الحديث، وهناك مدارس القرآن، وهناك مدارس للشافعية، وأخرىٰ للحنابلة، ومدارس للحنفية والمالكية.

والطلاب في هٰذه المدارس مكفيون. وهناك نموذج آخر يمثله أبو حاتم تجلّىٰ فيه الدأب والاستمرار والصبر: سبع سنين قضاها يمشي علىٰ رجليه، ينتقل من مركز علمي إلىٰ مركز، ولنتصور حجم الأشياء الضرورية التي يحتاج إليها المسافر، وطالب العلم من متاع وأوراقٍ، وما إلىٰ ذلك، يحملها وينتقل بها.

---

(١) انظر كتاب «مدارس دمشق وربطها» لابن زفر الأربلي تحقيق محمد أحمد دهمان وكتاب «الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر النعيمي، تحقيق جعفر الحسيني وكتاب «آل قدامة والصالحية» للدكتور شاكر مصطفىٰ.

ومصاعب جمة لقيها: انقطعت نفقته، وباع ثيابه، وعلىٰ الرغم من كل ذلك لم ينقطع عن الطواف علىٰ الأساتذة، يتلقَّىٰ عنهم الحديث، ثم يرجع إلىٰ بيتٍ خالٍ فلا يجد أمامه إلا الماء فيشرب من الجوع، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن أقعده الجوع عن المسير.

يقول أبو حاتم: «وركبنا سفينة، وكانت الريح في وجوهنا فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفَنِيَ ما كان معنا من الزاد».

إن ذلك ينبئ عن رغبة في طلب العلم لا توصف بوصف يعبِّر عن حقيقتها، ولا نستغرب بعد ذلك ظهور عمالقة في العلم؛ لأن الدأب إذا كانت معه الموهبة كان الإبداع، والعطاء، والإنتاج العظيم.

٣- إن المجتمع الذي أقامه الإسلام مجتمع متوادٌّ متعاونٌ، ولا أبالغ إذا قلت: إن الحالات التي تنبئ عن ذلك، وتصوره، والواردة في كتب السنة تجاوز المئات.

وأود أن أذكّر بما سبق أن أوردته لنتأمل الروح التعاونية السخية التي كانت في المجتمع الإسلامي.

كانوا ثلاثة يطلبون العلم: أبو حاتم الرازي، وشيخ مروزي، وشاب نيسابوري، انطلقوا في سفر يتعاونون ويأنس بعضهم ببعض، وسَفَرُ المرء مع رفيقين مِن السُّنة، فعن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: **«الراكبُ شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة رَكْبٌ»**[1].

---

(١) رواه مالك ٢/٩٧٨، وأحمد ٢/١٨٦، وأبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي=

وكانوا -كما تذكر القصة- يتنقَّلون من بلد إلىٰ بلد يطلبون العلم، حتىٰ أتوا شاطئ البحر، وركبوا سفينة، وكانت الريح في وجوههم، فطالت رحلتهم البحرية هٰذه، ومكثوا في البحر ثلاثة أشهر، وهٰذه مدة ليست بالقليلة، والإقامة في السفينة صعبة متعبة، ونفد ما كان معهم من الزاد إلا بقية يسيرة، فخرجوا إلىٰ البر، وانطلقوا يمشون علىٰ أرجلهم، يتناولون ما تبقَّىٰ معهم من الزاد القليل، حتىٰ فَنِيَ ما كانوا يحملون من الماء والطعام.. وتابعوا المشي وهم علىٰ هٰذه الحال من الجوع والعطش ثلاثة أيام.. فلما جاء المساء صلَّوا وألقوا بأنفسهم علىٰ الأرض، وقد ضعفت أبدانهم من الجوع، والعطش، والتعب، وتحاملوا علىٰ أنفسهم وتابعوا المسير، فسقط الشيخ المروزي مغشيًّا عليه، فحرَّكه زميلاه، فإذا هو لا يعقل، فتركاه ومضيا يبغيان النجاة لأنفسهما وله، ثم لم يلبث أن سقط أبو حاتم مغشيًّا عليه لا يعقل، ومضىٰ صاحبه النيسابوري إذ بصر بسفينة قريبة من البر، فلوَّح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء فسقوه، فقال: الحقوا رفيقين لي هما بين الموت والحياة، فذهبوا إليهما وأسعفوهما، وقدموا لهما الماء والطعام، وظلُّوا معهم إيامًا عدة حتىٰ رجعت إليهم أنفسهم. فسأل أصحاب السفينة هٰؤلاء الطلبة عن وجهتهم، فأخبروهم فقدموا لهم من الماء، والكعك ما يبلغهم مقصدهم، وكتبوا لهم كتابًا إلىٰ أمير المدينة التي يقصدون يوصون

= (١٦٧٤)، وابن خزيمة (٢٥٧)، والحاكم ٢/ ١٠٢، والبيهقي ٥/ ٢٥٧.

قال الترمذي: حديث حسن. قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وقال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن الإسناد. «الفتح» ٦/ ٦٣.

بهم. . وساروا آمنين مطمئنين، وعندما وصلوا إلىٰ المدينة أكرمهم أميرها وأحلّهم ضيوفًا عنده مكرمين، يقدم لهم أطايب الطعام.

إن هٰذا النص يصور روح الود، والتعاون بين المسلمين، فأصحاب السفينة يأتون مسارعين إلىٰ إنقاذهم، ولم يسبق لهم أن عرفوهم، ويتصرفون معهم تصرف الحكيم الكريم، فيصبون الماء أولًا علىٰ وجه المغشي عليه، ثم يسقونه، ولا يعطونه إلا القليل من الماء، ثم يكررون هٰذا الصنيع حتىٰ ترجع إليه نفسه، ثم يطعمونه ويعنون به أيامًا عدة، ثم عندما أرادوا متابعة المسير؛ كتبوا للأمير يوصونه بهم، يفعلون ذلك لوجه الله، لا يريدون جزاء ولا شكورًا، يفعلونه ٱبتداء لا ليردوا يدًا سبقت من هٰؤلاء إليهم.

إن هٰذا الود والتعاون شيء يفوق التصور، ولو أنهم كانوا يقدمون هٰذه المعونة لأصدقاء، أو أقرباء، أو جيران لقيل : إنّهم ربما يفعلون ذلك وفاء لحق الصداقة، أو القرابة، أو الجوار، وليتوقعوا مقابلة بالمثل منهم في المستقبل. لكن شيئًا من ذلك لم يرد في حسابهم؛ لأنهم لا يعرفونهم.

وما تزال هٰذه الروح الكريمة قائمة عند ناس كثيرين في المجتمع الإسلامي، والحمد لله رب العالمين.

لقد حدثني أكثر من صديق بأنهم رأوا ألوانًا من المروءات في أسفارهم لم يدفع إليها إلا الرغبة فيما عند الله.

حدثني بعضهم أنه بينما كان في سفر علىٰ طريق بعيد تعطلت سيارته، وانقطع في الطريق، وعجز عن إصلاح سيارته بنفسه، فرآه رجلٌ مار في الطريق لا يعرفه، فوقف ونزل وأصلح له سيارته ولم

يرض أن يأخذ مقابل معروفه شيئًا، وقال: إنا مسلمون، ومن الواجب علينا أن نتعاون علىٰ البر والتقوىٰ كما أمرنا ربنا.

إن حياة المسلمين في مجتمعهم تقوم علىٰ هٰذه الروح الودود المتعاونة، والأمثلة في كتب السنة كثيرة:

ومنها ما أخرج الحاكم في «مستدركه»(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أُهدي لرجلٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلىٰ هٰذا مِنّا. فبعث به إليه. فلم يزل يبعث به واحد إلىٰ آخر، حتىٰ تداولها سبعة أبيات، حتىٰ رجعت إلىٰ الأول».

إنهم جيل كريم وصفهم ربهم في محكم كتابه مثنيًا عليهم. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

ومن هٰذه الأمثلة:

ما أخرج عبد الله بن المبارك في «الزهد والرقائق» أنَّ أبا جهم ابن حذيفة العدوي قال: ٱنطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمِّي ومعي شنةٌ من ماءٍ وإناءٌ. فقلت: إن كان به رَمَقٌ سقيتة من الماء ومسحت به وجهه، فإذا أنا به ينْشغ. فقلت له: أسقيك؟

فأشار أن نعم. فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمي أن ٱنطلق به إليه، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- فأتيته، فقلت له: أسقيك؟ فأشار أن نعم. ولكنه سمع آخر يقول: آه. فأشار هشام أن ٱنطلق به إليه.

---

(١) ٢/ ٤٨٤، وانظر كتابنا «وقفات مع الأبرار» الفقرة/ ٣٥٩.

فجئته فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات. ثم أتيت ابن عمِّي فإذا هو قد مات.[1] ﷺ وأرضاهم، وصَلِّ الله علىٰ محمد الذي بنىٰ تلك النفوس الكريمة، فكانت متعاونة متوادَّة متحابة، وكانت أذلةً علىٰ المؤمنين، أعزة علىٰ الكافرين، إذا كانوا في السلم تعاونوا، وإن كانوا في الحرب قاتلوا صفًا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص.

* * *

إنَّ ما تقدم من الأحاديث والآثار التي أوردناها: في الحض علىٰ التعلم والتعليم، وفي حكاية وقائع رائعة للإقبال علىٰ العلم بهمة لا تكل، وعزيمة لا تتردد ولا تتوقف، كان له الآثار العظيمة في الإنتاج العلمي.

فالمكتبة الإسلامية أعظم ما عرف التاريخ من مكتبات الأمم تنوعًا وعمقًا، إنَّ الذي وصل إلينا من هٰذه المكتبة شيء نفيس عظيم لا يحيط به علم عالم، والذي ضاع وتعرض للإتلاف شيء كثير.

وقد ألَّفَ أحد العلماء المتأخرين وهو الأستاذ جميل بن مصطفىٰ العظم المتوفىٰ سنة (١٣٥٢هـ- ١٩٣٣م) كتابًا من مجلدين طُبع أحدهما، وما يزال الآخر مخطوطًا -كما يقول الأستاذ الزركلي- عنوانه «عقود الجوهر في تراجم من له خمسون مصنفًا فمئةٌ فأكثر» جمع فيه تراجم هٰؤلاء المكثرين في التأليف من أجدادنا، فكان كتابًا كبيرًا.

وإن أمة الإسلام سبقت سائر الأمم في وضع الفهارس،

(١) انظر «الزهد والرقائق» ص١٨٥، وانظر الفقرة (٣٥٩) من كتابنا «وقفات مع الأبرار».

وتأليف المعجمات في اللغة والأعلام، يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي الأستاذ في كلية الطب في مصر في كتابه «مرشد المتعلم»(١): «فالعرب هم أسبق الأمم قاطبة إلىٰ القواميس تأليفًا واستعمالًا للترتيب الهجائي فيها»(٢).

وقال أيضًا: «إن كتاب «الجمهرة» لابن دريد المتوفَّىٰ سنة (٣٢١هـ) معجم لغوي مرتب علىٰ الحروف، وقد ألَّف كتابه قبل أول مجموعة كلمات إنجليزية هجائية بنحو سبعة قرون، وقبل أول معجم لاتيني ظهر في أوربا بأكثر من ثلاثة قرون»(٣).

وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر: «ولم يكتف المتقدمون بمعاجم اللغة ومعاجم الأعلام، فعملوا معاجم في العلوم وغيرها»(٤).

وفي أخبار علمائنا: أن بعضهم ألّف نحو ألف كتاب، وصل بعضها وضاع بعضها.

ولن أستطيع أن أفيض في هٰذا الجانب؛ لأنه موضوع واسع(٥)، وكان حظ الكتاب والسنة من هٰذا التراث الضخم الحظ الأوفر، إنَّ أثر السنة في هٰذا الثراء الفكري واضح أتم الوضوح.

ولأضرب مثلًا علىٰ بعض ما ألف في خدمة القرآن الكريم. قال الشيخ زاهد الكوثري:

---

(١) ص٢٧٦.

(٢)، (٣) نقلًا عن مقدمة الشيخ أحمد محمد شاكر لكتاب «مفتاح كنوز السنة» صفحة خ.

(٤) مقدمة الشيخ أحمد محمد شاكر لكتاب «مفتاح كنوز السنة» صفحة ذ.

(٥) وقد بحثته بتوسع في كتابنا «في المكتبة العربية» وهو مخطوط.

«فألفوا كتبًا فاخرة في تفسير الذكر الحكيم علىٰ مناهج من الرواية والدراية، وعلىٰ أنحاء من وجوه العناية.

فمنهم من عني بغريب القرآن فألف في تبيين مفردات القرآن كتبًا عظيمة النفع.

ومنهم من اهتمّ بمشكل الإعراب، فتوسع في تبيين وجوه الإعراب علىٰ لهجات شتىٰ القبائل العربية.

ومنهم من نحا نحو توجيه القراءات المروية تواترًا، وشواذّ القراءات المروية في صدد التفسير.

ومنهم من ألف في مشكل معاني القرآن، ومنهم من خدم آيات المواعظ والأخلاق، ومنهم من شرح آيات التوحيد والصفات، ومنهم من أوضح آيات الأحكام في الحلال والحرام، ومنهم من خصَّ جدل القرآن بالتأليف»[1].

إلىٰ غير ذلك من العلوم التي أشار إليها مؤلِّفو علوم القرآن.

وهٰذه الكتبُ التي ألفوها بعضها مجلدات كبيرة، فقد ذكروا أن كتاب «المختزن في تفسير القرآن الكريم» للإمام أبي الحسن الأشعري أقل ما قيل فيه: إنه في سبعين مجلدًا -كما يقول المقريزي- ويقول أبو بكر بن العربي: إنه في خمسمائة مجلد. وهٰذا يختلف باختلاف الحجم والخط.

و«تفسير أنوار الفجر» لأبي بكر بن العربي في ثمانين ألف ورقه فلا يقل عن ثمانين مجلدًا ضخمًا.

(١) من مقدمة الكوثري لكتاب «أحكام القرآن» للشافعي جمع الإمام البيهقي.

وتفسير الحافظ أبي حفص بن شاهين في ألف جزء حديثي، وتفسير «حدائق ذات بهجة» لأبي يوسف عبد السلام القزويني، وأقل ما قيل فيه: إنه في ثلاثمائة مجلد، وكان مؤلّفه وقف النسخة الوحيدة من هٰذا التأليف لمسجد أبي حنيفة ببغداد، فضاعت عند ٱستيلاء هولاكو، ويقول الأستاذ عبد العزيز الميمني الهندي: إنه رأىٰ جزءًا منه في إحدىٰ فهارس الخزانات. وتفسير أبي علي الجبائي، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير ابن النقيب المقدسىٰ، وتفسير محمد الزاهد البخاري، كل واحد منها في مائة مجلد. وتفسير «فتح المنان» للقطب الشيرازي الشافعي في ستين مجلدًا، وهو محفوظ في خزانتي علي باشا الحكيم، ومحمد أسعد في الآستانة. وتفسير ابن فرج القرطبي المالكي في عشرين مجلدًا، وأما ما يبلغ عشرة مجلدات ونحوها من التفاسير فخارج عن حد الإحصاء»[١].

هٰذا في القرآن ومثله في السنة جمعًا وشرحًا وفهرسة.

وفن الفهرسة فن أبدعه المسلمون كما سبق أن أشرنا، وأخذته عنهم أمم الأرض الأخرىٰ، وما كان ليكون هٰذا الفن لولا ٱهتمام علماء السلف بحديث رسول الله ﷺ.

لقد قدَّم أباؤنا من خلال خدمتهم للسنة خدمات جليلة للفكر والمعرفة وفن التصنيف لا نظير لها.

بل إنَّ آباءنا بفضل الإسلام العظيم الذي صاغ عقولهم صياغة جديدة بناءة قدموا للحضارة علومًا جديدة من أشهرها علم الجبر الذي

(١) من مقدمة الكوثري لكتاب «أحكام القرآن» للشافعي جمع الإمام البيهقي.

يحمل الٱسم العربي في لغات الغرب، وقدموا للحضارة الإنسانية المنهج التجريبي الذي يعود له الفضل كله في التقدم التقني الذي حققته هٰذه الحضارة في أكثر من صعيد.

ذكرنا أن تأثير الكتاب والسنة في الحض علىٰ العلم كان شيئًا ضخمًا، وأن ذلك التأثير ظهرت نتائجه في الوفرة الهائلة التي خلفها لنا الأجداد في الأدب واللغة والعلم من المؤلفات التي ملأت خزائن المكتبات، هٰذا غير ما ضاع.

ولو أجرينا موازنة بين النتاج الفكري المعاصر وبين نتاج الأجداد الذين تأثروا بهاتيك النصوص، لو أجرينا موازنة بين النتاجين من حيث النوع والكم لوجدنا الفرق هائلًا.

هٰذا مع أن هناك عوامل مساعدة في العصر الحاضر من الطباعة والتوزيع، والتقدم التقني، ووجود روافد ثقافية أجنبية ضخمة. والدخل المادي المجزي، والمكانة الٱجتماعية التي يكتسبها المؤلف. كل هٰذه العوامل كان ينبغي أن تجعل النتاج العلمي أوفر وأعمق، ولٰكن ذلك لم يكن!

إن الإغراء المادي الذي تدرّه الكتب علىٰ المؤلفين اليوم لم يكن موجودًا، وكذلك فإن وصول الكاتب والمؤلف إلىٰ مكانة ٱجتماعية عالية بسرعة من وراء تأليفه وكتابته لم يكن متوفرًا في الأيام السابقة إلا في عهود قليلة كان فيها بعض الحكام يكافئون أولئك المؤلفين.

إن أجدادنا كانوا مدفوعين إلىٰ إغناء الفكر الإسلامي والإنساني

بالمكافأة الربانية التي تتمثل في زيادة الحسنات وبلوغ الجنة. إنهم كانوا يشعرون بضخامة المسؤولية التي نيطت بهم.

إنَّ ذلك فيما يبدو كان سببًا من الأسباب التي أدت إلىٰ غنىٰ المكتبة الإسلامية بتلك المؤلفات القيمة النادرة التي تفاخرُ أمتُنا بها أممَ الدنيا.

إن هٰذا الحضَّ علىٰ العلم حوَّل المجتمع الإسلامي إلىٰ مجتمع ينمو فيه العلم، ويكون فيه للعالم الوضع الأمثل، كان ذلك في عصور كان الجهل فيها يخيم علىٰ ربوع العالم كلها، وكانت الخرافة تسيطر علىٰ عقول أبنائها إلا من رحم ربك.

ولنتأمل هٰذا الحديث الصحيح الذي يتضمن الحض علىٰ العلم بأسلوب فذ عميق التأثير، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أوعالمًا أو متعلمًا»**[١].

إن هٰذا الحديث يقرر حقيقة لا شك فيها من وجهة النظر الإسلامية وهي: أنَّ أَبْقَىٰ شيءٍ في هٰذه الحياة هو ذكر الله والعمل الصالح الذي يراد به وجه الله والتعلم والتعليم.

قال سهل: ما عُصِي الله تعالىٰ بمعصية أعظم من الجهل.

قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئا أشدَّ من الجهل؟

قال: نعم الجهل بالجهل[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «الإحياء» ٤/ ٣٥٧.

وهٰذا كلام رائع جميل، فالشرك الذي هو أكبر الكبائر من الجهل، وهكذا ما دونه من المعاصي.

والجاهل المركب الذي يكون جاهلًا ولا يدرك أنه جاهل، هٰذا أسوأ ما يكون في الإنسان؛ لأن جهله عندئذ لا يزول.

قال أبو حامد -رحمه الله- يشرح هٰذا القول: «وهو كما قال؛ لأنَّ الجهل بالجهل يسدُّ بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم، فكيف يتعلم؟

وكذلك أفضل ما أطيع الله به العلم، ورأسُ العلمِ العلمُ بالعلم، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل. فإنَّ من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار، ٱشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلىٰ الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم»[1].

إن الشريعة تتطلب من متبعها أعمالًا علىٰ وجه اللزوم من الصلاة والزكاة والصيام، وقبل ذلك الٱعتقاد بوحدانية الله.

ولا يعذر الجاهل علىٰ الجهل؛ لأنه مطالب بالسؤال وطلب العلم قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٤٣] ولا يحل للجاهل شرعًا أن يسكت علىٰ جهله بل لا بُدَّ له من السؤال.

وعلىٰ العالم مسؤولية عظمىٰ، فلا يجوز أن يسكت وهو عالم،

---

(١) «الإحياء» ٤/ ٣٥٧-٣٥٨.

ولا أن يمتنع عن الإجابة، بل لابُدَّ له من أن يجيب إذا سئل، ويبين للناس حكم الله فيما يقع منهم من تصرفات يراها، إذا كانت مجانبة للصواب.

إن من أكبر أسباب تخلف المسلمين جهلهم بالإسلام ثم تقصيرهم عن العمل بما يعلمون، أجل إن مشكلات المسلمين كثيرة وأهمها الجهل وتناقص العلماء الصادقين المخلصين.

هٰذا واقع لا ينكره ٱمرؤ عارف، ولا يجوز أن نظن أن الواقع الطيب الموجود في بلد ما من بلاد المسلمين لأسباب معينة أن ذاك الواقع عام في العالم الإسلامي كله، ونقول في ٱسترخاء وانبساط: (الدنيا بخير) لا يجوز أن نغالط أنفسنا ونعيش في أمانينا، وأعداؤنا يكيدون لنا ويعدون العدة للإجهاز علينا، إننا إن لم نع الواقع المرَّ ونعمل علىٰ علاجه وإصلاحه نكن مقصرين؛ إننا عندئذ نكيد لأنفسنا أكثر مما يكيد لنا عدونا.

إن الحياة الٱجتماعية في الماضي القريب كانت قائمة علىٰ تصورات إسلامية؛ لأن العالم الإسلامي كان يعيش متميزًا ٱجتماعيًا وفكريًّا عن بلاد الكفَّار...ولكن الأمر تبدل بعد الغزو الفكري الذي يتعرض له العالم الإسلامي، وبعد مجيء الإذاعة والتلفاز والهاتف والفيديو والطباعة والطائرات ونحوها من وسائل المواصلات، والأقمار الصناعية التي تنقل إلىٰ البيوت البث التلفزيوني من كافة أقطار الأرض.

إنَّ عشرات الملايين من أبناء المسلمين لا تعرف شيئًا عن الإسلام؛ لأنها تُمنع ذلك، كما كان الأمر إلىٰ عهد قريب في الدول

التي كانت تخضع للشيوعية ومن يدور في فلكها.

وإن عشرات الملايين من أبناء المسلمين يُعرض لهم الإسلام مشوها، ممزوجًا بالخرافة وشطحات الصوفية والأسطورة والدجل حينًا، وبالتقاليد المحلية والقومية وبالنزعات الفكرية الدخيلة حينًا آخر.

وإن العلماء في كثير من ديار المسلمين يتناقصون إما بالموت، وإما بالفرار من الظلم والطغيان، فلا يبقىٰ للمسلمين في هاتيك الديار مَن يبين لهم شرع الله. وهٰذا ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه عبد الله ابن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[(١)].

إننا بحاجة إلىٰ معالجة هٰذا الوضع والإفادة مما دعت إليه السنة لنعيد للمجتمع الإسلامي أصالته ومزاياه.

إنّ آثار النصوص الحديثية التي تحضّ علىٰ العلم آثار ضخمة جدًّا، لا نعرف لها نظيرًا في حياة الأمم، فلقد حولت هٰذه الشريعةُ الأمةَ الأمية إلىٰ أمة العلم والحضارة في بضع عقود من السنين.

ونودُّ أن نشير ونحن نعرض النهضة العلمية التي قامت في الأمة الإسلامية في ذاك العهد الأغرِّ نودُّ أن نشير إلىٰ واقعنا المعاصر اليوم إذ قام عرف منحرف تسرب إلينا بسبب تأثرنا بحضارة الغرب، وهٰذا العرف هو قصر كلمة (العلم) علىٰ العلوم التجريبية.

إنّ أوربا تطلق كلمة (العلم) علىٰ جانب من المعرفة تخصه بهٰذه

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٣٦٧٣).

الكلمة، ويؤسفنا أن يكون هٰذا الٱستعمال الغريب عنا قد ٱنتقل إلىٰ كثير من مثقفينا، فلقد دخل علينا ونحن نترجم عن أوربا علومها ومصطلحاتها كثير من الخلط، ومن ذلك ٱستعمال كلمة (العلم) فالقوم يُضيِّقون مدلولها حتىٰ يُبقوه في دائرة لا تتجاوز العلوم التجريبية والتطبيقية كالرياضيات والطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وما إلىٰ ذلك من العلوم، ويخرجون من دائرة (العلم) كل ما عدا ذلك، فلا يمكن أن يشمل (العلمُ) في ٱصطلاحهم علوم الدين واللغة. إن هٰذا الٱستعمال خاصٌّ بهم وبحضارتهم ولغتهم وأعرافهم، أما نحن المسلمين فليس في فهمنا ولا ٱستعمالنا لهٰذه الكلمة هٰذا التضييق.

إن هٰذه العلوم التي يقصرون عليها مدلول كلمة (العلم) تدخل عندنا نحن المسلمين في دائرة (العلم)، ولكنها ليست هي وحدها الجديرة بهٰذا الدخول.

ونظرة إلىٰ ما كتبه أحمد بن مصطفىٰ الشهير بطاش كبري زاده(١) في كتابه «مفتاح السعادة، ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» وأمثاله تدلُّ علىٰ سعة النظرة عند المسلمين بالنسبة إلىٰ العلوم، وموضع الخطر في تسرب هٰذا المفهوم المنحرف إلينا أنَّ الأوربيين حصروا دلالة الكلمة كما قلنا في مجال واحد وأتبعوا ذلك بتقديس العلم وإعطائه الدرجة الأولىٰ من الٱهتمام والرعاية، وذهبوا إلىٰ أن مقولاته التي يقررها حقائق مسلمة، بل عدّوا نظرياته القلقة التي ما

---

(١) جاء في مقدمة المحققين للكتاب نقلًا عن دائرة المعارف الإسلامية: أن هٰذه التسمية تطلق علىٰ عائلة من العلماء الأتراك، وقد ٱستمدت لقبها من إقامتها في (طاش كبري)، وهي قرية قريبة من (قسطموني) في الأناضول.

تزال تحت التجربة أمورًا لا تقبل المناقشة أو الآعتراض.

أما المعارف والعلوم الأخرىٰ كالعلوم الدينية ونحوها فقالوا عنها: إنها أقرب إلىٰ الأذواق والأخيلة والافتراضات.

وهي عندهم علىٰ أية حال لا ترقىٰ إلىٰ درجة الحقائق، وهي عندهم قابلة جدًّا للمناقشة والاعتراض والرد في بعض الأحيان.

والسبب في ذلك يعود إلىٰ أن تاريخ العلم عندهم مرَّ في صراع مرير مع دينهم المحرَّف، فلقد كانت الكنيسة تحارب العلم، وتعدّ من يشتغل به زنديقًا، وقُدِّمَ بعض العلماء للمحاكمة، وحُكم علىٰ كثير منهم بأحكام قاسية وصلت في كثير من الأحيان إلىٰ درجة الموت.

لقد كان كل من يجاهر برأي علمي أثبتته التجربة يتهمّ بالزيغ والإلحاد، وما كان أسهل علىٰ محاكم التفتيش من أن تحكم عليه بالحرمان أو السجن أو الموت.

فلقد حدث أن أحد الفلاسفة المسمَّىٰ (برونو) قد آقتنع برأي كوبرنيك المتعلق بكروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس، وجاهر به وأيَّده، فكانت نتيجته أن حوكم في سنة ١٥٩٤م وحكم عليه بالسجن ست سنين قضاها في ظلمة غرفة السجن الضيقة، وهو يأبىٰ خلالها أن يعترف بخطأ تفكيره، ويأبىٰ أن يفضل حياة الحرية عن إخفاء الحقيقة التي تراءت له واضحة جلية، فحُكم عليه جزاء إصراره بالحرق حيًّا»[(١)].

---

(١) «معالم الحضارات» ص ٣٤٣ تأليف أنور رفاعي وشاكر مصطفىٰ- المطبعة الهاشمية- دمشق ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م.

وكان يعاصر (برونو) غاليلو الإيطالي (١٥٦٤-١٦٤٢م) الذي جهر بآرائه العلمية واستطاع أن يصنع التلسكوب الذي أثبت ووضَّح كثيرًا مما وصل إليه علماء الفلك مما يخالف الخرافات التي تتبنَّاها الكنيسة، فهاجمه رجال الدين، ودعي للمثول أمام ديوان التفتيش وخير بين أمرين:

إما أن يتنازل عن القول بالآراء العلمية، أو يذهب إلىٰ السجن، وكان قد ناهز السبعين من عمره فأشفق من السجن، واعترف بخطئه، فحكم علىٰ مؤلفاته بالحرق، وعليه بالحياة تحت رقابة ديوان التفتيش[(١)]. ولم يستطع أن يحتفظ بوعده إلىٰ الأبد، إذ عاد إلىٰ بحوثه فأمر به فسجن في قصر حيث أمضىٰ بقية حياته ومات في الثامنة والسبعين من عمره في سجنه[(٢)].

ومن الطريف أنَّ البابا الحالي (جان بول الثاني) بابا الفاتيكان أصدر في أول شهر نوفمبر سنة ١٩٩٢ [قرارًا بتبرئة غاليلو من تهمة الزندقه، وقال البابا في بيانه: إن الكنيسة أخطأت في حق غاليلو الذي أعلن أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن الأرض مسطحة، والشمس هي التي تدور فوقها من الشرق إلىٰ الغرب، وأن الشمس تفقد حرارتها أثناء النهار، فتذهب ليلًا إلىٰ الجحيم لتستمد منه حرارة جديدة، ولهذا فهي تبدو حمراء ساعة الغروب؛ لأنَّ حمرة الجحيم تنعكس علىٰ وجهها[(٣)]...] إلىٰ آخر هٰذه الخرافات.

---

(١) ويقال: إنه كان يقول وهو خارج من المحاكمة: ومع ذلك فهي تدور.

(٢) «معالم الحضارات» ص ٣٤٥-٣٤٧.

(٣) «الشرق الأوسط» العدد ٥١٢٥ بتاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٩٢ من زاوية «مع قهوة الصباح».

لقد كان التعليم بيد الكهان، وكانوا هم المشرفين علىٰ الفكر، وكان سلاحهم ضد كل من تحدثه نفسه بالنطق برأي يخالف تعاليمهم ٱتهامه بالزيغ، وهٰذا كافٍ لإحراقه بالنار هو ومؤلفاته، أو لإلقائه في غيابة السجون[1].

إننا لم نعرف في تاريخنا مثل هٰذه الحرب الشرسة ضد العلم، بل إن العلماء الذين ٱكتشفوا كثيرًا من الحقائق العلمية كانوا من علماء الدين وأئمة الصلاح، فابن النفيس الذي ٱكتشف الدورة الدموية كان من الفقهاء الصالحين، وابن القيم الإمام الجليل كان طبيبًا بارعًا، ولو رجعنا إلىٰ كتب التراجم والطبقات لوجدنا المئات من هٰؤلاء الرجال.

فلا يجوز أن نأخذ مدلولًا صاغته الظروف القاسية التي مرت في أوربا أن نأخذه ونتبناه في مؤسساتنا العلمية.

إن كلمة (العلم) تشمل العلوم الدينية والنظرية والاجتماعية والتطبيقية. ويجب أن تعدل التسمية في فرعي الدراسة: العلمي والأدبي، وفي ٱسم كلية العلوم فنقيدها بأن نقول: (الفرع العلمي التجريبي) و (كلية العلوم التجريبية) أو نحو ذلك.

إننا نحن المسلمين إذا أطلقنا (العلم) ٱنصرف إلىٰ علم الشريعة؛ لأنه أشرف العلوم، أما إذا أردنا نوعًا من العلوم فلا بد من تقييده، كأن نقول: (علمُ الطب) و(علم الهندسة) وليس هناك مانع من

---

(١) «معالم الحضارات» ٣٣٧.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن تسمىٰ هٰذه العلوم وأمثالها (علومًا).

وقوله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ علىٰ كل مسلم**»(١) يراد به العلم الشرعي الذي به ينجينا الله من الشقاء في الدنيا، ومن العذاب في الآخرة، إن نحن عملنا بمقتضاه.

---

(١) سبق تخريجه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فصل

لقد طال حديثنا عن الحياة العلمية في المجتمع الإسلامي، كما تصوّرها كتب السنة، ولم نستوف جوانب الكلام فيها، فهٰذا موضوع يتسع فيه مجال البحث والقول، والعلم حياة الأمة، وسبيل تقدمها وسعادتها، في الدنيا والآخرة، فلا عجب أن نقف معه وقفات تأمل، والإسلام دين العلم، فقد كانت أولىٰ آيات كتابه نزولًا قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [سورة العلق].

فقد جاء الأمر فيها بالقراءة، وذكر سبحانه أنه هو الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، فالإنسان يولد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النّحل].

والآيات التي تحضّ علىٰ العلم، وترفع من شأن العلماء كثيرة، وكل ذلك له أثره الإيجابي في نشر العلم بين أبناء المجتمع الإسلامي.

فمن هٰذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: الآية ١١] وقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عِمران] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٩] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا

يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: الآية ٢٨].

فالمؤمنون والعلماء يرفعهم الله درجات، وجمع الله العلماء مع الملائكة في الشهادة بالتوحيد، وقرر بأسلوب موح عميق التأثير أنه لا يستوي العلماء والجهال. وأحلَّ كتابُ الله العلماء في منزلة سامية هي منزلة الخشية من الله، بل لقد حصر خشية الله بالعلماء، وخشية الله هي سبيل الجنة.

وقد حضَّ كتاب الله علىٰ طلب العلم وسؤال أهل العلم ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التّوبة: الآية ١٢٢] ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: الآية ٤٣].

وهٰذا الأمر القرآني الكريم يجعل من أبناء الأمة قاطبة طلبة للعلم، يسعون في تحصيل ما يحتاجون إليه منه، فما من إنسان إلا وتصادفه في حياته العملية والعبادية أحوال يحتاج أن يقف فيها علىٰ حكم الله، فيسأل أهل الذكر ويتعلم. ومن نعمة الله علىٰ العباد أن جعل في الأمة علماء هم أهل الذكر، وهم يمثلون القيادة الفكرية، وهٰذا ما كان في تاريخنا علىٰ مرِّ الأزمان حتىٰ العصر الحاضر.

فلقد كان شيخُ الإسلام عبد الله بن المبارك المتوفىٰ سنة (١٨١هـ) ذا مكانةٍ عالية عند المسلمين. ذكرت كتب التراجم[١] أن هارون الرشيد أمير المؤمنين الذي كانت تخضع له الدنيا المعمورة في ذاك العصر قدم الرَّقَّة ومعه أهله، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فرأت رجلًا يسير، ووراءه عدد كبير من الناس

(١) «تاريخ بغداد» ١٠/ ١٥٦ و«سير أعلام النبلاء» ٨/ ٣٤٠ وعنها ننقل.

حتىٰ تقطعت النعال، وارتفعت الغبرة فقالت: ما هٰذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم وهو عبد الله بن المبارك. قالت: هٰذا والله الملْكُ، لا مُلْكُ هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرطٍ وأعوان.

واستمرَّ الأمر علىٰ هٰذا حتىٰ كان عصر العز بن عبد السلام، أحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة.

كان يقيم في دمشق، ثم رحل عنها ٱحتجاجًا علىٰ منكر أنكره، وفي ذلك قصة رائعة تدلُّ علىٰ قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يخشىٰ في الله لومة لائم. ولما توجَّه إلىٰ القاهرة تلقَّاه سلطانها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وأكرمه وولاّه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، والقضاء بها وبالوجه القِبلي مدة، فاتفق أنَّ أستاذ داره[١] -أي: متولي الأخذ وقبض المال عند السلطان- فخر الدين عثمان، وهو الذي كان إليه أمر المملكة، عمد إلىٰ مسجد بمصر، فعمل علىٰ ظهره بناء لطبل خانات، وبقيت تضرب هنالك، فلما ثبت هٰذا عند الشيخ عز الدين حَكَمَ بهدم ذلك البناء، وعزل نفسه من القضاء، وأسقط فخر الدين.

وظن فخر الدين أن هٰذا الحكم لا يتأثر به في الخارج، وحسب أنه كلامٌ يقال، فاتفق أن جهَّز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلىٰ الخليفة المستعصم ببغداد. فلما وصل الرسول إلىٰ الديوان ووقف بين يدي الخليفة وأدىٰ الرسالة سأله: هل سمعت هٰذه الرسالة

---

(١) ٱنظر «معيد النعم» ص٢٦ وقد شرحها بما أثبتناه أعلاه. وهناك مزيد فارجع إليه وإلىٰ ما قاله المحققون.

من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حمَّلَنيها عن السلطان فخر الدين أستاذ داره.

فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته.

فرجع الرسول إلىٰ السلطان، وقصَّ عليه ما جرىٰ معه، فشافهه السلطان بالرسالة ثم عاد إلىٰ بغداد وأدَّاها(١).

وفي العصور الحديثة عندما غزا الكفار بلاد المسلمين، كان العلماء هم القادة الذين يحمون الذمار، ويدافعون عن الديار، ويوجهون الأمة، وكانت جماهير الناس تسير وراءهم، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة(٢) ما تزال حية نابضة في أذهان عدد من المعاصرين.

وكيف لا يكون العلماء كذلك والرسول يدعوهم ورثته في الحديث الذي مرّ بنا في موضع سابق من هٰذا الكتاب وهو قوله ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

والمؤمنون الذين لم يتح لهم شرف الاْجتماع بالنبي ﷺ حريصون أعظم الحرص علىٰ أن ينتفعوا بالهدىٰ الذي تركه، ولا يحمله إليهم إلا ورثته. ولذا كان توقير العلماء أمرًا من الأمور التي درج عليها المجتمع الإسلامي في عصوره كلها.

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» ٨/ ٢١٠-٢١١.

(٢) نذكر منهم علىٰ سبيل المثال: الشيخ ابن باديس، وعمر المختار، والسنوسي، وعبد الله الشرقاوي، وعز الدين القسام، وعلي الدقر، ومصطفىٰ السباعي وصلاح الزعيم، وغيرهم كثير.

وهٰذه المكانة السامية، والمرتبة المتقدمة، إنما يبلغها العالم بالعلم النافع، والعمل الصالح، والخلق الحسن.

فإذا كان متمكنًا من علمه، عاملًا به، يُخَالق الناس بالخلق الحسن، عَمَّ نفعه، وعظم تعلق الناس به، وحقق الله علىٰ يديه الخير الكثير.

ومن أهم الأخلاق التي ينبغي للعالم أن يتحلىٰ بها: الإخلاص لله، والبُعْد عن التكبر، والزهد في الدنيا، وأن لا يريد من عمله جزاء ولا شكورًا من الخلق، ولكنه يتطلع إلىٰ رضوان الله، والتواضع للناس، لا يصدُّ سائلًا، ولا يبخل بجاهه عن إغاثة ملهوف، ويعفُّ عمَّا في أيدي الناس.

قال أبو بكر محمد بن الحسين الآجري المتوفىٰ سنة (٣٦٠ هـ): فهم -أي: العلماء- سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة. وهم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا[١].

* * *

(١) «أخلاق العلماء» ص ٧-٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكُتَّاب مدرسة قرآنية

لما أكرم الله الإنسانية كافة، والعرب خاصة بهٰذا الدين العظيم، تحولت تلك الأمة الأمية تحولًا سريعًا في مجال المعرفة حتىٰ أضحت أمة العلم، كانت قفزة حققتها هٰذه الأمة لا نعرف لها نظيرًا في أمم الأرض.

لقد أقبلت الأمة كلها علىٰ العلم بعد أن قرأت قوله سبحانه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

أقبلت هٰذه الأمة علىٰ العلم: الرجال والنساء، والصغار والكبار، والأحرار والأرقاء، والأغنياء والفقراء، ونودُّ أن نورد بعض ما جاء في كتب السنة من الأحاديث التي تظهر هٰذه الحقيقة بأجلىٰ مظهر وأوثق دليل.

لا يأنف الكبير أن يتعلم من الصغير، ولا الوجيه أن يتعلم ممَّن هو أقل منه منزلة ٱجتماعية، بل إننا لنرىٰ أن العلم في هٰذا المجتمع يرفع من قيمة الإنسان العادي حتىٰ يفوق الأشراف.

كان ابن عباس ﷺ يرفع أبا العالية رُفَيْع بن مهران الفقيه المقرئ يرفعه علىٰ سريره، وقريشٌ أسفل منه، ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا، ويُجْلِس المملوك علىٰ الأسرة[(١)].

ولا ترضىٰ المرأة أن تبقىٰ بعيدة عن العلم الذي يطلبه الرجل، وتطلب أن يكون لها حظ من التعلم، كما ورد في بعض الأحاديث.

---

(١) انظر كتابنا «لمحات في علوم القرآن» ص ٢٠٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولننظر في الأحاديث التي تدلُّ علىٰ هٰذا التحول السريع:

أخرج البخاري في «صحيحه» حديثًا معلقًا عن أم سلمة رضي الله عنها، وهٰذا الحديث قد وَصَلَه الثوري في «جامعه» وعبد الرزاق في «مصنفه» عن محمد بن المنكدر، عن أم سلمة رضي الله عنها ولم يجزم به البخاري. قال رحمه الله: «ويذكر أنَّ أم سلمة بعثت إلىٰ معلم الكتاب: ٱبعث إليَّ غلمانًا ينفشون صوفًا ولا تبعث إليَّ حرًّا»[(١)].

في هٰذا الأثر دلالة علىٰ وجود الكُتَّاب في عصر صدر الإسلام: عصر النبوة، فأُمُّ سلمة هي أمُّ المؤمنين، وهي زوج النبي ﷺ واسمها: هند بنت أبي أمية، تزوجها رسول الله سنة أربع من الهجرة وتوفيت سنة تسع وخمسين وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة ودفنت في البقيع[(٢)].

والكُتَّاب مؤسسة تعليمية بدأت من ذاك العهد الأغر، واستمرت إلىٰ عصرنا هٰذا، وهي مدرسة قائمة علىٰ القرآن، وقد أكرمني الله أنني تعلمت فيها القراءة والكتابة وختمت فيها القرآن، وقرأته مرتين بين يدي شيخ متقن مجيد[(٣)] فلله الحمد والمِنَّةُ.

وقد تَخَرَّجَت أجيالُ المسلمين في هٰذه المؤسسة عبر العصور، فكان القرآن محور ثقافتها ومعرفتها، وكان لذلك أكبر الأثر في الحياة الٱجتماعية وفي سلوك الناس.

وما تزال هٰذه المؤسسة قائمة في بعض ديار المسلمين، وإن

---

(١) «الفتح»١٢/ ٢٥٣ ترجمة حديث رقم (٦٩١١).

(٢) «تهذيب الأسماء» ٢/ ٣٦٢.

(٣) هو الشيخ سليم اللبني رحمه الله تعالىٰ.

كانت المدارس العصرية قد زاحمتها، واستطاعت أن تزيحها من عدد من بلاد المسلمين.

والمدارس العصرية أخذنا أنظمتها عن الأجانب، وتأثرت مناهجها بالمناهج الأجنبية، وتوارت واختفت هٰذه المؤسسة القرآنية في معظم البلاد، وكان في ذلك خسارة كبيرة للتربية والتعليم، أنا لا أنكر أن هناك عيوبًا كانت في هٰذه الكتاتيب، وأنها قصرت عن الٱستفادة مما جدَّ في مناهج التعليم وأصول التدريس.

ولٰكن التصرُّف السليم يوجب ٱتخاذ الخطوات والوسائل لإصلاحها، وعلاج نواحي النقص فيها، أمَّا أن يُقضىٰ عليها بحجة تلك العيوب، فهٰذا سوء تصرف قادت إليه الغفلة عن الدور العظيم الذي كان يؤديه الكتَّاب، والغفلة عن مخططات أعدائنا الذين عرفوا أنَّ هٰذا القرآن ما دام حيًا في قلوبنا وتصوراتنا وسلوكنا فلن يكون لهم شأن ولا سلطان في ديارنا، ومن أجل ذلك عملوا علىٰ إقصاء هٰذا القرآن العظيم عن حياتنا التعليمية والفكرية والسياسية والاجتماعية.

ولا بُدَّ للأمة في يقظتها الإسلامية المرجوَّة أن تعود إلىٰ هٰذا القرآن، وتبني عليه تصورات أفرادها وتصرفاتهم، وأن تقيم أسس الحكم والمعاملات علىٰ مبادئه وأحكامه، ومن ذلك: أن يكون القرآن أساسًا لتعليمها.

ولننظر في أثر أم سلمة رضي الله عنها.

يدل هٰذا الأثر علىٰ وجود المدارس التي يؤمُّها الصبيان في وقت مبكر، وكان ذلك بسبب الإسلام، وهٰؤلاء الصبيان -كما يدل علىٰ ذلك الأثر المذكور- نوعان: عبيد وأحرار.

وإنها لروح سامية هٰذه التي تحكم هٰذا المجتمع، فالناس يرسلون أولادهم وعبيدهم للعلم، وكيف لا يفعلون وهم من أمة العلم.

وقد ٱستدلَّ العلماء[١] علىٰ جواز ٱستخدام الأحرار وأولاد الجيران فيما لا كبير مشقة فيه، ولا يخاف منه التلف بأدلة مذكورة في المطولات.

وقد طلبت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها من معلِّم الكُتَّاب أن يرسل إليها غلمانًا لمساعدتها في نفش الصوف وقالت: ولا تبعث إليَّ حرًّا.

وقد خصت العبيد بالطلب؛ لأن العرف جرىٰ برضىٰ السادة باستخدام عبيدهم في الأمر اليسير الذي لا مشقة فيه، لا سيما إن كان العمل في بيت أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ بخلاف الأحرار، فلم تجر العادة بالتصرف فيهم بالخدمة كما يتصرف في العبيد.

وهي -رضي الله عنها- بهٰذا أكرمت الحرَّ، ورفعت الحرج عن المعلم، فشأن العبد -علىٰ كل حال- يختلف عن شأن الحر.

وفي هٰذا الأثر ذكر لطريقة حضارية في ٱستعمال الصوف، إذ كانوا -كما يفهم من هٰذا الخبر- ينفشونه، وهو بهٰذه الطريقة يكون أفضل في الٱستعمال في نحو الوسادة والفراش، وما إلىٰ ذلك.

وقد قال جمهور العلماء: من ٱستعان حرًّا لم يبلغ، أو عبدًا بغير إذن مولاه فهلكا من ذلك العمل، فهو ضامن لقيمة العبد، وتجب دية الحر علىٰ عاقلة المستعين[٢].

---

(١)، (٢) ٱنظر «فتح الباري» ٢/٢٥٣ وما بعدها.

وأخرج الطحاوي في «شرح معاني الآثار»[1]: أنَّ ابن عمر ﷺ قال: «كان أبو بكر ﷺ يعلمنا التَّشهُّد علىٰ المنبر كما تعلمون الصبيان في الكُتَّاب، ثم ذكر مثل تشهد ابن مسعود ﷺ سواء».

فعندما أراد ابن عمر أن يُشبِّه لهم كيفية تعليم أبي بكر للناس التشهد شبَّه لهم ذاك التعليم بشيء ذائع معروف عندهم. وهٰذا يدل علىٰ أن الكتاتيب كانت منتشرة، وانتشارها دليل قاطع علىٰ النهضة العلمية المبكرة التي عرفها المجتمع الإسلامي بعد أن أكرمه الله بهٰذا الدين.

---

(١) ١/ ٢٦٤.

فصل

ذكرنا في موضع سابق نشوء المدارس التي كانت تُسمَّىٰ الكتاتيب في وقت مبكر من عصر صدر الإسلام، وأوردنا بعض ما جاء في كتب السنة من أخبار تدل علىٰ قيام هٰذه الكتاتيب واستقبالها للصبيان يتعلمون فيها القرآن والقراءة والكتابة والمعارف الأخرىٰ، ومن هٰذه الأخبار: خبر عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، ومنها خبر عن عبد الله بن عمر ذكرا فيه الكُتَّاب.

ولم يقتصر ٱنتشار التعليم علىٰ وسيلة واحدة، بل كانت هناك وسائل عدة، كانت هناك حلقات العلم في المساجد، وكانت هناك دروس خاصة يتلقاها الناس عن أهل العلم، وكانت الدروس في نطاق الأسرة، وكان من ذلك المعايشة ولا سيما في النفير إلىٰ الحرب، وغير ذلك من الوسائل.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلن -أي النساء-: يا رسول الله، غلب عليك الرجال، فَعِدْنا موعدًا.

فوعدهن، فقال رسول الله ﷺ: «**أيما ٱمرأة منكنّ قدّمت ثلاثًا من ولدها كنَّ لها حجابًا من النار**» قالت ٱمرأة: يا رسول الله، أنا قدمت ٱثنين. قال: «**واثنين**»[1].

وفي رواية البخاري: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهنّ فيه،

---

(١) رواه البخاري (١٠١، ١٠٢، ١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٣)، وأحمد ٣/ ٣٤، ٧٢.

فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهنّ: **«ما منكنّ امرأة تقدّم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار»** فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: **«واثنين»**.

وقد أورده البخاري في كتاب العلم من «صحيحه» وعنون له: «هل يُجعل للنساء يومٌ علىٰ حدة في العلم».

فلننظر إلىٰ التنافس بين الرجال والنساء في تحصيل العلم وتلقّيه، فلقد أتين إلىٰ الرسول ﷺ وطلبن منه أن يجعل لهنَّ نصيبًا من الوقت يعلمهن، فواعدهن واستجاب لطلبهن، وسياق الحديث ينبئ أنهنَّ أردن موعدًا خاصًّا بهن يتكرر كما تتكرر مجالسه مع الرجال. وفعلًا فقد ذهب ووعظهنَّ وعلَّمهنَّ.

وجدير بالعلماء والدعاة إلىٰ الله في عصرنا هٰذا أن ينتبهوا علىٰ هٰذه الناحية، فالمرأة شطر المجتمع، وعندما نهمل توجيهها وتذكيرها بالله، وتبصيرها بشرعه، وندعها تتعرض لما يتعرض له مجتمعنا من الغزو الفكري، الذي ملأ الكتب والصحف والمجلات، ومن التحلل الذي ساد معظم الأفلام والأغاني، عندما نفعل ذلك نكون قد أسأنا إليها وإلىٰ أنفسنا، ونكون قد قصرنا تقصيرًا لا يبقىٰ أثره علىٰ المرأة، بل يتجاوزها إلىٰ أولادها ومن تقوم بتربيته.

وقد ذكرتْ كتب السُّنة أنه قد تكرَّر وَعْظُه صلوات الله وسلامه عليه للنساء، فمن ذلك أنه خصهن بموعظة يوم العيد. فقد جاء في «صحيح البخاري»[1]: أن رجلًا قال لابن عباس: شهدتَ الخروج مع رسول الله ﷺ؟

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٨٦٣).

قال: نعم، ولولا مكاني منه ما شهدته -يعني: من صغره- أتىٰ العَلَمَ الذي عند دار كثير بن الصلت، ثم خطب، ثم أتىٰ النساء، فوعظهنَّ، وأمرهنَّ أن يتصدقن، فجعلت المرأة تُهوي بيدها إلىٰ حَلَقها تلقي في ثوب بلال.

وفي روايةٍ للبخاري[1]: فجعلت المرأةُ تلقي القُرْطَ والخاتمَ، وبلالٌ يأخذ في طرف ثوبه.

هٰذا، وكذلك فإن الصحابة بعد وفاة النبي قاموا بهٰذه المهمة، وذلك عندما ٱنساحوا في الدنيا المعمورة يعلِّمون الناس دين الله، وينشرون فيهم حقائق الدين.

وكذلك فإن الكبار كانوا يتلقَّون العلم، وكان أساتذتهم في بعض الأحيان أصغر منهم.

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال: حدثني إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس قال:

كنت أُقرئ رجالًا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف. فبينما أنا في منزله بمنىٰ وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها[2].

عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة[3]، وهو من كبار الصحابة، ومن كبار رجالات قريش ومن ساداتهم، ومن المتقدمين في الإسلام، ويدلُّ علىٰ فضله أمور كثيرة: منها تبشير النبي

---

(١) ٱنظر: «صحيح البخاري» (٩٨).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (٦٨٣٠).

(٣) وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، وسعد، وسعيد، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ﷺ له بالجنة. ومنها أن عمر ﷺ لما ٱختار ستة رجال للشورىٰ كان عبد الرحمن ﷺ أحدهم، وقد أخبر عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه: توفي وهو عنهم راض. وقد أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وسائر المشاهد، وكان صاحب رأي سديد، ومن أجل ذلك كان عمر يستشيره في كثير من الأمور، وكان يأخذ بقوله، كما دل علىٰ ذلك هٰذا الحديث الذي أوردنا مطلعه وهو طويل(١).

فقد أخذ برأيه فلم يحدِّث الناس في الموسم في أمور مهمة جدًّا، وكان يريد أن يتحدث بذلك في الموسم.

وقد رجع عمر من سَرْغ ولم يدخل الشام عملًا بقول عبد الرحمن من أجل الطاعون كما جاء ذلك في «الصحيحين»(٢).

وأخذ عمر ﷺ برأيه في أخذ الجزية من المجوس(٣).

ومن مناقبه الكثيرة أن رسول الله ﷺ صلَّىٰ الصُّبح خلفَه في غزوة تبوك كما جاء في حديث المغيرة بن شعبة الذي أورده مسلم في «صحيحه»(٤).

وقال فيه عُمر وهو الخبير بالرجال: عبد الرحمن سيد من سادات المسلمين. توفي سنة (٣١ هـ).

هٰذا الرجل العظيم يتلقَّىٰ العلم وهو في هٰذه المنزلة الرفيعة، وتلك المكانة السامية، وهل هناك منزلة أرفع من أن يكون مبشرًا بالجنة من الصادق المصدوق؟ وهل هناك مكانة أسمىٰ من أن يكون

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٣٠).
(٢) رواه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) من حديث ابن عباس.
(٣) رواه البخاري (٣١٥٦، ٣١٥٧). (٤) أنظر: «صحيح مسلم» (٢٧٤).

مرشحًا للخلافة؟

هٰذا الرجل العظيم المتقدم في السن يتلقَّىٰ العلم من ابن عباس وهو فتىٰ شاب، ويبدو من القصة أن طلبه للعلم لم يتوقف حتىٰ في حالة السفر، فابن عباس كان يقرئه في المدينة، وعندما سافرا لأداء الحج لم ينقطع ذلك اللقاء العلمي كما يبدو من هٰذا الحديث، فجاء ابن عباس إلىٰ منزله في منىٰ، فلم يجده، وسأل عنه فقيل: إنه عند أمير المؤمنين، فانتظره ابن عباس، وعندما عاد عبد الرحمن إلىٰ منزله قصَّ عليه ما سمعه من عمر، وكان شيئًا مهمًّا جدًّا، وذكر ما أشار به عليه من الرأي.

ويدل الخبر أيضًا أن تدريس ابن عباس لعبد الرحمن بن عوف ليس شيئًا خاصًّا، بل هناك آخرون كان ابن عباس يقرئهم، قال ابن عباس: كنت أقرئ رجالًا من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف.

* * *

فصل

ٱجتهادات الائمة جهود بشرية

إنَّ المجتمع الإسلامي الذي أنار الإسلامُ جوانب حياته المتعددة بنور الحق، وأخرجه حقًّا من الظلمات التي كان المجتمع الجاهلي يرسف في أغلالها، ويغوص في أعماقها من الشرك والدجل، والخرافة والظلم، والبؤس والخوف والحرمان. . أخرجه إلىٰ نور التوحيد والحق والعدل والسعادة والأمن. . إن هٰذا المجتمع ٱنصرف بعد دخوله في الإسلام إلىٰ إقامة صرح العلم والمعرفة، واستطاع أن يحرز تقدمًا عظيمًا في ميدان المعرفة أدهش كل من ٱطلع عليه في القديم والحديث.

لقد كان أساس حضارته وثقافته وعلومه قائمًا علىٰ المصدرين الرئيسيين لشريعة الإسلام وهما: الكتاب والسنة.

ولقد قامت في عصورنا الماضية -وهي عريقة في تألقها، وفي ظل الإسلام- عبقريات ضخمة، نشأت في البيئة الإسلامية التي تشجع علىٰ البحث وتدعو إليه، وهٰذه العبقريات أدَّت خدمات عظيمة للإنسانية، وللدين الحق الذي تبني حضارَتها وعلومَها عليه، وشرعت هٰذه العبقريات في الأستنباط من الكتاب والسنَّة، وإنشاء العلوم المختلفة، وبذلت كلَّ ما في وسعها من طاقة، وكان من ذلك تراث علمي عظيم.

ولٰكن البشر يبقىٰ بشرًا، يخطئ ويصيب، والخطأ يعلِّم صاحبه إذا تبيَّن له، إذ يدعوه إلىٰ أن يعيد محاولة البحث للوصول إلىٰ

الحقيقة، والمهمُّ في هٰذا أن يعترف المرء بالخطأ، ولا يكابر ولا يُصرّ. والتوبة تربي في صاحبها هٰذا المعنىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عِمران] .

ويستوي في ٱحتمال صدور الخطأ من المجتهد: المتقدمون والمتأخرون، وطلاب العلم المبتدئون والأئمة العظماء الموهوبون.

والعصمة لا تكون إلا للأنبياء والرسل فيما يبلِّغون عن الله، ولو أنَّ الخطأ يستبعد من ٱجتهاد نفر من الناس لكان ينبغي أن يستبعد من ٱجتهاد الصحابة، ولكن ٱجتهاداتهم ﷺ قابلة للخطأ والصواب.

وتقرير هٰذه الحقيقة والاقتناع بها يحفظ علىٰ العلم سلامته، ويصونه من الٱستمرار في طريق الخطأ. . وهٰذا من فضل الله علىٰ أمة الإسلام. . لقد ظلت الكنيسة تتخبط في ظلمات الجهالة المخالفة لحقائق العلم قرونًا؛ لأنها لم تكن تقبل أن ينسب إليها الخطأ، فيما تصدره من أحكام.

والعلماء يقررون أن الصحابة -رضوان الله عليهم- بشر يجتهدون، شأنهم في هٰذا شأن البشر، إلا فيما يبلغون عن رسول الله ﷺ، وإن كان ٱحتمال الصواب في ٱجتهادهم أكثر لما توافر فيهم من الشروط والصفات، فهم قوم صادقون عاشوا مع النبي ﷺ وتعهدهم بالتربية والرعاية، وشهدوا تنزل الوحي، ولغتهم سليقية لم تدخلها الشوائب، ولم تفسدها العجمة، يستطيعون أن يتذوقوا أسرار النصِّ القرآني ودلالاته.

ثم جاء بعد الصحابة التابعون لهم بإحسان، فساروا علىٰ نهجهم

السويّ، يستنبطون من كتاب الله وسنة رسوله ما يقودهم إلىٰ ٱستنباطه تفكيرهم السديد من العلوم والأحكام، ولكنهم بشر أيضًا، يخطئون ويصيبون، وقد نمت دائرة المعرفة عندهم، وشاعت الكتابة في عصرهم، وظهرت المؤلفات بكثرة، فألّف عدد من التابعين كتبًا قيمة، ملأت أخبارها بطون الكتب.

ثم جاء من بعدهم الأئمة المجتهدون، والعلماء العاملون، ولا غنىٰ للناس عن العلماء؛ لأن عامة الناس لا يستطيعون العمل وفق ما يريد الله ورسوله إلا عن طريق العلماء، ولذا كانوا ورثة الأنبياء كما قال ﷺ.

ولٰكن كل هٰذه الٱجتهادات جهود بشرية قابلة للخطأ والصواب، وقد قاد تقرير هٰذه الحقيقة إلىٰ تطوير المعرفة عند المسلمين، إن أمتنا عندما ترجمت إلىٰ لغتها ثقافات الأمم الأخرىٰ ترجمتها بهٰذه الروح وبهذه العقلية، وذهبت إلىٰ أن الجهود البشرية يمكن أن ننتفع منها إن كانت صحيحة.

لقد كانوا يُخْضِعون ما يقفون عليه من حقائق إلىٰ مقياسين: هما النقل والعقل:

النصوص الشرعية الثابتة، والعقل السليم والتجربة، ولذا لم يقف علماء الإسلام من أرسطو موقف الخضوع والانقياد الذي كان يقفه الفلاسفة منه عندما دعوه «المعلم الأول».

لقد عرضوا حقائق العلم التي نقلوها عن غيرهم من الأمم الأخرىٰ علىٰ الكتاب والسنة، فما رفضته نصوصهما رفضوه، ثم بعد ذلك نظروا إلىٰ هٰذه الحقائق بالعقل السليم، وإذا كانت الحقائق متصلة

بالواقع جربوها، ومن هنا وجدنا العالم المسلم في مجال ٱختصاصه يقوم ببعض التجارب، ويأخذ ما كان صحيحًا ويذر ما سواه.

لقد دعا علماء الإسلام وأئمة المسلمين أتباعهم إلىٰ أن يفتحوا عيونهم وعقولهم، وأَبَوا عليهم أن يتبعوهم الأتباع الأعمىٰ، بل لقد أعلنوا براءتهم من الآراء المغلوطة التي صدرت منهم إذا تبيَّن للآخرين خطؤها. وحذَّروا من التقليد الأعمىٰ، وقالوا: إننا بشر نخطئ ونصيب.

فهٰذا الإمام مالك يقول: «ما مِنَّا إلا من رَدَّ ورُدَّ عليه إلا صاحب هٰذا القبر».

وقال البويطيُّ تلميذ الشافعي: «سمعت الشافعي يقول: لقد ألفت هٰذه الكتب ولم آل فيها، ولا بُدَّ أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء: الآية ٨٢] فما وجدتم في كتبي مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه»[(١)].

وروي عن أبي حنيفة وأحمد مثل ذلك من نحو قولهم: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط».

وما زال علماء الإسلام يرددون هٰذه الحقيقة ويقررونها، وستبقىٰ عند المسلمين إلىٰ أن تقوم الساعة.

إن هٰذا كما قلنا يعصم الأمة من الإصرار علىٰ الخطأ، وهٰذا هو الواقع الذي قرره رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح:

---

(١) «مختصر المقاصد» بتحقيقنا ص٣٨ نقلًا عن السخاوي في «المقاصد» ص١٥.

«**إن الله تعالىٰ لا يجمع أمتي علىٰ ضلالة**»[1].

ويحض الأمة علىٰ محاولة الوصول إلىٰ الحقيقة في مجال المعرفة.

والأمور الشرعية الاجتهادية اجتهادات بشرية قابلة للصواب والخطأ ولا يوجد استبداد ديني يلزم الأمة برأي واحد ويحجر علىٰ العقول أن تجتهد.

لقد عرفت الأديان الأخرىٰ هٰذا الاستبداد الفكري والديني وعانت منه أشد المعاناة.

أجل إن أمتنا لم تعرف الاستبداد الديني، إن خير القرون وأشرف الأجيال وهم الصحابة نقل لنا اختلافهم في عدد من أحكام الدين، وكان يتسع صدر كل فريق منهم لمخالفيهم؛ لأنهم جميعًا في دائرة الشرع ومذعنون لمبادئه. فلا يحجر علىٰ أحد أن يقول ما يقوده إليه اجتهاده بشرط أن يكون من أهل الاجتهاد وأن يكون قوله منضبطًا بضوابط الشريعة واللغة والمنهج الصحيح.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٦٧) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ، ورواه ابن ماجه (٣٩٥٠)، وعبد بن حميد (١٢٢٠) من حديث أنس بن مالك ﷺ. قال السخاوي: وبالجملة، فهو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة، وشواهد متعددة في المرفوع وغيره «المقاصد الحسنة» (١٢٨٨). وقال الألباني: حديث حسن «الصحيحة» (١٣٣١). وانظر: «مختصر المقاصد» ١١٧٩ بتحقيقنا. و«صحيح الجامع الصغير» ١٨٤٨ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصل

أمة الإسلام أمة الأصالة والتميز

إنَّ الإسلام بنىٰ أفراد مجتمعه علىٰ الأصالة والتميز، فصان بذلك الأمة من الذيلية والتبعية والخضوع والذل.

لقد حرص علىٰ تميز هٰذا المجتمع ليُحسَّ بالأصالة التي غرستها مبادئه في النفوس، وليكون أهلًا لحمل رسالة التحرير في الأرض، فحرّم التشبه بالكفار قال ﷺ: **«من تشبه بقوم فهو منهم»**[(١)].

وحذَّر من التقليد أيًّا كان نوعه، سواء كان التقليد في العقيدة أو السلوك أو العبادة أو التفكير.

إنَّ التبعية تلغي في الإنسان عقله، وتشلُّ تفكيره، وتجعله ذيلًا يسير كما يسير الواحد من أفراد القطيع.

وأخبر ﷺ أن عوامل الضعف قد تتسرب إلىٰ هٰذه الأمة، وقد يتعَّرض لها المجتمع المثالي، فحذَّر منها، ومن هٰذه العوامل: التقليد الأعمىٰ.

قال ﷺ: **«لتتبعن سَنَنَ الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لاتبعتموهم»** قلنا: يا رسول الله،

(١) رواه أحمد ٢/ ٥٠، وأبو داود (٤٠٣١)، وابن أبي شيبة ٥/ ٣١٣، من حديث عبدالله بن عمر ﷺ. وهو حديث صحيح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إسناده جيد «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/ ٨٣. وقال الذهبي: إسناده صالح «السير» ١٥/ ٥٠٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

آليهود والنصارىٰ؟ . قال: «فمن إذًا؟»[1].

وعلَّمنا أن ندعوه في صلواتنا أن يهدينا الصراطَ المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم، غير صراط المغضوب عليهم، ولا الضالين.

وإن كتب السنة لتصور أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يمثلون الأصالة بأوضح معانيها، وكيف لا يكونون كذلك وقد قرؤوا في كتاب الله تبارك وتعالىٰ ذم التقليد في عدد من الآيات.

من ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

فذمَّ الله ﷻ من يُقلّدُ الأحبار والرهبان ويؤثر أتباعهم علىٰ أتباع هدىٰ الله.

رُوي عن حذيفة وغيره من أهل السلف أنهم قالوا في تفسير هٰذه الآية: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحلُّوا لهم وحرَّموا عليهم فاتبعوهم[2].

وقال عدي بن حاتم ﷺ: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب. فقال لي: «يا عديُّ، ألق هٰذا الوثن من عنقك» قال عدي: وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتىٰ أتىٰ علىٰ هٰذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قلت: يا رسول

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) وابن ماجه (٣٩٩٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» ٢/ ٢٧٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٧٨٤، والبيهقي ١٠/ ١١٦.

الله، إنا لم نتخذهم أربابًا. قال ﷺ: «**بلىٰ، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم؛ فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل لكم؛ فتحرمونه؟**».
فقلت: بلىٰ. فقال ﷺ: «**فتلك عبادتهم**»(١).

وقال أبو البختري في قوله ﷻ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ : أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

فإذا تصوَّرنا موقف الإسلام من الشرك ومن عبادة غير الله وتذكرنا ما وصف القرآن به الشرك، فهو ذنب لا يغفره الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: الآية ٤٨] وهو إثم عظيم وضلال بعيد ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: الآية ٤٨] ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء: الآية ١١٦] ولا يدخل المشرك الجنة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المَائدة: الآية ٧٢] ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحَجّ: الآية ٣١].

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» ٧/ (٤٧١)، والترمذي (٣٠٩٥)، والطبري في «تفسيره» ١٠/ ٨٠، والطبراني في «المعجم الكبير» ١٧/ (٢١٨، ٢١٩)، والبيهقي ١٠/ ١١٦، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ٢/ ١٠٩، وغيرهم. والحديث حسنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٣٢٩٣) وأتىٰ فيه بفوائد عزيزة.

إذا تصورنا هٰذا الموقف من الشرك وسمعنا كتاب الله يعبر عن التقليد بأنه عبادة، يشرك بفعلها من يقوم به، أدركنا عمق تأثير هٰذه الآيات في تنشئة الأمة علىٰ الأصالة والتميز، وتحذيرها من الأتباع الأعمىٰ والتقليد لمن ليس مؤيَّدًا بالوحي.

ومن هٰذه الآيات التي عمَّقت في جيل الصحابة رضوان الله عليهم فكرة الأصالة والبعد عن التقليد قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة].

وقوله ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف].

فمنعهم الاقتداءُ بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وفي(١) هٰؤلاء وأمثالهم قال الله جل وعزّ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال].

ومن هٰذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾. [البقرة]

وقال تعالت أسماؤه عائبًا أهل الكفر وذامًّا لهم في قصة إبراهيم

---

(١) هٰذا اقتباس من كلام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ٢/ ١٠٩.

وقومه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء].

وورد هٰذا الحوار في سورة الشعراء هكذا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء].

ولنتأمّل هٰذه الآيات التي تعرِض -بأسلوب مؤثِّر- حالَ أهل النار، وندمهم علىٰ ما فرطوا في الدنيا، وأمنيتهم التي يرددونها قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب].

قال ابن عبد البر: «ومثل هٰذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء. وقد ٱحتجّ العلماء بهٰذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلِّد كما لو قلد رجل فكفر، وقلّد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنيوية فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملومًا علىٰ التقليد بغير حجة؛ لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضًا وإن ٱختلفت الآثام فيه»[1].

إنَّ أمة الإسلام مأمورة بأن تسير علىٰ نور يبصرها بمعالم

(١) «جامع بيان العلم وفضله». ٢/ ١١٠

الطريق، فلا تنحرف، ولا تقع في مهاوي الضلالة. وقد وجدنا المجتمع الإسلامي في العهد النبوي كما تصوره كتب السنة مجتمعًا قائمًا علىٰ الاْتباع المبصر. الذي يستعمل العقل في فهم النص، وفي إدراك سنن الله التي وضعها في هٰذا الكون.

فالمرجع في هٰذا المجتمع إلىٰ شرع الله، وليس لأحد أن يُشَرِّع ما لم يأذن به الله ولا طاعة لمخلوق -كائنًا من كان- في معصية الخالق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصل

مجتمع الرحمة والتوقير

عن عبادة بن الصامت ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس من أمتي مَنْ لم يُجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا [حقه]**[1]».

وعن أبي موسىٰ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ منْ إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»[2].

في هذين النصين صورة كريمة للمجتمع المثالي الفاضل الذي يُوقَّر فيه الكبير، ويُرحَم فيه الصغير، ويُجَلُّ فيه العالم، ويُكرَم الإمام العادل.

ففي الحديث الأول يقول رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يُجِلَّ كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**» فإجلال كبير السن، ورحمة الصغير، وأن يعرف للعالم حقه أمور ثلاثة هي من سمات المسلم، فإذا تجرَّد منها أمرؤ ولم يتصف بها لم يكن من هٰذه الأمة، بل كان غريبًا عنها.

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٣٢٣، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٣٢٨)، والحاكم ١/ ١٢٢، من حديث عبادة بن الصامت. وللحديث شواهد من حديث: عبد الله ابن عمرو، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك. قال الألباني: الحديث صحيح «الصحيحة» (٢١٩٦).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، والبزار ٨/ ٧٤، والبيهقي ٨/ ١٦٣. قال الحافظ ابن حجر: إسناده حسن «التلخيص الحبير» ٢/ ١١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إن الإنسان إذا تقدمت به السنُّ وشاخ ضعف، ولم يعد قادرًا علىٰ الكسب ولا علىٰ الدفاع عن نفسه، إنه محتاج إلىٰ أن يجد اليد الحانية، والوجه البشوش، والقوة التي تدفع عنه العدوان، والصدر الواسع الذي يتلقىٰ طلباته بالاستعداد الفوري لتحقيقها، ويقابل حديثه بالإصغاء والاهتمام. إنَّ الإسلام ليجعله موضع الإجلال.

وهٰذا التوجيه النبوي الكريم عامٌّ للأقارب والأباعد، فكل من يلاقي الكبير مطالب بأن يجله ويوقره، ولكن الأهل والأقارب مطالبون أولًا وعلىٰ جهة الوجوب. فالزوجة مطالبة بأن تجل زوجها الكبير وتحترمه، وعليها أن لا تنسىٰ الفضل الذي كان بينهما، وأن تحفظ الود، وإن معدنها يظهر في ذاك الحين، وكذلك الأولاد من بنين وبنات، فإنهم مطالبون بالبر لأبويهم في كل حال، ولا سيما إذا كَبِرا وَضَعُفا عن الاستمرار في العمل وكسب الرزق، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء].

والطفل الصغير ضعيفٌ غاية الضعف، لا يستطيع في طفولته المبكرة أن يستقل في الطعام والشراب بنفسه، ويستمر هٰذا الضعف بتفاوت في درجاته سنوات إلىٰ أن يبلغ الحلم، إنَّ هٰذا الصغير ينبغي أن يكون موضع رحمتنا وعطفنا ورعايتنا، نرعىٰ جسمه وروحه وعقله، فلا نتركه للجراثيم والأمراض، ولا للجوع والعطش، ولا ندعه لعوامل الهدم التي تستهدف الأمة من أفلام خليعة، ومجلات

رخيصة ماجنة، وخرافات وأباطيل تقضي علىٰ روحه وتفسد عقله.

إن هٰذا الصغير سواء كان ابنًا لنا أو كان في ولايتنا يحمل بين جوانحه فطرة نقية، فلنحذر من أن ندنسها ونفسدها، فإننا مسؤولون عن ذلك بين يدي العليم الخبير قال ﷺ:

«كل مولود يُولدُ علىٰ الفطرة، حتىٰ يعرب عنه لسانُه، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانه»[(١)].

إننا لنسمع ونقرأ ما يجري في بعض بلاد الكفار من عدوان علىٰ الأطفال وتعذيب لهم؛ ذلك لأن بعض الآباء لهم قلوبٌ قاسية كأنما قُدَّت من صخر ، فقد يضايق هٰذا الطفل البريء والده ويعكر عليه صفوه، ويحرمه من التمتع بأنواع من المتعة، فتثور غَضبَتُه، ويعمد إلىٰ معاقبة هٰذا المخلوق الضعيف وينكِّل به.

وقد رأيت مجلة تصدر في بلد أوروبي كانت تعالج في عدة أعداد هٰذه المشكلة التي تقع في بلادهم، وقد نَشرتْ صورًا مذهلة لبعض حوادث التعذيب تقشعر لها الأبدان، من تعذيبٍ للطفل بالحرق، أو تركٍ للطفل في البيت وحيدًا حتىٰ يموت جوعًا وعطشًا، إلىٰ غير ذلك من ألوان الإجرام بحق الأطفال.

والعالِم في المجتمع الإسلامي ذو شأن كبير يُوقَّر ويُحترم، ويُعرف حقه في المجتمع، وحق العالم علىٰ أُمَّته أن تسمع له إذا قال، وأن ترجع إليه في أحكام الشريعة، وأن تتبعه إذا تقدم، وأن ترعىٰ أحواله فلا يبقىٰ في حاجة إلىٰ معونة.

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

والمجتمع الذي يلتزم أفراده بهٰذه الأخلاق مجتمع مثالي كريم، يُحترم فيه الكبير، ويُرحم فيه الصغير، ويوقر فيه العالم.

وبذلك تستكمل الأمةُ أسباب التقدم والعزة والمجد، فالكبار عندما يُحْتَرمون يُمِدُّون الأجيال الناشئة بخبرتهم وتجاربهم وعلمهم، وتبقىٰ مرحلة الشيخوخة مرحلة عطاء ونشاط فكري واجتماعي، لا يُهملون ولا يساء إليهم، فلا تنتابهم الأمراض النفسية، بل إن إجلال الناس لهم لَيُشعرُهم أنهم ما يزالون مرتبطين بالمجتمع، فيقدمون ما يستطيعون تقديمه إليه.

والصغار عندما يُرحمون الرحمة الشاملة التي أشرنا إليها يُهيَّؤون لحمل الرسالة العظمىٰ رسالة الإسلام التي تحقق سعادة البشر وفوزهم وفلاحهم، ويُعَدُّون ليكونوا رجالًا تتفتح عناصر الإبداع والموهبة عندهم.

والعالِمُ عندما يُعرف حقه، ويُرجع إليه، ويُستفاد من علمه، ويؤخذ بقوله تسير الأمةُ في طريق الخير والنماء والقوة والسداد والسعادة.

والحديث الثاني -حديث أبي موسىٰ- يزيد علىٰ هٰذه الخصال الكريمة الثلاث خصلة رابعة وهي: إكرام السلطان العادل.

والتعبير في حديث أبي موسىٰ يسلك مسلك الترغيب فيقول: إنَّ مِن إجلال الله: إكرامَ الرجل الكبير، والعالم، والسلطان العادل.

ويعبِّر عن الكبير بهٰذه الكناية الجميلة: «**إكرام ذي الشيبة المسلم**» وهي كناية جميلة واضحة الدلالة.

وكذلك يعبر عن العالم بصورة جميلة هي أنه حامل للقرآن، ثم يصف هٰذا العالم الذي يجب إكرامه بأنه لم يسلك سبيل الغلو ولا التساهل.

وما ضيَّع الأمة إلا الغلو والتشدُّد، والتساهل والإعراض والمخالفة. فيقول: «**حامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه**».

وهكذا ينبغي أن يكون العالم الحق غير غال في القرآن ولا جاف عنه.

وأحب أن أؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من عناية الإسلام بالأطفال، فقد حفظ لهم حق الحياة، وصان طفولتهم من العدوان، وجعل قتلهم تاليًا للشرك في كونه من أعظم الذنوب[١].

أذكر هٰذا في وقت تعاظم العدوان علىٰ الأطفال في كثير من بلدان العالم، ومنها البلاد الإسلامية وأسفاه، وسأورد بعض ما وقفت عليه ممَّا نشر عن هٰذا الخطر الداهم في الكتب والمجلات لنتبيَّنَ الفرق بين رحمة الإسلام للأطفال، وهمجية الآخرين في إساءتهم إليهم.

هٰذا وقد عُقد مؤخرًا لقاء للخبراء والمختصين في مجال مكافحة ظاهرة الإساءة للأطفال بتعاون كل من برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية، ومكتب التربية العربي لدول الخليج، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف).

عقد هٰذا اللقاء في مكتب التربية العربي لدول الخليج في الرياض في ٢٣ و ٢٤ من صفر سنة ١٤٢٥هـ الموافق لـ ١٣ و ١٤ من نيسان لعام ٢٠٠٤م. وقد شارك في هٰذا اللقاء ٣٠ خبيرًا من الخبراء الأكاديميين وما يقارب من ٢٠٠ من المهتمين والعاملين في مجالات حماية الأطفال من الإساءة

---

(١) قال عبد الله بن مسعود: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ فقال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك» رواه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد قرأت فصلًا عن العدوان على الأطفال في كتاب: «الأمراض الجنسية: أسبابها وعلاجها»(١) للدكتور محمد علي البار. وفيه ما يأتي:

[ويقول كتاب «الطفل المُعْتَدَى عليه» إصدار شركة سيبا مجلد ٢٩ العدد الخامس سنة ١٩٧٧: (يقدر عدد الأطفال الذين يواجهون اعتداءات بدنية وجنسية في الولايات المتحدة بـ ١,٦٠٠,٠٠٠ طفل سنويًا، وترفع بعض الدوائر هٰذا التقرير إلىٰ أربعة أو خمسة ملايين طفل ونرىٰ أن الرقم الأقرب إلى الواقع هو ما ذكرناه أي ١,٦٠٠,٠٠٠).

والواقع أنّ انتشار الاعتداء على الأطفال من آبائهم وذويهم أمر واسع الانتشار في الغرب، فمن كل عشرة أطفال يدخلون المستشفيات هناك واحد دخلها بسبب اعتداء ذويه عليه، ويأتي الاعتداء على الأطفال كثاني سبب لوفيات الأطفال ما بين ستة أشهر وعام، وما بين سنة وخمس سنوات فإن وفيات الأطفال الناتجة عن الاعتداء هي السبب الثاني للوفيات ويأتي مباشرة بعد الحوادث التي تعتبر قضاء وقدرًا، والغريب أن ثلثي حالات الاعتداء على الأطفال دون الثالثة، بينما غالبية ضحايا الاعتداء الجنسي يكونون قد جاوزوا السابعة، وإن كان هناك حالات اعتداء على الأطفال الرّضع.

وتقول مجلة هيكساجون الطبية المجلد ٦ سنة ١٩٧٨: (إنه لا يكاد يوجد مستشفىٰ للأطفال في أوروبا وأمريكا إلا وبه عدة حالات من هٰؤلاء الأطفال المضروبين ضربًا مبرحًا من آبائهم وأمهاتهم).

(١) «الأمراض الجنسية» ص ٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي عام ١٩٦٧ دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من ٦٥٠٠ طفل مضروب ضربًا مبرحًا أدىٰ إلىٰ وفاة ما يقرب من ٢٠٪ منهم، وأصيب الباقون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة، وقد أصيب المئات منهم بالعمىٰ، كما أصيب مئات آخرون بالصمم، وفي كل عام يصاب المئات من هٰؤلاء الأطفال بالعَتَهِ والتخلّف العقلي الشديد والشلل نتيجة هٰذا الاعتداء.

وتقول مجلة هيكساجون: (إنَّ الاعتداءات الجنسية على الأطفال من آبائهم هي أكثر بكثير مما هو معروف ومدون، كما أن كثيرًا من الآباء والأمهات يقومون بتسميم أطفالهم بإعطائهم السموم والعقاقير الخطيرة).

ويقول كتاب «الطفل المعتدىٰ عليه»: إنَّ الاعتداء الجنسي على الأطفال من آبائهم هو أكثر بكثير مما هو مسجل في الدوائر الطبية ولدى المحاكم؛ وذلك لأنَّ هٰذِه الحالات لا تصل إلى الدوائر الطبية أو البوليس إلا نادرًا، ويقسم الكتاب المذكور الاعتداءات الجنسية إلىٰ نوعين: وهي الاعتداءات الجنسية المصحوبة بالعنف، والاعتداءات غير المصحوبة بالعنف، وبعض الحالات من الفئة الأولىٰ هي التي تصل إلى الأطباء، أما الفئة الثانية فنادرًا جدًا وصولها إلى الأطباء.

ويقرر الكتاب أن الاعتداءات الجنسية هي في الغالب من الأب، أما الاعتداءات البدنية الأخرىٰ فأغلبها من الأم؛ وذلك نتيجة للتوتر النفسي والقلق الذي تعيشه المرأة العاملة في الغرب.

وفي بعض الحالات يكون الاعتداء على الطفل من المشرفين

علىٰ تربيته أو من الحاضنة، وأحيانًا من المدرس في الروضة أو في المدرسة.

ويوضح الكتاب أنواع الٱعتداءات الجنسية التي ينبغي على الطبيب أن يبحث عنها، وهي في الغالب علىٰ شكل تهتكات بالشرج أو الفرج، وفي بعض الأحيان يجد الطبيب شيئًا من مني المعتدي وهو الأب في غالب الحالات، وكثيرًا ما يصاب الطفل ذكرًا كان أم أنثىٰ بالأمراض التناسلية، ويعتبر ذلك دليلًا قاطعًا على الٱعتداء الجنسي.

ويوضح الكتاب أنواع الٱعتداءات البدنية وكسور العظام، وارتجاج المخ الناتج عن الضرب أو رمي الطفل إلى الأرض، وأنواع الشلل التي يصاب بها الطفل، وإصابات العين والصدر وكسور الأضلاع وما يصحبها أحيانًا من دخول الهواء إلىٰ (البلورا) مما يسبب ٱنكماش الرئة في الجهة المصابة وأنواع النزف الخطير الذي قد يصحبها، كما يوضح أنواع الإصابات البطنية وتمزق الأحشاء، والتهتكات التي تصيب الكبد أو الطحال أو الأمعاء، ويشرح ذلك كله بالصور والرسوم، وصور الأشعة المختلفة بحيث ييسر للطبيب الوصول إلى التشخيص الصحيح، ذلك؛ لأن معظم الأطباء لا يتصورون أن يعتدي الأب والأم علىٰ طفلهما بمثل هٰذِه القسوة والبشاعة.

ولقد كان الأطباء حتىٰ عهد قريب لا يتصورون مدى ٱنتشار هٰذِه الظاهرة حتىٰ قام الدكتور كيمب عام ١٩٦٢ بنشر تقريره المعروف باسم الطفل المضروب، ثم توالت التقريرات الطبية، وتكونت

جمعيات طبية خاصة لدراسة هٰذِه الظاهرة في كثير من البلاد الغربية، وأقيمت البحوث الميدانية التي كشفت مدى ٱنتشار هٰذِه الظاهرة الغريبة في البلاد الغربية، حتىٰ وصلت أعلى التقديرات إلىٰ أن خمسة ملايين طفل يواجهون الاعتداء الشديد سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية!!

إذن نحن أمام ظاهرة مرعبة حقًا، فالمجتمعات الغربية تعاني من ٱنهيار تام في القيم، وخاصة المتعلقة بالجنس[(١)]].

ونشرت مجلة «المجتمع»[(٢)] ما يأتي:

تشير تقارير عديدة إلىٰ أنَّ تجارةَ الجنس تنتشر بشكلٍ مرعبٍ في جنوب شرقي آسيا.

وتشمل أولادًا -أي ذكورًا- وفتيات لا تتجاوز أعمارهنّ في بعض الأحيان ثماني سنوات، بعضهم يختطفون من قبل عملاء بُيوت الدعارة.

وبعضهم يشترون، فيما يجري بيع البعض الآخر بحفنة ضئيلة من الدولارات من أجل العبودية الجنسية.

قال تقريرٌ نشرته مؤخرًا الحكومة النرويجية، وقدّم إلىٰ لجنة عاملة للأمم المتحدة حول العبودية الجنسية: إنَّ عدد ضحايا هٰذِه التجارة يزيد عن مليون فتاة في سن الأطفال، يجري إغراؤهنّ أو بيعهن أو إجبارهنّ علىٰ ممارسة الدعارة في مختلف أنحاء العالم سنويًا.

(١) «الأمراض الجنسية: أسبابها وعلاجها» من ص٥٣ إلىٰ ٥٥ ط١ سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

(٢) العدد ١١٨٥ ت: ٣/٩/١٤١٦هـ (٢٣/١/١٩٩٦م).

ففي كولومبيا ٱزداد عدد الفتيات اللاتي يجبرن علىٰ ممارسة الدعارة كثيرًا في السنوات الأخيرة.

وفي البرازيل هناك نحو ربع مليون ممن هنّ في سنّ الأطفال.

أمّا في آسيا فإنَّ ٱستعباد الأطفال للجنس بلغ نسبة مرعبة:

ففي تايلاند التي يبلغ عدد سكانها ٥٦ مليون نسمة، تقدر وكالات الإغاثة أن هناك نحو مليونين، منهنّ ٨٠٠ ألف في سنّ الأطفال دون السادسة عشرة.

وتشير الدراسات إلىٰ أن هناك نحو ٣٠٠ ألف في سن الأطفال في الهند.

وقال معهد حماية الطفولة في الفلبين: إنَّ هناك ٩ بالمائة من هٰذا النوع من النساء دون سن العاشرة.

والباحثون في سريلانكا يعتقدون أن في الجزيرة نحو ١٠آلاف ولد يستخدمون في هٰذِه المأساة.

وتوجد قرىٰ في شمال شرقي تايلند يصعب أن تجد فيها الأطفال وقد وقعت مناطق الحدود فريسة لهٰذِه الجريمة...

وقد أظهرت دراسة في بانكوك أنّ ٣٠ بالمائة من الفتيات يتاجر بهنّ أناسٌ لا فرق بينهم وبين الحيوانات.

وقالت بعضُ الفتيات: إنهنّ يتحينّ الفرص للهرب من هٰذِه المأساة إن ٱستطعن ذلك].

ونشرت جريدة الشرق الأوسط(١) خبرًا عنوانه: [نساء زيمبابوي يلقين بأطفالهن في المجاري والآبار والأنهار].

---

(١) العدد الصادر في ٢٩/ ١٢/ ١٩٨٣ .

وجاء في هٰذا الخبر:

[وإذا كان مجتمع زيمبابوي يعتز بالقيم الأسرية واحترام الروابط الاجتماعية، فقد جاء انتشار ظاهرة التخلّص من الأطفال بمثابة صدمة حادة ومفزعة للسلطات، وباتت موضوعًا رئيسيًا لافتتاحيات الصحف وعناوينها الرئيسية، وكان اتساع هٰذِه الظاهرة وراء إحساس عام بالهلع والمعاناة الجماهيرية التي تجسد ورطة التفسخ الاجتماعي الذي تأتي به الحروب في السنوات التالية لها.

وعلىٰ مدىٰ أيام قليلة باتت قصص الأطفال الرضّع علىٰ قارعة الطريق حديث الناس ومصدر فزع للسلطات. فقبل أيام قليلة عُثر علىٰ طفل رضيع تحت المطر المنهمر علىٰ مقربة من أحد المراكز الصحية في هاراري، وفي اليوم التالي أنقذ الجيران طفلًا آخر ألقي في حفرة علىٰ جانب طريق وكان صراخ الطفل سببًا في نجاته، إذ لولا الصراخ ما كان أحد من الجيران يعلم بوجوده.

وفي اليوم الثالث لم تكتف الأم بترك طفلها والانصراف، بل خنقته ودفنت جثّته في حديقة منزل.

وتقول السيدة سالي موغابي قرينة رئيس الوزراء: نحن فزعون؛ لأنّ فتياتنا يلقين بأطفالهن في الشارع... وفي بيان ألقاه في الآونة الأخيرة روبرت موغابي رئيس الوزراء أوضح أن أجهزة الشرطة تلتقط الأطفال من الشوارع أسبوعيًا، وفي كل أنحاء البلاد، وأشار موغابي إلىٰ أن أجهزة البوليس عثرت علىٰ أطفال آخرين في المراحيض العامة وعند ضفاف الأنهار، وفي أنابيب الصرف الصحي والآبار..].

ونشرت جريدة الراية القطرية[1] خبرًا بعنوان:

[زوجان أمريكيان يعتديان جنسيًا علىٰ أولادهما]

وجاء في هٰذا الخبر:

[أعلن مصدر قضائي أن زوجين من شيكاغو بولاية إيلينوي الأمريكية أُدينا بالاعتداء جنسيًا علىٰ أولادهما الأربعة وتخديرهم وإطعامهم جرذانًا مقلية وصراصير مسلوقة.

ونقلت صحيفة «شيكاغو تريبيون» عن أحد القضاة قوله: إن الأولاد وهم: صبي في الخامسة من العمر وثلاث فتيات أعمارهن ١٠ و١١و ١٢ عامًا أرغموا علىٰ ممارسة الجنس مع والديهم جيرالد وبرباراهيل.

وكان الوالدان يخدران أولادهما بواسطة الحقن بمادة الكوكايين على الأرجح.

واستمرت فترة تعذيب الأولاد أربع أو خمس سنوات بين نهاية ١٩٨٩ ومطلع ١٩٩٤. وبدأ حاليًا التداول بشأن الحكم على الوالدين].

وجاء في جريدة الشرق الأوسط[2] ما يأتي:

تشغل بال الأوساط الاْجتماعية لروسية مشكلة المعاملة القاسية للأطفال.

وتشير الإحصائيات إلىٰ أن حوالي مليوني طفل في سن دون ١٤ عامًا يتعرضون سنويًا لإيذاء والديهم ويلقىٰ ١٥ في المائة منهم حتفهم

---

(١) العدد الصادر في ١٩/ ٩/ ١٤١٩هـ (٨/ ٢/ ١٩٩٦م).

(٢) العدد الصادر ٨/ ١٠/ ١٤١٦هـ (٢٧/ ٢/ ١٩٩٦م).

بينما ينتحر ألفا طفل. ويقول الباحثون الٱجتماعيون: إنَّ الوضع أصبح الآن مقلقًا بحيث لا يجوز السكوت عن المآسي التي تجري يوميًا وراء الأبواب المغلقة للبيوت. علمًا أن الأطباء يعرفون قبل غيرهم عادة جميع أبعاد هٰذِه المآسي. وذكر جرّاح الأطفال الدكتور فكتور كيسيليوف أن الحديث عن هٰذا الموضوع مؤلم، لٰكن يجب عدم السكوت عن الجرائم البشعة التي يرتكبها الأباء والأمهات بحق أطفالهم أحيانًا. وتحدث الطبيب عن صبية في الثامنة من العمر ضربها أبوها بالبلطة علىٰ رأسها في أثناء شجار مع أمها التي أصيبت بالبلطة في كتفها أيضًا.

فقد شفيت الأم لٰكن الطفلة ما زالت علىٰ مدىٰ بضعة شهور طريحة الفراش في المستشفىٰ وأجريت لها عدة عمليات في الدماغ.

وجرت محاكمة الأب المخمور وصدر عليه الحكم بالسجن مدة عشرة أعوام. لٰكنَّ الطفلة الصغيرة بدون مستقبل في الواقع، ولا يعرف إذا كانت ستتمكن من ٱرتياد المدرسة ودخول معترك الحياة لا سيما أن هٰذِه المأساة تركت آثارها علىٰ وضعها النفسي. وأضاف كيسيليوف قوله: إنَّ الوالدين لا يقولان الحقيقة أحيانًا عمَّا حدث للطفل. إذ يرقد في ردهة المستشفىٰ لديه صبيٌ في حالة إغماء مستمر.

وذكرت أُمُه أنه سقط من الكرسي في البيت. لٰكن لدىٰ فحصه تبين وجود إصابات في الكبد والطحال بسبب الٱعتداء عليه بالضرب. وليس لسقوطه من الكرسي.

وجاءت ٱمرأة مع صبيٍّ في الرابعة من العمر مصاب في رأسه، فزعمت أنه تزحلق وارتطم رأسه ببطارية التدفئة. ولدى النظر إليها كان

من الواضح أنها تحت تأثير الخمر. وتبين فيما بعد أنها أولمت وقصفت في مناسبة ما في مكان عملها. وبعد ذلك ٱصطحبت الطفل من روضة الأطفال إلى البيت، وكان يريد أن يأكل ويلقىٰ الرعاية من أمه لٰكنَّ المرأةَ المخمورة رمته بعيدًا عنها، فارتطم ببطارية التدفئة وأُصيب بجرح في رأسه.

وتجرىٰ حوادث أخرىٰ تجسد قسوة الوالدين بجلاء.، فمثلًا جاء صبيٌّ من المدرسة إلىٰ بيته. وعندما رأىٰ أبوه الشرطي ما لديه من علامات سيئة قرر معاقبته. والأب الشرطي الذي ٱعتاد علىٰ جرِّ المخمورين من رقابهم سجن ابنه الصغير. علمًا أن أمه كانت تضربه أيضًا لأتفه الأسباب، وحدث مرة أن كسرت فكه. وبعد هٰذا كان أقرانه يسخرون من منظرِه. وفيما بعد جُلِبَ الصبي إلىٰ المستشفىٰ في حالة يرثىٰ لها.

وثَمة عادة لدى الضباط هي أن يعاقبوا أبناءهم بضربهم بالحزام ذي الإبزيم المعدني الثقيل الذي يترك آثاره علىٰ جسد الصغير الرقيق البشرة.

ويسود الٱعتقاد في المجتمع الروسي بأن ضرب الأطفال يؤدي إلىٰ تقويم خلقهم، وحتىٰ توجد أمثال وحكم بهٰذا الخصوص يتداولها الناس.

ونشرت جريدة الشرق الأوسط[١] ما يأتي:

«أفلام الموت» مبيعاتها السنوية تصل إلىٰ٣٣ مليار دولار

---

(١) العدد الصادر في ٢٣/٩/١٤١٦هـ (١١/٢/١٩٩٦م).

شبكة دولية توزع أفلامًا فاضحة أبطالها الأطفال في أوروبا وأميركا الشمالية

أطفال تتراوح أعمارهم بين الثلاثة والعشرة أعوام، ممن ترتكب بحقهم جرائم شنعاء أخلاقيًا وإنسانيًا، والتمثيل بهم في عمليات سادية مروعة قبل أن يقتلوا علىٰ أيدي جلاديهم من عصابات «أدب الأطفال الداعر».

وبناء علىٰ تقديرات إيطالية داخلية، عبر أجهزة منظمة «اليونيسف» الدولية لحماية الطفولة فالمرجح أن هٰذِه السوق المشؤومة للاتجار بالأطفال من الإناث والذكور تطرح مبيعات سنوية تصل قيمتها على الصعيد الدولي إلىٰ نحو ٣,٣ مليار دولار من شرائط مشاهد العنف وحدها، والتي يعاد تدويرها لإنتاج المزيد منها بأسعار أقل كل عشرة أعوام.

ولا يقضي القانون أن يذكر على الشريط اسم المنتج. ويتيح مثل هٰذا «التستر على الهوية» إنتاج كم هائل من الأفلام والمجلات المصورة لأطفال إيطاليين من الجنسين، ولأطفال أجانب مهربين من مواقع الكوارث وفي مقدمتها حرب البوسنة والهرسك وبعض دول أوروبا الشرقية وعلى الأخص ألبانيا ورومانيا حيث يباع أولئك الأطفال لتجار رق يهربونهم إلىٰ داخل الأراضي الإيطالية؛ لاستخدامهم في أعمال الدعارة للمنحرفين، بعد تصوير عدد كبير من الأفلام وإصدار مجلات لمشاهد فاضحة لهم مع بالغين.

غير أن الأفلام التي تتضمن مشاهدَ عنفٍ مروعةٍ وقتل بطيء للأطفال وتعرف في سوق أميركا الشمالية باسم « Snuff Movies» أي «أفلام الموت

الحقيقي» فتجد لها سوقًا رائجة في إيطاليا أيضًا، مع بقية دول أوروبا وأميركا الشمالية ويباع الشريط الواحد من تلك في المتوسط بسعر ٥٠٠ ألف ليرة إيطالية (نحو ٤٠٠ دولار) لمتذوقي هٰذا النوع من «أدب العنف الداعر» الذي أصبح اليوم شبه مستقل عن الأفلام الداعرة الأخرىٰ، نظرًا لما يجنيه من أرباح طائلة ولشدة الإقبال عليه.

إلا أن «أفلام الموت الحقيقي» التي تحتل نسبة متزايدة من هٰذا النمط من الشرائط عادة ما تنتهي بمشاهد سادية مروعة للتعذيب وإراقة الدماء لأطفال لم تتعد أعمارُهُم سن العشرة أعوام.

ومثل هٰذِه الجرائم ليست «حيلًا سينمائية» بل هي مشاهد فعلية لعمليات تمثيل وتعذيب وقتل بآلات حادة وأمواس وأيضًا للأعضاء الحساسة وفي ما يفضي إلى الموت بسبب تسرب كمية كبيرة من الدم!

ونشرت مجلة اليمامة[١] كلمة للأستاذ عبد الرحمن السدحان عنوانها:

يا للهول!

«يا للهول!».. صيحة أطلقتها بملء فمي، وأنا أقرأ تقريرًا نشرته صحيفة الشرق الأوسط الدولية في عددها الصادر يوم الأحد، الحادي عشر من شهر فبراير عام ١٩٩٦م لمراسلهامن ميلانو الإيطالية.

يتحدث فيه عن شبكة دولية توزع أفلامًا فاضحةً في أوروبا وأمريكا الشمالية أبطالها أطفال أبرياء من ذكور وإناث تتراوح أعمارهم بين الثلاثة والعشرة أعوام، وتتخذ من إيطاليا مقرًا لها.

---

(١) العدد الصادر في شوال سنة ١٤١٦هـ.

ويشير التقريرُ إلىٰ أن ضحايا هٰذِه الشبكة من الأطفال الأبرياء يتعرضون لممارسات سادية بشعة تبدأ بامتهانهم خلقيًا، وتنتهي بالتمثيل بهم وقتلهم علىٰ أيدي جلادين من عصابات (أدب) الأطفال الداعر!

ويمضي التقرير فينسب إلىٰ أحد المسؤولين المكلفين بالتحقيق عن الظاهرة في السوق الإيطالية نيابة عن منظمة (اليونسيف) الدولية حيث يقول:

(... إنَّ الأطفال المستخدمين في هٰذِه الأفلام يسخرون للعمل أيامًا بأكملها في ظروف من القسوة البالغة أمام الكاميرات...).

ويورد التقريرُ في مكان آخر، شيئًا عن هوية الأطفال البؤساء. فيقول: إن بعضهم إيطاليو المنشأ، والبعض الآخر يؤتىٰ بهم من مواقع الكوارث في العالم كالبوسنة والهرسك وبعض دول أوروبا الشرقية، حيث يباعون لتجار الرق، ثم يهربون إلىٰ داخل الأراضي الإيطالية لاستخدامهم في تصوير مشاهد فاضحة مع بالغين عبر أفلام ومجلات!.

ويتحدث التقرير عن (الاقتصاد المزدهر) لهٰذِه التجارة البشعة فيقول: إن تجارة رق وابتزاز الأطفال من الجنسين تجني ربحًا دوليًا هائلًا يقدر بثلاثة وثلاثين مليارًا من الدولارات، تمثل قيمة بيع أشرطة تحوي مشاهد يتعرض فيها الأطفال لممارسات البغي مقترنًا بالعنف ثم يعاد إنتاجها كل عشرة أعوام لتباع بأسعار أقل!

يا للهول.

.. مرة أخرىٰ.. أصيح بملء فمي، وأتساءل بحرقة وألم: أيعقل

أن ترتكب هٰذِه الجرائم البشعة ضد الطفولة البائسة، باسم (التسلية الرخيصة) داخل قارتي أوروبا وأمريكا، في الوقت الذي يصم فيه الآذان دعاة ومتحمسون في القارتين إما دفاعًا عن حقوق الإنسان، أو تلمسًا لعيوب الآخرين في هٰذا الصدد، أو شجبًا للإرهاب والتطرف بكل صوره وأشكاله؟ وأتساءل: كرةً أخرىٰ: أي إرهاب وأي تطرف أقسىٰ وأعتىٰ من تعريض كرامة طفل شردته المحن، وأثكلته الكوارث للابتزاز الوحشي، جنسيًا وإنسانيًا، لقاء دراهم معدودة؟

أليس لهٰذا الطفل الإنسان حقوق.. تصان. ولا تهان، وحدود تهاب.. ولا تعاب؟!

أقول لقارعي الطبول في أوروبا وأمريكا باسم حقوق الإنسان.. ولأمثالهم من الشاكين والباكين علىٰ منابر الحماسة ضد التطرف والإرهاب:

طهروا أراضيكم من رجس الاتجار بكرامة الطفل البريء

.. فالطفل إنسان.. له حقوق ترفض المزايدة والنكران في سوق الذمم الرخيصة، وليس هناك إرهاب أعظم- بلاء ولا أشد رزءًا من ابتزاز عفة طفل شردته المحن، وخذلته الخطوب. والله المستعان علىٰ ما يفعلون!

ونشرت «مجلة المجتمع»[1] ملفًا مذهلًا عن هٰذِه الجرائم ذكرت فيه أن الدول الغربية تهبط إلى الدرك الأسفل من الانحطاط الأخلاقي: جرائم الاعتداء الجنسي على الأطفال في الغرب:

المعلومات الواردة في هٰذا الملف يقشعر لها بدن كلُ مسلم،

---

(١) العدد الصادر في ١١/ ٥/ ١٤١٧هـ (٢٤/ ٩/ ١٩٩٦م).

ويذهل لها كل صاحب مروءة، كما أنها تكشف هالة الزيف والخداع التي يعيش فيها المجتمع الغربي، الذي يسعىٰ بعض بني جلدتنا للترويج له والدعوة إليه، وتؤكد أن الحضارة ليست في التقنيات أو التقدم التكنولوجي أو الصناعي الذي يعيشه الغرب، ولٰكنَّ الحضارة تتمثل في قدرة الإنسان علىٰ أن يصل إلى الغاية التي خلقه الله ﷻ لتحقيقها وفق الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أما أن يدمر الإنسان الطفولة، ويهوي بالآدمية إلىٰ هٰذا الدرك الأسفل من الٱنحطاط الأخلاقي، ثم يدّعي أنه الأكثر تقدمًا، والأقوىٰ حضارة، فهٰذا ما لا يمكن أن يكون.

ولذلك فإن هٰذِه المعطيات تؤكد علىٰ أنَّ الغربَ يحمل بذور فنائه في ظلال هٰذا الٱنحطاط الأخلاقي والانهيار الإنساني مهما بلغت درجة التطور التقني أو التكنولوجي الذي يعيشه.

فالأطفال هم أجيال المستقبل والامتداد الطبيعي للنمو الإنساني والتواصل البشري، وعلىٰ قدر الرعاية لهم والاهتمام بهم يكون رقي الأمم وتقدمها، وعلىٰ قدر إهمالهم وتدميرهم يكون ٱنهيار الأمم وانحطاطها، وإن أخطر عمليات التدمير التي تتم للأطفال في الغرب هو التدمير الخلقي والجنسي.. وفي هٰذا الملف تسلط الأضواء علىٰ هٰذِه الجرائم الخطيرة ودورها في التمهيد لانهيار المجتمعات الغربية..

وقد التقت «المجتمع» مع جووي تايس- أحد العاملين في مؤسسة «الجمعية الدولية لمنع الإساءة إلى الأطفال» (NSPCC)- كي تتعرف علىٰ طبيعة عمل المؤسسة وطبيعة خدماتها التي تقدمها إلى

الأطفال الضحايا، فأوضح تايس أن المؤسسة تتلقىٰ ما بين ٦٠ إلىٰ ٧٠ ألف مكالمة سنويًا من أطفال يعانون من مشاكل متعددة مثل: الاعتداء الجنسي، أو البدني، أو التعرض إلى الإهمال، إضافة إلىٰ مشاكل نفسية أخرىٰ، وحول حالات الاعتداء قال تايس: إنه من الصعب حصر نسبة معينة، ولكننا نستطيع أن نقول بأن واحدًا من بين ستة أطفال قد تعرض لنوع من أنواع الاعتداء الجنسي، ويضيف تايس بأن المؤسسة تقدم كافة الخدمات الاستشارية إلى الأطفال المتضررين أو من يعنيهم الأمر، وهناك فرق عمل وحوالي ٤٤ بحثًا بميزانيات معينة لدراسة أوضاع الأطفال الصحية والنفسية، وعن نسبة الخدمات التي توفرها المؤسسة أفاد تايس بأنها تتوزع على النحو الآتي: ٣٦٪ للاعتداءات الجسدية، و٢٨٪ لحالات الإهمال، و١٧٪ للاعتداءات الجنسية و٩٪ للأمراض النفسية و١٠٪ للحالات الأخرى.

الاعتداءات الجنسية:

يعني مصطلح الاعتداء الجنسي أشياء متعددة منها: إرغام الطفل على الخضوع لأوضاع أو مواقف جنسية معينة، أو إرغامه على النظر إلى الصور الفاضحة، أو توجيه ألفاظ ذات إيحاء جنسي إليه، أو لمسه في أماكن حساسة، أو إرغامه علىٰ ممارسة الجنس.

وتشير إحصائيات تقرير هاتف خدمة الطفل السنوي لعام ١٩٩٥م إلىٰ أن عدد الأطفال الذين تعرضوا للاعتداء الجنسي وصل إلىٰ حوالي١٠,٩٤٢ طفلًا، وأن ٩٦٪ من هٰذا العدد تعرضوا للاعتداء من أناس يعرفونهم: ٥٦٪ من الآباء والأخوة أو الأخوات،

والبقية من أقرباء آخرين أو جيران أو أصدقاء.

ومن العدد الذي تعرض إلى الاعتداء من أحد أفراد الأسرة، ٧٨٪ منهم كان عن طريق الأب، ومن هو في مكانته كزوج الأم أو صديقها، وغالبًا ما تكون الأم في هٰذِه الحالات خارج المنزل أو نائمة في البيت ساعة حصول الاعتداء، أما نسبة الذين يتعرضون للاعتداء من خلال الأم، فيصل إلىٰ ٤٪ (٩١ بنتا و٣٩٤ ولدًا)، و١٪ من الأطفال (٢٣ بنتًا و ٤٨ولدًا) يتعرضون للاعتداء من خلال الأب والأم معًا.

وهناك ممارسات كثيرة لهٰذا الاعتداءات يصفها الأطفال بأنها تشمل استخدام العنف والاغتصاب، وفي بعض الحالات إرغام الطفل على النظر إلى الصور الفاضحة وتقليدها أو قيام الأم والأب بتصوير طفلهما وهو في أوضاع مخلة بالكاميرا أو جهاز الفيديو أو إرغامه للتحول إلى العهر لخدمة رغبات والديه أو أحد أصدقاء أفراد الأسرة.

أما عدد الأطفال الذين يتعرضون إلى الاعتداء البدني، فقد وصل عددهم في سنة ١٩٩٥م إلىٰ ١٠,٠٢٨ حالة، وهو عدد نسبي؛ لأنه يقتصر علىٰ أولئك الذين أبلغوا بحالات الاعتداء عليهم، ٨٩٪ منهم تعرضوا للاعتداء علىٰ يد أحد الوالدين، حيث وصلت مسؤولية الأب إلىٰ ٤٣٪، والأم إلىٰ ٢٣٪، ويصف الأطفال شكل الاعتداء الذي يتعرضون إليه بأنه يتنوع من الضرب على الوجه، والطرد من البيت، والدحرجة على السلم، والعض، والهز العنيف، والتهشيم، والخنق، وحبس الطفل في غرفته، أو إغلاق الدولاب عليه بالمفتاح

لساعات طويلة.

ويجد الكثير من الهيئات المعنية بشؤون الأطفال صعوبة في التعرف علىٰ حقيقة ما يتعرض إليه الطفل بدقة إلا من خلال الجروح الظاهرة على الوجه والرأس، وفي بعض الأحيان نزيف الأنف وتورم العين، أو من خلال آثار الضرب المبرح بالحزام، ويحرص بعض الآباء علىٰ إعطاء ورقة إلى المدرسة كي تعفيه من ممارسة الألعاب الرياضية حتىٰ لا يتعرف مدرسوه علىٰ أي آثار للجروح علىٰ جسد الطفل، ويفضل الكثير من الأطفال السكوت على البوح بما يتعرضون له خوفًا من التهديد في المنزل.

ومن بين ١٢ مليونًا من الأطفال والناشئة في ألمانيا، يتعرض سنويًا حسب أرجح التقديرات زهاء ٣٠٠ ألف للاعتداء الجنسي، بينما لا تصدر أحكام بالعقوبات علىٰ مرتكبي الٱعتداءات الجنسية، إلا بمعدل ٢٠٠ في السنة فقط.

ومن أبشع ما ٱنتشر من ظواهر الإجرام الفاحش ما يسمىٰ بالسياحة الجنسية، وقد أصبحت تستهدف بلدانًا معينة مثل: الهند، والفلبين، وتايلاند، فهناك وصل مستوىٰ ٱنتشار دعارة الأطفال درجة جعلت من النادر العثور علىٰ فتاة بكر بين ١٠ و١٣ سنة من العمر، في كامل الأراضي الشمالية من تايلاند، وأصبحت التجارة بالفتيات تلجأ إلىٰ «استيرادهن» من البلاد المجاورة، لاووس، وبورما، والصين، وكامبوديا، لتغطية «الطلب» المتزايد عليهن من جانب السياح الغربيين في الدرجة الأولىٰ، وتقول المصادر الألمانية إن عدد السياح الألمان في تايلاند قد ٱرتفع مع ٱنتشار هٰذِه الظاهرة، بين عامي ١٩٨٠

و ١٩٩٢م إلى ثلاثة أضعاف ، وتقدر منظمة يونسيف عدد السياح الألمان طلبًا للمتعة الفاجرة بالأطفال والناشئة ، بحوالي ٤٠٠ ألف سائح سنويًا ، وأجرت المنظمة دراسة على عينات من سياح الفاحشة في تايلاند وأمثالها ، شملت ٢٨٠ شخصًا ، فكان منهم ٥٨ أمريكياً ، و٢٨ ألمانيا ، ثم يأتي على التتالي : البريطانيون ، فالأستراليون ، فالفرنسيون ، فاليابانيون ، فالسويسريون ، وتقدر المنظمة عدد البغايا من الفتيات الناشئات بين ١٤ و ١٨ سنة في تايلاند بحوالي ٨٠٠ ألف، والهند بحوالي ٤٠٠ ألف ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بما يتراوح بين ١٠٠ و ٣٠٠ ألف .

نشرت جريدة الشرق الأوسط(١) ما يأتي :

إن الإحصائيات في روسيا تشير إلى أنّ حوالي مليوني طفل في سنّ دون ١٤ عاماً يتعرضون لإيذاء والديهم ، ويلقى ١٥ في المائة منهم حتفهم ، بينما ينتحر ألفا طفل .

ونشرت جريدة الأهرام(٢) خبرًا بعنوان :

[٥٤ ألف طفل فرنسي يعانون من سوء المعاملة]

وجاء في هذا الخبر ما يأتي :

[تؤكد الأرقام أن في فرنسا ٥٤ ألف طفل يعانون من مشاكل نفسية معقدة بسبب سوء المعاملة . وحسب الدراسة التي أعدتها لجنة برلمانية يعاني ١٦ ألف طفل من قسوة الأهل معهم ، و ٤ آلاف يشكون من

---

(١) العدد الصادر في ٢٧/ ٢/ ١٩٩٦م .

(٢) العدد الصادر في ١٠/ ٩/ ١٤١٦هـ (٣٠/ ١/ ١٩٩٦م) .

الإهمـال ، و٧ آلاف يعانـون من استعمال أسلوب الضرب في تربيتهم ، بينما يشكو ألف طفل من الإيذاء العقلي الذي يمارس عليهم .

وسـجلت الدراسـة بضـعة آلاف أخـرى يعانـون مـن الاعـتداء الجنسي .

ولقـد طالبت اللجنة البرلمانية الفرنسية بتشكيل لجنة حكومية تضم علـى الأقل ثماني وزارات معنية في مختلف الجوانب بالأطفال ، تكون مهمتها مـواجهة مشـكلة سـوء المعاملـة ، ثـم بحـث مختلف الميادين التي تصب في النهاية في بوتقة الطفل ومستقبلة .

وحـذرت الدراسـة مـن تفاقم هذه الظاهرة وانتشارها خصوصاً في الضـواحي الباريسـية التـي تعـاني حالياً من مشكلات اقتصادية واجتماعية ضـخمة ، وربـما بسـبب هـذه المشـكلات كـان نصـيب الإيذاء الواقع على الأطفال كبيراً .

والغـريب أن غالبـية حـالات سـوء المعاملـة تحـدث داخـل الأسر نفسها .

وكانـت مشـكلة الطفـولة ومسـتقبلها قد شغلت في الفترة الأخيرة عددًا من المؤسسات الاجتماعية التي نظمت مؤتمرًا عالميًا باليونيسكو لبحث إمكانـية الـتغلب علـيها ، ورفعـت شـعارات تـنادي بأنه لا مستقبل بدون أطفال .

وأكـدت أن فرنسـا في خطـر ؛ لأن أطفالهـا يعيشـون في مـناخ غـير صحي من الناحتين النفسية والاجتماعية .

وركز المؤتمر على أن آلاف الأطفال يتعرضون للضرب والإيذاء الجسدي وهو ما يودي بحياة مئات منهم سنويًا ، وتستعدّ اللجنة البرلمانية لتقديم هذه الدراسة إلى رئيس الوزراء لتطالب بإعادة إنشاء وزارة مستقلة تهتم بشؤون الأسرة كما تشدد على تطبيق قانون العقوبات الصادر في ١٠ يوليو عام ١٩٨٩ بشأن مقاضاة كل من يثبت أنه اعتدى على طفل أو أساء معاملته] .

العنف ضد الأطفال في الأردن هل هو ظاهرة ؟

١٩٤٧ طفلاً ضحايا الاعتداءات الجسدية لعام ١٩٩٥ .

كثير من حوادث العنف ضد الأطفال تسجل قضاء وقدراً

ونشرت مجلة السبيل الأردنية مقالاً عن العنف ضد الأطفال في الأردن جاء فيه :

أوضحت إحصائيات دائرة السير لعام ١٩٩٥ أن عدد الأطفال دون الثامنة عشرة ، الذين تعرضوا إلى حوادث دهس بلغ (٣,٨٩٢) طفلاً، وأظهرت إحصائيات فرع الإحصاء الجنائي في إدارة التحقيقات والبحث الجنائي أن عدد الأطفال ضحايا الاعتداءات الجسدية بلغ عام ١٩٩٥ (١٩٤٧) طفلاً والاعتداءات الجنسية (٣٨٠) طفلاً ، هذه الأرقام وردت في دراسة أعدها المقدم بشير البلبيسي وقدمها في ورشة العمل التي إقامتها جمعية زهر الأردن للمشاريع التنموية بالتعاون مع اليونسيف حول موضوع الإساءة للأطفال .

وفي ورقة العمل التي قدمها الدكتور وليد سرحان حول أنواع الإساءة وأثرها النفسي أورد أربعة أنواع للإساءة : هي الإساءة الجسدية ، والجنسية ، والإهمال ، والإساءة العاطفية والنفسية .

الإساءة الجنسية :

من العادة أن تنكشف هذه الإساءة بسرعة إذا كان الفاعل غريباً، أما إذا كان من أفراد الأسرة أو الأصدقاء والمعارف فقد لا تكشف إلا بعد سنوات طويلة ، ومع عدم وجود علامات جسدية واضحة للإساءة ، إلا أنها قد تظهر في سلوكيات متنوعة ، مثل السلوك واللعب الجنسي المبالغ فيه تحت سن ٦ سنوات ، القلق المتعلق بالجنس بين سن ٧ – ١٢ سنة ، وفي سنوات المراهقة الكثير من مظاهر الانحراف .

والأطفال في سن مبكرة لا يدعون هذه الإساءات ولا يفصحون عنها بسهولة خصوصاً أنها غالباً ما يهددون بعدم الإباحة ، ويخافون أن ما يحدث هو خطأ ويشعرون بالذنب ويكونون في صراع وخوف من أن تنشق الأسرة ، وقد لا يدرك الطفل لصغر عمره وإدراكه ما يحدث بالفعل ويتعرض الأطفال من الجنسين وفي كل الأعمار لهذه الإساءة ، وغالبًا ما يكون المسيء رجلاً قريباً أو معروفاً للطفل ، ونادراً ما تقوم المرأة بهذه الإساءة ، ومما يزيد من احتمال الإساءة أن يكون أحد الوالدين قد تعرض للإساءة ، والإدمان على الكحول ، ووجود خلل في العلاقة الجنسية بين الوالدين ، وفي الحالات التي يكون فيها الأب ذو انحرافات جنسية معروفة، وغالباً ما تثار هذه المشكلة من خلال مراجعة الأطباء النفسيين

لمشاكل أخرى غير الإساءة الجنسية ، ولكن تبدأ الشبهات تحوم حول الموضوع من خلال تقييم الحالة ، ومهما كانت الآثار الجسدية للإساءة الجنسية فإنها قد تلتئم ، ولكن الأذى النفسي الذي تسببه هذه الإساءة قد يبقى مع الطفل حتى شيخوخته .

فصل

ذكرنا سابقًا حديث عبادة بن الصامت وحديث أبي موسىٰ، ووقفنا أمامهما وقفةً متأملةً، وتبينًا فيهما صورة للمجتمع الإسلامي الراقي الذي يرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويكرم السلطان العادل، ويعرف للعالِم حقَّه.

ونودُّ أن نخصَّ العالِم بحديثنا في هٰذه الكلمة.

إنَّ للعالم في المجتمع الإسلامي مكانةً ساميةً، وقد سبق أن أوردنا كلمة ابن عباس، إذ كان يرفع أبا العالية ميمون بن مهران علىٰ سريره، وقريش أسفل منه ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفًا ويُجْلِسُ المملوك علىٰ الأسرة.

وكيف لا تكون للعالم هٰذه المكانة عند المسلمين وهو الوارث للنبي ﷺ؟ فالعلماء ورثة الأنبياء، وقد آستمر هٰذا التوقير للعلماء علىٰ مدىٰ العصور، حتىٰ إن أكثر العلماء كانوا من الموالي وقد أخذنا عنهم وكانوا أئمة متبعين.

ذكر الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح في آخر كتابه «علوم الحديث»[1]:

رُوِّينا عن الزهري قال: قدمت علىٰ عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟

قلت: من مكة.

(١) أنظر: «علوم الحديث» ص ٣٦٠-٣٦٢. وانظر «حياة الحيوان» ٢/ ١٢٦، و«تحفة الأحوذي» ١/ ٢٥ .

قال: فمن خَلَّفت بها يسودُ أهلها؟

قلت: عطاء بن أبي رباح.

قال: فمن العرب هو أم من الموالي؟

قلت: من الموالي.

قال: فبم سادهم؟

قلت: بالديانة والرواية.

فقال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس، ثم قال: فمن يسود أهل اليمن؟

قلت: طاووس بن كيسان.

قال: فمن العرب هو أم من الموالي؟

قلت: من الموالي.

قال: فبم سادهم؟

قلت: بما سادهم به عطاء.

قال: من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس، ثم قال: فمن يسود أهل مصر؟

قلت: يزيد بن حبيب.

قال: فمن العرب أم من الموالي؟

قلت: من الموالي. فقال كما قال في الأولين، ثم قال: فمن يسود أهل الشام؟

قلت: مكحول الدمشقي.

قال: فمن العرب أم من الموالي؟

قلت: من الموالي. عبدٌ نوبيٌ أعتقته آمرأة من هذيل.

فقال كما قال آنفًا. ثم قال: فمن يسود أهل البصرة؟

قلت: الحسن بن أبي الحسن.

قال: من العرب أم من الموالي؟

قلت: من الموالي.

قال: ويلك فمن يسود أهل الكوفة؟

قلت: إبراهيم النخعي.

قال: من العرب أم من الموالي؟

قلت: من العرب.

قال: ويلك يا زهري، فرَّجت عني. والله لتسودنَّ الموالي علىٰ العرب حتىٰ يخطب لها علىٰ المنابر، وإن العرب تحتها.

قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، فمن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط.

وقد ذكر صاحب «تراجم الحنفية»(١) هٰذه القصة علىٰ نحو آخر وفيها: أن السائل هشام والمسؤول عطاء، وسياقها هنا أتمُّ.

وأكثر القرَّاء السبعة من الموالي، خمسة منهم من الموالي، ولم يكن فيهم من العرب إلا أبو عمرو بن العلاء البصري، وعبد الله بن عامر الشامي.

وشيخ المحدثين، وأمير المؤمنين في الحديث: محمد بن إسمٰعيل البخاري لم يكن عربيًّا.

وإمام الأئمة، وعظيم الفقهاء: الإمام أبو حنيفة النعمان كذلك لم يكن عربيًّا.

وشيخ كتاب العربية ورأس النقاد المتذوقين أبو عثمان الجاحظ

---

(١) «تراجم الحنفية» ١/ ١٣٦ .

كذلك لم يكن عربيًا.

لقد كان هٰؤلاء وأمثالهم محل التعظيم والقدوة والرجوع إلىٰ أقوالهم في معرفة شرع الله في عهودٍ كان الخلفاء فيها من العرب، واستمر الأمر كذلك إلىٰ العصور الأخيرة؛ حتىٰ بلغ الأمر في عصر العز بن عبد السلام أن يبيع العالِمُ الحُكَّام المماليك ويضع ثمنهم في بيت المال[(١)].

وهٰذه المكانة السامية للعلماء ليست مقصورة علىٰ زمن حياتهم، بل هي ممتدةٌ مستمرة بعد وفاتهم بخلاف كثير من الحكام والقواد الذين تزول ولايتهم وقيادتهم بوفاتهم أو عزلهم.

فما نزال نذكر البخاري وأبا حنيفة، ونقرأ بقراءة عاصم ونافع، وسيذكرهم من يأتي بعدنا وهم يقرؤون بتلك القراءات إلىٰ يوم القيامة.

وقد كان علماؤنا -علىٰ الرغم من هٰذه المكانة التي لا تساويها مكانة- يقررون دائمًا أن هٰؤلاء بشر من البشر، وما داموا بشرًا فهم معرَّضون للخطأ في أحكامهم، فلا يُقبل من أحد حكمٌ إلا أن يكون معتمدًا علىٰ نصٍّ من كتاب الله أو مما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ.

وإذا وقفنا علىٰ خطأ لعالم فلا يجوز لنا ٱتباعه.

وكوننا نقرِّر خطأ عالم من العلماء لا ينقص من قدره ولا مكانته ما دام مجتهدًا، بل هو مأجورٌ عند الله كما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه، وهو قوله ﷺ: «**إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد**»[(٢)].

---

(١) ٱقرأ قصة بيعهم في مقال رائع للأستاذ الرافعي في «وحي القلم» ٣/ ٥٨ بعنوان: أمراء للبيع.

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن هنا وجدنا التحذير من زلة العالم، سواء كانت عن ٱجتهادٍ أو عن ٱنحرافٍ فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إني لأخاف علىٰ أمتي من بعدي من أعمالٍ ثلاثةٍ**». قيل: وما هي يا رسول الله؟قال: «**أخاف عليهم من زلة عالم، ومن حكمِ جائرٍ، ومن هوىٰ متبعٍ**»(١).

فزلة العالم تضل الأمة؛ إذ تحلل الحرام، وتحرّم الحلال، وفي ذلك فساد للدين.

والجور يقوّض دعائم الملك، ويمهد لوجود طائفتين من الناس:

- منافقين يؤيدون الحاكم الجائر.
- وأذلة خانعين قهرهم الجور، وحملهم علىٰ الرضىٰ بالهوانِ، والإقامةِ علىٰ الضَّيمِ، وفي ذلك ما فيه من تخريب النفوس وتدميرها.

وهاتان الطائفتان لا تصلحان لحمل رسالة الإسلام إلىٰ الدنيا.

وأما الهوىٰ المتبع فهو طريق الضلال، وسبب تفرق الأمة، وضياع قوتها، وذهاب ريحها، وضعفها، وخضوعها للغزاة الأعداء.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» ١٧/ (١٤)، والبزار في «البحر الزخار» ٨/ ٣١٤ (٣٣٨٤) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ٢/ ١١٠. من حديث عمرو بن عوف ﷺ والحديث ضعفه المنذري، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

آداب المعلم والمتعلم

وهناك صفاتٌ لأهل العلم(١) ينبغي أن يتحلوا بها طلابًا وأساتذة، وقد كان مجتمعنا المسلم في كل عصوره يتصف بها، وقد أدركت شيئًا منها في العلماء الذين عرفتهم وسأذكر أولاً آداب المتعلم ثم أذكر آداب المعلم.

آداب التلميذ: وكثيرٌ منها يرد في حق الأستاذ:

١- ينبغي أن يخلص النية، حتىٰ يكون طَلَبُه للعلم عبادة يُثاب عليها، وإنَّما الأعمال بالنيات، وإخلاص النية أن يكون تعلمه ليكسب رضوان الله، وليكون قائمًا بما أمره به الله، منتهيًا عما نهاه الله، وأن يريد ما عند الله، وألا يجعل علمه وسيلة من وسائل الكسب، أما إذا أراد بعلمه الاكتساب أو الرياسة والوجاهة أو السمعة وأن يصرف وجوه الناس له لم يكن طلبه للعلم مقربًا له من الله.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَن تعلَّم علمًا يُبتغىٰ به وجهُ الله؛ لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يومَ القيامة**»(٢). يعني: ريحها.

---

(١) أنظر في هٰذا: «الإحياء» ١/ ٥١-٨٨ و«المجموع» ١/ ٣٩-٧٢ و«الجامع لبيان العلم» لابن عبد البر و«أدب الدنيا والدين» للماوردي و«روضة العقلاء» لابن حبان و«عيون الأخبار» لابن قتيبة و«التبيان» للنووي و«أخلاق العلماء» لمحمد سليمان.

(٢) رواه أحمد ٢/ ٣٣٨، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وابن حبان (٧٨)، والحاكم ١/ ٨٥، والخطيب في «تاريخه» ٥/ ٣٤٦-٣٤٧، من حديث أبي هريرة ﷺ. وللحديث شواهد عن: عبد الله بن عمر، وجابر، وأنس، وكعب بن مالك، وحذيفة، والحديث صححه العلامة الألباني بمجموع طرقه، أنظر: «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (١٠٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٢- الأدب مع الأساتذة وتوقيرهم، وينبغىٰ أن يدعو لأستاذه، وعليه أن يستفيد منه ولا يزعجه.

٣- التواضع للعلماء ولأساتذته خاصة، وخلق التواضع ينبغي أن يتصف به المسلم مع الناس جميعًا.

٤- شكر أساتذته إن ٱستفاد منهم شيئًا.

٥- التلطف في السؤال وعدم إضجارهم، وينبغي أن يختار الوقت والظرف الذي يكون الأستاذ به نشيطًا مستعدًّا للإجابة، وأن يتأدب بآداب الإسلام في السؤال، فلا يسأله عن أمرٍ لم يقع، ولا يسأله وهو مشغول، أو في وقت منامه أو طعامه.

٦- أن يبتعد عن كل مظهر من مظاهر الأثرة والأنانية.

٧- أن يبتعد عن المراء الذي قد يفهم منه الحرص علىٰ لفت الأنظار إليه.

٨- أن يعمل بما علم، والعمل وسيلة تثبت الحفظ، وتشرح الصدر، وتعين علىٰ متابعة الطريق.

٩- أن يتصف بالحلم فيتحمل كل ما يلقىٰ من المتاعب. قال الإمام النووي[(١)]: «وينبغي أن يصبر علىٰ جفوة شيخه، وسوء خلقه، ولا يصدُّه ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله».

١٠- العفو عمَّن أساء إليه والبعد عن الحقد عليه.

١١- ستر ما يراه من عيوب الناس.

١٢- الحرص علىٰ الوقت؛ فهو رأس مال الإنسان، ولا سيما طالب العلم، فيبتعد عن إضاعة الوقت، وهٰذا الخلق مهم غاية

---

(١) «المجموع» ١/ ٦٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأهمية في هٰذا العصر، الذي كثرت فيه الملهيات والصوارف من إذاعة وتلفاز وفيديو وصحف ومجلات .

١٣- ألا يعاشر أحدًا من الأشرار، بل يخالط الأخيار، ويَصبر نفسه معهم، ويستفيد من صحبتهم في العلم، والعبادة، والخلق.

١٤- أن يكون عفَّ اللسان: لا يغتاب الناس، ولا يقع في أعراضهم، ولا يتلفظ بالهجر من القول، بل تكون ألفاظه إذا نطق ذكرًا لله، أو أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، أو مذاكرة لمسائل العلم.

١٥- أن يكون عفيفَ اليد، لا يسأل الناس، ولا يحرص علىٰ أن يأكل عند الناس ويتلقىٰ إكرامهم، وذلك بالتعريض والتلميح أو ما إلىٰ ذلك، فالغنىٰ هو غنىٰ النفس، وإذا كان لديه مالٌ فليكن كريمًا قَدْرَ طاقته.

١٦- أن يكون دائم الشكر لله، ولمن أحسن إليه، كثير الذكر لله تعالىٰ.

١٧- أن يستكثر من النوافل والقربات ولننظر في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

١٨- الصبر علىٰ طلب العلم، فقد يلاقي طالب العلم صعوبة في تحصيل مسائل العلم فهمًا واستيعابًا فليصبر، وقد يجد الصعوبة في الحصول علىٰ الكتب والمذكرات فعليه أن يصبر، وقد يتعرض لأذىٰ الناس من الأوباش والأشرار فعليه أن يصبر، وقد يقاسي آلام الغربة، وهي شاقة -لا سيما علىٰ الناشئ الذي لم يعتد أن يفارق أهله وبلده- فعليه أن يصبر، وقد يكون فقيرًا، وطلبه للعلم سيزيده فقرًا فعليه أن يصبر.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

١٩- الدأب علىٰ طلب العلم والتعلق به وحبه.

قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟

قال: أسمع بالحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم به مثل ما تنعمت به الآذان.

فقيل له: كيف حرصك عليه؟

قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال.

قيل له: فكيف طلبك له؟

قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره[(١)].

٢٠- أن يحسن ٱختيار الأستاذ، فلا يتعلم إلا ممن كملت أهليته، وجمع بين العلم الواسع والورع والتقوىٰ. فقد كان كثير من العلماء يقولون: إن هٰذا العلم دين؛ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم.

قلت: فما القول فيمن يتلقون علمهم الديني في أوربا علىٰ اليهود والنصارىٰ، ويرجعون إلىٰ بلاد المسلمين يشيدون بهم ويثنون عليهم.

٢١- أن يحذر من الغرور، وكثير من طلبة العلم إذا حصَّلَ عددًا من مسائل العلم يظن نفسه أنه أصبح عالمًا، فيقحم نفسه في كل مجال، فيفتضح أمره لدىٰ أهل العلم ويقع في سخط الله؛ لأن أجرأ الناس علىٰ الفتيا أجرؤهم علىٰ النار، ويتبع الغرورَ دائمًا تزكيةُ النفس والله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النّجم: الآية ٣٢]

٢٢- أن يوطن نفسه علىٰ متابعة البحث في الأمور التي هي من قبيل فروض الكفاية، هٰذا إن كان أهلاً للمتابعة.

ففي علمائنا الأقدمين من بلغ مرتبة عالية من العلم وهو في سن

---

(١) وانظر في الدأب علىٰ طلب العلم كلامًا نفيسًا يحكيه الإمام الغزالي عن نفسه في كتاب «المنقذ من الضلال» ص٧٩ تحقيق صليبا وعياد.

صغيرة، فهٰذا النووي الذي لم يعش إلا بضعًا وأربعين سَنة دَلَّت كتبه علىٰ تبحره في العلم.

ويتحقق هٰذا للمرء بالإخلاص والدأب والبعد عن المغريات والمنافع المادية.

هناك أميةٌ من نوعٍ خطير، يتطاول فيها جهلةٌ علىٰ الحقيقة والعلم؛ بدعوىٰ أنهم يحملون شهادةً.

وهٰذه مصيبة أصابت العلم، إنها أضحوكة الشهادات العالية، فكم من حاملٍ لهٰذا اللقب وهو لا يفقه شيئًا، إما لضعف في تحصيله، أو لضعف في ملكاته؛ وإما لأنه تلقَّىٰ علوم الدين واللغة علىٰ أساتذة يهودٍ ونصارىٰ فاستطاعوا أن يؤثروا عليه شيئًا من التأثير.

أنا لا أقول إن هٰذه هي الصورة في كل العالم الإسلامي، ولكنني أؤكد أن كثيرًا من بقاع العالم الإسلامي يعاني من هٰذه الأمية العلمية.

والحمد لله أنه ما تزال بقيةٌ قليلةٌ تسلك في مسائل العلم السبيل السوي الصحيح، وأحسب أنها من الطائفة التي أخبر رسول الله ﷺ أنها ظاهرة علىٰ الحق لا يضرها من خالفها حتىٰ يأتي أمر الله.

وهٰذه الطائفة يجب أن تطرح علىٰ نفسها هٰذا السؤال:

كيف نستطيع أن نتلافىٰ هٰذا التدهور الذي يقوم في دنيا المسلمين؟

إنها مسؤولية، والمسؤولية تتناسب مع الوعي والقدرة علىٰ العمل.

وما تزال القدرة علىٰ العمل متاحة لكثير من العلماء الواعين ذوي الاستقامة.

٢٣- وعلىٰ الطالب أن يساعد أستاذه في أمور دنياه، فهٰذا شرف للطالب، ومهما بذل من جهد ووقت ومال فإنه قليل بالنظر إلىٰ ما قدم الأستاذ له.

آداب المعلم:

بالإضافة إلىٰ كثير مما ورد في آداب التلميذ نذكر ما يأتي:

١- الإخلاص، ومراقبة الله في السر والعلن، ومحاسبة نفسه في ذلك. وهٰذا يقتضيه أن يقصد بتعليمه وجه الله، ولا يشين علمه وتعليمه بشيءٍ من الطمع.

٢- أنْ يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، وأن يتصف بمكارم الأخلاقِ.

٣- أنْ يتصف بالزهد في الدنيا ومتاعها.

٤- أنْ يتصف بالسخاء علىٰ الطلاب، وقضاء حاجة المحتاجين منهم.

٥- أنْ يتصف بطلاقة الوجه.

٦- أنْ يتصف بالحلم ويبتعد عن الغضب.

٧- أنْ يتصف بالصبر علىٰ الطلاب وعلىٰ العامة.

٨- ألاّ يكون عنده ٱستكبار عن الحق، بل يجب أن يكون رجاعًا إلىٰ الحق، فيقبل الحق ولو كان من أحد تلامذته، وإنه ليكبر في أعين المنصفين عندما يعترف بخطئه، ويعلن رجوعه عنه.

٩- أن يكون متثبتًا مما يقول، ولا يجترئ علىٰ القول بغير علم، وعليه إذا سئل عمّا لا يعلم؛ أن يقول: لا أعلم[(١)].

١٠- أن يكون ورعًا بعيدًا عن مواطن الشبهات.

١١- أن يقول الحقَّ لا تأخذه فيه لومة لائم، وألا يعمد إلىٰ

---

(١) وهناك آثار ٱنظرها في «سنن الدارمي» ١/ ٦١ وما بعدها، وفي «جامع بيان العلم وفضله» ٢/ ٥١ وما بعدها.

المجاملة والنفاق **«ورجل قام إلىٰ إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[1].

١٢- أن يكون قانعًا بما رزقه الله، وأن لا يتكالب علىٰ الدنيا.

١٣- ألا يتردد علىٰ الأمراء والأغنياء فذلك يؤذيه إلا إذا كانت هناك مصلحة إسلامية راجحة.

١٤- أن يكون حريصًا علىٰ مصلحة الطلاب.

١٥- أن يكون شاعرًا بالمسؤولية، والمسؤولية تتناسب مع الوعي والقدرة، وعليه أن يشعر بمسؤوليته إزاء الواقع الإسلامي المتخلف، ويفكر بكيفية الإصلاح.

١٦- أن يحذر من الحسد، والرياء، والإعجاب، والغرور، واحتقار الناس وإن كانوا دونه، فهٰذه الصفات تحول بينه وبين ٱنتفاع الناس من علمه.

وطريقه في نفي الحسد، أن يعلم أن حكمة الله ٱقتضت جعل هٰذا الفضل في هٰذا الإنسان.

وطريقه في نفي الرياء: أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة، فلا يشتغل بمراعاتهم؛ فيتعب نفسه، ويضر دينه، ويحبط عمله، ويرتكب ما يسخط الله تعالىٰ عليه.

١٧- دوام مراقبة الله في علانيته وسره.

١٨- أن يحافظ علىٰ: قراءة القرآن، والأذكار، والدعوات، ونوافل الصلوات، والصوم، وغير ذلك.

١٩- أن يستمر مجتهدًا في الٱشتغال بالعلم قراءة وإِقراءً، ومطالعةً ومذاكرةً.

٢٠- أن يحمل نفسه علىٰ التصنيف إن كان من أهله، فالتأليف

---

(١) الحاكم ٣/ ١٩٥، وانظر «الصحيحة» برقم ٣٧٤.

يعلّم ويركز المعلومات، ويلزم بالمطالعة، ويطلعه علىٰ حقائق العلم ودقائقه، ويضطره إلىٰ التفتيش والبحث والتحقيق والمراجعة.

٢١- ألا يستنكف من التعلم ممن هو دونه في سنٍّ أو نسبٍ أو منصبٍ.

٢٢- أن يحرص طلابه علىٰ الاْستفادة من الوقت والاشتغال في كل وقت، ويطالبهم بحفظ ما يلزم حفظه، وينير أذهانهم بطرح الأسئلة المهمة عليهم.

٢٣- من أهم ما ينبغي عليه مراعاته ألا يَتَأَذىٰ من تلميذ يقرأ عليه إذا قرأ علىٰ غيره. قال أيوب: ليس تعرف خطأ معلمك حتىٰ تجالس غيره[(١)].

٢٤- وللمعلم مهمةٌ مزدوجةٌ فهو مطالبٌ:

- بطلب المسألة من مظانها ومداومة البحث.
- وبتعليم الناس.

٢٥- أن يحافظ علىٰ الوقار مع التواضع والسكينة، وأن يقلل من المزاح.

٢٦- أن يتجنب الثناء علىٰ نفسه.

٢٧- أن يكون قدوة حسنة لطلابه وللناس، فيعمل بما علم[(٢)]، ويكون علىٰ درجةٍ عاليةٍ من الورع والخشوع والخوف من الله.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٩٩.

(٢) انظر في هٰذ كتاب «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي.

الوسائل التعليمية

الوسائل التعليمية كثيرةٌ، منها القديم، ومنها الحديث.

١- من أهم هٰذه الوسائل: الحلقات العلمية الدورية، وقد أدركنا عددًا من العلماء يعقدونها، ويستمرون علىٰ حضورها السنين التي تصل إلىٰ الخمسين ونحو ذلك، وهٰذه الحلقات علىٰ نوعين:

- حلقاتٌ في البيوت أو في بيت الشيخ.
- حلقاتٌ في المساجد.

والحاضرون فيها لا يشترط فيهم سِن ولا شهادةٌ، ولا يطالبون بأي شرطٍ.

٢- المدارس الحديثة علىٰ مختلف درجاتها، من ٱبتدائية، ورياض أطفال، ومتوسطة، وثانويةٍ، وخاصةٍ، وحكوميةٍ (وهناك أنواع أخرىٰ وهي المدارس المهنية والصناعية) وهي في غاية الأهمية.

وعلىٰ العلماء والدعاة العملُ فيها والإفادة من هٰذه المدارس، وإيصال ما يرونه من العلم والحق إلىٰ هٰؤلاء الطلاب، الذين سيكونون في المستقبل رجالات البلد.

٣- الرسائل والنشرات والكتب.

٤- الوسائل الصوتية (شرائط الكاسيت والفيديو).

٥- الإذاعة والتلفاز، وهٰذه وسائل ذات نفوذ كبير.

٦- الصحافة بأنواعها من جرائد يومية ومجلاتٍ أسبوعيةٍ وشهريةٍ.

٧- مجالسة العلماء للناس في مجالس مفتوحة، يتلقون فيها أسئلتهم، ويردون فيها علىٰ ٱستفساراتهم. وهٰذه المجالس جيدة

عظيمة النفع، وقد ٱستمرت علىٰ طيلة هٰذه العصور حتىٰ الوقت الحاضر، فينبغي أن يحرص الناس علىٰ حضورها.

٨- الرحلات العلمية والتعبدية، كالرحلة إلىٰ البيت الحرام لأداء الحج أو العمرة، فمصاحبة أهل العلم للناس في مثل هٰذه الرحلات تعلمهم العلم والسلوك.

٩- زيارة الناس للعلماء، وزيارة العلماء للناس وسيلة من وسائل التعليم.

ورحم الله الشافعي الذي يقول[1]:

إن زارنىٰ فبفضله أو زرته ... فلفضله فالفضلُ في الحالين له

وينبغي أن تستغل المواسم كالعيدين، ومناسبات الزواج ونحو ذلك.

ففي هٰذه الزيارات يمكن أن تطرح القضايا التي تهم الناس، ويُعرَّفون فيها حكم الله.

١٠- المحاضرات العامة والندوات في المساجد والمدارس والثكنات والجامعة.

١١- إدخال عدد كبير من الطلاب ذوي الإمكانيات في الجامعات الإسلامية ولا سيما الطلاب الذين يأتون من بلاد يحكمها كفار، أو ناسٌ علمانيون، أو أحزابٌ ملحدةٌ، فكلما ٱستطعنا أن نيسِّر سُبل وصول هٰؤلاء الطلاب الراغبين في العلم إلىٰ البلاد التي فيها معاهد وجامعات تدرس الشريعة دراسةً سليمةً نكون قد أدينا خدمة

(١) «أقوالٌ مأثورةٌ» ٣٠١.

إلىٰ ديننا، ولننظر ما تفعله دولة اليهود عليهم لعنات الله، أو دولة الشيعة.

إن الدول التي كانت محكومة بالشيوعية، والدول الأفريقية، والدول التي تحكمها أحزاب ملحدة، كل هٰذه الدول يجب التفكير بقَبول أبنائها في الجامعات الإسلامية: كالأزهر، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العلم في خدمة الكتاب والسنة

عن عمرو بن عوف المزني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله»**

ولا يُعرف كتاب الله، ولا سُنة رسوله ﷺ إلا بالعلم، وإن التمسك بهما سبيل العصمة من الضلال. ولذا كان للعلم في المجتمع الإسلامي هٰذه المكانة السامية. ولله درُّ أحمد بن عمر بن عبد الله بن عصفور(١) حيث قال:

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلمُ ... وعنه فكاشف كل من عنده فهمُ
ففيه جلاءٌ للقلوب من العمىٰ ... وعونٌ علىٰ الدين الذي أمره حتمُ
فإني رأيت الجهل يزري بأهله ... وذو العلم في الأقوام يرفعه العلمُ
يعدُّ كبير القوم وَهْوَ صغيرهم ... وينفذ منه فيهمُ القول والحكمُ

---

(١) وهو غير ابن عصفور الساعدي (علي بن مؤمن المتوفىٰ سنة ٦٦٩هـ) فأحمد بن عمر كان معاصرًا لابن عبد البر المتوفىٰ سنة ٤٦٣ إذ يقول: «وأنشدني أبو القاسم أحمد بن عمر بن عبد الله بن عصفور رحمه الله لنفسه شعره هٰذا، وهو أحسن ما قيل في معناه» قلت: ولم أجد له ترجمة فىٰ «الأعلام».
ثم وجدت له ترجمة موجزة فىٰ «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ٧٤٦/٤ فقال: (أحمد بن عمر بن عبد الله بن منظور الحضرمي الإشبيلىٰ أبو القاسم يعرف بابن عصفور، كان ببلده فقيهًا مشاورًا خطيبًا فاضلًا صالحًا زاهدًا عالمًا من أهل العلم والأدب وكان شاعرًا مطبوعًا) ثم نقل عن أبي حيان أنه توفي ببلده سنة ٤١٠هـ. وهو من شيوخ ابن عبد البر. وله ترجمة في «جذوة المقتبس» ٣١ و«بغية الملتمس» ١٩٥ والصلة لابن بشكوال ٣٠ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأيُّ رجاءٍ في أمرئٍ شاب رأسه ... وأفنىٰ سنيه وهو مستعجمٌ فدمُ
يروح ويغدو الدهر صاحب بطنةٍ ... تركَّبَ في أحضانها اللحمُ والشحمُ
إذا سئل المسكين عن أمر دينه ... بدت رُحَضَاءُ العيِّ في وجهه تسمو
فخالطرواةالعلمواصحبخيارهم ... فصحبتهم زينٌ وخلطتهم غنمُ
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم ... نجومٌ إذا ما غاب نجمٌ بدا نجمُ
فوالله لولا العلم ما أتضح الهدىٰ ... ولا لاحمن غيبالأمورلنارسم[(١)]

وقال سابق البربري[(٢)]:

العلم فيه حياةٌ للقلوب كما ... تحيا البلاد إذا ما مسَّها المطرُ
والعلم يجلو العمىٰ عن قلب صاحبه ... كما يُجلِّي سوادَ الظلمة القمرُ
وليس ذو العلم بالتقوىٰ كجاهلها ... ولا البصير كأعمىٰ ماله بصرُ[(٣)]

المصدران الأصليان لهٰذه الشريعة هما الكتاب والسنة، ونعني بالسنة التي هي مصدر من مصادر الشريعة: ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير. وبهما نقيس كل قول لأي عالم؛ لأنهما يعتمدان علىٰ الوحي، والوحي لا يخطئ، أما البشر فهم مُعَرَّضون للخطأ. فإذا عرفنا زلة لعالم فلنحذر متابعته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ثلاثٌ يهدمن الدِّين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون».

(١) «جامع بيان العلم» ١/ ٤٩.
(٢) هو سابق بن عبد الله البربري، أبو سعيد، شاعر من الزهاد، والبربري لقب له، ولم يكن من البربر. سكن الرقة؛ وكان يفد علىٰ عمر بن عبد العزيز. توفي نحو سنة (١٠٠ هـ). ولابنتي (فاطمة) رسالة عنه، درست فيها حياته وجمعت طائفة من شعره.
(٣) «جامع بيان العلم» ١/ ٥٠.

وخطر السلطان إذا ضل أنَّ الأمة تضل بضلاله، وهٰذا أمرٌ طبيعيٌ فقد يتحكم في أمور معاشهم، فيضطر ضعيف الشخصية أن يساير ويجامل فيقع في الآنحراف.

وكذلك فإن صاحب السلطان هو الذي يضع مناهج الدراسة لأولادهم، وبيده أدوات الإعلام ووسائله، يستخدمها في تأييد ما يتبناه من الزيغ والضلال، ولا بُدَّ أن يترك ذلك أثرًا.

وقد شبّه العلماء زلَّة العالِم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

قال الإمام ابن عبد البر: «وإذا صحَّ وثبت أن العالم يزل ويخطئ لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه»[1].

إنَّ المسلم مطالبٌ مع آحترامه للعلماء، أن يميز في أقوالهم نوعين:

أولهما: ما ينقلونه من أحكام الشرع مؤيدين أقوالهم بنصوص من الكتاب والسنة الصحيحة، فهٰذا النوع مقبولٌ وملزِم؛ لأنه شرع الله وحكمه. وهو الذي حضنا رسول الله علىٰ التمسك به.

وثانيهما: ما يذكرونه من آستنباطاتٍ واجتهاداتٍ وآراء، فهٰذه الآراء ينبغي أن يفيد منها المسلم، بعد أن يعرضها علىٰ الكتاب والسنة، فإذا رأىٰ أنها موافقةٌ لهما أخذها وعمل بها، وإن رآها مخالفة فلا يجوز أن يأخذها ولا أن يعمل بها، ولا بُدَّ من أن نشير إلىٰ أمرٍ مهمٍّ غاية الأهمية، وهو أنَّ هٰذا الذي ينظر إلىٰ أقوال العلماء ينبغي أن يكون من أهل النظر والعلم، فإن لم يكن كذلك فعليه أن

---

(١) «جامع بيان العلم» ٢/ ١١١.

يلجأ إلىٰ عالم جمع بين العلم والتقوىٰ، ويسأله عن الدليل، ويعمل بما يدلي إليه بعد أن يفهم ويعرف أن هٰذا القول يستند إلىٰ دليل. وذلك يكفيه. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

إن التنزُّه عن التقليد الأعمىٰ يصون شخصية الفرد عن التبعية المطلقة والانقياد التام، ويتيح له إمكانية الإبداع والاستدراك علىٰ العلماء السابقين، وإكمال ما بدؤوا به. إن الفكر والعلم تراثٌ مشتركٌ لأجيال الأمة علىٰ تعاقب أزمانها، والأمة التي يكون لها دور في قيادة فكر الإنسانية هي الأمة التي يُكمل بعض أبنائها بعضًا، ويُكمل الجيل اللاحق فيها ما تقدمه من أجيال.

وإن التنزه عن التقليد يجعل صاحبه قادرًا علىٰ حمل الرسالة التي آمن بها، وأن يمضي في هٰذا الطريق لا يبالي بما يلاقي من متاعب وعقبات، ومصاعب ومشكلات. وإنه لجدير حينئذ بأن ينجح في إقناع الناس برسالته، وهدايتهم إلىٰ الصراط المستقيم.

ويجعله هٰذا التنزه عن التقليد موضوعي النظرة، لا يتَّبع الرجال علىٰ أسمائها، ولكنه يحتكم إلىٰ المبادئ والمثل، فلا تختلُّ أحكامه، ولا تتذبذب مواقفه؛ لأنه ما دام ينفي العصمة عن البشر ولا يثبتها إلا للأنبياء والرسل فيما يبلغون عن الله، يرىٰ أن كل إنسان معرَّض إلىٰ الخطأ أو الفتنة والعياذ بالله.

يقول سيدنا علي ﷺ: «لا تَعرِفِ الحقَّ بالرجال، ٱعرفِ الحقَّ تعرف أهلَهُ»[(١)].

وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: من كان منكم مستنًّا فليستنَّ

(١) «الإحياء» ١/ ٥٨.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بمن قد مات، فإنَّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ أبرُّ هٰذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا، قومٌ ٱختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسَّكوا بهديهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم (١).

وكان ابن مسعود يقول لأصحابه: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدىٰ، أحلاس البيوت، سُرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثيات، تعرفون في السماء، وتخفون علىٰ أهل الأرض (٢).

وبعد فإن كتب السُّنة لتصور مجتمع الصحابة الكِرام الذين ذكرهم ابن مسعود أنه كان علىٰ هٰذا المستوىٰ الرفيع من الٱستقلال الفكري، والأصالة، والرغبة في العلم، والدعوة إلىٰ التعلم والتعليم.

والموقف الراجح مما نقل إلينا من كلام الصحابة: أنهم إذا ٱتفقوا علىٰ أمر كان هٰذا ملزمًا لنا. وكذلك إذا كان كلام الصحابي يتعلق بأمر غيبِي؛ لأن الأمور الغيبية لا مجال للاجتهاد فيها، ولابدَّ أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي ﷺ. وكذلك إذا كان كلامه متصلاً بأسباب النزول، أو بتفسير الكلمة لغويًا، فإنه ملزم؛ لأنهم أعرف باللغة، وعاصروا نزول الشريعة، ونقلوا تطبيق النبي ﷺ لأحكامها.

أمَّا إذا ٱختلفوا في المسألة الواحدة فعلىٰ أهل العلم أن يأخذوا ما هو أقرب إلىٰ الدليل بحسب الٱجتهاد.

---

(١) «جامع بيان العلم» ٢/ ٩٧، و «إعلام الموقعين» ٢/ ٢٠٢، و٤/ ١٣٩ و«الرسالة التدمرية» ١٤٥، و«الجامع» لابن أبي زيد القيرواني ١١٩، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ١/ ٣٥٠ عن عبد الله بن عمر.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ١٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فصل

الصحابة يناقشون ما يسمعون

أودُّ أن أورد حديث معاذ الذي يدعو فيه إلىٰ تعلم العلم، ويذكر الأسباب التي تدفعه إلىٰ هٰذه الدعوة، لنتبين الاْهتمامات التي كانت تشغل رجال التوجيه في ذاك المجتمع.

يقرر معاذُ أن العلم يقود إلىٰ خشية الله، وهٰذا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية ٢٨].

والعلم هو نفسه عبادةٌ إنْ خَلُصت النِّية وصَلُحت، ومعاذ في هٰذا الحديث يقرر عددًا من الحقائق التي دلت عليها ونطقت بها أحاديث ثابتةٌ عن النبي ﷺ.

يقول معاذ: «تعلموا العلم؛ فإنَّ تعلُّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربةٌ، وهو الأنيس في الوحدة، والدليل علىٰ الدين، والمصبِّر علىٰ السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة، هداةً يُقتدىٰ بهم، أدلةً علىٰ الخير، تُقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس يستغفر لهم، حتىٰ حيتان البحر وهوامُّه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها»(١).

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٣٩، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٥٥. قال ابن عبد البر: حديث حسن جدا، ولكن ليس له إسناد قوي.

قال الحافظ العراقي: «الحديث بطوله أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب «الثواب»».

إنّ المعاني التي وردت في هٰذا الحديث مقبولة تشهد لها نصوص ثابتة، بعضها في القرآن، وبعضها فيما صح من الحديث كما أشرنا إلىٰ ذلك آنفًا.

وأما الأحاديث التي تصور جيل الصحابة المستقل في تفكيره فسنورد بعضها فيما يأتي، لقد كانوا جيلاً مثاليًّا[1]، ربُّوا تربية إسلامية فاضلة، فهم يناقشون ما يسمعون لا يسكتون علىٰ أمر يرونه غريبًا أو متعارضًا مع ما فهموا من أحكام دينهم.

ولنضرب علىٰ ذلك بعض الأمثلة:

عن أبي ذر ﷺ أنَّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور (أي: الأموال) بالأجور، يصلون كما نصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال ﷺ: «**أَوَلَيْسَ الله قد جعل لكم ما تصدقون به؟ إنَّ بكلّ تسبيحةٍ صدقة، وكل تكبيرةٍ صدقة، وكل تحميدةٍ صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه وِزْر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[2].

ففي قوله ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» غرابة وقف أمامها

(١) أنظر «الحديث النبوىٰ» ص١٠٠ وما بعدها.

(٢) رواه مسلم (١٠٠٦).

الصحابة ﷺ، ولم يستطيعوا السكوت عليها؛ لأنَّ الذي وَقَرَ في أذهانهم أن الأجر إنما يكون علىٰ الواجبات والمندوبات التي يتحمل المسلم في أدائها شيئًا من المشقة، أما الشهوات التي يمارس الإنسان فيها غريزته فكيف يكون له فيها أجر إن أتاها؟

فقالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟! فبيَّن لهم ﷺ أن تصريف الشهوات في السبيل الذي شرعه الإسلام عمل طيب يثاب عليه فاعله؛ لأنه إن وضع هٰذه الشهوة في الحرام كان مذنبًا مؤاخذًا علىٰ فعله، وكذلك فإن من يحمل نفسه علىٰ التزام أحكام الشرع ولا يتعدىٰ حدود الله مثابٌ مأجورٌ.

أرأيتم إلىٰ هٰذا الموقف الذي يدل علىٰ الأصالة، والبعد عن الاتباع الأعمىٰ الذي يلغي الفكر والنظر؟

وفي الحديث جوانب كثيرة تستحق الدرس لكننا اقتصرنا علىٰ هٰذه الدلالة.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاكَ ظالما أو مظلومًا**» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره**»[1].

هٰذا مثلٌ آخر من الحياة الواقعية في عصر النبي ﷺ يدل علىٰ أن الفرد المسلم الذي رُبي في مدرسة النبوة المحمدية؛ لا يمكن أن يُقِرَّ هٰذا المبدأ «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**» لأنه يراه متعارضًا مع ما

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهمه من أحكام هٰذا الدين الذي يحارب الظلم ويأباه، قال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: الآية ٢٢٧] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر].

إن المسلم الذي وعىٰ هٰذه الآيات، وفهمها لابد من أن يثور في نفسه ٱستغراب لهٰذه المقولة: «**انصر أخاك ظالمًا، أو مظلومًا**» فينطلق صوتُ الرجل سائلاً بأدبٍ وجراءةٍ أيضًا: أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ فيوضح لهم الرسول ﷺ المراد من هٰذه العبارة علىٰ الوجه السليم الصحيح.

إنني كلما مررت بهٰذا الحديث؛ أعجب من هٰذا المستوىٰ الرفيع الذي بلغه المجتمعُ في ذاك العصر، ذلك أن هٰذه المقولة التي قالها الرسول ﷺ كانت تفهم في الجاهلية علىٰ نحوٍ آخر، والقوم حديثو عهد بجاهلية، ومع ذلك فلم يتلقوها ساكتين، بل سألوا واستوضحوا.

إن العرب كانوا يسيرون علىٰ النهج الذي يمثله هٰذا البيت:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ﷺ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات علىٰ ما قال برهانًا

ولكن الإسلام الذي صاغهم من جديدٍ، جعلهم يسألون الرسول ﷺ عن هٰذا التعارض الذي بدا لهم أول مرةٍ.

وعن نفيع بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتلُ والمقتولُ في النار**» قلت: -القائل هو: نفيع بن الحارث- يا رسول الله، هٰذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه**»(١).

فتقريره ﷺ أن المقتول في النار أثار الاستغرابَ لأول وهلةٍ عند نفيع وهو يسمع الحديث، فلم يكتم هٰذا الاستغرابَ، بل واجه النبي ﷺ بالسؤال؛ فأتاه الجواب مبينًا أن كلا من الرجلين كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه، ولكن عنصر المفاجأة كان لصالح واحد.

وهكذا نرىٰ أن جيلَ الصحابة تلقوا العلمَ بذهنٍ متفتحٍ، وشخصيةٍ متميزةٍ، وفكرٍ يناقش ويوازن، ولا يسكتُ عن إبداء ما في نفسه من التعارض حتىٰ تتوضحَ له الحقيقةُ، ويستقرَ في ذاته الرأيُ الصحيح الحق.

وإن في ذلك لعبرة ودرسًا لطلبة العلم.

---

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصل

العلم.. والعمل

إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعَ العلم كما ذكرنا ذلك أكثر من مرة، وأقمنا علىٰ ذلك الدليلَ القاطع، وهٰذا العلمُ علمٌ مستنيرٌ بعيدٌ عن التقليد الأعمىٰ، والنفعية الذاتية.

إن العلم إن لم يقترن بالعمل كان حجة علىٰ ابن آدم.

عن الحسن -رحمه الله- قال: «العلم علمان: فعلمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعلمٌ علىٰ اللسان، فذاك حجةُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- علىٰ ابن آدم»[1].

وقال المنذري: «عن جابر.. رواه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخه بإسناد حسن ورواه ابن عبد البر عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح»[2].

إنَّ المشكلة القائمة الآن -بين جماهيرِ الناس والعلماء في عددٍ من بلاد العالم الإسلامي- كامنةٌ في ضعف الثقة بالعلماء، والذي مكّن لهٰذه المشكلة أن تستفحل عواملُ عدة من أهمها:

الٱزدواجيةُ عند بعض هٰؤلاء العلماء، ومخالفتهم في سلوكهم لما يقولون للناس.

ومسايرةُ بعضهم للظلمة والطواغيت، وتسويغُ أفعالهم للعامة، والمبالغة في الثناء عليهم.

---

(١) رواه الدارمي ١/ ١٠٢، وابن عبد البر ١/ ١٩٠، والخطيب البغداديُّ في «تاريخه» ٤/ ٣٤٦ من حديث جابر مرفوعًا. وقال الألباني في «المشكاة» ١/ ٨٩: إسناده صحيح.

(٢) ٱنظر « الترغيب والترهيب» ١/ ٥١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وٱبتغاءُ الدنيا بعلمهم، والتردد علىٰ الأغنياء والموسرين.

ومسايرةُ بعضهم لبعض الفرق والطوائف التي تقوم علىٰ أساسٍ منحرفٍ.

ولن نأتي هنا بالتفصيل علىٰ هٰذه العوامل، ولكننا نودُّ أن نخصَّ بالذكر هٰذه الأزدواجية عند بعض طلبة العلم، والمفارقة الواضحة بين قولهم وسلوكهم.

إنَّ العالِم منظورٌ إليه، فإذا عرف الناسُ أنَّ فعله مخالف لقوله؛ زهدوا فيه، وأعرضوا عنه، ولم يعودوا يثقون به، وإذا حلتْ أزمة الثقة بين العقلِ المفكر للأمة وبين أفرادها كان الفساد والدمار.

إن السنة المطهرة لتروي أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا تعلموا مسألة سارعوا إلىٰ تنفيذها، لقد كانوا كأنهم الجند في الثكنة، فإذا وجه إليهم أمر يوميٌّ سارعوا إلىٰ تنفيذه فورًا.

عن عبد الله بن مسعود قال: كان الرجلُ منَّا إذا تعلمّ عشر آيات لم يجاوزهن حتىٰ يعرف معانيهنَّ والعمل بهنَّ.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتىٰ يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا[(١)].

وهٰذا يفسر لنا الأخبارَ التي تذكر بقاء أحدهم مدة طويلة في حفظ سورةٍ من سوره، فابن عمر يبقىٰ ثمان سنين في حفظ سورة البقرة [(٢)].

---

(١)، أنظر كتابنا «بحوث في أصول التفسير» ٩-٣٤-٦٩-٨٣.

(٢) أنظر «الموطأ» ١/ ٢٠٥ ومقدمة الطبري ط شاكر ١/ ٨٠ و«تفسير القرطبي» ١/ ٣٩-٤٠ و«تفسير ابن كثير» ١/ ٣ و«مقدمة في أصول التفسير» لابن تيمية.

إنَّ العلاقةَ بين العلم والعمل وثيقةٌ؛ فالعمل هو دليلُ تصديقِ المرءِ لصحة ما حفظه من مسائل العلم؛ لأنَّ من عَلِمَ بأن الطريق المؤدي إلىٰ البلدة الفلانية التي يقصدها هو هٰذا الطريق، وصدَّق هٰذه المعلومة، وهو يريد الوصول إلىٰ تلك البلدة لا بُدَّ من أن يسلكَه.

أما إذا تجنبه وسلك طريقًا آخر فإنَّ هٰذا الصنيع يدل علىٰ أن الرجل -إن كان حقًّا يريد تلك البلدة- غير مصدق لصحة المعلومة.

وهكذا فإن الإنسان إذا كان مؤمنًا بصحة ما علم، سارع إلىٰ العمل بمقتضاه، أما إذا ٱدَّعَىٰ أنَّه مؤمنٌ بأنَّ المرءَ سيلقىٰ في الحياةِ الآخرةِ جزاءَ ما عملَ في دنياه، ثم لم يعمل ما ينجيه في ذاك اليوم دلَّ ذلك علىٰ أنَّ إيمانه بما علم ليس قويًّا.

ومن هنا كانت دلالة الحديث الصحيح «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(١)] موضحةً هٰذا المعنىٰ؛ ولذلك قرر المحققون من العلماء: أن الإيمان يزيد وينقص، ولكلٍّ من الزيادة والنقصان عوامل، يزيد حتىٰ تتوارىٰ الأهواءُ والشهوات والمصالح من بين يديه ومن خلفه، وحتىٰ تكون خطواته كلها موصلة إلىٰ رضوان الله، وينقص حتىٰ تحيط بالمرء خطيئته وتحاصره المعاصي ويسقط في مهاوي الضلال والهلاك والعياذ بالله تعالىٰ.

إن العلم الذي وقف عليه الإنسان إن لم ينفعه بأن يعمل بمقتضاه ضره؛ لأنه مسؤول عن العمل بما علم، ورسول الله ﷺ يذكر أنه «لا

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تزول قدما عبد يوم القيامة حتىٰ يسأل عن أربع» [1] منها هٰذا السؤال: «وعن علمه ماذا عمل فيه».

إنَّ المسلم في المجتمع الإسلامي يندفعُ إلىٰ العمل بما علم؛ ٱبتغاءَ مرضاة الله، والنجاةِ من عذابه، وإنَّ عمله في هٰذا المجتمع المثالي تضبطه أحكام شريعة الله، وتحرسه رقابة الله، وتكون الرغبة في العمل الواجب منبعثة من الداخل، وكذلك يكون العزوف عن العمل المحرم، فهو لا يقترف مخالفة ولا يقع في محرَّم، حتىٰ ولو كان خاليًا لا يراه أحد من البشر، إنه يحس من أعماقه بأنَّ الله ناظر إليه؛ لأنه علم حقيقة الإحسان وآمن به، وهي: **«الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** [2]. إنه ينفذ ما يريده الشرع منه بحرص ذاتي، لا يحمله علىٰ ذلك خوف من عيون الشرطة، أو الوقوع في مسؤولية مخالفة القوانين والأنظمة واللوائح.

إن خوفه من الله عاصمٌ يعصمه من المخالفة والانحراف والزلل، إنه آمن بصحة ما علم من حقائق هٰذا الدين، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر] وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي بَرزَةَ الأسلمي، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة.

وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام].

أما الفردُ في المجتمعات العلمانية فهو يعمل بما تقضي به القوانينُ تحت حراسة رجال الشرطة، وخوفًا من عقوبات القوانين التي تقضي بها المحاكمُ، وهو في الغالبِ لا يعدم وسيلة يستتر بها عن أعين الشرطة، ولا طريقةً يحتال بها علىٰ اللوائح والأنظمة.

إنَّ الغاية من طلب العلم هي أن يعمل الإنسان بما علم من الخير، وأن يُعلِّم ذلك مَنْ حوله، فيكون قدوة للخير في قومه، وليحرص علىٰ أن يكون علمه وعمله وتعليمه خالصًا لله، لا حظَّ للنفس فيه، إنه عندئذ خليق أن يستجاب له وأن ينتفع الناس من علمه، ولا يجوز أن يكتم ما علمه الله، لا سيما إن تعيَّن، فالعقوبة علىٰ الكتمان كبيرةٌ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة].

ولقد جرىٰ السلفُ الصالح في المجتمع الإسلامي علىٰ أن يعمل المرء الصالح بعلمه ويعلم من حوله عملا بقوله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[(١)].

إنَّ مما يصور واقع الحياة العلمية التي كانت في عصر النبوة قيامَ الحلقات في المسجد حلقات العلم.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) من حديث ابن عمرو.

روىٰ مسلمٌ عن معاوية رضي الله عنه أنه قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده علىٰ ما هدانا للإسلام، ومنَّ به علينا. قال: «**آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة**»[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بمجلسين في مسجده: أحدُ المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه.

فقال رسول الله ﷺ: «**كلا المجلسين علىٰ خير، وأحدهما أفضلُ من الآخر، أما هؤلاء فيدعون الله، ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون، ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلمًا**» ثم أقبل وجلس معهم[(٢)].

إذن كانت هناك حلقات للعلم تُعقد في حياة الرسول ﷺ. وأحسب أن هٰذا أمرٌ طبيعي؛ ذلك لأنَّ العبادة فرض علىٰ كل مكلف، ولا يمكن أن تُؤدَّىٰ إلا بالعلم؛ ولذلك كان طلبُ العلم الذي يوصلُ معرفة أدائها فرضًا عينيًا علىٰ كل مسلم ومسلمة.

ومعلوم أنَّ العلم يكون أحيانًا فرض عين، لا يُعفىٰ منه مسلم أبدًا، كمعرفة التوحيد وأركان الإيمان، ومعرفة أحكام الصلاة،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٢) رواه الدارمي ١/ ٩٩-١٠٠، وابن ماجه (٢٢٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٥٠.

والصيام، والزكاة بالنسبة لمن ملك النصاب، والحج لمن ٱستطاع إليه سبيلا ، ومعرفة أحكام الحيض والنفاس بالنسبة للمرأة.

ويكون فرض كفاية إذا قام به البعض؛ سقط عن الباقي ، ويدخل فيه العلوم التجريبية التي تحتاج إليها الأمة، وكذلك التعمق في العلوم الشرعية واللغوية.

وهٰذه الحلقات تعين علىٰ ٱستمرار ٱتصال القلب بالله وتعلقه به، وبذلك تُطرد أسباب الغفلة من حياة المسلم كلما أرادت أن تغزو هٰذا القلب.

وحضور مجالس العلم يشعر المسلم بأنه ليس وحده في ميدان الحياة التي يصطرع فيها الخير والشر، والحق والضلال، بل معه غيره من المؤمنين الواعين الصادقين، وهٰذا يدفعه في طريق الخير، ويحول بينه وبين اليأس والإحباط، الذي صار إليه كثير من الرجال في عصرنا هٰذا.

وحضور هٰذه المجالس سبب من أسباب الرحمة، كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ:

«من نفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا؛ نفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر علىٰ معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلىٰ الجنة، وما ٱجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بَطَّأ

به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

أيُّ ترغيب هٰذا الذي نقف عليه في هٰذا الحديث! فالرحمة تغشىٰ هٰؤلاء الذين جاؤوا يتدارسون، والسكينة تتنزل عليهم، والملائكة تحف بهم مُكرِّمة حارسة معجبة مثنية علىٰ عملهم، والله ﷻ يذكرهم فيمن عنده.

و حضور هٰذه المجالس يزيد الإنسان علمًا لم يكن يعرفه، ويرسخ العلم الذي سبق أن تعلمه، وينأىٰ به عن النسيان إن عمل بما يعلم، وكذلك تعليمه الآخرين يُثبِّت المعلومات في ذهنه.

وحضور مجالس العلم تزيد الإيمان، فقد كان معاذ يقول لبعض من يلقاه من إخوانه: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[2]

وكان عبد الله بن رَوَاحَة، إذا لقي الرجلَ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «تعال بنا نؤمن ساعة» فقاله ذات يوم لرجل فغضب الرجل، فجاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ألا ترىٰ إلىٰ ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلىٰ إيمان ساعة؟! فقال ﷺ: **«يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهىٰ بها الملائكة»**[3].

وحضورُ مجالسِ العلمِ كسب لصاحبها؛ إذ تشغل وقته بما يعود

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩). وأبو داود (١٤٥٥) والترمذي (٢٩٤٥) وابن ماجه (٢٢٥).

(٢) علقه البخاري جزما في «صحيحه» كتاب: الإيمان، باب: الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام علىٰ خمس»، ووصله البيهقي في «شعب الإيمان» ١/ ١٨٨ (٤٣). وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ١/ ٤٨. وانظر كتاب «الإيمان» لابن أبي شيبة رقم (١٠٧) وقال الألباني: صحيح علىٰ شرط الشيخين.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٦٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

عليه بأعظم الفائدة؛ ذلك لأن من يحضرها:

- إما أن يكون ذاكرًا لما يسمع، عاملاً به، فيزداد الأمر لديه وضوحًا.

- وإما أن يكون ذاكرًا لما يسمع، غير عامل به، فحضوره يحضه علىٰ العمل.

- وإما أن يكون ناسيًا لما يسمع فيذكره ليعمل به.

- وإما أن يكون جاهلاً فيتعلَّم هٰذه المسألة، ويعمل بها، ويعلمها الناس.

وإن النفوس إن لم يشغلها أصحابها بالخير شغلتهم بالشر أو بما لا طائل تحته، فيضيع عليهم أثمن شيء يملك الإنسان، وهو وقته. فلا تترك نفسك للضياع.

وحضور مجالس العلم يدرأ كثيرًا من جوانب الشر، وما أكثرها من شبهات ومنكرات وبدع وخرافات.

ويفتح العلمُ أبواب الخير كلها: فالهدىٰ مع العلم في أكثر الحالات، والجهل مع الضلال، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى﴾ [الحجّ: الآية ٨] وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: الآية ١١٩].

والرشد مع العلم؛ قال ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد خيرًا فقهه في الدين وألهمه رشده**»(١).

(١) رواه البزار في «البحر الزخار» ٥/١١٧ (١٧٠٠) عن عبد الله بن مسعود. والطبراني في «الكبير» دون قوله (وألهمه رشده) وقال الألباني في «الضعيفة» (٥٠٣٢) ما مؤداه: صحيح دون قوله: «وألهمه رشده»..

وقال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[١].

والعلم طريق الجنة: قال ﷺ: «**ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**»[٢]

والعلم طريق الرفعة والتقوى، وبه يتفاضل الناس قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النَّمل].

ومجالسة العلماء والإدمان عليها تورث توعية وتبصُّرًا، ومذاكرتهم ساعة تعدل القراءة أيامًا بل شهورًا، كما قال ذلك الإمام النووي في «شرح مسلم».

وتورث الخوف من الله، وتدل على مكارم الأخلاق.

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (٩٨) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

(٢) سبق تخريجه قريبا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمة الإسلام أمة العلم

إنَّ الإسلام دينُ العلم، حضَّ عليه، وأقام مؤسساته، وحوَّلَ الأمة الأمية في عهد قصير إلىٰ أن تكون أستاذة الدنيا، ومعلمة الأنام، هٰذه حقيقة قررناها وأقمنا عليها الأدلة القاطعة، والبراهين الدامغة، والنصوص الناطقة من الأحاديث والآثار.

لقد أضحت هٰذه الحقيقة مُسَلَّمة من المسلمات يعترف بها الصديق والعدو، والقريب والبعيد، ولن أورد هاهنا أقوالا لهٰؤلاء وأولئك من علماء المسلمين، والفرنجة الذين شهدوا لأمة الإسلام بأنها كانت أمة العلم، ولكني أقتصر علىٰ ذكر كتابين ذكرا فضل الإسلام علىٰ الدنيا في نشر العلم، وإشادة الحضارة، وهما: كتاب «حضارة العرب» لغوستاف لوبون، وكتاب «شمس الله تسطع علىٰ الغرب» للمستشرقة الألمانية زيجرد هونكه[1].

لقد كان مِن حرص الرسول علىٰ نشر العلم ومحاربة الأمية أنه في غزوة بدر جعل تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة فداءً يفكُّ الأسيرُ به نفسَه من الأسر، فإذا فعل ذلك كان كمن فادىٰ

---

(١) ولدت في مدينة كيل بشمال ألمانيا عام ١٩١٢، وتقيم حاليا في مدينة بون، وأشهر كتاب وضعته هو هٰذا الكتاب «شمس الله» الذي زاد عدد النسخ التي بيعت منه علىٰ مليون نسخة، وقد ترجم إلىٰ ١١ لغة حية بينها اللغة العربية، ورسالتها في الدكتوراه كان موضوعها: «تأثير الحضارة الإسلامية علىٰ الحضارة الأوربية» ذكرت ذلك جريدة الشرق الأوسط تشرين أول سنة ١٩٩٢، وتوفيت سنة ١٤٢٠ (١٩٩٩م) ودفنت في هامبورغ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نفسه بالمال[١]، وإذا علمنا حاجة الدولة في تلك الآونة إلىٰ المال، وعلىٰ الرغم من ذلك كان هٰذا القرار، عرفنا تقدير الرسول ﷺ للعلم وإيثاره علىٰ المال، إنه تصرف ذو دلالة علىٰ ما نقول.

وقد نقلت كتبُ السُّنَّة أن حلقات كانت تعقد في المسجد النبوي، وكان يحضر بعضها رسول الله ﷺ -وقد أشرنا إلىٰ ذلك فيما تقدم- وكان النساء يحضرن المسجد ويسمعن موعظة النبي ﷺ، وقد يعقد لهنَّ مجالس خاصة بهن، ومن ذلك مجلسه معهن بعد خطبة العيد، فقد ذهب إليهن ووعظهن ورغبهنَّ بالعمل الصالح والصدقة؛ عسىٰ أن يكون في ذلك نجاةٌ لهن من النار، ونبههنَّ علىٰ بعض الخصال المكروهة التي قد تكون في النساء.

ويؤسفنا أننا -إلىٰ أمدٍ قريب- كنا نحرم المرأة من حضور الحلقات العلمية، ومن سماع الموعظة، وكان الفجار في الوقت ذاته يفتحون لها أبواب مجالات الشر والفساد من السينما والمسرح والبلاج وغير ذلك، ورسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[٢].

إنَّ مهمة المرأة في البيت مهمة عظمىٰ، وأثرها في تربية الأسرة أثر عظيم، والجهل آفة من الآفات التي تدمر الأسرة والمجتمع.

والعلم الذي نريده لنسائنا هو العلم الشرعي؛ ذلك لأنَّ التعليم

---

(١) «طبقات ابن سعد» ٢/ ٢٢، و«مسند أحمد» ٤/ ٤٧ برقم (٢٢١٦) ط شاكر وقال أحمد شاكر: إسناد صحيح والحديث في المنتقىٰ (٤٧٨٨) و«الروض الأنف» ٥/ ٢٤٥ تحقيق الوكيل، و٣/ ٨٤ تحقيق طه عبد الرؤوف.

(٢) البخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢)، وأبو داود (٥٦٦)، وابن ماجه (١٦)، وأحمد ٢/ ١٦ والدارمي ١/ ٢٩٣، والموطأ ١/ ١٩٧.

عندما يكون قائمًا علىٰ الإسلام ومنبثقًا عن دوافع إسلامية ومنطلقات إسلامية يكون العلم النافع المقترن بالخلق الكريم، والخير العميم، ولا يكون ما قد نلمسه في عدد من البلدان من اقتران العلم أحيانًا بمخالفة أحكام الدين والخروج عن أخلاقه وقيمه بالنسبة للرجل والمرأة في الفكر والسلوك والمعاملة، وهٰذا موضوع مهم أرجو أن نعالجه في المستقبل.

ومن النصوص التي تدل علىٰ حرص الرسول ﷺ علىٰ نشر العلم في المجتمع ما رواه عبد الرحمن بن أبزىٰ قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنىٰ علىٰ طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم ولا يُعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمنَّ قومٌ جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم. وليتعلمنَ قومٌ من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنَّهم العقوبة**».

ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنىٰ بهؤلاء؟ قال: الأشعريين. هم قومٌ فقهاء، ولهم جيرانٌ جفاةٌ من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشرٍ، فما بالنا؟ فقال ﷺ: «**ليعلمن قومٌ جيرانهم، وليفقهنهم وليفطننهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفطنون ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا**».

فقالوا: يا رسول الله، أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم. وأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويفطنوهم. ثم قرأ رسول الله ﷺ هٰذه الآية

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة][1].

وقد أنبأتنا كتبُ السُّنَّة والسيرة عن نشر النبي ﷺ للعلم، وذلك ببعثه رجالاً من علماء أصحابه إلىٰ الجهات يعلمون الناس القرآن ويفقهونهم في الدين، نذكر بعضهم فيما يأتي:

فمنهم مصعب بن عمير ﷺ الذي أرسله النبي ﷺ إلىٰ المدينة، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يسمىٰ: مقرئ المدينة، كان من فضلاء الصحابة وخيارهم، ومن السابقين إلىٰ الإسلام، أسلم ورسول الله ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه، وكان يختلف إلىٰ رسول الله ﷺ سرًّا، فبصر به عثمان بن طلحة العبدري يصلي، فأعلم به أمَّه وأهلَه، فحبسوه، فلم يزل محبوسًا إلىٰ أن هاجر إلىٰ الحبشة، ثم عاد إلىٰ مكة، ثم هاجر إلىٰ المدينة بعد العقبة الأولىٰ ليعلم الناس القرآن ويصلي بهم، بعثه مع الآثني عشر أهل العقبة الثانية ليفقه أهل المدينة ويقرئهم القرآن، فنزل علىٰ أسعد بن زرارة[2]، فكان يطوف به علىٰ دُور الأنصار يدعوهم إلىٰ الله، فأسلم علىٰ يديهما جماعة منهم سعد ابن معاذ وأسيدُ بن حضير وغيرهما[3].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٦٤: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بكير بن معروف، قال البخاري: أَرم به. ووثقه أحمد في رواية، وضعفه في أخرىٰ. وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بَأس به.

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» ١/ ٩٦.

(٣) «التراتيب الإدارية» ١/ ٤٢.

ومن المعلمين الذين أرسلهم رسول الله ﷺ معاذ بن جبل فقد أرسله إلىٰ أكثر من جهة، ومعاذ ﷺ من الخزرج، وهو فقيه فاضل صالح، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، وشهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وآخىٰ رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود. وتوفي شهيدًا في الطاعون، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، وقيل: ثمان وثلاثون.

وقد أخذ رسول الله ﷺ بيد معاذ وقال له: «**يا معاذ، والله إني لأُحِبُّكَ، يا معاذ، لا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١).

وعن أنس ﷺ قال: جمع القرآن علىٰ عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد(٢).

وجاء في «الاكتفاء» للكلاعي: استخلف رسول الله ﷺ عتاب ابن أسيدٍ علىٰ مكة، وخلف معه معاذ بن جبل، يفقهُ الناس في الدين ويعلمهم القرآن .(٣)

عن أبي بردة قال: بعث النبي ﷺ أبا موسىٰ ومعاذ بن جبل إلىٰ اليمن، ثم قال: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**» وفي رواية: «**وتطاوعا ولا تختلفا**»(٤).

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد ٥/ ٢٤٤-٢٤٥. وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٨١٠)، ومسلم (٢٤٦٥).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» عن مجاهدٍ نقلا عن «التراتيب الإدارية» ١/ ٤٣.

(٤) رواه البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢، ٤٣٤٤، ٤٣٤٥).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلىٰ اليمن:

«إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلىٰ أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

فمعاذ ذهب إلىٰ اليمن وهو يحمل هٰذه المهمة، وقد أوصاه ﷺ بالتيسير والتبشير وحذره من التنفير، كما حذره من دعوة المظلوم، وما أجدر الدعاة أن يعملوا بهٰذه الوصية.

وجاء في «الاستيعاب» أن النبي ﷺ بعث معاذًا قاضيًا علىٰ الجند من اليمن، يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم.

ومن هٰؤلاء المعلمين الذين أرسلهم رسول الله ﷺ: عمرو بن حزم الخزرجي النجاري ٱستعمله النبي ﷺ علىٰ نجران ليُفقِّههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد فأسلموا، وكتب له كتابًا في الفرائض والسنن والصدقات والديات(٢).

ومنهم أبو عبيدة بن الجراح.

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (٩١). وقد سبق أن أوردناه وشرحناه.

(٢) رواه مسلم (٢٤١٩).

عن أنس قال: لما وفد أهل اليمن علىٰ رسول الله ﷺ قالوا: ٱبعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام. فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح فقال: «**هٰذا أمين هٰذه الأمة**»[(١)] ثم سَيَّره إلىٰ الشام أميرًا. ففتح الله أكثر الشام علىٰ يده. وكان يعلم الناس.

وكذلك فقد أرسله إلىٰ نجران.

عن حذيفة قال: جاء أهل نجران إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله. ابعث إلينا رجلًا أمينًا فقال: «**لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حق أمين حق أمين**» فاستشرف لها الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجراح[(٢)].

ومنهم رافع بن مالك الأنصاري.

فقد ذكر ابن حجر نقلاً عن الزبير بن بكار في «أخبار المدينة» أن مسجد بني زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن، وأن رافع بن مالك لما لقي رسول الله ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة، ثم جمع قومه فقرأه عليهم في موضعه[(٣)].

ومنهم: أسيدُ بن حضير، وأبيٌّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأبو زيد، وهو: قيسُ بن السكن وكنيته غالبةٌ عليه.

وهكذا نجد أن رسول الله ﷺ بإرساله هٰؤلاء المعلمين وغيرهم وتكليفه إياهم بتعليم الناس دينَ الله عمل علىٰ نشر العلم وإشاعته في كل مكان تصل إليه سلطة الدولة النبوية، وسار أصحابه من بعده علىٰ نهجه، فقد كان كل صحابيٍّ حلَّ في قُطر من الأقطار مرجعًا ومعلمًا

---

(١) مسلم (٢٤٢٠).

(٢) «التراتيب الإدارية» ١/ ٤٣، وانظر: «أسد الغابة» ٤/ ٢١٤-٢١٥ (٣٨٩٩)، و«تهذيب الكمال» ٢١/ ٥٨٥ (٤٣٤٧)، و«الإصابة» ٢/ ٥٣٢ (٥٨١٠).

(٣) ٱنظر «الإصابة» ١/ ٤٨٧.

يعلم الناس دين الله، ويفتيهم في شؤون حياتهم، ويثقفهم الثقافة التي ترتفع بهم عن مستوىٰ العوام إلىٰ مستوىٰ أصحاب الرسالات.

وتحقق بذلك تحول سريع لذاك المجتمع الذي كان أميًّا، حتىٰ أصبحتْ جوامعه منارات الهداية، وجامعات المعرفة، ومراكز العلم في العالم كله.

وقد ٱنفتح هٰذا المجتمع علىٰ الثقافات الأخرىٰ؛ لأن الحكمةَ ضَالَّةُ المؤمنِ، أَنَّىٰ وجدها فهو أحق بها، لقد أخذ علماء المسلمين الأولين ما عند الآخرين من الخير والمعرفة، بعد أن عرضوا ما يودون أخذه علىٰ دينهم، فما قبله الدينُ أخذوه، وما ردَّهُ رفضوه.

إن النظرة الإسلامية المهيمنة هي التي جعلت المسلمين لا يترجمون إلىٰ لغتهم ما وقفوا عليه من آداب اليونان؛ لأنه أدب يقوم علىٰ الشرك، ويتحدث عن آلهتهم المزعومة حديثًا سخيفًا بشريًّا هابطًا بما لا تقبله العقلية الإسلامية المتميزة.

وقد ٱقتدىٰ أصحاب الدعوات الإصلاحية علىٰ مرِّ القرون بهٰذا النهج السليم، فكانوا يعلمون الناس مبادئ دعوتهم وأحكام الدين، نذكر من هٰؤلاء ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، ودعاة الإصلاح الذين جاؤوا من بعد.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العلم والتعليم في واقعنا المعاصر

نودُّ أن نختم حديثنا عن العلمِ والتعليم في المجتمع الإسلاميِّ - كما تصوره كتبُ السُّنَّة- بنظرةٍ سريعة نلقيها علىٰ واقعنا الحاضر.

إن الباحث المتتبع لأحوال مجتمعاتنا في مختلف بلادنا الإسلامية علىٰ مر القرون والأزمنة كان يجد في كل بلد من هاتيك البلاد عددًا من العلماء الأعلام في كل العلوم الإسلامية، فما كان يخلو بلد في عصر من عالم يبين للناس أحكام الدين، وظل الحال هكذا إلىٰ وقت قريب، كان الباحث المتتبع يجد في كل مجتمع من بلاد الإسلام العالم المتبحر في تفسير كتاب الله، والعالم المحيط بالفقه المستحضر لأحكامه، والعالم المتمكن من بحوث العقيدة وقضاياها، وكان يتتلمذ علىٰ هٰؤلاء العلماء شبابٌ موهوبون مجدون مرشحون لأن يملؤوا الأمكنة التي كان يحتلُّها أساتذتهم بعد رحيلهم عن هٰذا الدنيا.

وقد عرفت كثيرًا من هٰؤلاء العلماء[1] الذين كانوا في القرن

---

(١) أذكر منهم: شيخنا الشيخ صالح العقاد العلامة في فقه الشافعية، وشيخنا عبد الوهاب دبس وزيت العلامة في فقه الحنفية، والشيخ أبا اليسر عابدين، وشيخنا الشيخ حسن حبنكة، وشيخنا الشيخ خير ياسين، وشيخنا الشيخ سعدي ياسين، وكل هٰؤلاء من الشام، وكانت صلتي بهم وثيقة، وقد تلقيت عنهم العلم، وأذكر منهم الشيخ أمجد الزهاوي من علماء العراق، وقد صحبته في موسم الحج قبل ثنتين وخمسين سنة.

وأذكر منهم: الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد الأودن، والشيخ محمد الخضر حسين من علماء مصر، وهٰؤلاء قد لقيتهم، وهناك عدد كبير من علماء مصر الذين عاصرتهم وانتفعت بكتبهم ولكني لم ألقهم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الهجري الماضي في أكثر من بلد، أسأل الله أن يبارك في أعمار الأحياء منهُم، وأن يغفر للمتوفين منهم وأن يجزيهم خير الجزاء.

وعندما ٱزداد ٱتصالنا بالحضارة الغربية، وتسلل الٱستعمارُ فحكم بالحديد والنار عددًا من بلاد المسلمين حكمًا مباشرًا أو غير مباشر عن طريق تلامذته المتأثرين بفكره، ووضع المستعمرون مناهجَ التعليم وأدخلوا الخللَ علىٰ دور العلم القديمة بحجة الإصلاح والتطوير، أدىٰ ذلك كلُّه إلىٰ ضعف التعليم الديني وتناقص العلماء. وإن نقصان العلماء كارثةٌ يواجهها المسلمون في عدد من بلادهم لا سيَّما البلاد التي كان يحكمها الشيوعيون أو اليهود.

والكوارث المعنوية لا يحس بها إلا القلة من الواعين من الناس، وربما كانت الكارثة المعنوية أشد خطرًا وأسوأ أثرًا من الكارثة الحسية.

أصبحنا -واأسفاه- في كثير من بلاد المسلمين إذا مات العالم لم نجد من يحلُّ محله! هٰذه حقيقةٌ ملموسةٌ، وقد يكون من يتجاهلُ

وممن عرفت من العلماء الكبار: الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الرزاق عفيفي الذين لقيتهم في نجد، وقد سعدت بصحبة الشيخ عبد الرزاق مدة تزيد علىٰ الثلاثين سنة، وقد ٱنتفعت منه أعظم الٱنتفاع، وأشهد أنه قليل النظير، ويمتاز باتساع معلوماته، إذا تكلم في أي فن يحسب السامع أنه لا يتقن غيره، كما يمتاز بذهن جوال، ومعرفة بأحوال العصر؛ يعرض القضية المطروحة علىٰ الأحكام الفقهية وينظر فيها نظرة موضوعية متصلة بالواقع، ويأتي بالحكم الدقيق الذي يصعب خدشه أو رده، ويمتاز بأسلوب متين جزل إذا كتب، وببيان متدفق مؤثر إذا تحدث، ويمتاز بروح مرحة حلوة ودعابة راقية محببة لا تكاد تفارقه، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الخير الجزيل.

هٰذه الحقيقة وينكرها ويغالطُ بقوله: إن نسبة المتعلمين تزيد، يغالط نفسه، ويلبس علىٰ السامعين، ويخدّر إحساسهم بالكارثة.

صحيحٌ أن نسبة الأميين قد ٱنخفضتْ، وصحيحٌ أن العلوم التجريبيةَ التي كانت نادرة في بلادنا، كثر الذين يعرفونها معرفة ما، أما الذين يجيدونها فهم قليلٌ جدًّا، ولكن العالم الشرعي الذي يستطيع أن يقرر حكم الله في المسائل التي تواجه الناس في الحياة هو الذي نفتقدهُ في كثير من بلاد المسلمين، ولن تغني عن فقده قلة الأميين.

إن حلقات العلمِ التي كانت تقام في المساجد، والتي كانت تخرج العلماء الفحول قد توارت واختفت في معظم البلاد الإسلامية! وإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

ولذلك أسبابٌ لا بد من دراستها دراسةً متأنية، ولا بُدَّ من علاجِها، فالأمرُ خطيرٌ جدُّ خَطيرٍ، وتشخيص الداء هو المرحلة الأولىٰ التي تقود إلىٰ العلاج ووصف الدواء.

ولعلَّ أهمَّ الأسباب ما يأتي:

١- سيطرةُ حبِّ الدنيا علىٰ القلوبِ، والانحراف في القصدِ من طلبِ العلم؛ إذ تحوَّلَ إلىٰ أن يكون وسيلة ٱرتزاقٍ.

٢- والتفاخرُ الفارغُ بألقاب لا تقدمُ ولا تؤخرُ، والانخداعُ بنيلِ شهاداتٍ عليا في موضوعاتٍ جزئيةٍ.

٣- وضعفُ التربية الإسلامية التي ينبغي في الأصل أن تنشئ المسلم علىٰ أنه صاحب رسالة.

٤- تأثرُ المسلمينَ بالكفرةِ ومحاولةُ تقليدهِم، وذلك صرفنا عن

نهج علمائنا الأولين.

٥- سيطرةُ بعضِ الأفكار المنحرفة علىٰ مؤسسات المجتمع: (كالقومية، والوطنية، والإقليمية، والاشتراكية، والرأسمالية) وحلولهُا محل الإسلام في عدد من بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٦- سيطرةُ مناهجِ التعليمِ الموضوعةِ من غيرِ المسلمينَ علىٰ مؤسساتِ التعليمِ في مراحِلها المتعددةِ.

٧- وجودُ شواغلَ لم تكنْ في الماضي من وسائلِ الإعلام المختلفة والصحف والمجلات، وبثها لبعض الأفكار.

* * *

ومن الأمور التي لابدَّ من التنبيهِ عليها ما يقعُ من بعض الناس من الغلط، إذ يُعَمِّمُون حالة طيبة موجودة في بلد أو قريةٍ أو حيٍّ علىٰ العالم الإسلامي كله، إن هٰذا الغلط قد يقف في وجه حل المشكلة التي نتحدث عنها.

إن غياب العلماءِ المتمكنينَ يتيحُ لأنصاف المتعلمين والجهلة أن يفتوا فتاوىٰ باطلةً؛ فيضلون الناس ويبعدونهم عن الحقَّ والصراط السويِّ.

وقد صادفت عددًا من الشباب الجهلة الذين يجرؤون علىٰ الفتوىٰ بغير علم فيحرمون ما أحل الله، ويحلون ما حرَّم دون معرفةٍ. وذكرني هٰذا بالحديث الصحيح المتفق عليه:

عن ابنَ عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالىٰ لا يقبض**

العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبضُ العلم بقبضِ العلماءِ، حتَّىٰ إذَا لم يبق عالمًا اتخذ الناسُ رؤوسًا جهالا، فأفتوا بغيرِ علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا»[1].

نحتاجُ إلىٰ علماء من طرازِ أولئكَ العلماء الأمَّارين بالمعروفِ النهَّائينَ عن المنكر، الصدَّاعينَ بالحقِّ، لقد أدرك جيلُنا نفرًا من أولئك العلماء الذين كانوا علىٰ درجة عالية من الذكاء والموهبة، وقد صرفوا موهبتهم وذكاءَهم لخدمة العلم وتحصيله، وتبتَّلُوا لطلب العلم عن طواعية ورغبة، فاستطاعُوا أنْ يكونُوا قممًا في العلم، وتفوَّقُوا، ولم يسخِّروا علمهم للدنيا، ورضوا بما قسم الله لهم من الرزق ولو كانَ قليلاً.

أعرفُ واحدًا[2] من هؤلاء كان يعملُ بالتجارةِ وهو عالمٌ جليلٌ، ولم تمنعُه تجارتُه من متابعة طريق العلمِ وتعليم الناسِ، ولما قامتِ الحربُ العالميةُ الثانيةُ، وراجتْ تجارة الغزلِ التي كان يعمل بها، وأصبح يتعاطاها من لم يسبق له أن عمل فيها، داخلهُ شكٌّ من العمل، فصفَّىٰ تجارتهَ، وعكف علىٰ كتبه ودروسه يُقرئ الطلبة، ويبين للناس دين الله، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن لقي ربه، ورضي بالكفاف، ولو سلك سبيل الدنيا لكان من كبار الأغنياء، رحمه الله رحمة واسعة.

إن علينا أن نعالج مشكلة تَناقُصِ العلماء وبذلك ندرأ خطرًا ماحقًا يتهددُ أبناءَنا وأجيالَنا ومجتمعاتنا، فلنعمل علىٰ ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) والترمذي (٢٦٥٢) وابن ماجه (٥٢).

(٢) هو شيخي العلامةُ الشيخُ صالح العقادُ رحمه الله.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كل مولود يولد علىٰ الفطرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يولد علَىٰ الفطرة، فأبواهُ يهوِّدانهُ أو ينصرانه أو يمجِّسانه، كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هلْ تُحسُّون فيها جدعاء؟**»[1].

إنَّ نظرةَ الإسلام إلىٰ النفس الإنسانية نظرة تكريم قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: الآية ٧٠] فالمولودُ عندَما يولدُ يولدُ طاهرًا مبرءًا من كلِّ دنسٍ أو خطيئة، يولد علىٰ الملة الحنيفية مسلمًا، بعيدًا عن كل المساوئ التي ينحدر إليها المنحرفون من البشر، إنَّه يولدُ علىٰ الفطرةِ.

إنَّ هٰذه النظرةَ الكريمَة تدلُّ علَىٰ تكريم الإسلام للإنسان من حيثُ هو إنسانٌ، ويُحمِّل البيئةَ البيتِيَّةَ، التي ينشأ فيها هٰذا المولود، مسؤولية أيِّ انحرافٍ يحصلُ لهٰذا الإنسان.

هناك نظريةٌ باطلةٌ تقولُ بها الكنيسةُ، ويؤمنُ بها أتباعُها، تقولُ: إنَّ الإنسانَ يحمل الخطيئةَ التي صدرتْ من أبي البشرِ آدم، كلُّ إنسانٍ يولدُ إلىٰ آخرِ الدهرِ يحملُ تلكَ الخطيئة القذرة.

ولهذهِ النظريةِ تتمةٌ تحملُ الكفَر والمجازفةَ والبعد عن الحقيقةِ[2].

---

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) وأحمد (٢/ ٣١٥) وأبو داود (٤٧١٤).

(٢) عندما كتبتُ هٰذا اتصلتُ بالدكتور معروف الدواليبي وسأله عن ذلك فقالَ: هٰذه الفكرة أساسُ العقيدة النصرانية، ومن لا يؤمن بها فليسَ نصرانيًّا. وقال: إن «معجم لاروس» يقول ذلك. ومعلوم أن الدكتور درس في المعاهد المسيحية حتىٰ نال شهادة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أما الإسلامُ فإنَّه يقرر أن الإنسان يولد علىٰ الفطرة النقية الصافية السليمة من شوائب الضلال والانحراف، ويقرر أنه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ، وما أروعه من تكريم سام للإنسان.

إنَّ الإسلامَ عُني بالإنسان قبل أن يوجد؛ إذ أوصىٰ كُلًّا من الرجل والمرأة أن يحسن ٱختيار الزوج وشريكه في إنشاء الأسرة، فأوصىٰ الرجل باختيار الزوجة الصالحة «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[1] وأوصىٰ المرأةَ وأولياءَها بحسن ٱختيار الزوج، ولن يكون الزوج صالحًا ولا الزوجة صالحة إلا إذا توافرت لكل منهما البيئةُ الصالحة، ثم نبَّه الوالدين علىٰ أهمية العناية بالإنسان الوليد والحذر من أن يلحقه تشويه أو إفساد لفطرته الخيرة التي فطره الله عليها، وهي دين الإسلام.

إذا راعىٰ الناس جميعًا هٰذه التوجيهات السامية الربانية كان المجتمع الصالح.

وإننا في بحثنا للحياة الٱجتماعية في ضوء السنة نودُّ أن نشرح الدلالات التي ٱنطوىٰ عليها هٰذا الحديثُ: حديثُ الفطرة، ومسؤولية الأسرة والمجتمعِ والدولةِ في صيانة هٰذه الفطرة النقية.

إن تدميرًا رهيبًا يقوم به شياطين الإنس والجن لهٰذه الفطرة في عالم اليوم، ولا بدَّ من الٱنتباه لذلك، حتىٰ نصون حياتنا القصيرة في

في اللاهوت كما ذكر لي ذلك. كانت المهاتفةُ ضُحىٰ يومِ الأربعاءِ ٢٢ شوال سنة ١٤١٣ (١٣ نيسان سنة ١٩٩٣). والتتمة هي أن سيدنا عيسىٰ ضحىٰ بنفسه، وكان فداء؛ ليكفر عن هٰذه الخطيئة، فرضي أن يقتل ويصلب وهو إلٰه!!! (سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ).

(١) رواه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة.

هٰذه الدنيا من الآلام والشقاء والعُقَد، ونصون حياتنا الطويلة في تلك الدار الآخرة من العذاب الأليم والجحيم المقيم.

إن الفطرة هي الإسلام، والإسلام هو الرحمة للبشر، ودعوة الرسول دعوة الرحمة يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] ويقول تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[التين].

وهٰذا التقويم الذي خلق الله الإنسان عليه يشمل جانبي الإنسان وكيانه كله: جسمه وروحه، ظاهره وباطنه، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

وقال ﷻ: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: الآية ٦٤] وقال سبحانه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم] .

وفي هٰذه الآية بيانٌ لاتساق الإسلامِ مَع الفطرة، واتساقِ الفطرةِ مع الإسلام، فالمولودُ يولدُ صحيحًا سليمًا ثم يطرأ عليه المرض في جسمهِ أو نفسهِ إن تعرض لأسبابِ المرضِ.

إننا مأمورون بأن نحافظ علىٰ سلامةِ فطرة هٰذا المولود، وعلىٰ عقيدته وخلقه، وعلىٰ جسمه وعقله وقلبه؛ لأنه معرض لمخاطر

التشويه، والجراثيم الممرضة، والأوبئة القَتَّالة، والاتجاهات الفاسدة.

ومعنىٰ الحديث كما ذكر العلماءُ: كما تلد البهيمة بهيمةً جمعاء، أي: مجتمعة الأعضاء، سليمة من كل نقص، لا توجد فيها جدعاء، وهي: مقطوعة الأذُن، أو غيرها من الأعضاء، أي أن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء ولا نقص فيها، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها، وكذلك الإنسان يخلقه الله في أحسن تقويم وأكرم صورةٍ، ويُولد علىٰ الفطرة، ولكنَّه بعد ذلك قد ينتكس إلىٰ أسوأ حالٍ فتتشوه تلك الفطرة النقية الكريمة، ويكون للوالدين الأثر الفعليُّ في هٰذا الانتكاس.

وقد مثَّل رسول الله ﷺ أثر التربية بِمَثَلٍ مشهود ملموس، فالشاة تلد شاة كاملة تامة، فيعمد أصحابها إلىٰ جدع أذنها، وتشويه خلقتها؛ ولولا فعلهم هٰذا لبقيت علىٰ الخلقة السوية الحسنة.

وهٰذه الصورةُ صورةٌ منتزعة من بيئة المخاطبين وواقعهم، فقد كان عند كثيرٍ منهم أنواعٌ من الأنعام، وهي تعينُ علىٰ تقرير المعنىٰ المراد.

إن الأبوين يلعبان دورًا كبيرًا في إعداد الولد وتربيته وتكوين آرائه واتجاهاته، وصياغة فكره واعتقاده، ومن هنا كانا مسؤولَين عنه.

والمسؤولية تكون علىٰ قدر تأثير كلٍّ منهما علىٰ الأولاد، فإن كان تأثيرُ الأب أكبر كانت مسؤوليتُه أضخم، وإنْ كان تأثيرُ الأم أكبر كانت مسؤوليتها أعظم.

ولا بُدَّ من تعاونهما علىٰ أداء هٰذه المهمةِ الكبرىٰ وهي تربيةُ الأولاد وصيانةُ فطرتهم، أما إذا كانا مختلفَين كان في ذلك دمارُ

الأولاد فكريًا ونفسيًا، وكان أحدهما يخرب ما يبنيه الآخر.

وحبذا لو يضع الأبوان خطةً مكتوبة مدروسة يتفقان فيها علىٰ طريقة التربية السليمة التي سيلتزمان بها، إنها مسؤولية كبيرة.

إنَّ حديث أبي هريرة الذي يقرر أن كل مولود يولد علىٰ الفطرة ورد بروايات متعددة، كلها تؤكد أن أي مولود يولد علىٰ فطرة الإسلام.

ففي روايةٍ أخرجها مسلمٌ **«ما من مولود إلا وهو يولد علىٰ الملَّةِ»** وفي روايةٍ أخرىٰ له: **«ليس من مولود إلا يولد علىٰ هٰذه الفطرة حتىٰ يُعبِّرَ عنه لسانه»**[(١)].

ومما يؤكد هٰذا المعنىٰ حديثُ عياضِ بنِ حمارٍ المجاشعيِّ الذي أخرجه مسلمٌ وأحمدُ.

عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يومٍ في خطبته: **«ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هٰذا:**

كل مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[(٢)]. والحديث طويل.

ورواه أحمدُ في «المسند» كما يأتي: **«...كل مال نحلته عبادي حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...»**[(٣)].

---

(١) أنظر: «صحيح مسلم» (٢٦٥٨). (٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

(٣) «مسند أحمد» ٤/ ١٦٢.

فمعنىٰ «**اجتالتهم**» إذن: أضلتهم، أي أزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل.

وفي معنىٰ هٰذا الحديث: «**ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة**» وردت أحاديث عن جماعةٍ من الصحابة.

فمنهم الأسودُ بنُ سريع التميميُّ قال: أتيت رسولَ الله ﷺ وغزوت معه، فأصبتُ ظهرًا، فقتل الناسُ يومئذ، حتىٰ قتلوا الولدان، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فقال: «**ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتىٰ قتلوا الذرية؟**»

فقال رجل: يا رسول الله، أَمَا هم أبناء المشركين؟

فقال: «**ألا إنما خياركم أبناء المشركين**» أي إن خيار الصحابة ولدوا في الجاهلية وأسلموا بعد أن صاروا رجالاً.[1]

ثم قال: «**لا تقتلوا ذرية، لا تقتلوا ذرية**» وقال: «**كل نسمة تولد علىٰ الفطرةِ حتىٰ يعربَ عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها**»[2]

- ومنهم جابرُ بنُ عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة حتىٰ يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا**».

- ومنهم أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**سألت ربي اللاهين من ذرية البشر ألا يعذبهم فأعطانيهم**»[3] ومعنىٰ «**اللاهين**»: الأطفال[4]

---

(١) أنظر: «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٢١. (٢) «مسند أحمد» ٣/ ٤٣٥.

(٣) رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» ٦/ ٢٦٧ (٣٥٧٠)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣/ ٢٤٦. وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٨١).

(٤) قال ابن حجر: وورد تفسير اللاهين بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعًا أخرجه البزار «فتح الباري» ٣/ ٢٤٦.

قال ابن حجر[1]: وقد رجح أكثر العلماء أن أطفال المشركين في الجنة. وقال الإمام أحمد: من مات أبواه وهما كافران حكم بإسلامه، واستدل بحديث أبي هريرة، فدلَّ علىٰ أنه فسر الفطرة بالإسلام[2] وهٰذا لبيان ما هو في نفس الأمر لا لبيان الأحكامِ في الدنيا.

وكذا فقد حكم العلماءُ أنه إذا أسلم أحد الوالدين فالولد مع المسلم منهما سواء كان أمًّا أو أبًا.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم].

يقول تعالىٰ: فسدِّد وجهك، واستمر علىٰ الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم التي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالىٰ فطر خلقه علىٰ معرفته وتوحيده، وأنه لا إلٰه غيره، كما تقدم عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف] وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[3] وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالىٰ فطر خلقه علىٰ الإسلام، ثم طرأ علىٰ بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

---

(١) «الفتح» ٣/ ٢٤٦.
(٢) «الفتح» ٣/ ٢٤٨.
(٣) سلف قريبا من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضُهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبرًا بمعنىٰ الطلب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٩٧] وهٰذا معنىٰ حسنٌ صحيح.

وقال آخرون: هو خبرٌ علىٰ بابه، ومعناه: أنَّ الله تعالىٰ ساوىٰ بين خلقه كلِّهم في الفطرة علىٰ الجِبِلَّة المستقيمة، لا يولد أحد إلا علىٰ ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك... وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لدين الله، والدين والفطرة: الإسلام[١].

إذن المرادُ بالفطرة: الإسلامُ، وهو المعروفُ عند عامة السلف، وقد أجمعوا علىٰ أنَّ المراد بقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ في الآية الكريمة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم] الإسلام، ومما يدل علىٰ أن الفطرة هي الإسلام قوله ﷺ: «**وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» ولم يقل أيضًا: أو يقودانه إلىٰ الإسلام.

وقال ابن حجر: وأشهر الأقوال: أن المراد بالفطرة: الإسلام[٢].

قال ابن عبد البر: وهو المعروفُ عند عامة السلف، وأجمع أهلُ العلم بالتأويل علىٰ أن المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي

---

(١) «ابن كثير» ط الشعب ٦/ ٣٢٠. (٢) أنظر: «الفتح» ٣/ ٢٤٨.

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾: الإسلام.

واحتجوا بقولِ أبي هريرةَ في آخر حديث الباب: ٱقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ومما يدل علىٰ ذلك إضافة (الفطرة) إلىٰ (الله) فهي إضافةُ مدحٍ، وقد أمر الله نبيه ﷺ بلزومها، فعلم أنها الإسلام.

إن الإسلام بتقريره نظرية (الفطرة) التي نقف عليها في هٰذا الحديث؛ ليقيم المجتمع الإسلامي علىٰ جذور من الصلاح عريقة، منذ أن كان الإنسان.

إن هٰذا الصلاح كامن في أعماق النفس الإنسانية من يوم أن يولد المولود، فالفساد هو الشاذ المستنكر المستغرب.

إننا عندما نؤمن بهٰذه الحقيقة ونصدر عنها في تصرفاتنا نفتح صدورنا إلىٰ أبناء الدنيا كلهم، فهم جميعًا مفطورون علىٰ عقيدتنا وملتنا.

إن ذلك بشارةٌ للدعاة... إن الفطرة معهم إن هم عملوا وجدوا وخططوا لدعوتهم واتخذوا الأساليب المرغبة المغرية، إنهم يسبحون في ٱتجاه التيار، وعملهم في إيقاظ هٰذه الفطرة، وتنقيتها من الشوائب وعوامل التخريب والتشويه.

والتشويهُ قد يكون في العقيدة، وقد يكون في السلوك. فعندما يكون في العقيدةِ يتخذ ألوانًا شتىٰ، ففي بعض الأحيان يتدثَّر بغطاء القومية، أو الوطنية، أو النزعات الأخرىٰ المستحدثة كالاشتراكية ونحوها، وفي بعضها الآخر يتدثر بنزعات قديمة كالوثنية واليهودية والنصرانية ونحو ذلك.

وفي كل هٰذه التشوهات للفطرة نجد أنها تعقب الحقد علىٰ الآخرين ومعاداتهم.

وعندما يكون في السلوك يستعين ذاك التشويه بالشهوات والأهواء والغرائز والميول، ويبدو هٰذا الٱنحراف عن الفطرة في السلوك بالإباحية، والعدوان علىٰ الآخرين، وسلب أموالهم، وضربهم، وقتلهم، ونحو ذلك.

وفي ذلك ما فيه من ٱختلال الأمن، وانتشار الفوضىٰ، والإصابة بالأمراض الجسمية والنفسية، واستفحال الظلم، وما نَبَأُ مرض (الإيدز) عنا ببعيد، وكذلك ما يعم العالم من مرض الٱكتئاب، وسيادة القلق المدمر.

إنَّ العالم كله يعيش مأساة تشويه الفطرة، والتغرير بجماهير الناس لترك الحقِّ، وسلوك سبيل الباطل، وما أكثر الأمثلة علىٰ ذلك.

وذكرَ الحديثُ مسؤوليةَ الوالدين؛ لأنهما غالبًا هما اللذان يبدآن بتشويه الفطرة، ولكن ذلك ليس مقصورًا عليهما، بل كل من ٱستطاع أن يحافظَ علىٰ الفطرة، أو يفسدها فهو مخاطبٌ بهٰذا الحديث.

إن المعلم في مراحل الدراسة كلها مسؤول عن سلامة فطرة الطلبة الذين يعلمهم، وأخطرُ مراحل الدراسة هي المرحلةُ الٱبتدائية والمتوسطة.

ورجال الإعلام مسؤولون عن صيانة هٰذه الفطرة، وأهم وسائل الأعلام التلفاز؛ لأنه أشد هٰذه الوسائل تأثيرًا، وتليه الإذاعةُ والصحافة.

وكتَّاب القصة مسؤولون عن المحافظة علىٰ هٰذه الفطرة، فالقصةُ أداة من أدوات تكوين فكر الناشئة.

وكذلك كل من يملك التأثير مسؤول، ويعجبني الحديث الصحيح البليغ الجميل الجامع عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته: الأمير راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجلُ راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادمُ راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته»**[١].

وأحب أن أقف قليلاً عند كلمة **«كلكم»** التي تكررت أكثر من مرة، هٰذه اللفظة التي تدل علىٰ العموم، فتشمل كل مكلف مهما كان وضعه المالي، ومستواه الثقافي، ومكانته الاجتماعية، ليس ينجو أحد من المسؤولية من هٰذه الأمة.

إنَّ بعضَ العامة المغمورين يحاولون أن يتهربوا من تحمُّل المسؤولية، فيقول قائلهم: مالي وللمسؤولية؟ ومن أنا حتىٰ أكون مسؤولا؟ مالي وللمطالبة بالعمل والدعوة؟ أنا إنسان عامي مغمور، أو أنا أمي جاهل.

لكن هٰذا الحديث الجميل ببيانه الساحر ولفظه الشامل يردُّ علىٰ هٰذه التعللات. ويقرر أنَّ الإنسان -مهما كان وضعه- مسؤول.

أيها الإنسان أليس هناك من تعوله وتربيه؟ أليس هناك عمل تقوم به وتؤديه؟

ألست مكلَّفًا بواجبات يطلب منك القيام بها؟ أليست هناك محرمات حَظَر الشرعُ عليك إتيانَها؟

---

(١) رواه البخاري(٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩). وأحمد ٢/ ٥ وأبو داود (٢٩٢٨) والترمذي (١٧٠٥).

إنك إذن مسؤول عن ذلك.

المرأةُ راعية وهي مسؤولة، والخادم راع وهو مسؤول.

إن كثيرًا من الآباء والأمهات لا يهتمون بأخلاق أولادهم من بنين وبنات، ولا بعقيدتهم وعبادتهم، إنهم يهتمون بصحة أجسادهم، وتفوقهم في دراستهم، ونجاحهم في أعمالهم، وهم لا يدرون أنهم بذلك يعرضون أولادهم إلىٰ الآنحراف والغواية، وهم بذلك يقضون علىٰ سعادتهم القضاء الأبدي السرمدي عندما يؤمر بهم إلىٰ النار.

إن هٰذا قتلٌ لأولادهم، ولعمري إن هٰذا القتل لأشد من القتل المادي المتمثل في إزهاق الروح. والله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١] .

ويقول سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النِّساء: الآية ١١] والوصيةُ عامةٌ مطلقةٌ تشمل صيانة الجسد وسلامة الروح والفكر واستقامة الخلق.

ويقول عزَّ من قائلٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التّحْريم: الآية ٦] ويخصُّ تبارك وتعالى الصلاة لأهميتها ولأنها الفرق بين المسلم والكافر، فيقولُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طٰه: الآية ١٣٢] .

إنَّ علينا أن نصون الفطرة النقية في أبنائنا وبناتنا؛ ذلك لأنَّ الشهوات والشيطان والكفار والفساق، كل أولئك يتعاونون علىٰ إفساد الفطرة وتشويهها.

إنَّ علينا أن نرتقي بهٰذه الفطرة فيهم لتؤدي مهمتها في عبادة الله ونشر دينه. إن أولادنا أمانة وضعها الله في أيدينا فلنحذر من تضييعها وإننا عنها لمسؤولون.

ملاحظةٌ:

١- بحثَ ابن تيمية في دلالاتِ هٰذا الحديثِ بحثًا مستفيضًا، وناقشَ فيه العلماء في صفحات عديدة من كتابه «درء تعارض العقل والنقل» الجزء الثامن من صـ ٤٥٦ حتىٰ صـ ٤٦٨ وذكر وجوهًا ثمانية في أن العقل يحكم بأن كل مولود يولد علىٰ الفطرة.

٢- أشار ابن القيم إلىٰ أهمية هٰذا الحديث في مواضع من كتبه. أذكر منها «أحكام أهل الذمة» ٢/ ٦٠٩.

٣- الإمامُ الغَزَّاليُّ في «إحياء علوم الدين» أوردَ الحديثَ في الجزء ٣ صـ١٤ و٧٢ في الجزء ٤ صـ٣١.

فصل

تحرير الإنسان من الخرافة

إنَّ المجتمع الإسلامي مجتمع يقوم علىٰ تحقيق مصالح الناس في الحياة الدنيا، والسعادة التامة في كل جوانب الحياة، ويقوم في الوقت ذاته علىٰ أسس لا تتعارض مع العقل السليم، تقرر هٰذه الأسس نصوصُ الكتاب والسنة، ومحاولات الٱجتهاد الجادة في إطار هٰذه النصوص، الٱجتهاد المتطلع إلىٰ تحقيق مصالح العباد، وهٰذا الٱجتهاد يعتمد أيضًا علىٰ الحقائق التي قادت إليها التجربة البشرية في مختلف العصور، ولا يتجاهل الواقع الملموس في كل مجالاته.

وهناك حقائق غيبية يقررها الإسلام، ويتبنَّاها المسلمون، ولهذه الحقائق مصدرٌ وحيدٌ وهو الوحي الذي وصل إلينا بالكتاب الكريم والسنة الصحيحة.

ولا يقبل الإسلام أن تقوم في مجتمعه الخرافات والأباطيل، والأوهام والأكاذيب التي تعطل العقول، وتقلق النفوس.

إنه مجتمع يحقق المصلحة العاجلة والآجلة للناس في دنياهم وأُخْرَاهم، ولا تتعارض أحكامه وشرائعه مع العقل، ولا تصادِمُ الغرائز التي فطر الله الناسَ عليها.

والخسارةُ العظمىٰ للإنسانية أن المسلمين عندما بعدوا عن الإسلام غابت كثير من معالم ذاك المجتمع الأغر الذي قام في القرون الفاضلة الأولىٰ منارًا يدعو إلىٰ الرشاد، وينادي كل راغب في الأمن والعدالة والسعادة والتحرر أن يتَّبعه في طريق الحق والهدىٰ، وبذلك

خسرت الإنسانيَّة خسارةً عظيمةً.

إن عالم اليوم تقوم فيه خرافات من أنواع متعددة بعضها باسم الدين والدين منها براء، وبعضها باسم العلم والعلم منها براء، وبعضها باسم شعارات أخرىٰ تتغير تبعًا لتغير الأحوال والأعراف والمصالح، والمصالح لا تكاد تستقر علىٰ حال.

ولننظر إلىٰ فقرة من حديث صحيح طويل، يصور لنا هٰذه الحقيقة بينة ظاهرةً واضحةً، عن معاوية بن الحكم السُّلمي قال: قلت: يا رسول الله، إني حديثُ عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنَّ منا رجالاً يأتون الكهان. قال ﷺ: «**فلا تأتهم**» وفي روايةٍ: «**فلا تأتوا الكهان**» قال: قلت: كنَّا نَتَطَيَّرُ. قالَ: «**ذاك شيءٌ يجدُه أحدُكم في نفسه، فلا يصدنَّكم**»[1].

وقد ورد بسياق أطول من هٰذا، وفيه قصة فحواها: أن معاوية هٰذا ﷺ تكلم في الصلاة، فرماهُ القومُ بأبصارهم، ثم جعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم يسكتونه، يقول: فلما صلّىٰ رسول الله ﷺ، بأبي هو وأمّي، ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني (أي ما قهرني ولا نهرني) ولا ضربني ولا شتمني. قال: «**إنَّ هٰذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[1].

وفي الحديث كلامٌ عن الطِّيَرَةِ، وعن الخطّ والوصية بالأرقّاء والترغيب بعتقهم لا سيما إن كانوا مؤمنين.

وفي هٰذا الحديث: ٱعترافٌ من الصحابي أنهم كانوا في الجاهلية يأتون الكهان ويعتمدون عليهم.

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧).

شبكة الألوكة
www.alukah.net

والكهان: قوم كذابون دجالون، فعند ذاك قال له رسول الله ﷺ: «**لا تأتهم**» ونهاه عن تصديقهم.

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: قلت: يا رسول الله، إنّ الكهانَ كانوا يحدثوننا بالشيءِ فنجده حقًا. قال ﷺ: «**تلك الكلمة يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كَذْبة**».

وفي رواية له أنه ﷺ قال: «**إنهم ليسوا بشيء**»[(١)].

وأخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار: أنهم بينما هم جلوس ليلةً مع رسول الله ﷺ رمي بنجم فاستنار.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هٰذا؟**»

قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: وُلد الليلة رجلٌ عظيمٌ، وماتَ رجلٌ عظيمٌ.

فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يُرمىٰ بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالىٰ ٱسمه إذا قضىٰ أمرًا سبَّح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتىٰ يبلغ التسبيح أهل هٰذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضًا، حتىٰ يبلغ الخبر هٰذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلىٰ أوليائهم، ويرمون به فما جاؤوا به علىٰ وجهه فهو حق، ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون**»[(٢)].

---

(١) ٱنظر «صحيح مسلم» (٢٢٢٨).

(٢) ٱنظر: «صحيح مسلم» (٢٢٢٩). وأخرج البخاري قريبًا منه عن أبي هريرة (٤٨٠٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لننظر كيف صحح الرسول ﷺ هٰذه المفاهيم المغلوطة القائمة علىٰ أوهام توارثوها، وأساطير وجدوا آباءهم عليها، فلقد بيَّن لهم أنَّ ما كانوا يرونه من هوي بعض الشهب وسقوطها لا علاقة له بموت أحد ولا بحياته، ولٰكن ذلك يجري وفق سنن الله، وكشف ﷺ عن أمر غيبي لا نعلمه إلا من طريق الوحي، وهٰذا الأمر أن الملائكة كانت تتحدث فيما بينها عن الأمور التي قضاها الله، فكان الجني يسمع الكلمة فيزيد فيها كثيرًا من الأكاذيب ويلقيها إلىٰ وليه.

وهٰذا كله في الجاهلية كما بينت ذلك الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجنّ].

جاء في «الدر المنثور»[1]: (أخرج عبد بن حميد في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ قال: كانت الجن تسمع سمع السماء، فلما بعث الله محمدًا حُرست السماء ومنعوا ذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معًا في «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال:

كان الشياطين لهم مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعًا. فأما الكلمة فتكون حقًّا، وأما ما زادوا فيكون باطلاً، فلما بعث رسول الله ﷺ منعوا مقاعدهم).

إذنْ فلم يبق عند الكهان مصدرٌ للمعرفة، وأضحىٰ كلامُهم تخمينًا وتوقعًا، وأصبح كلامهم كلُّه دجلاً، ودعواهم في معرفة المستقبل كذبٌ محضٌ والله أعلم.

إن الإسلامَ حاربَ الخرافات والأوهام، ولم يتح لدجال أن

(١) «الدر المنثور» ٦/ ٢٧٢-٢٧٣ .

يعبث بعقول أبناء المجتمع المسلم، فيقودهم إلىٰ الباطل، ويسلبهم أموالهم عن رضًى منهم، ويجعلهم يعيشون في الأماني الكاذبةِ.

وقد رأينا في السنة أحاديث تصورُ لنا تحريرَ الإسلام للعربِ من أسطورة الكهانة والعرافة.

وقرر الإسلام أنه لا يعلم الغيب إلا الله. قال تعالىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن] ولا رسول بعد محمدٍ.

ورأينا كيف نهىٰ الرسول عن إتيان الكهَّان والعرَّافين وتصديقهم، وفسر النبي لأصحابه بعض الموافقات التي أصاب بها أولئك الكهان في الجاهلية. وذكر أن ذلك كان قبل الإسلام بسبب ٱستراق بعض الجن السمع، فلما بعث الله رسوله محمدًا مُنع الجن من تلك المقاعد التي كانوا يسمعون فيها، وأصبح من يحاول السماع يحرقه شهاب مرصود له.

وهٰذه الوقائعُ التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم توحي بأنهم قبل هٰذه الرسالة الأخيرة، كانوا يحاولون الٱتصال بالملأ الأعلىٰ، واستراق شيء مما يدور فيه بين الملائكة، عن شؤون الخلائق في الأرض، مما يكلفون قضاءه تنفيذًا لمشيئة الله وقدره، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين؛ ليقوم هٰؤلاء بفتنة الناس، وَفْقَ خطة إبليس علىٰ أيدي هٰؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل، ويروجونه بين جماهير الناس، في الفترة بين الرسالتين، وخلو الأرض من رسول، أما كيفية هٰذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئًا، ولا ضرورة لتقصيها، إنما هي جملة هٰذه الحقيقة وفحواها.

وهٰذا النفر من الجن يقول: إن ٱستراق السمع لم يعد ممكنًا، وإنهم حين حاولوه الآن، وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء، وجدوا الطريق إليه محروسًا بحرس شديد، يرجمهم بالشهب، فتنقضُّ عليهم، وتقتل من توجه إليه منهم، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئًا عن الغيب المقدر للبشر ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجنّ].

وإذا كان المصدرُ الذي يزعم الكهانُ أنهم يستقونَ منه معلوماتهم عن الغيب يقررُ أنَّه هو لا يدري عن ذلك شيئًا، فقد ٱنقطع كل قول، وبطل كل زعم، وانتهىٰ أمر الكهانة والعرافة، وتمحض الغيب لله، لا يجترئ أحد علىٰ القول بمعرفته ولا علىٰ التنبؤ به، وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هٰذا القبيل، وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير[1].

إلىٰ متىٰ نعيش في أوهام ننسجها نحن أو ينسجها لنا غيرنا؟

إن الوهمَ قيدٌ يُكبِّل العقول والأرواح، وإنه شرك ينطبق علىٰ الإنسان فيشلُّ إرادته وتفكيره.

قد يكونُ من المتصوَّر أن يصدرَ ذلك عن طفلٍ تبني له أحلامُه قصورًا في الهواء، فيعيش في تلك القصور الموهومة. وقد يكون من المتصوَّر أن نقبل صدور ذلك من مخبول متخلف يقيمُ له قصورُه الفكري ذاك البناء الموهوم ويحيا فيه. أما أن يكون البالغون من العقلاء، والكبار من الرجال والنساء، راضين بالعيش في الأوهام فذاك أمرٌ عجيبٌ.

---

(١) ٱنظر «في ظلال القرآن» ٦/ ٣٧٢٩-٣٧٣٠.

وعندمَا تكونُ الأمةُ قابلةً لهٰذا العيش فيِ الأوهام، فإنها سَتُستغلُّ من قِبَلِ الدجالينَ الذين يضحكون علىٰ عقول أبنائها، ومن قِبَلِ الطواغيت الذين يسومونهم سوء العذاب من خلال هاتيك الأوهام.

إنَّ الوهم سرابٌ يخدعُ الإنسان، ويكاد يقضي عليه، إنه أكذوبة تنهك الأعصاب، إنه مهانة تنال من كرامة الإنسان، إنه معولٌ يقوضُ آمال الأمة عندما تذهب وراء السراب والأكاذيب، وتدع الأهداف الحقيقية، والرغبات الكريمة التي ينبغي أن يسعىٰ لها الإنسان، ولا تدرك شيئًا من المقاصد الفاضلة التي تعمل الأمم الراقية علىٰ تحقيقها.

وقد يُزيَّن للمرء أن يرضىٰ بالوهم رغبة في تحقيق مصلحة، أو خشية من حلول نقمة.

ومما نُقل في هٰذا الصدد: أن رجلاً كان يحمل قربة من السمن إلىٰ المدينة يريد أن يبيعها، وبدأ خياله يصور له المستقبل الباسم الذي ينتظره، فهو سيقبض مبلغًا جيدًا، وسينميه في التجارة، وقادته أحلام اليقظة إلىٰ أن يتوهم أنه أضحىٰ غنيًّا، وها هو ذا يبحث عن أجمل فتاة ليتخذها زوجة له، ويتوهم أنهُ فاز بها لثرائه، ويتوهم أنه رُزقَ منها بولدٍ، وتوقع أن شيئًا ما صدَر من هٰذا الولد، ورأىٰ أنَّ من واجبه أن يؤدبه، فرفع عصاه وضرب القربة، فانفجرت وانكفأ ما فيها من السمن، وخسر بذلك السمن، وضاعت تلك الآمال.

ومن ذلك: ما يحكون عن شيخ بلغ من الكبر عتيًّا، سيطر عليه في يوم من الأيام الوهم بأنه شاب، فأقدم علىٰ فعل أمور لا يفعلها إلا الشباب، فكان ذلك سبب هلاكه.

إن البصيرة المدركة لا تغرها المظاهر ولا الشعارات، ويكون

صاحبها في منجاة من الحرج والذل والإثم. وإن الوهم ليورط صاحبه فيوقعه في مواقف مخجلة، وقد يعرضه إلىٰ الهلاك.

إن الإنسان يجب أن يكون المنتصر في معاركه التي يخوضها، وعليه إن أراد ذلك أن يستكمل الوسائل التي توصله إلىٰ النصر، ولكن قوله (ٱنتصرنا) لا يعني أنه ٱنتصر حقيقة.

وإن العدالة مطلب محبوب مرغوب، ولكن رفع شعار (العدالة) لا يعني أن البؤس قد ٱختفىٰ.

وإن الحرية مقصد يطالب الناس به، ولكن إطلاق شعارها فقط لا يعني أن الناس أحرار يقولون ما يشاؤون ويتصرفون كما يريدون.

إن إدراك الفرق بين الوهم والحقيقة هو الذي يصون المرء عن الوقوع في المآزق، ويصون ماء وجهه عن الٱبتذال. إذا كنت مفلسًا فماذا يفيدك أن تتوهم أنك غني؟ وإذا كنت جاهلاً فماذا ينفعك أن تتوهم أنك عالم؟ ومن هنا كان المجتمع الذي بناه الإسلام مجتمعًا يقوم علىٰ الواقع، ولا يُحلِّق في فضاء المثاليات البعيدة عن الحقيقة والواقع.

إذا ٱنهزم المسلمون في معركة صَارَحَتْهم نصوص الكتاب والسنة بأنهم هزموا، وذكرتْ لهم سبب هٰذه الهزيمة وذكَّرتهم بمهمتهم العظمىٰ التي أعدهم الله لها. قال تعالىٰ في أعقاب غزوة أحد: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٦٥] .

ونرىٰ الآية الكريمة الواردة في سورة النساء تُجري موازنةً بين المسلمين والكافرين، فتقرر أنهم يتساوون مع أعدائهم بالألم، ولكن

هناك فرقًا كبيرًا بينهم وبينهم، هو رجاء المسلمين النصرَ من الله، وهٰذا ما ٱنفردوا به، ونصرُ الله لا يُؤتىٰ إلا لمن نصره.

قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: الآية ١٠٤] وقال سبحانه مقررًا شرط النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: الآية ٧] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحجّ: الآية ٤٠].

لقد ٱستأصل الإسلام جذرًا كبيرًا من جذور التدجيل عندما حذر من إتيان الكهان وتصديقهم، وبذلك حرر العرب الذين كانوا يعتمدون علىٰ الكهان في كثير من أمورهم.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة صاحب خَمْسٍ: مدمن خمرٍ، ولا مؤمن بسحرٍ، ولا قاطع رحم، ولا كاهنٌ، ولا منانٌ**»[1].

وعن بعض أزواج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة**»[2].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنا، أو أتىٰ ٱمرأته حائضًا، فقد برئ مما أنزل علىٰ محمدٍ**»[3].

وجاء بلفظ: «**من أتىٰ حائضًا، أو ٱمرأةً في دبرها، أو كاهنًا**

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٤. وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٧٤: فيه عطية بن سعد وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣٠).

(٣) رواه أبو داود (٣٩٠٤) وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

فصدقهُ بما يقولُ فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد»[1].

ومن العجب العجاب أن كثيرًا من الناس في هٰذا العصر يخلدون إلىٰ هٰذه الأمور فيأتون العرافين والمنجمين ويصدقونهم بما يحدثونهم، ويزعم زاعمون أننا في عصر النور والتقدم وأن نسبة الأمية قلت!

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٦٣٩) وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

الاستفادة من الفراغ

الترفيه .. والرماية

عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: مرَّ النبيُّ ﷺ علىٰ نفرٍ مِن أَسْلَم يَنتضِلون فقال رسول الله ﷺ «**ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا، وأنا مع بني فلان**» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: «**ما لكُم لا ترمونَ؟**» فقالُوا: يا رسول الله، نرمي وأنت معهم؟! قال ﷺ: «**ارموا وأنا معكم كلكم**»[(١)].

هٰذا الحديثُ يصور جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية للمسلمين في عصر النبوة الأغرّ.

إنه يصوّر لنا كيف كانوا يقضون أوقات فراغهم، وكيف كان النبي ﷺ يُشجع المسلمين علىٰ التمرين علىٰ الرماية؛ ليجعل من أبناء هٰذه الأمة المجاهدة رجالًا قادرين علىٰ نشر الإسلام وتبليغه، وعلىٰ نصرة المظلومين وحماية المستضعفين، والدفاع عن ديار الإسلام.

ويصور لنا جانبًا من أخلاق النبي ﷺ الحميدة، وتعامله مع المؤمنين من أتباعه.

ويصور لنا فكرة يحرص الإسلام علىٰ تنميتها، وهي الندب إلىٰ اتباع خصال الآباء المحمودة، والعمل بمثلها، إن ذلك يشعر الأمة بعراقتها في الفضائل، ويصل حاضرها بماضيها، ويذكرها بمآثر آبائها وهٰذا -دون شك- يعينها علىٰ الاستمساك بالسجايا الحميدة التي كان

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٣).

عليها سلفها والمضي في ذلك.

ويصور الحديث لنا حسنَ أدب الصحابة، وعظم محبتهم لرسول الله ﷺ، ومهابة الرسول في أنفسهم، ويصور لنا الجرأة الأدبية عندهم، ومصارحتهم رسول الله ﷺ بما يدور في نفوسهم.

ويصور الحديث لنا حسنَ خلق النبي ﷺ، وعظيم مراعاته لأصحابه، وحرصَهُ علىٰ ألا يُغضِبَ أحدًا من المسلمين، وتواضعه ﷺ، ومعرفته ﷺ بأمور الحرب، فرسول الله ﷺ يشجع علىٰ المباراة في الرمي، ويُطيِّب قلوب المتبارين سواء كانوا فائزين أم لا؛ لأنهم إن لم يفوزوا في هٰذه المرة فاحتمال الفوز قائم في المرات المقبلة إن هم ٱستمروا في التدريب.

إنَّ النفوس لتملُّ، ولا بُدَّ من وجود وسائل للتسلية والترفيه والترويح، حتىٰ يتجدد النشاط، ويستمر العطاءُ.

فلتكن هٰذه التسليةُ في أوقات الفراغ، لا في أوقات العمل والإنتاج، وهٰذه قضية تتصل بحياة الأمة والأفراد، ولا يجوز أن تتجاهلها دعوات الإصلاح، ومن عظمة الإسلام أنه نظم هٰذه القضية وواجهها ولم يتجاهلها.

والحديث الصحيح الذي ندرسه يصور كيف كان أبناء المجتمع الإسلامي يُمضون أوقات فراغهم، فمن ذلك أنهم كانوا ينقسمون إلىٰ فريقين، يتبارون في الرمي، فهناك دريئة تستهدف في الرمي، ويُرىٰ من كان من رجال الفريقين أدقَّ في إصابةِ الهدف.

لقد قلنا: لابد للناس من تسلية وترفيه، فليكن الترفيهُ شاحذًا للهمم، مقويًا للأجساد، مسهمًا في تهيئة أبناء الأمة للاستعداد للجهاد.

فإذا سئمت النفوس من العمل لجأت إلىٰ وسائل التسلية المفيدة.

إنَّ النفوس لتمل من حياة الجد والعمل، وينبغي أن يروح عنها بألوان من الترفيه والمتعة والتسلية.

وفرق كبير بين واقع يكون فيه الترفيه محققًا للمتعة والفائدة، وجامعًا بين الترويح، وتهيئة الأمة للدفاع عن نفسها، وتبليغ رسالة الله للناس، وتحرير المظلومين، وبين واقع يكون الترفيه فيه نحرًا للخُلُقِ وقتلاً للفضيلة، وإشاعة للضعف والميوعة، وسببًا في نشر العداوة والبغضاء كالمخدرات وكالخمر وكالقمار وكاللعب بالنرد والورق وكثيرًا ما يكون اللعب بهما قمارًا مدمرًا.

إنَّ الإسلام ليس ضد التسلية، ولا ضد الترفيه والمتعة، بل إنه ليجيز لمن يرغب في التسلية أن يتخذ الطرق المشروعة النظيفة التي تحقق له رغبته.

ولن أذكر تفصيل ذلك بل أكتفي بأن أشير إلىٰ أن هٰذا الحديث يدل علىٰ الدعوة إلىٰ الرمي ويشجع عليه. وهناك أحاديث كثيرة تشير إلىٰ أنواع من التسلية لم يمنعها الشرع.

من ذلك حديث إجازته ﷺ لغناء الجاريتين يوم العيد في بيت عائشة (١).

وإقراره لعب الحبشة بالحراب في المسجد (٢).

وإقراره عائشة علىٰ اللعب بالبنات (٣).

---

(١) رواه البخاري (٩٤٩)، وانظر ما كتبته في شرح هٰذا الحديث في كتابنا «نظرات في الأسرة» ص١٦٤.

(٢) رواه البخاري (٩٤٩).

(٣) رواه البخاري (٦١٣٠)، ومسلم (٢٤٤٠).

شبكة الألوكة
www.alukah.net

والرمي كان وسيلة من أعظم وسائل القوة الحربية، بل كان أعظمها، وما زال الرمي أعظم وسائل القوة الحربية، وهٰذا هو معنىٰ قوله ﷺ في حديث عقبة: «**ألا أن القوة الرمي**».

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] **ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»(١).

ورواه الترمذي بلفظ: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ علىٰ المنبر: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] قال: **ألا إن القوة الرمي -ثلاث مرات- ألا إنَّ الله سيفتح لكم الأرض، وستكفون المؤونة فلا يعجزنَّ أحدكم أن يلهو بأسهمه**»

ولفظ مسلم: «**ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه**»(٢).

وهٰذه الزيادة الصحيحة لها مغزىٰ مهم جدًا، فقد أخبر ﷺ أن الأرض ستفتح علىٰ المسلمين وسيكفون القتال، وهنا يقول ﷺ: فلا يعجزن أحدكم أن يتمرن، ويكون لهوه بالأسهم التي معه.

وعن عقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله** ﷻ يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنَبِّلَهُ. واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إلي من أنْ تركبوا، ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته

---

(١) رواه أحمد ٤/١٥٦-١٥٧. ومسلم (١٩١٧)، وأبو داود، (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢٨١٣).

(٢) رواه مسلم (١٩١٧)، والترمذي (٣٠٨٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أهله، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها -أو قال- **كفرها**»[(١)].

ورُوِيَ مسلم عن عقبة رفعه: «**من علم الرمي ثم تركه فليس منا**» أو «**فقدْ عَصَىٰ**»[(٢)].

ورواه ابن ماجه بلفظ «**فقد عصاني**»[(٣)].

وفي الحديث: دعوةٌ للمسلمين ليصنعوا أسلحتَهم بأنفسهم، لا أنْ يكونوا عالةً علىٰ الآخرين، يجودون عليهم بأسلحة أضحت قديمة وفعاليتها محدودة.

إنَّ إعداد الأمة للجهاد أمرٌ دعا إليه كتاب الله بهٰذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

وإنَّ من دلائل نبوة النبي العظيم ﷺ -وما أكثرها- أن يشرح مدلول الآية بقوله

ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**» ثلاث مرات.

وتتطور أسلحة القتال تطورًا مذهلاً، ويبقىٰ الرمي[(٤)] مظهر القوة مهما تطورت تلك الأسلحة، فالمدافع المتطورة تحتاج إلىٰ من يتقن الرماية بها لتكون فعالة في العدو، والرشاشات والبنادق والمسدسات والطائرات والدبابات والمصفحات والغواصات، وكل أنواع الأسلحة المتجددة تعتمد فعاليتها علىٰ إتقان الرمي بها ومنها.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧).

(٢) أنظر «صحيح مسلم» (١٩١٩).

(٣) أنظر «سنن ابن ماجه» (١٨١٤).

(٤) أنظر فضل الترغيب في الرمي في سبيل الله وتعلمه والترهيب من تركه بعد تعلمه رغبة عنه في كتاب «الترغيب والترهيب» ٢/ ١١٠-١١٣.

وقد أصبحت للرمي قواعد وأصول تعتمد علىٰ علوم شتىٰ كالرياضيات والمثلثات والطبغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها من العلوم، ولم تعد للقوة العضلية ما كان لها في الماضي من الأهمية والتأثير؛ لذا نرىٰ في بعض الجيوش أن كثيرًا من المهمات القتالية يعهد بها إلىٰ نساء؛ لأن هٰذه المهمات تعتمد علىٰ إتقان الرماية الدقيقة التي لا تحتاج إلىٰ جهد عضلي كبير، بل تحتاج إلىٰ معرفة بقواعد الرماية وأصولها.

ومن هنا نجد التعليل الرائع لقوله ﷺ: **«وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تركبوا»**.

قال ابن كثير:[1] وقد ذهب أكثر العلماء إلىٰ أن الرمي أفضل من ركوب الخيل.

إن أمة الإسلام مطالبة بالتبليغ والدعوة إلىٰ الحق والهدىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣].

ويقول ﷺ: **«بلغوا عني ولو آية»**[2].

وإعداد الأمة للقوة، ثم بلوغها القوة يمنحها القدرة علىٰ التبليغ والنجاح في هٰذا التبليغ، لا سيما إن كانت حياة أبنائها ملتزمة حقًّا بالإسلام. ولقد أتىٰ علىٰ هٰذه الأمة حين من الدهر كانت رحلات التجار في بعض البلاد كافية ليدخل قسم كبير من أهلها في الإسلام،

---

(١) أنظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٥ طبعة الشعب.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كما حصل في إندونيسيا التي تعد اليوم أكثر البلاد الإسلامية عددًا.

والحديث الذي نحن بصدد دراسته يحكي جانبًا مهمًا من الواقع الاجتماعي القائم في ذاك المجتمع الفاضل، فها هو ذا النبي الكريم ﷺ يمرُّ بنفر من بني أسلم يتبارون في الرماية، فيعجبه هذا المنظر، فيقول لهم متواضعًا ومشجعًا: «**ارموا بني إسماعيل، فإنَّ أباكم كان راميا**» ثم يتبع قوله هذا بقوله: «**وأنا مع بني فلان**» يقول ذلك وهو رسول الله ورئيس الدولة.

ولما كان القوم يتبارون في الرمي، والمباراة لابد أن تكون بين فريقين، اشترك رسول الله ﷺ معهم وانضم إلىٰ أحد الفريقين، وذكرهم بأنَّ نبي الله إسماعيل الذي ينتسب إليه العرب كان راميًا. يقول: فسيروا علىٰ نهج أبيكم في الرمي فإنه كان راميًا، وإنكم بذلك تحيون ذكر أبيكم إسمٰعيل الذي قال الله فيه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

إن المؤمن الصادق الذي ينتسب إلىٰ نبي ليجد في هذا الانتساب فخرًا عظيمًا، وشرفًا كبيرًا، ويكمل الفخر والشرف عندما يكون عمله موافقًا لعمل النبي. ولقد قال رسول الله ﷺ: «**من أبطأ به عمله؛ لم يسرع به نسبه**»(١).

إنَّ الرمي سنة أبينا إسماعيل ﷺ وهو أيضًا من سنة نبينا محمد ﷺ.

ورغبة من رسول الله في حضهم علىٰ متابعة الرمي، قال: «**وأنا**

(١) مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (٣٦٤٣) والترمذي (٢٩٤٥) وابن ماجه (٢٢٥).

مع بنى **فلان**» ولكنه ﷺ أحسَّ أن الفريق أصبح في حرج أن ينتصر على منافسه، فامتنع ذلك الفريق عن الرمي. فسألهم: «**ما لكم لا ترمون**» فقالوا: كيف نرمي يا رسول الله، وأنت معهم؟! عند ذلك قال ﷺ: «**أنا معكم كلكم**».

إنه مستوى راق من الأدب كان عليه الصحابة الكرام، وهذا جانب من جوانب السمو في هذا الجيل المثالي العظيم.

ونقل ابن حجر عن ابن اسحاق في «مغازيه»، عن سفيان بن فروة الأسلمي، عن أشياخٍ من قومه من الصحابة قالوا: بينا محجن ابن الأدرع يناضل رجلاً من أسلم يقال له نضلة. فذكر الحديث وفيه: فقال نضلة وألقى قوسه من يده: والله لا أرمي وأنت معه. فقال رسول الله ﷺ: «**أنا معكم كلكم**»[(١)].

أَمْسَكُوا عن الرمي تأدبًا، وكذلك فقد أمسكوا لما استشعروا قوة قلوب أصحابهم بالغلبة، حيث صار النبي معهم، والقوة المعنوية من أعظم أسباب النصر، وبيَّنوا للرسول السبب في توقفهم عن الرمي، فأجابهم بما يطيب نفوسهم ويدخل السرور عليهم، وحق لهم أن يُسَرُّوا بأن يكون رسول الله معهم.

وهذا الموقف من الرسول العظيم موقف تربوي رائع، لقد كان ﷺ معلمًا وقائدًا ومرشدًا، وقد أثنى عليه ربه فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾[الأحزاب].

(١) انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإنَّ في ذلك لعبرة للدعاة إلىٰ الله، إن عليهم أن يتواضعوا للناس، وأن يعيشوا معهم، وألا يترفعوا عليهم، وألا يخالف فعلُهم أقوالَهم.

هٰذا والمسلمون -وأأسفاه- مستهدفون اليوم من قبل أعداء الله في كل مكان قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٧].

وعلىٰ المسلمين أن يمتثلوا أمر الله في الإعداد بما ٱستطاعوا من قوة، وقد قرر العلماء أنَّ هٰذا وأمثاله من فروض الكفاية التي تُطالب بها الأمة، فإن قصرت عن تحقيق ذلك أَثِم القادرون.

إن علىٰ المسلمين أن يدعوا الدنيا كلها إلىٰ دين الإسلام، يدعونهم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وبالسلوك المستقيم العملي، وهم مطالبون في الوقت ذاته أن يستكملوا وسائل الإعداد لرد العدوان ورفع الأذىٰ، فقد جاء في الأثر عن بعض الصحابة: «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١).

فلنحي سنة أبينا إسماعيل، ولندع إلىٰ الأخذ بأسباب القوة، وليُسهِم الكبار والصغار في ذلك، ففي ذلك إحياء لمقوِّمٍ من مقومات المجتمع الإسلامي.

---

(١) هٰذا قول من كلام أمير المؤمنين عثمان ﷺ كما ذكر ذلك ابن عبد البر في «التمهيد» ١/١١٨ والقرطبي في «التفسير» ٦/٣٢٥، ١٣/١٦٨ وابن كثير في «البداية والنهاية» ٢/٣٠١ وروىٰ الخطيب في «تاريخ بغداد» ٤/١٠٨ هٰذا القول عن عمرﷺ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ملحوظة:

بحث ابن حجر في الفتح[1] أقوال العلماء في تأويل قوله ﷺ في الحديث: «**ارموا بني إسماعيل**» ذلك أن الأنصار من اليمن وعرب اليمن من قحطان، وعرب الحجاز من عدنان، وعدنان من نسل إسماعيل. ونقل عن بعض العلماءِ محاولات للتوفيق بين هٰذه المعلومة وبين الحديث.

فذكر أن بعض العلماء قال: إن قوله: «**بني إسماعيل**» لا يقضي بالضرورة أن أهل اليمن من أبناء إسماعيل من جهة الآباء، بل يكون ذلك عن طريق الأمهات، ومعلوم أن المصاهرة تمت بين العدنانيين والقحطانيين.

وذكر بعضهم ٱحتمالاً آخر: ففي رواية ابن عبد البر للحديث: أنَّ النبي ﷺ مرَّ بناس من أسلم وخزاعة وهم يتناضلون. فقال: «**ارموا بني إسماعيل**» ولعلَّ مَنْ كان هناك من خزاعة كانوا أكثر، فقال ذلك علىٰ سبيل التغليب. ويرد علىٰ هٰذا التعقيب أن خزاعة مختلف فيها، وأكثر العلماء يعدونها من أهل اليمن.

وذكر بعضهم ٱحتمالاً آخر وهو أنَّ بني أسلم من نسل إسماعيل، وقد سكنوا اليمن، ولا يعني ذلك أن كل أهل اليمن من ذاك النسل.

وبدا لي تأويل آخر ملخصه: أن العرب الذين شرَّفهم الله بأن ٱختار منهم رسوله ﷺ كانوا من بني إسماعيل، وكانوا هم عامة المسلمين في بلاد الحجاز، فأراد ﷺ أن يمنحهم هٰذا الشرف ويُدخلهم في أشرف الفرعين، وكأنه بذلك يخاطب عامة الناس في تلك الحقبة. والله أعلم.

---

(١) ٱنظر «فتح الباري» ٦/ ٥٣٧-٥٣٩.

ملحوظة أخرىٰ:

يشيعُ في أكثر بلدان المسلمين قانون الجندية الإلزامية، وهٰذا القانون لا يؤدي الغاية المطلوبة، إنَّ شباب الأمة يُؤخذون ويُلزَمُون بالخدمة الإلزامية سنتين وثلاثًا وأربعًا، وفي خلال هٰذه المدة يتعرضون إلىٰ الإذلال والإهانة والتعذيب، ثم يخضعون لأنظمة وعادات وأعراف تُفسد أخلاقهم، وتنشر بينهم الفواحشَ والمنكرات، ولا يتدربون إلا لمامًا.

ويُستخدمون في تأييد طاغية، والتمكينِ لنظامِ جاهلي، وقد يُقذف بهم بعيدًا عن ديارهم ليقاتلوا ناسًا ليسوا أعداءً لهم.

وكنت قرأت فيما كتب عبد الرحمن الكواكبي -رحمه الله- نقدًا لنظام الجندية، فاستغربت ذلك لما وقر في ذهني من أنه نظام جيد تحتاج إليه الأمة، ولكنني عندما أُخِذتُ إلىٰ الجيش وخدمت الخدمة الإلزامية ورأيت وعشت وجدت الكواكبيَّ علىٰ حقٍّ.

إن الجندية في كثيرٍ من بلدان المسلمين تعطيل للطاقات والمواهب، وسببٌ في الإصابة بأمراض نفسية، وعاملٌ من عوامل الاْعتياد علىٰ الدخان والخمر والمخدرات والفواحش، إنها مدرسة لإفساد أخلاق أبناء الأمة وإذلالهم وإهانة كراماتهم، ووسيلةٌ لزلزلة كثير من القيم الكريمة التي تقومُ عليها أمتنا المجيدة.

أما المطلوب فهو أن يدرب أبناء الأمة علىٰ الرماية وفنون القتال، وذلك بأن تكون هناك دروسٌ في أوقات معينة، حتىٰ تغدو الأمة كلُّها مستعدةً للدفاع عن بلادها ودينها وكرامتها وأعراضها.

أما نظام الجندية القائم فكثيرًا ما يؤخذ الرجل الكريم ليجعل

حاجبًا عند ضابط فاسد الأخلاق معادٍ للدين والقيم الرفيعة.

أو يؤُخذ ليكون واحدًا من الجواسيس الذين يؤذون الناس ويُفسدون عليهم حياتهَم.

فالرمايةُ وإتقانها مطلب ينبغي أن تعمل الدولة علىٰ تحقيقه بصورة إلزامية. وهٰذا الأمر إن تم لا تتعطل الطاقات، ولا تُكَلَّف الدولة بنفقات الإيواء والإطعام والكسوة، كما يجري في البلاد التي تفرض الجندية.

التعفف.. والصبر.. والإباء

أخرج البيهقي بسنده إلىٰ أبي سعيد الخدري أنه قال: ٱستشهد أبي يوم أحد -مالك بن سنان- وتَرَكَنَا بغير مال. قال: وأصابتنا حاجة شديدة.

فقالت لي أمي: يا بنيَّ، ٱئت رسول الله ﷺ فسله لنا شيئًا. فجئته، فسلمت عليه، وجلست وهو في أصحابه جالس.

فقال حين ٱستقبلني: «**إنه من يستغن أغناه الله، ومن يستعففْ أعفَّه الله، ومن ٱستكف كفَّه الله**».

قال: قلت: ما يريد غيري. فانصرفت ولم أكلمه في شيء.

فقالت لي أمي: ما فعلت؟ فأخبرتها الخبر. قال: فصبرنا، والله يرزقنا شيئًا، فتبلغنا به، حتىٰ ألحت علينا حاجة هي أشدُّ منها.

فقالت لي أمي: ٱئت رسول الله فسله لنا شيئًا. قال: فجئته وهو جالس في أصحابه، فسلمت، وجلست، فاستقبلني وقال بالقول الأول، وزاد فيه:

«**ومن سألَ وله أوقيةٌ فهو ملحفٌ**»

قلت في نفسي: لنا الياقوتة، وهي خير من أوقية قال: والأوقية أربعون درهمًا. قال: فرجعت ولم أسأله.

قال: أنبأنا أبو عبيد: الياقوتة: ناقة[1].

ربَّىٰ الإسلام أتباعه علىٰ العفة، ورغبهم في الصبر والإباء،

---

(١) ٱنظر «السنن الكبرىٰ» ٧/ ٢٤، ورواه أبو داود مختصرا (١٦٢٨)، ورواه النسائي ٥/ ٩٨ أتم من رواية أبي داود. والحديث صححه الألباني في «صحيح أبي داود».

فكان منهم ناسٌ لا يسألون الناس إلحافًا، يحسبهم من لا يعرفهم أغنياء من التعفف.

والحديث المذكور آنفًا صورة ناطقة حية تبرز لنا هٰذا الأسلوب النبوي في التربية.

إن هٰذا الحديث يصور لنا جوانب من الحياة الٱجتماعية في عصر النبوة الأغر.

أسرة أنصارية خزرجية كريمة، تخرجت في مدرسة الإسلام، وربّاها الرسول العظيم، يحب أفرادها الجهاد في سبيل الله، والكبار والصغار في هٰذا الحب سواء.

فمالك بن سنان يستجيب لمنادي الجهاد، وينتظم في كتائب المجاهدين، ويبلي مالك البلاء الحسن في غزوة أحد، ويقاتل حتىٰ يخرَّ شهيدًا في تلك المعركة الخالدة.

ومن الطريف ما تذكره كتب التراجم: أن أبا سعيد الخدري وهو سعد بن مالك، وهو ابن هٰذا المجاهد البطل خرج إلىٰ الجهاد في هٰذه المعركة -معركة أحد- وكان مُصرًّا علىٰ الخروج، وهو ما يزال صغيرًا، فلما رآه رسول الله ﷺ في الصف ٱستصغره وردَّه.

وهٰذا يدل بوضوح علىٰ أن روح الجهاد تمكنت من أعضاء هٰذه الأسرة الكريمة، وعاود هٰذا الفتىٰ الخروج في الغزوات الأخرىٰ، فأذن له رسول الله ﷺ، ولقد طابت نفسه أن قبل في عداد المقاتلين، وكان من الأبطال الفتيان المحاربين، فلقد غزا بعد ذلك مع رسول الله ﷺ ثنتي عشرة غزوة[١].

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» ٢/ ٢٣٧.

والأمر العجب أنَّ هٰذا الحرص علىٰ المشاركة في القتال من قبل الفتيان لم يكن حادثة فردية، بل كان كما يبدو ظاهرة تستلفت النظر.

ومعروف أن رسول الله ﷺ في هٰذه الغزوة ٱستعرض الجيش. فردَّ من ٱستصغر وكان فيمن ردَّ رافعُ بن خديج، وسَمُرةُ بن جندب؛ ثم أجاز رافعًا لما قيل له: إنه رامٍ. فبكىٰ سمرةُ وقال لزوج أمه: أجاز رسولُ الله رافعًا وردَّني مع أنيِّ أصرعه، فبلغ رسول الله الخبر، فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرة فأجازه.[1]

وقال الإمام النووي[2]: وكان أبو سعيد من فقهاء الصحابة وفضلائهم البارعين.

وعن حنظلة بن أبي سفيان الجُمَحي عن أشياخه قالوا: لم يكن من أحداث الصحابة أفقهُ من أبي سعيد، وفي رواية: أعلم[3].

روىٰ أبو سعيد الخدري عددًا كبيرًا من الأحاديث، بعضها سمعه من النبي ﷺ مباشرة وبعضها الآخر سمعه من الصحابة، فقد روىٰ عن أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت وأبي قتادة وعبد الله بن سلام، وروىٰ عنه عدد من الصحابة والتابعين.

وكان -رضي الله عنه- أمَّارًا بالمعروف، نهاء عن المنكر وقد بايع النبي علىٰ ذلك، فعنْ سهل بن سعدٍ قالَ:

بايعت النبي ﷺ أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت وأبو سعيد

---

(١) ٱنظر «الإصابة» (٣٤٧٥).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» ٢/ ٢٣٧.

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» ٢/ ٢٣٧.

الخدري علىٰ أن لا تأخذنا في الله لومة لائم[١] .

وقد كان وفيًا لهٰذه البيعة، يدل علىٰ ذلك ما مرَّ بنا من موقفه من أمير المدينة مروان بن الحكم عندما أنكر أبو سعيد عليه تقديم الخطبة علىٰ صلاة العيد.

عن أبي سعيد أنه قال: فخرجت مخاصرًا مروان، أي مماشيًا له، يده في يدي، فإذا مروان ينازعني يده كأنه يجرني نحو المنبر، وأنا أجره نحو الصلاة، فلما رأيت ذلك منه قلت: أين الأبتداء بالصلاة؟

فقال: لا، يا أبا سعيد، قد تُرك ما تعلم.

قلت: كلا والذي نفسي بيده، لا تأتون بخير مما أعلم -ثلاث مرار- ثم أنصرف[٢].

توفي أبو سعيد بالمدينة سنة أربع وستين، وقيل: سنة أربع وسبعين ودفن بالبقيع.

ولنعدْ إلىٰ حديث أبي سعيد ومجيئه إلىٰ النبي ﷺ لنتأمل دلالات هٰذا الحديث الأجتماعية والتربوية عن أسرته وصبرها علىٰ ما لاقت من الشدة والحاجة بعد أستشهاد أبيه في غزوة أحد، وامتثال هٰذه الأسرة الكريمة المجاهدة وصية رسول الله ﷺ بأن لا يسأل الإنسان شيئًا، وإذا حلت به شدة أو فاقة فليلجأ إلىٰ الصبر.

إنها أسرة كريمة مجاهدة صابرة فَقَدَت رَبَّها الكاسبَ الوحيد يوم أحد، ومضىٰ إلىٰ ربه شهيدًا سعيدًا، وترك أسرته بغير مال، فصبرت

---

(١) أنظر في ذلك «تهذيب الكمال» ١٠/ ٢٩٩، و«الإصابة» ٢/ ٣٥ (٣١٩٦).

(٢) رواه البخاري (٩٥٦)، ومسلم (٨٨٩).

هٰذه الأسرة علىٰ القلة والشدة، حتىٰ أصابتها حاجة شديدة.

فقالت الأم لابنها الفتىٰ: يا بُنَيَّ، ٱئت رسول الله ﷺ فسله لنا شيئًا.

واستجاب الفتىٰ البار لأمه، فمضىٰ ينفذ أمرها بصعوبة بالغة؛ لأن المسألة أمر صعب علىٰ نفسه، وقد كان مشفقًا علىٰ هٰذه الأسرة من الشدة التي تعانيها، فأتىٰ النبي ﷺ فسلم عليه وجلس، والنبي جالس في أصحابه، فقال ﷺ حين ٱستقبله، والحديث موجَّهٌ للجميع: «**من يستغن أغناه الله، ومن يستعفف أعفَّه الله، ومن ٱستكف كفه الله**»

وَعىٰ الفتىٰ النبيهُ الذكيُّ كلامَ النبي ﷺ، وقال في نفسه: ما يريد الرسول بهٰذا الكلام غيري.

وهٰذا من دلائل نبوته ﷺ حيث عرف مقصد أبي سعيد من المجيء دون أن يتكلم، فألقىٰ هٰذه الحكمة علىٰ الحاضرين، ولم يوجه كلامه إلىٰ أحدٍ، شأنه في ذلك ﷺ في كثير من مواعظه ومواقفه من تصرفات بعض أصحابه، فكان يقول: «**ما بال أقوام**» ولا يذكرهم بأعيانهم صراحة.

ولما سمع أبو سعيد هٰذا الحديث عقد الحياءُ لسانَه، وصمَّم علىٰ ألا يطلب من النبي ﷺ شيئًا، وانصرف أبو سعيد ولم يكلمه في شيء.

لقد صان النبي ﷺ وجه الفتىٰ عن الٱبتذال، وفي هٰذا التوجيه التربوي الكريم فائدة ومصلحة للفتىٰ، ذلك كي لا يعتاد علىٰ السؤال. إن السؤال صعب، وأشد ما تكون هٰذه الصعوبة في المرة

شبكة الألوكة

الأولىٰ، فإذا تغلب المرء علىٰ هٰذه الصعوبة سهل عليه أن يسأل، وقد يصبح ممتهنًا الشحاذة، وهٰذا أمر لا يقره الإسلام ولا يشجع عليه.

ولما رجع أبو سعيد إلىٰ أمه سألته بلهفة المحتاج وحرقة المنتظر: ما فعلت؟ فأخبرها الخبر.

فلم تستنكر موقفه ولم تعنفه ولم تَلمه، وكان سكوتُها موافقةً علىٰ تصرف فتاها الفطن، وادرعت هي وأفراد الأسرة بالصبر الجميل، والله مع الصابرين، ورزقهم الله شيئًا يتبلغون به.

والإنسان إذا رضي بالقليل وقنع به ٱستطاع أن يستغني عن سؤال الناس، وضرورات المرء في الغالب يمكن أن تسد بهٰذا القليل، وربما في حالات لا يتيسر للمرء هٰذا القليل، وعندئذ تحلُّ له المسألة، وهٰذا ما وقع لهٰذه الأسرة الكريمة؛ إذ أن هٰذا الذي جاءهم سدَّ حاجتهم إلىٰ أمد، ثم عاودتهم الفاقة، ولكنها هٰذه المرة كانت أشدَّ وأدهىٰ، فما كان من أمه إلا أن قالت لابنها أبي سعيد ثانية: ٱذهب إلىٰ رسول الله ﷺ وسله لنا شيئًا، فأنت ترىٰ حالتنا.

وذهب أبو سعيد ثانية، وجاء رسولَ الله ﷺ وهو جالس في أصحابه، فسلَّم وجلس. واستقبله رسول الله، وقال بالقول الأول:

«من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله».

وزاد هٰذه المرة قوله: **«ومن سأل وله أوقية فهو ملحف»** والإلحاف مذموم.

وهنا تذكر أبو سعيد أنَّ لديهم ناقة تدعىٰ (الياقوتة) وأنها خير من الأوقية المبلغ الذي لا يجوز لمن ملكه أن يسأل. وقد ورد تقدير الأوقية في الحديث أنها أربعون درهمًا.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

في هٰذا الحديث دلالات عدة علىٰ أمور في الحياة الاجتماعية لأمة الإسلام في عهد النبوة.

لقد كانت هٰذه الأمة أمة الجهاد حقًّا، يتسابق إليه أفرادها الكبار والصغار بحماسة وصدق، وتطلَّع إلىٰ الشهادة، وإذا رُدَّ فتىٰ لصغر سنه بكىٰ، كما حصل لسمرة ولأبي سعيد الخدري. وتطلعَ إلىٰ الجهاد مَنْ لم يكلفهم الله به كعمرو بن الجموح ﷺ.

جاء في «سيرة ابن هشام»[1]: أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسْد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إنَّ الله ﷻ قد عذرك؛ فليس علىٰ الأعرج حرج.

فأتىٰ رسول الله ﷺ فقال: إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هٰذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله، إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هٰذه في الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ: «**أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك**»

وقال لبنيه: «**ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقه الشهادة**».

فخرج معه فقتل يوم أحد[2].

إنَّ هٰذه الأمة ما بلغت هٰذه المنزلة إلا بعد إعداد وتربية وترغيب بالثواب حتىٰ كانت عندهم الرغبة فيما أعد الله للمجاهدين من الأجر.

---

(١) أنظر «سيرة ابن هشام» ٣/ ٩٦.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» ٩/ ٢٤، وروىٰ أحمد ٥/ ٢٩٩ قطعة منه. وحسنه الألباني في «فقه السيرة».

والجهاد له مقدمات لابد من ٱستيفائها، وقد ٱستوفتها هٰذه الأمة بتوجيه وتربية من رسول الله ﷺ، وله نتائج قد يتعرض لبعضها من يخوض غمار الحرب من جرح وتشوه وموت، ويتعرض أهل المجاهدين لفقد الأحبة ومعاناة الشدة والضنك والضيق في العيش، ولقد صدق فيهم وصف أحد الصحابة لهم: إنهم أحرص علىٰ الموت من حرص أعدائهم علىٰ الحياة(١).

لقد عملت وسائل التربية النبوية العظيمة علىٰ إعداد الأمة المجاهدة.

إنَّ آيات القرآن الكريم وتوجيهات النبي في خطبه وأحاديثه، والسلوك العملي، والقدوة الحسنة التي شهدها أبناء الأمة في الرسول ﷺ والنخبة الممتازة من الصحب الكرام، كل أولئك عمل علىٰ وصول أفراد هٰذا المجتمع إلىٰ هٰذا المستوىٰ الرفيع من الحرص علىٰ الجهاد في سبيل الله.

والآيات الحاضة علىٰ الجهاد كثيرة ومعروفة مشهورة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدْنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف].

---

(١) جاء هٰذا الوصف علىٰ لسان الصحابي الجليل: خالد بن الوليد في قصته مع قبيصة بن إياس ملك الحيرة، وقد أورد القصة بتمامها ابن حبان في «كتاب الثقات» ٢/ ١٨٣.

وأما الأحاديث فهي كثيرة جدًّا، وقد ألف عدد من المحدثين في موضوع الجهاد كتبًا خاصة جمعوا فيها ما ورد عن رسول الله ﷺ في الحض علىٰ الجهاد.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»(١).

وبعد، فإنَّ أمتنا أمة الجهاد كما صورتها كتبُ السُّنَّة، وكما دل علىٰ ذلك الحديث الذي نحن بصدد دراسته، أمة الجهاد لنشر دين الله الذي يحرر البشر من المظالم والشرك والخرافة، ويحميهم وأعراضَهم من العدوان.

فما أحرانا أن نذكر هٰذا والمسلمون يستهدفون اليوم من قبل أعدائهم.. ما أحرانا أن نُذكِّر بهٰذا الواقع الكريم، وندعو المسلمين ليعودوا إلىٰ سيرتهم الأولىٰ، ويكونوا كما كان أسلافهم دعاة خير وحق وسلام.

رأينا في هٰذا الحديث المستوىٰ السامي الذي بلغته أسرة مالك ابن سنان، فهي أسرة مجاهدة، وهي أسرة صابرة.

فالمرأة الأرملة زوج مالك التي تعاني الحاجة الملحة بعد ٱستشهاد زوجها تلوذ بالصبر عندما يبلغها كلام رسول الله، وتتعفف ولا تسأل علىٰ فقرها وشدة حاجتها، وكذلك الفتىٰ أبو سعيد الذكي، الذي فهم من كلام النبي ﷺ نهيه عن السؤال.

(١) رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣)، وانظر الفصل الواسع الذي جمعه المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب» ٢/ ٩٢-١٤٤.

لقدْ فطر الله الخلق علىٰ حب المال قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العَاديَات] وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجر] وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾[آل عمران].

وعلىٰ الرغم من تقرير هٰذه الحقيقة فإنَّ الجيل الذي ربَّاه الرسول ﷺ، كان سواده الأعظم جيلاً عفيف النفس، يُعطىٰ في بعض الأحيان حقه، فيأبىٰ أن يأخذه تعففًا.

قدم عبد الله بن السعدي[(١)] علىٰ عمر في خلافته، فقال له عمر: ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا، فإذا أعطيت العُمالة كرهتها؟ وذكرت رواية مسلم: أن عمر آستعمله علىٰ الصدقة والعُمالة: بضم العين أجرة العمل، وأما العَمالة بفتح العين فهي العمل نفسه.

يقول عبد الله فقلت: بلىٰ. فقال عمر: ما تريد إلىٰ ذلك؟ قلت: إن لي أفراسًا وأعبدًا، وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة علىٰ المسلمين.

قال عمر: لا تفعل، فإني كنتُ أردتُ الذي أردتَ فكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني. حتىٰ

(١) ويقال له ابن الساعدي، وهو عبد الله بن واقد السعدي. وجاء في مسلم: ابن الساعدي المالكي.

أعطاني مرة فقلت: أعطه من هو أفقر إليه مني. فقال النبي ﷺ: «**خذه فتموَّلْهُ، وتصدّق به، فما جاءك من هٰذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك**»[١].

قال ابن حجر[٢]: وقع في رواية بسر بن سعيد عند مسلم: فإني عملت علىٰ عهد رسول الله ﷺ فعمَّلني بتشديد الميم، أي أعطاني أجرة علىٰ عملي، فقلت مثل ذلك.

ثم قال البخاري: وعن الزهري عن سالم بن عبد الله: أنَّ عبد الله بن عمر قال: سمعت عمر يقول:

كان النبي ﷺ يعطيني العطاء؛ فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، حتىٰ أعطاني مرة مالًا، فقلت: أعطه من هو أفقر إليه مني. فقال النبي ﷺ: «**خذه فتموله وتصدق به، فما جاءك من هٰذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك**».

إن حادثة عبد الله السعدي ليست شيئًا يسيرًا، إنه كلف بعمل من قبل الدولة يجمع الصدقات، وهو عمل متعب جدًا، ويأبىٰ أن يأخذ مقابل عمله أجرًا مع أنه حلال له، وذكر لعمر حين سأله عن سبب تصرفه هٰذا أنه بخير وأن له خيلاً وعبيدًا وأن حالته المادية بخير، ويريد أن يجعل عُمالته -أي: أجره- صدقة علىٰ المسلمين، فنصحه عمر أن يأخذ الأجر ويتولىٰ هو التصدق به علىٰ من يستحق من المسلمين، وقال: لقد كان لي مثل موقفك هٰذا مع رسول الله ﷺ، فوجهني هٰذا التوجيه الحكيم.

---

(١) رواه البخاري (٧١٦٣)، ومسلم (١٠٤٥) وأبو داود (١٦٤٧).
(٢) أنظر «الفتح» ١٣/ ١٥٢.

ويبدو أن مثل حادثة أبي سعيد وأمه قد وقع فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن عطاء بن يسارٍ، عن رجل من بني أسد أنه قال: نزلتُ أنا وأهلي ببقيع الغرقد، فقال لي أهلي: ٱذهب إلىٰ رسول الله ﷺ فسله لنا شيئًا نأكله، فجعلوا يذكرون من حاجتهم.

فذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ فوجدت عنده رجلاً يسأله. ورسول الله ﷺ يقول: «**لا أجد ما أعطيك**».

فتولىٰ الرجل عنه وهو مغضب، وهو يقول: لعمري إنك لتعطي من شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «**يغضب عليَّ أن لا أجد ما أعطيه، من سأل منكم وله أوقية أو عِدْلُها فقد سأل إلحافًا**»[1].

قال الأسدي: فقلت: لِلقِحةٌ لنا خيرٌ من أوقيةٍ، والأوقيةُ أربعون درهمًا، قال: فرجعت ولم أسأله، فقدم علىٰ رسول الله ﷺ بعد ذلك شعيرٌ وزبيبٌ، فقسم لنا منه حتىٰ أغنانا الله ﷻ.

وفي حديث الأسدي عظات رائعات من أهمَّها: حلم رسول الله ﷺ، وعفوهُ وصفحهُ عمن أساء الأدب..

فالرجلُ يسألُ رسولَ الله ﷺ وليسَ عندَ رسولِ الله ﷺ ما يعطيهِ، فماذا يفعل؟! ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ يقول: «**يغضب علي أن لا أجد ما أعطيه**» يقرر أن تصرفه غير سليم، فالسائل ينبغي أن يعذر المسؤول إن كان لا يجد ما يدفعه له. ثم أتبع ذلك بقوله:

«**من يسأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافًا**».

لا تحل المسألة إلا في أمر لا يجد منه بدًا، أما من كان عنده ما يعدل أربعين درهمًا فلا يجوز له أن يسأل.

---

(١) أنظر «سنن أبي داود» (١٦٢٧). والحديث صححه الألباني في «صحيح أبي داود».

فلما سمع الأسدي هٰذه المقالة من النبي ﷺ رجع ولم يسأله، وقال في نفسه: لِقحةٌ واحدة مما نملكُ خيرٌ من أوقية، وهي التي حددها رسول الله ﷺ، وصبر الأسدي، ثم لم يلبث أن قدم علىٰ الرسول طعام فقسم لهم حتىٰ أغناهم الله، إننا لنلمح من خلال هٰذه النصوص معالم المجتمع المثالي الذي أقامه الإسلام، مجتمع يسود فيه الإباء والتعفف، ويسودُ فيهِ الإيثار والإحسانُ، ويسودُ فيهِ الأنقيادُ لأمر الله ورسولهِ .

مجتمع أحسَّ أفرادُه إحساسًا حقيقيًّا أنهم جسدٌ واحدٌ، فرسولُ الله يعطي واحدًا من العمال الذين كلفهم بعمل يستحق عامله الأجرة، فيقولُ: يا رسول الله، أعطه من هو أفقر مني إليه، ويتكرر هٰذا المشهد أيام عمر بن الخطاب.

إنهُمْ قومٌ تعلقتْ قلوبهم بالله، فارتفعُوا عن الأرتباطاتِ المادية التي تشدُّهُمْ إلىٰ الأرضِ.

إنهم أصحاب رسالةٍ يؤثرون العيش في ظلال الشدة علىٰ أن يعيشوا في بحبوحةٍ تأتيهمِ من ذلِّ السؤالِ.

الفهرس

الحياة الاجتماعية في ضوء السنة ٥
مجتمع العقيدة ٢٠
الحيـاء ٤٥
الانخلاع من كل عقيدة باطلةٍ ٦٧
عقيدةٌ ساميةٌ محرِّرة ٧٧
العقيدة أولا ثم سائر أحكام الإسلام ٨٧
التدرج أمر مطلوب ٩٣
الزكاة والإيثار ١٠٦
أسباب نجاح المجتمع الإسلامي ١١٠
فصل ١٢٥
فصل ١٣٠
المجتمع الإسلامي مجتمع مثالي ١٥٤
فصل ١٦٢
المجتمع الإسلامي مجتمع العاملين ١٦٧
الإسلام يحارب البطالة والشحاذة (السؤال) ١٧٧
قيام المجتمع الإسلامي ضرورة ١٨٥
العملُ والبطالةُ ١٩٢
البطالةُ والسرقةُ ١٩٧
البطالةُ والسؤالُ ٢٠٣
التَّعفُّفُ ٢٠٨
المجتمع الإسلامي مجتمع متسامح ٢٢٤
انتشار المعرفة في المجتمع الإسلامي ٢٣١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصل ٢٥٥
الرحلة في طلب العلم ٢٦٤
فصل ٢٦٩
فصل ٢٩٩
الكُتَّاب مدرسة قرآنية ٣٠٤
فصل ٣٠٩
اجتهادات الأئمة جهود بشرية ٣١٤
أمة الإسلام أمة الأصالة والتميز ٣١٩
مجتمع الرحمة والتوقير ٣٢٥
فصل ٣٥٣
آداب المعلم والمتعلم ٣٥٨
الوسائل التعليمية ٣٦٦
العلم في خدمة الكتاب والسنة ٣٦٩
الصحابة يناقشون ما يسمعون ٣٧٤
العلم .. والعمل ٣٧٩
أمة الإسلام أمة العلم ٣٨٩
العلم والتعليم في واقعنا المعاصر ٣٩٧
كل مولود يولد علىٰ الفطرة ٤٠٢
تحرير الإنسان من الخرافة ٤١٥
الاستفادة من الفراغ الترفيه والرماية ٤٢٥
التعفف.. والصبر.. والإباء ٤٣٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مطابع الحميضي ت: ٤٥٨١٠٠٠ ـ ف: ٤٥٩٢٢١٧ ـ الرياض